

سنة ١٣٨٠ هـ  
فئة التبريد  
ديوان ٢٠٦٠ قات

# فلسفة ملوكنا بين المشرق والمغرب

تأليف

الدكتور يوسف نور عوض

أستاذ الأدب العربي بجامعة أم درمان الإسلامية

دار الفيل  
بيروت - لبنان

إذا كان حي ترك الدنيا تقدماً  
خيا نفسه موكباً قبل أن تتقدمي

## التعريف بفن المقامة

### المقامة في اللغة

يقول ابن منظور

المقامة هي المجلس ، ومقامات الناس مجالسهم وانشد ابن بري من شعر العباس بن  
مرداس في هذا المعنى :

فأبى ما وأيك كان شراً فقيد إلى المقامة لا يراها

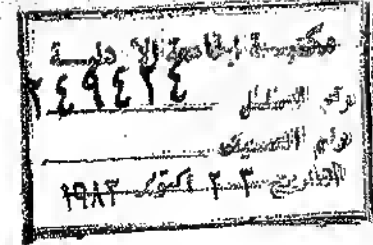
واستعملت الكلمة مجازاً لتعني القوم الذين يجلسون في المجلس  
وجاء في هذا المعنى قول لبيد :

ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن لدى باب الحصير قيام

وانشد ابن بري لزهير :

وفيهم مقامات حسان وجوههم واندية يتناها القول والفعل

١ - لسان العرب ٩ / ٣٥ .



٨٤٨  
٤٣

حقوق الطبع والنشر محفوظة  
لدار القلم  
بيروت - لبنان  
ص.ب : ٢٨٧٤

الطبعة الاولى

١٩٧٩

ومثل هذا تسمية العرب جماعة الناس « ندياً » وهو استخدام مجازي للكلمة التي تعني في أصلها المكان الذي يجتمعون فيه .

يقول ابن منظور أيضاً :

« والمقامة بالضم ( الإقامة ) يقال أقام الرجل إقامة ومقامة « كالمقام والمقام » بالفتح والضم وقد يكونان للموضع لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح وإن جعلته من أقام يقيم فمضموم فإن الفعل إذا جاوز الثلاثة فإن الموضع مضموم الميم لأنه مشتبه ببنات الأربع نحو دحرج وهذا مدحرجنا وقوله تعالى : لا مقام لكم أي لا موضع لكم وقرئ بالضم أي لا إقامة وقوله حسنت مستقراً ومقاماً أي موضعاً » .

وجاءت الكلمة في شعر ليبيد بالضم بمعنى موضع الإقامة وذلك في نحو قوله :

عفت الديار محلها فمقامها  
بمسي تأبد غولها ورجامها

ووردت كذلك في القرآن الكريم اسماً لموضع القيام كما في قوله تعالى : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » .

واستخدمت لتعني الحديث الذي يدور في المجلس كقول الآخر :

« مقاماتنا وقف على الحلم والحجى » .

ولا يزال كثير من العرب في منطقة الخليج العربي يطلقون على مجتمع المسامرة اسم « المجلس » ويطلقون على الحديث الذي يدور فيه اسم المجلس أيضاً ومجتمع المسامرة عند العرب ضارب بجذوره في عمق التاريخ ، فقد كانت الصحراء في الجاهلية تتحول في الليل إلى مجالس سمر يتحدث فيها الأعراب بقصص الجن والحيران ويتحدثون بالمواعظ والأمثال وما تقدم نعلم أن العرب كانت تطلق على المجلس القديم أو ما يدور فيه اسم « المقامة » .

أعز ذلك  
أنه في ههنا كلام

## تطور المدلول اللغوي :

يرى الدكتور جميل سلطان أن الكلمة انطلقت من ثم ومن أفقها اللغوي والمجازي لتشمل الواناً من القصص والمواعظ والحاديث إلى أن تبلورت أخيراً في مفهومها الاصطلاحي عند يدع الزمان .

وأذا تتبعنا هذا الطريق من المدلول اللغوي المجرد إلى المدلول الفني مرورنا بانماط مقامية مختلفة وأول ما يصادفنا فيها « مقامات الزهاد » التي روى ابن قتيبة بعضاً منها في كتابه « عيون الأخبار » وهي مواعظ يقف بها الراوي أمام الخليفة لنصحه وإرشاده ، من أشهرها مقام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي ومقام رجل من الزهاد بين يدي المنصور . ونلاحظ أن صفة الوعظ التي سادت في مقامات الوعاظ تلك غلبت على مفهوم المقامة حتى ظن الكثيرون أن المقامة أساسها الوعظ وذلك خطأ لأن الوعظ في المقامات البديعية غرض من أغراض مختلفة ومن وقع في مثل هذا الخطأ الشريشي الذي شرح كلمة مقامه بمفهوم ينطبق على مقامات الزهاد وحدها .

يقول :

« المجالس واحدها مقامة والحديث يجتمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجالساً لأن المستمعين للمتحدث ما بين قائم وجالس ، ولأن المتحدث يقوم ببعضه تارة ويجلس ببعضه تارة أخرى . قال الأعلام : المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب يحض على فعل الخير » .

ولقد ظهر إلى جانب مقامات الوعاظ هذه مقامات أخرى كانت رحاها تدور في داخل المساجد واشتملت على الوان من القصص والاساطير وفنون الحرب والثقافة العامة إلى جانب الغاية الوعظية ، ويبدو أن الناس كانوا يفضلون هذه الطريقة ويؤثرونها على طريقة الوعظ المباشر فلقد كان الخطيب يصل إلى نفس الغايات التي يرمي إليها الوعاظ بطريقة تذهب الملل عن السامعين وذلك من خلال عرضه الجميل وطريقة استخدامه للشعر .

ونرى أن الخلفاء قد شجعوا هذه الطريقة بدرجة كبيرة لاسيما « معاوية » الذي عين في بعض المساجد رجلاً في منصب « قاص » مهمته أن يذكر الناس وينصحهم بهذا الأسلوب

وقد ذكر « آدم ميتز » ان هذا الاسلوب اخذ عن النظام الكنسي في مصر وهو توسع في منصب « الامامة » ولقد كان هذا الاسلوب الناجح سبباً في نشأة الخصومة التقليدية بين الوعاظ والقصاص ذلك ان القصاص استحوذوا على قلوب الجماهير بما يروونه من قصص مسل وملح ونوادر في الوقت الذي ضجرت فيه الجماهير من اسلوب الوعظ الجاف .

ويرى الدكتور زكي مبارك ان اهل القرن الثالث كانوا يعرفون الوائاً من المحاورات الادبية تعرف بالمقامات ويستشهد في ذلك بوصية ابن المدبر - في الرسالة العذراء - للمتأدب بالنظر في كتب المقامات والخطب والمحاورات .

ويرى ان المقامات انتقلت الى كلام المعتصم الذين بتوسلون الى الاغنياء بكلام مسجوع فيقولون « ارحموا مقامي هذا » .

ويرى كذلك ان بديع الزمان حين انشأ مقاماته تمثل فيها مقامات السائلين في الاسواق والمساجد وقد جعل بطله مشرداً .

من كل ما تقدم نخلص الى ان المقامة - في اطارها اللغوي - تمثلت في حديث يلقي على جماعة من الناس اما بغرض النصيح والارشاد واما بغرض الثقافة العامة او التسول ومع كل فاتها لم تلتزم شكلاً فنياً محدداً وكل ما يميزها هو انها حديث ذو نزعة وعظية او ثقافية يلقي على جماعة من الناس .

### المقامات الفنية او البديعية :

تعني بالمقامة الفنية تلك التي ابداعها بديع الزمان ، وهي التي اتخذت شكلاً درامياً لم يسبق اليه . والمقامة الفنية قصة قصيرة بطلها نموذج انساني مكدر ومتسول لها راو وبطل وتقوم على حدث طريف مغزاه مفارقة ادبية او مسألة دينية او مغامرة مضحكة تمحيط في داخلها لونا من اللون النقد او الثورة او السخرية وضعت في اطار من الصنعة اللفظية والبلاغية .

ويعرف الدكتور حجاب هذا اللون من المقامات بقوله : انها « حكاية ادبية قصيرة يدور

- ٦ - النثر الفني . زكي مبارك ج ١ ص ٢١١ .
- ٧ - الرسالة العذراء ابن المدبر ص ٧ - ط دار الكتب .
- ٨ - النثر الفني ج ١ ص ٢١١ .
- ٩ - حوليات دار العلوم عام ١٣٦٨ / ٢٩ ص ٨٥ .

اغلبها حول الكدية والاحتيايل لجلب الرزق وتشتمل على نكتة ادبية تستهوي الحاضرين » .

ولقد ذهب الى هذا القول كثير غيره والحقيقة هي ان قصص المقامة لا تدور كلها حول الكدية بل لكل مقامة موضوع منفصل ، واما الكدية فهي صفة ملازمة للبطل وحده .

### اصل المقامات :

ذهب الاستاذ احمد ضيف الى ان اصل المقامة فارسي ، وانها انتقلت من اللغة الفارسية الى اللغة العربية وهذا القول مردود عليه من ناحيتين : الناحية الاولى ما ذكره الدكتور حجاب من ان : ظهور المقامات في اللغتين العربية والسريانية كان بعد ظهور ترجمة مقامات الحريري الى السريانية ، ولو ان المقامات الفارسية سابقة للمقامات العربية لكان الاولى ان تنتقل الترجمة عنها ، تماماً كما حدث مع كتاب كليله ودمنة الذي ترجم الى السريانية قبل ان يترجم الى العربية ولقد كان في اعتراف القاضي حميد الدين ابي بكر بن محمود البلخي المتوفى سنة ٥٥٩ هـ في مقدمة مقاماته المشهورة بمقامات حميدي دليل اكيد على ان هذه المقامات نقلت من العربية الى الفارسية فقد ذكر القاضي حميدي انه ترسم في مقاماته خطي الحريري والبديع وانه اراد ان يدخل هذا الفن الى اللغة الفارسية حتى يعرف به مواطنه وحتى يحفزهم للتعرف على البلاغة العربية والفارسية معاً .

وقد ذكر بروكلمان ان هذا الفن انتقل بفضل بديع الزمان الى اللغة الفارسية وان اول من عرف من مقامتي الفرس هو القاضي حميد الدين وقد دخلت المقامات الى العربية عن طريق الترجمة التي قام بها ابن شلومو الحريري لمقامات الحريري<sup>١٠</sup> والتي انشأ على غرارها خسين مقامة اسمها « سفر تحكيموني » اي كتاب الحكمة وقد تضمن كثيراً من آيات التوراة .

اما الناحية الثانية التي يمكننا ان ندلل بها على عروبة المقامة فهي قدرتنا على تتبع الاصول التي ضاع منها بديع الزمان نموذجها الفني وايجاد نماذج مقامية عربية سهقت اقدم نموذج

- ١٠ - النثر الفني زكي مبارك ج ١ ص ٢٠٣ .
- ١١ - حوليات دار العلوم ١٣٦٨ / ٢٩ ص ٨٦ .
- ١٢ - دائرة المعارف الاسلامية مادة مقامة .
- ١٣ - نفسه .



مقامي فارسي وصل اليها وذلك قبل مقامات بديع الزمان بوقت طويل . وسنعرض الى كل ذلك في موضعه من البحث .

### أدب المقامة بعد بديع الزمان :

كان النموذج الفني الذي انشأه بديع الزمان بداية لقبض زاهر من الفن المقامي اتى بعده فقد استطاع بديع الزمان ان يوجد في مجال النثر ديباجة جديدة تعدل في شرفها ديباجة القصيدة الجاهلية ومن ثم اندفع الكتاب بعده ، يحاولون اثبات قدراتهم في هذا المجال وكان اشهر المقاميين الذين اقتفوا اثر بديع الزمان الحريري وهو الذي وجدت مقاماته شهرة واسعة في بلاد المغرب وغيرها ولئن حافظ الحريري على ديباجة بديع الزمان المقامية فان بعض المتأخرين قد خرجوا عليها كما فعل ابن ناقيا الذي جعل الراوي في مقاماته متعدداً والزنجشري الذي اسقط البطل والراوي معاً واكتفى بغاية الوعظ وحدها ، وكذلك السيوطي الذي حفلت مقاماته بالوان من المناظرات والمفاضلات ، وجاءت بعضها في شكل مقالات وصفية ونقدية .

وبصفة عامة فقد وجهت المقامة في الماضي لتسد النقص الذي كان سائداً في بابي القصة والمقالة . وهو نقص اوجده عدم اكتمال التطور في الاشكال الادبية في ذلك الوقت .

### الباب الاول

### نشأة المقامة الفنية عند بديع الزمان

## البيئة العباسية واثرها في فن بديع الزمان

### تمهيد :

من المقامات لما هو ثورة عارمة على المجتمع ومن ثم وجب علينا ان نقف ولو قليلا عند الظروف الاجتماعية التي اوغرت الصدور في هذه الفترة من الزمان ، على اننا لن نلجأ الى تحليل البيئة التي عاش فيها بديع الزمان جزئياً وراء المنهج الكلاسيكي الذي يبدأ عادة بتحليل الظروف الزمانية والمكانية التي عاش فيها الاديب او الفنان دون ربط منطقي بين تلك الظروف في تفاصيلها الدقيقة وبين الابداعات المختلفة لذلك الفنان . ان ما نهدف اليه ينشئ من اعتقادنا بان البيئة هي التي تصنع الفنان وهي التي تمده بالاسباب التي تجعله قادراً على ان يبدع فيه من جهة ، ويطوره من جهة اخرى . ولا يعنى هذا ان العلاقة بين البيئة والفنان علاقة ايجابية في كل الاحوال لانه من الجائز ان يقف الفنان مناقضاً لظروف بيئته الاجتماعية والسياسية فيخرج لنا من ظروف التفسخ والانحلال ادباً ذا دلالة مستقبلية تقدمية كالادب الذي سبق الثورة الفرنسية . وفي مثل هذه الحال يتحتم علينا ان نتبين العلاقة الموضوعية بين ظروف البيئة وبين الالوان المبدعة تحت تأثيرها ، فلا يخطر ببالنا ان النماذج المناقضة جاءت من السراب لان الواقع هو ان الاديب حقق معادلة صعبة برزت له نتيجتها في واقع مغاير للواقع الذي عاش فيه وهو الواقع الذي عبر عنه في عمله الادبي .

وهنا يحق لنا ان نتساءل كيف يمكن ان نحدد العلاقة بين الفنان وبيئته ؟ وللإجابة على هذا السؤال لا نكتفي فقط بالقول ان الفنان احد افراد بيئته بالضرورة بل لا بد ان توجد العلاقة الموضوعية بين منه المبدع وبين واقع بيئته . فلقد بين جيلفورد في دراسته القيمة عن

الابداع CREATIVITY<sup>١</sup> ، ان الفنان انما يصدر عن احساس عميق بمشكلات بيئته يتخبط منها ما يشاء ، وبواسطة ادراكه الذكي يعيد تنظيم تلك المشكلات في صور فنية محاولاً وضع حلول نظرية لها اذا شاء وهو في كل ذلك يستخدم ما اوتي من طلاقة ومرونة واصالة .

وهذا الرأي يجعلنا نقف وقفة قصيرة مع الجاحظ الذي ادرك بنفاذ لاحد له الكيفية التي يتفاعل بها الفنان مع الواقع الملموس حين يريد ان يصور ظاهرة من الظواهر الاجتماعية من خلال نموذج انساني .

جاء في حكاية ابي القاسم البغدادى<sup>٢</sup> :

« قال ابو عثمان الجاحظ في فصل من كلامه وانا مع هذا ، نجد الحكاية من الناس يحكى الفاظ سكان اليمن مع غارج كلامهم لا يفاد من ذلك شيئاً وكذلك تكون حكايتهم للمغربي والخراساني والاهوازي والسندي والزنجي نعم حتى تحده كانه اطبع منهم فاما اذا حكى كلام الفاء فكانه جمع كل طرفه في كلام كل فافاء في الارض على لسان واحد كما انك تحده يحكى الاعمى بصورة ينشئها بوجهه وعينه لا تكاد تجد من الف اعمى واحداً يجمع ذلك كله فكان هذا الحكاى قد جمع ما هو مفترق فيهم وحضر جميع طريف حكايات العميان في اعمى واحد » .

ولعل هذا الكلام يكشف حقيقة هامة اخرى تلك هي ان وجود العلاقة الموضوعية بين الفنان والمجتمع لا يعنى ان الظواهر الاجتماعية التي يتناولها الفنان في تعبيره الادبي تكون طبق الاصل لمثيلاتهما في الواقع الحقيقي . لان من حق الفنان ان يحسم صوره الفنية حتى تبدو اكثر دلالة وعمقاً بشرط الا يخل ذلك بالتوازن القائم بين الواقع الحقيقي والواقع الفني فغاية الفنان في جميع احواله ان تكون نماذجه نابضة بالحياة ولا يتم ذلك الا بشيء من التجسيم الفني وبخاصة اذا كان التعبير عن الظاهرة الفنية من خلال نموذج انساني . وقد اشار الدكتور محمد غنيمي هلال<sup>٣</sup> الى ان « النموذج الانساني في الادب يقصد به تقديم صورة متكاملة الابعاد لشخصية ادبية بحيث تمثل فيها مجموعة من الفضائل او النقائص

١ - 445 - Suifond J.P. creativity .amer. Psychologist 444

٢ - حكاية ابي القاسم البغدادى - ابو الطاهر الازدى ص ١ - المثنى ص ٧ .

٣ - النماذج الانسانية في الدراسات الادبية المقارنة . محمد غنيمي هلال ص ٧ .

كانت متفرقة من قبل في عالم التجريد او في مختلف الاشخاص وليس لهذا النموذج قيمة هية الا حين يستطيع الكاتب ان يجعل منه مثلاً ينبض بالحياة من ثنايا التصوير الفني حتى يظهر اغنى في نواحيه النفسية واجمل في التصوير واوضح في معالجه مما نرى في المجتمع وهذا النموذج الفني - في كل حالاته - اكثر اقناعاً واعمق واكمل مصيراً من نظائره في الطبيعة » .

ويقترن بهذا الكلام انه لكي يصبح الفنان قادراً على خلق مثل هذه النماذج الانسانية ، عليه بالضرورة ان يعايشها وان يتفهم ظروفها ومشاكلها وتصرفاتها بحيث يصبح في النهاية قادراً على تصويرها ، وهذا لا يتأتى بغير الاتصال المباشر بالبيئة التي تخرج منها هذه النماذج بل وتفهم تلك البيئة ايضاً ، ومن هنا تتبين لنا نوعية العلاقة التي تقوم بين الفنان والبيئة التي تخرج منها نماذجه .

ثمّة مسألة اخرى لا بد من اضافتها وهي ان دراسة البيئة لا تساعدنا فقط على معرفة العلاقة السببية بين الواقع والفن بل تساعدنا ايضاً على فهم النماذج الفنية ذاتها لان الفن لا يكون مباشراً في ظروف كثيرة . ففي ظروف الحرية والديموقراطية - على سبيل المثال - يكون الفنان قادراً على ابداع النواحي الايجابية في نماذجه بصورة اوضح وفي عهود الكبت والاستبداد يلجأ الى الرمز والايحاء او قد يترك نموذجه دون اقتران معتمداً في ذلك على الملكة النقدية الفطرية المزودة بها ذهن القارىء الذكي .

كل ذلك مهم لخلق تصور صحيح للظاهرة الفنية والادبية .

ولعلنا فيما يختص بموضوعنا الان نجد من الاهمية بمكان ان نلقي بعض الضوء على هذا الواقع المعقد الذي آل اليه المجتمع الاسلامي بعد قيام الدولة العباسية ، ذلك الواقع الذي عاش فيه بديع الزمان وتأثر به غاية التأثر . فمن خلال ذلك نستطيع ان نستكشف الجوانب الهامة التي رعى بديع الزمان الى تصويرها من خلال النموذج الانساني الذي اختاره بطلاً لمقاماته وهو نموذج المكدي الذي يتخذ من العلم والدهاء والدجل (الحجارة يرتزق بها) ولعلنا من تفهم تلك البيئة او الجوانب المتصلة فيها اتصالاً مباشراً بموضوعنا نستطيع ان نتبين فيما بعد قدرة بديع الزمان على تجميع ذلك النموذج من الواقع ثم صوغه بتلك الطريقة الفريدة كما نستطيع ان نفهم ابعاد النقد المريب الذي وجهه بديع الزمان الى ذلك المجتمع من خلال نموذجه المقامي . ذلك المجتمع السدي - على الرغم من ثراء (استوفراطيته) - تحول كثير من رجال العلم والفن والادب فيه الى مكدين امام اعتاب البلاط واما الذين كانوا يفتيدون فهم الذين اتحدوا من الجدل والفسفسطة والصراع الطائفي

والخزبي والعنصري وسائل من وسائل الالهة للناس . وكان عطاؤهم بقدر ما الهوا به الناس من التفكير في مساوئ الادارة والحكم . وستين ذلك كله مرة اخرى عند تحليلنا للمقامات الممذانية . فلنبدا في دراسة البيئة العباسية . ولتكن الظواهر التي سنلاحظها فيها هي العوامل التي تركت في نفس بديع الزمان اعمق الاثر وحركته ليبدع منه المقامي .

### العصر العباسي :

ربما كان من المستحيل على الدولة الاموية ان تستمر بعد عام ١٣٢ هـ لانها كانت تفتقر في اخر ايامها الى رجال في حنكة معاوية والحجاج بن يوسف وعبد الملك بن مروان فحسب بل لانها في الواقع كانت قد استنفذت قواها في مقاومة الفتن والمؤامرات التي كانت تحيط بها من كل جانب .

يقول الاستاذ نيكلسون :

« بينا كان دعاة الشيعة مشغولين بصورة فعالة في كسب التأييد لحزبهم الذي وجد في علي وذريته الخلفاء الشرعيين الوحيديين لمحمد صلى الله عليه وسلم فان فرعا اخر من آل النبي صلى الله عليه وسلم وهم العباسيون دخل الميدان وهو يضم قلب اعمال العلويين لصالحه وقد ورثوا عن جدهم الاعلى العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم صفات الحذر والظهور بمظهر الدين والحكمة الدنيوية وهي الصفات التي تضمن النجاح في التآمر السياسي » .

واخيراً فقد توج ذلك التآمر بالانتصار الكبير في معركة « الزاب » فقد تمكن ابو مسلم الخراساني من قيادة قوات الثورة التي بدأت ارهاصاتهما الاولى في خراسان وكان قوامها العباسيين والموالي والفرس والشيعة من اتباع محمد بن الحنفية والامامية .

لقد رفع ابو مسلم الخراساني الراية السوداء في « سقندنج » عام ١٣٠ هـ ولم يمض عامان حتى هزمت جيوش مروان بن محمد في معركة الزاب عام ١٣٢ هـ وقد بويغ في الوقت نفسه لابي العباس اول خليفة في البيت العباسي . ونلاحظ ان العباسيين رفعوا - منذ البداية - اسم « هاشم » شعاراً للثورة وكانت تلك خطوة ذكية منهم لان هاشماً هو

٤ - تاريخ الادب العربي نيكلسون ١٧/٢ ترجمة الدكتور صفاء خلوصي منشورات المكتبة الاهلية ، بغداد .

الجد المشترك بينهم وبين العلويين ولا يخفى بالطبع الهدف من وراء ذلك وهو المحافظة على وحدة الصف بينهم وبين الشيعة في مرحلة الاعداد للثورة وقد تحقق لهم بالفعل ما ارادوه .

وعلى الرغم من اننا ستحدث عن مناخ جديد اطل على الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فنحن لا نريد ان نتخذ من جوانب الاشرار التي اتاحتها حكومة العهد الجديد سبباً ندين به العصر الاموي ونتهمه بالانغلاق على ذاته اسوة بالكثيرين ممن ارخوا لذلك العصر . فمثل هذا الرأي اشاعه القدماء لانهم خضعوا للتأثير القوي للدولة العباسية التي حالت دون ابراز الجوانب المشرقة في حياة الامويين لاسيما في اخر ايامهم حين ضعفت السياسة واصبح العصر اكثر انفتاحاً من ذي قبل . وقد ايد هذا الرأي في عصرنا الحديث بعض المستشرقين الذين يدفعهم عداوة متأصل للجنس العربي فلا يقصرون في مناسبة تثبت عجزه او انغلاقه العنصري وقد سايروهم في ذلك بعض المحدثين الذين لم يتدبروا وجه الصواب في هذا الامر . والحقيقة هي انه مع اعترافنا بالتغيرات الجوهرية التي حدثت في الثقافة والعلوم العباسية فنحن لا ننكر ان بعض العلوم التي توثقت في العصر العباسي بدأت ارهاصاتهما في العصر الاموي بل وان كثيراً من الرجال الذين برزت اسماؤهم في العصر العباسي عاشوا جزءاً كبيراً من حياتهم في العصر الاموي ولا نكون مغالين اذا قلنا بانه لو امتد الزمن بالعصر الاموي وعاش ظروف استقرار نسبي شبيهة بالظروف التي عاش فيها العباسيون في معظم احوالهم لما اختلفت النتيجة في شيء .

كيف لا والعباسيون - انفسهم - عرب وينطلقون من نفس العقيدة الاسلامية التي انطلق منها الامويون ؟

غير اننا مع ذلك لا نود ان نبحت هذه القضية الان وقصارى ما نهدف اليه في لمحة عابرة هو ان نبين ان العباسيين لم يختلفوا عن الامويين من حيث الاستراتيجية العامة وهي البقاء في الحكم وانما الاختلاف كان اختلافاً في « التخطيط » ولقد ادى هذا الاختلاف التخطيطي بالطبع الى ان تطفو كثير من الظواهر الاجتماعية التي كانت مكبوتة في العصر الاموي الى السطح في العصر العباسي ولعل كثيراً من المؤرخين ركزوا على « التخطيط » العباسي واعتبروه غاية قصدت لذاتها والحقيقة هي انهم استعملوا هذا التخطيط لمجرد ضمان استمرار الحكم لهم ولكن في نهاية الامر تفتت دولتهم بسبب الادواء التي صنعوها بانفسهم والتي حاول الامويون ابقاءها في القاع من قبل .

فما هو هذا « التخطيط » الذي اتبعه العباسيون ؟

هذا ما ستجيب عليه صفحاتنا التالية ونوضح قبل ذلك حقيقة هامة وهي أننا لسنا بصدد دراسة مستفيضة لنظام الدولة في العصر العباسي بل سنكتفي فقط بالجوانب التي تتصل بموضوع بحثنا . ولعله كان من الانصاف ونحن نتحدث عن بيئة بديع الزمان ان نقصر حديثنا على القرن الرابع الذي شهد تحولات سياسية هامة اهمها استتباب الامر لكثير من الدويلات الصغيرة التي قامت في انقاض الدولة الموحدة غير اننا لا نستطيع ان نهمّل الكيان الذي قامت عليه الدولة الموحدة ونحن بصدد الحديث عن هذا الموضوع ، حقاً لقد تقسمت الدولة العباسية منذ منتصف القرن الثالث ، بيد ان هذا الانقسام لم يحدث تخلخلاً في بنية النظام السياسي والاجتماعي الذي شاده خلفاء بغداد وسامراء فقد جهد كل حاكم اقليمي ان يبني دويلته على غرار النظام الذي كان سائداً في الدولة الموحدة ، نفس المظاهر الاجتماعية ، نفس الاهداف السياسية ونفس الحركة العلمية ، بل اننا نستطيع ان نقول باختصار ان خلفاء الدولة الموحدة دفعوا تلك الدولة دفعة قوية فتفتتت الى وحدات صغيرة من جراء قوة الدفع ولكن تلك الكيانات الصغيرة لم تتميز عن الدولة الموحدة بل ظلت تحمل سماتها الرئيسية وهي التي سنبحث فيها الان .

ونستطيع ان نجمل تلك السمات في ثلاثة مظاهر كل منها يشكل واقعاً متميزاً في الحياة العباسية .

### اولاً - الواقع السياسي

رأينا من قبل العباسيين وقد اعتمدوا في ثورتهم على العناصر الناقمة على البيت الاموي وكان في طليعة اولئك الشيعة - عرباً كانوا او موالي - ثم عنصر الفرس بصفة عامة . ولقد وضح منذ البداية ان استغلال العباسيين للشيعة كان استغلالاً وقتياً ذلك ان تخطيطهم للمستقبل كان يقوم على استخدام العنصر الفارسي . ولم يغيب هذا الامر عن الشيعة طويلاً فقد تكشف لهم حقيقة وضعهم الجديد فتصدوا للحكم في ثورات متتالية فشهدت ايام المصور خروج النفس الزكية في المدينة . وشهدت ايام الرشيد خروج يحيى بن عبد الله في الديلم وشهدت ايام المستعين يحيى بن عمر بن يحيى كما ظهر الكوكبي بقزوین عام ٢٥١ هـ وتمكن من طرد آل طاهر . هذا بالطبع الى جانب الحركات الاخرى المتطرفة التي اتخذت من المذهب الشيعي اساساً لها كحركة القرامطة والزنج والحشاشين وغيرهم . غير أننا لسنا الان بصدد بحث سياسة العباسيين بصفة عامة وكيفية معالجتهم لامر الشيعة

٥ - الطبري أحداث سنة ٢٥١ .

بالقوة بل نكتفي من الواقع السياسي بما يتصل بموضوع بحثنا . ومن هذه الزاوية نجدنا مهتمين بامر الفرس الذين قربهم العباسيون وفتحوا لهم قصورهم على مصاريعها وعينهم كتاباً وحراساً بل ومنحوهم الوزارة ايضاً .

ويبدو هنا سؤال هام : لماذا اتجه العباسيون هذه الوجهة ؟

والاجابة هي ان العباسيين لعبوا لعبة بارعة بهذا « التخطيط » في محاولة لوضع توازن بين عنصري العرب والفرس في تلك الفترة .

لقد كان الفرس في الماضي يحسون بالمرارة من جراء خضوعهم للعرب فقد كانوا يحسون - دائماً - انهم سليلو حضارة عريقة فكيف يؤول بهم الحال الى ان يصبحوا خاضعين لعرب الصحراء ؟ . والواقع انه لم يكن من هدف العباسيين الانتصاف للفرس من العرب ولكنهم ارادوا ان يستغلوا هذا الوضع ليقوموا بتوازن في الصراع القائم فعلاً للمحافظة على حكمهم . وهو توازن لم يستطع ان يقيمه الامويون الا بالقوة . وانه لكي نفهم موقف العباسيين فعلياً ان نفهم طبيعة الصراع ، اذ كيف جاز للعباسيين ان يقفوا هذا الموقف النائي مع ائمة عرب في الاساس ؟ بل وكيف جاز لهم ان يشاؤوا الى الفرس في كثير من مواقفهم ؟

ان نظرة موضوعية في طبيعة هذا الصراع ترى ان الصراع بين العرب والفرس كان صراعاً يحركه جانب واحد هو جانب الفرس وما موقف العرب الا دفاعاً مشروعاً عن النفس ولكن بعض المؤرخين يذهب الى غير هذا الرأي اذ يحمل العرب مسؤولية ذلك الصراع ومن هؤلاء الاستاذ احمد امين الذي يرى ان سبب الصراع من جانب العرب هو عقدة الفقر التي كانوا عليها في ايام الجاهلية .

وليس هذا بصحيح لان نظرة واحدة في نموذج من خطب وفود العرب امام كسرى . تؤكد ان العرب لم يكونوا يعانون من تلك العقدة على الاطلاق ولئن اتخذت العرب من الغنى سبباً في المفاخرة فلانها كانت تعد سبيلاً الى الكرم ولكنها لم تدم الفقر لمجرد الفقر بل تجدها في كثير من الاحيان تحمد الكرم مع الفقر وتقدمه على الكرم مع الغنى . وعلى ذلك فيحطىء من يظن العصبية القبلية القديمة عند العرب محركاً لتزعجات عنصرية او يحاول ان يفهم موقف العرب من الشعوبية من تلك الزاوية ذلك ان العصبية الجاهلية لم تكن واقعاً

٦ - ضحى الاسلام احمد امين ١٨/١ .

٧ - العقد الفريد . ابن عبد ربه ١٣٤/١ .

عنصرياً والذين ارادوا ان يسبقوا عليها تلك البصيرة هم غلاة الدعاة الى الاسلام اولئك الذين ارادوا ان يوضحوا ان كل ما كانت عليه العرب في الجاهلية ضلال وفساد والحقيقة غير ذلك لان الجاهلي حين كان يتعصب لقبيلته لم يكن يتعصب لها كواقع عنصري بل لان القبيلة في نظره كانت تمثل قمة الفضائل الجاهلية فهي التي تمنحه كيانه الانساني المتمثل في الكرم والشجاعة والحلم والاقدام والنجدة وغير ذلك ، وعلى ذلك فان الجاهلي حين كان يتعصب لقبيلته او يدافع عنها فانما كان يتعصب لمثلثه وقيمه الانسانية ولا نستطيع ان نفهم العصبية الجاهلية على غير هذا النحو وهذا يحتم علينا الان نضع في دوامة الفخر بالانساب الذي عرف به الجاهليون لان الفخر بالانساب لم يكن يستهدف التمايز العنصري بل كان يهدف الى ما كان يتحلى به اولئك الاجداد من قيم وفضائل ويؤكد لنا هذا الفهم ظاهرة ذات مغزى كبير في العصر الجاهلي وهي ظاهرة الانتساب او الحماية فباستطاعة اي فرد او قبيلة ان تستجير او تتحالف مع غيرها وفي تلك الحالة تصبح القبيلة او الفرد جزءاً من القبيلة الكبيرة عليهم واجباتها ومسؤولياتها ولو كان واقع القبيلة عنصرياً ، ما تمكن احد ان يحتمي بقبيلة اخرى .

كذلك كيف يمكن ان تكون العصبية القبلية عنصرية في الوقت الذي تنتمي فيه جميع القبائل العربية الى عنصر واحد مع ادراكها جميعاً لتلك الحقيقة .

هذا ما كان في الجاهلية ، اما في الاسلام فان العرب حين خرجت غازية لامم العالم المعروفة آنذاك خرجت تحت شعار معروف هو « لافضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى » وهو شعار ما كان للعرب ان يتبنوه بتلك السرعة لولا انه يجد استجابة حقيقية في نفوسهم فكيف اذن نتصور ان العرب شعرت في يوم من الايام ان الدم الذي يجري في عروقها خير من الدم الذي يجري في عروق سائر الناس . ولو تصورنا هذا ما جاز لنا ان نتصور ظاهرة التوليد التي تفشت بصورة مذهلة بعد الاسلام بين العرب وسائر الاجناس التي اختلطوا بها .

واستناداً على ما ذكرناه ، لا يصعب علينا ادراك بعض الاجراءات السياسية التي قام بها خلفاء بني امية وولاتهم - كالحجاج بن يوسف - في ايشار العنصر العربي وتخصيص الوظائف الهامة لهم في الدولة كوظائف الامامة والقضاء . فهذه كلها اجراءات فرضتها ظروف الامن ، ولقد دلت حركة الثورة العباسية على ان الامويين كانوا يكتبون حركة مقاومة سرية عنيفة لنظامهم فما ان ضعف نظام الحكم الاموي حتى خرجت تلك المقاومة الى السطح وقضت على الدولة بطريقة لا يمكن تفسيرها على انها حركة وقتية او طارئة لانها في الواقع قامت على تحالف قوى بين العناصر المناهضة للحكم الاموي والتي كان من

الموقع ان تخرج الثورة من بين صفوفها بما يؤكد الترسيد المستمر الذي يبرر اجراءات الامويين .

ومهما يكن من امر فان الصراع الشعبي اصبح حقيقة واقعة ملموسة في العصر العباسي لان الفرس ارادت ان تجدها مكاناً في الدولة الجديدة ارقى من المكانة التي كانت عليها في الدولة الاموية ولان خلفاء بني العباس ارادوا شغل العناصر العربية الخالصة من التفكير في الحكم ولعل تقوية العباسيين لبعض الفرس كان تدبيراً حكماً لجعلهم اكفاء في مثل ذلك الصراع ولعل تحارب الفرس بالنبوغ في مجالات الادارة والسياسة والادب كان ضرورياً لكي يحافظوا على تلك المكانة الجديدة .

وما يهمني في هذا الامر كله هو ان تشجيع النزعات الشعبية من قبل الحكام العباسيين فتح لوناً جديداً من الحوار والجدل في المجتمع العباسي بين العناصر العربية والعناصر الفارسية . جدل يواكب النزعة الارستوقراطية التي صار اليها كثير من الادباء والمفكرين الفرس من الذين حظوا بمكانة جديدة في ظل البيت العباسي .

وكما يقول ابن قتيبة فان من الشعبيين :

« قوماً تخلوا بحلية الادب فجالسوا الاشراف وقوماً اتسموا بميسم الكتابة قربوا من السلطان فدخلتهم الانفة لادابهم والغضاضة لاقدارهم من لؤم مغارسهم وخبث عناصرهم فمنهم من ألحق نفسه باشراف العجم واعتزى الى ملوكهم واساورتهم ودخل في باب فسيح لاحجاب عليه ونسب واسع لا مدافع عنه ومنهم من اقام على خساسته ينافح عن لؤمه ويدعى الشرف للعجم كلها ليكون من ذوي الشرف » .

ويهمني في هذا النص الجزء الاول من حديث ابن قتيبة وهو ان كثيراً من الادباء والكتاب العجم استشعروا مكانتهم الجديدة فاعادوا ذلك الاحساس القديم الذي ساورهم عندما خضعت دولتهم لسيطرة البدو ، ولا يهمني الجزء الاخير من النص لان ما يشتمل عليه من سباب اتت به ظروف المعركة الدائرة بين العرب والعجم لاسيما ان ابن قتيبة احد الذين تصدوا للدفاع عن العرب وبالطبع ما كان من الممكن للفرس ان يظهروا نزعاتهم الشعبية على ذلك النحو الخطير لولا ما لاقوه من مواقف سلبية من السلطة الحاكمة تجاه مواقفهم العنصرية .

غير ان ذلك كله لا يصرفنا عن رؤية الحركة الادبية الواسعة النطاق التي ظهرت اثر هذا

الصراع المرير . فكما اسلفنا فان الفرس رغبت في التفوق في ذلك المجتمع الجديد بالعلم والادب فالفوا كثيراً من القصص والشعر واجادوا اساليب المتأدبة يتخذونها قربة للخلفاء العباسيين وعلى الرغم من ان بعض الخلفاء اخذوا انفسهم بالجد كابي العباس وابي جعفر والمأمون في بعض حالاته فان القصور امتلأت في عهد العباسيين بالندمان والسقاة والجواري والمغنين والادباء .

وهكذا فقد ساعدت الحركة الشعبية على ظهور العناصر المثقفة والقادرة على الرأي والجدل وقد استفاد الخلفاء من تلك العناصر غاية الاستفادة لاسيما في تصريف شؤون الدولة والمتأدبة . وما هو الا وقت وجيز حتى كانت تلك العناصر تسيطر على كل شيء ولقد اعتمد عليهم الخلفاء اعتماداً كبيراً واجزلوا لهم العطاء وسمحوا لهم بان يعبروا عن ارائهم طالما كانت تلك الاراء لا تمس سلامة الدولة وتساعد على حفظ التوازن فيها . ولقد ادى ذلك الانفتاح على العنصر الفارسي الى نتائج ادبية لا يحيطها النظر ذلك ان الفرس طوزوا المجتمع العربي في تلك الحقبة تطويراً كبيراً بل وطوروا نظام الحكم نفسه مما زاد اعباء الدولة .

ولقد بلغ بعضهم من النفوذ والسلطة مبلغاً يعادل ما كان عليه الخليفة نفسه وقد ادى بهم مثل ذلك الوضع في كثير من الاحيان الى كثير من الكوارث كما فعل المنصور بابي مسلم والرشيد بالبرامكة وغيرهم .

والمهم ان التغييرات التي احدثها الفرس في المجتمع العباسي في اساليب البناء والاكل والبناء والحياة باسرها هي التي اصيحت الاساس الذي قام عليه المجتمع العباسي الجديد وهي التي جهد بديع الزمان في تصويرها من خلال مقاماته .

### الاديب في المجتمع العباسي :

قلنا من قبل ان القصور فتحت ابوابها لدوي التبوغ والفن والادب واجزلت لهم العطاء وقد عرفت تلك القصور ايضاً لوناً من الحياة الارستقراطية لم تعرفه قصور الحكام العرب من قبل . لقد كثر فيها الطرفاء بل واصبح الطرف اسلوباً واضحاً من اماليب الحياة العباسية وعليه فلم يعد النسب وحده او الانتهاء الى العنصر العربي هو الذي يفتح للانسان سبيل الحياة بل ان كل انسان يستطيع ان يصل الى ما يريد بفضل علمه وادبه ومزايه .

غير ان ظاهرة الانتعاش المادي لكثير من ادباء ذلك العصر لا تصرفنا عن حقيقة هامة هي ان الاديب لم يكن ينال عطايه لقيمه الادبية المجردة بل كان منحه بمقدار ما يساير النظام السياسي ، وهذا يبين لنا لماذا كان معظم الشعراء لا يشتغلون الا بفن المدح يرقون فيه ماء

الوجه من اجل العطاء والقلّة القليلة هي التي عزفت عن المدح ، فلم تحظ بشيء بل وكان نصيبها الحرمان والاهمال ، ولقد عبر الاستاذ احمد امين عن ذلك الواقع بقوله :<sup>٩</sup>

« وظاهرة اخرى نراها في القنون وهي انها كانت لا تنمو الا في بلاط الخلفاء والامراء فلم يكن الشاعر يشعر لنفسه الا قليلاً ، ولا الفنان يتفنن لنفسه الا نادراً فكلهم يقصد خليفة او اميراً يعرض عليه سلعته من شعر او فن ولذلك تلون الشعر والشر والفرن بلسون الاستجداء كثيراً لان العصر لم يكن عصراً ديمقراطياً يستطيع فيه ان يعيش الفنان لنفسه او للشعب كما هو الشأن في العصور الحديثة بل كان عصراً ارستقراطياً لا ينعم فيه الا الارستقراطيون ومن شاء ان يعيش على موائدهم بل شاؤوا هم ان يؤكلوه من موائدهم ولذلك اذا احصيت الادب الذي قيل في المديح رجحت كفته جداً على الادب الذي قيل لباعث نفساني ، وكذلك العلماء كانوا قسمين ، قسم يتصل بالخلفاء والامراء او يشتغلون في مناصب الدولة كالخطابة والقضاء وهم ميسورون نسبياً ولذلك نرى كثيراً من تأليف هذا العصر اغما الفت بامر وزير او امير او نحوه ، واما من بعدوا عن القصور فكانوا فقراء غالباً لا يكادون يجدون ما يسد رمقهم كما رأينا . »

وهكذا عمل الاسلوب السياسي لبني العباس في اتجاهين اتجاه المواجهة المباشرة مع العناصر المعارضة وفي مقدمتهم الشيعة واتجاه المواجهة غير المباشرة مع العناصر التي قد تشكل خطراً في المستقبل وذلك عن طريق اثارة النزعات الشعبية لحفظ التوازن بين تلك العناصر . وفي نفس الوقت استفاد العباسيون من القدرات الثقافية والعلمية والفنية لدى العناصر الفارسية التي كانت تحس بحاجة ماسة للتعاون مع الخلفاء حتى تكسب مزيداً من التقدير المادي والاجتماعي الذي كانت في حاجة كبيرة اليه وقد ادى ذلك الى تحول الكثيرين من الادباء والشعراء الى مستجدين في قصور الخلفاء .

### ثانياً - الواقع الثقافي :

ذكرنا من قبل انه لو امتد الامر بالنسبة للدولة الاموية لشهدت توسعاً في العلوم والاداب لا يقل شأناً عما وصل اليه الحال في العصر العباسي ذلك ان معظم علوم اللغة والفقه والتاريخ والسيرة قد وضعت اصولها الاولى في العصر الاموي . ولا يعني هذا القول اننا كنا سنحصل على صورة طبق الاصل لما آلت اليه الحركة الثقافية في ظل العباسيين ذلك ان ظروف الحكم الجديد قد وجهت الحركة الثقافية في بعض مجالاتها اتجاهات ربما لم يكن

٩ - ظهر الاسلام . احمد امين ١/ ١٢٠ .



يسمح بها الامويون بل ربما وصل اليها كثير من الحقائق على نحو غير الذي وصلت به الان .

فما هي طبيعة تلك الحركة الثقافية الجديدة ؟

لقد رأينا حين مناقشتنا للواقع السياسي في ظل العباسيين ان كثيراً من الادباء قد تحولوا الى ندماء في قصور الخلفاء او مستجدين لاموالهم بواسطة المديح ومع ذلك فان هذا الجانب وحده لا يعطي صورة حقيقية للحركة الفكرية في العصر العباسي لان معظم الذين كانوا يمارسون نشاطهم في داخل القصور اما انهم كانوا من الشعراء واما كانوا من كتاب الدواوين واما من الذين يمارسون فنوناً تصلح للمسامرة . ولقد كان الى جانب هؤلاء في المجتمع العباسي كتاب يشتغلون في علوم الفقه والكلام والفلسفة والتراجم واللغة ونحوها وكان هؤلاء في معظم احوالهم يعملون لحسابهم الخاص ، وفي بعض حالاتهم يعملون لحساب حاكم او وزير وهم يشكلون طبقة ارقى من طبقة الندماء . ذلك انهم كانوا يقيمون وزناً كبيراً لكرامتهم الشخصية والقضايا التي يتناولونها في مؤلفاتهم العامة .

ولما كانت السيطرة على هذه الفئة من الامور الصعبة فقد كان لا بد للعباسيين من اتباع سياسة ثقافية جديدة تتماشى مع طبيعة المجتمع المفتوح الذي شرعوا في بنائه .

وكما رأينا فان العباسيين لم يعتمدوا في حكمهم على العنصر العربي الخالص . بل استغلوا الى جانبه وبصورة واسعة العنصر الفارسي وغيره من الاجناس غير العربية كذلك فلم يقتصروا في فكرهم على الفكر العربي الاسلامي الخالص بل فتحوا الباب واسعاً امام التيارات الثقافية المختلفة المعروفة آنذاك وهي الهندية والفارسية واليونانية ، تركوها تتصارع مع الفكر الاسلامي الخالص وتلونه . وقد بدا اثر ذلك كله واضحاً في علم الكلام الذي تلون بالفكر الفلسفي اليوناني لاسيما اراء المعتزلة . ولقد عرف هذا العصر الى جانب الفلسفة اليونانية الاراء الدينية الفارسية المتطرفة فتفتشت مذاهب الزندقة المنقولة عن الديانة المانوية والمزدكية . وكثرت مذاهب الراي والفكر واصبح الجدل على طريقة السقراطيين اليونان مظهراً واضحاً في الفكر العباسي ولقد تأثرت كتب التراجم والاعخبار والتاريخ بكل ذلك ، بل انه غدا من العسير في رجمة تلك الاراء المتصارعة ان يخرج الباحث بصورة واضحة للمفكر العباسي ولعل شخصية ابي العلاء المعري تقدم لنا نموذجاً واضحاً لتداخل الثقافات واختلاف النزعات الفكرية بصورة تجعل من العسير ان يلصق الانسان الخط الاساسي الذي تقوم عليه الشخصية العباسية ، فهو مؤمن وهو ملحد ، وهو متشائم وهو متفائل وهو معرض عن الدنيا وهو مقبل عليها . . . متناقضات كثيرة تجمعت

في نفس واحدة هي نفس المتناقضات التي التقت في ذلك العصر بصورة لم يعرفها عصر سواه ولعلنا نجد في قول الاستاذ انيس المقدسي صورة دقيقة لهذا الواقع الذي رسمناه . . .

يقول « في ذلك العصر تم نقل العلوم اليونانية ونبع بين المسلمين كثير من العلماء والمفكرين والنقادين فكانت بغداد وكثير من المدن الشرقية الاخرى مراكز علمية احتكت فيها ( الروحية ) السامية التي حملت الناس الى الايمان بالتوحيد والمعاد والاداب الدينية بالعقلية اليونانية التي حملت الايمان بالتوحيد المنطقي والنظريات العلمية وكان من جراء ذلك الاحتكاك اشتداد الفرق الكلامية وتعدد المنازع الفكرية بين مناصر للنصوص الدينية او مضاد لها ومن الانصاف هنا ان نقول ان هذا النزاع بين العقل والعقل كان يضعف ويشهد بالنسبة الى الاحوال الاجتماعية والسياسية . . . ولا شك ان هذا النزاع الفكري احدث ميلاً الى النظر النقدي في الكون والحياة والدين والمعاد فتسرب الشك الى عقول بعض المفكرين واستولى عليهم روح الانكار فرفضوا ما لم تقبله عقولهم من تعاليم وسنن ونادوا بالرجوع الى المبادئ الاولية في الحياة الروحية والاجتماعية » .

تلك هي الصورة التي آل اليها الواقع الثقافي المفتوح الذي اراده العباسيون والذي يقوم على مبدأ « الترويح » VENTILATION اذ لا ضير عندهم من تصارع الافكار طالما كان في ذلك تنفيس عن الكبت الذي قد يعايناه الناس في مثل هذه الظروف التي تتصارع فيها القوميات والتي يحاول فيها الحكام الامساك بازمة الامور .

لقد عد كثير من المؤرخين ذلك الوضع حسنة كبرى للعباسيين ولكن على الرغم من الصورة التي رسمناها فلا يغيب عنا ان ما شهدناه من جرأة في الفكر وحرية في النظر العلمي لم تكن مطلقة في كثير من الاحيان فقد جاء في كلام المنصور « الملوك تحتل كل شيء الا ثلاث خلال افشاء السر والتعرض للحرم والقدح في الملك » لقد فتح العباسيون المجال لحرية الفكر في كل اتجاهاتها الا اتجاهاً واحداً وهو التعرض الى سلامة الدولة فقد كان العباسيون في اول عهدهم يقفون بحزم امام كل من تحدته نفسه بان يتعرض لسلامة الدولة ولعل العقوبة التي لقيها ابو حنيفة ومالك والثوري لم تكن بسبب عدم توليهم القضاء ، بل لان هذا الرفض كان يحمل في مضمونه معنى المعارضة للنظام الحاكم . تلك ظاهرة لا بد من الاخذ بها فحواها ان تسامح العباسيين الفكري لم يكن ليمنعهم من النظر



بجذر لكل من يشيع مبادئه قد تستهدف تقويض اركان الدولة . اما في غير ذلك فان المجال مفتوح لكل من يرغب في الدخول في ميدان الفكر حتي غدا بعض العاملين في ميدان الفكر اشبه بالحواة والمشعوذين وغدا الفكر لديهم ضرباً من المهارة الثقافية تناوله الحاذقون لتحقيق مآربهم وان تناقضت اساليبهم .

فاذا بدا لنا من كل ذلك ان الفنان الشاعر او الاديب قد غدا في كثير من حالاته ( بهلواناً ) او مستجدياً في قصور الخلفاء ثم ان الفكر نفسه قد صار يتعامل به المشعوذون امكن لنا ان نعرف كيف جمع بديع الزمان خيوط فنه المقامي بمهارة تقدم صورة واقعية لذلك المجتمع العباسي . غير ان صورة البيئة التي استقى منها بديع الزمان فنه المقامي تظل ناقصة اذا اهملنا ظاهرة هامة لعبت دوراً رئيسياً في الهامه ظاهرتيه الفنية ، تلك هي ( ظاهرة البؤس ) . التي آل اليها كثير من الادباء واصحاب المهارات في ذلك المجتمع . انه بالنظر في تلك الظاهرة وازافتها للظاهرتين السابقتين تكتمل عناصر البيئة الملهمه وعندها نرى بوضوح كيف كانت المقامة الفنية عند بديع الزمان وليدة بيئة بعينها في مرحلة معينة من مراحل التاريخ وذلك ما نبحثه من خلال الواقع الاجتماعي .

### ثالثاً - الواقع الاجتماعي :

لعل العباسيين - في بدء امرهم - كانوا يخشون ان تصبح الطبقة الجديدة التي ساندوها قوة تفسد المخطط الذي رسموه في سياسة الدولة الاسلامية ولعل ذلك الخوف قد قوى حين تمكن كثير من افراد الطبقة الجديدة من السلطة وقرّبوا من مواقع النفوذ لذلك كان لا بد لهم من اتباع سياسة جديدة يكون فيها الهاء للطبقة الجديدة عن النشاطات الضارة بامن الدولة من جهة ويكون فيها منافذ تلهية لافراد الشعب من جهة اخرى ، وقد كان امام هؤلاء النموذج قديم اتبعه الامويون وحقق نتائج ايجابية في بيئة الحجاز بعد نقل السلطة منه الى الشام . فقد شجع الامويون في تلك المرحلة الاباحه والمجون في الحجاز واجزلوا لاهله اسباب الثروة حتى غدت مدينة الرسول على عهدهم اكبر مركز من مراكز الفيان والمغنين واصبح الحجاز باسره مركزاً لادب الوله والعشق اباحياً كان او عفيفاً ولولا تلك القلة الباقية من الصحابة والتابعين الذين تابعوا رسالة العلم والدين ما بقي في ارض الرسالة اثر من اثارها الا النزر اليسير .

لقد رأى العباسيون هذا النموذج امامهم فارادوا ان يستغلوا اسلوبه في مجتمعتهم لتحقيق اهدافهم السياسية العليا المركزة في صرق الناس عن النزعات الضارة بامر الحكم . وقد ساعد العباسيين على تحقيق سياستهم هذه عاملان رئيسان .

### أولاً - اتساع رقعة الدولة وزيادة الخراج بصورة كبيرة :

ذكر ابن خلدون<sup>١١</sup> ان الخراج ايام المأمون بلغ ما يزيد على الاربعمئة مليون درهم وذكر السعدي<sup>١٢</sup> ان المهدي اورث ابنة المهدي ١٤ مليون دينار و ٦٠٠ مليون درهم وذكر ابن الاثير ان الرشيد خلف ٩٠٠ مليون درهم<sup>١٣</sup> .

ولم يقتصر الثراء - بالطبع - على الخلفاء وحدهم بل امتد الى وزرائهم وحجابههم والمتصلين بهم من كتاب وشعراء وسائر اصناف الطبقة الارستقراطية في المجتمع الجديد .

ثانياً : لقد مهد تغلغل العناصر الفارسية والاجنبية الطريق لحياة جديدة لم يعرفها العرب في صحرائهم . فقد بدأت ظاهرة الجوّاري والقيان والغلمان والحانات والتفنن في صنع الخمر ، وسائر الوان الاباحه التي تفرضها حياة التحرر والبذخ والتي نقلها الفرس من واقع حياتهم القديمة ولقد تأثرت حياة القصور الى حد كبير بذلك الواقع الجديد اذ قد خرج المهدي عن ذلك العرف الذي استنه السفاح والمنصور وهو اخذ النفس بالجد وكان تصرفه هذا بداية عهد جديد لمن جاء بعده من الخلفاء .

فاذا اجتمع المال ووسائل اللهو امكن لنا ان نتصور ما تكون عليه الحياة في مثل ذلك المجتمع ، غير ان ما يهمننا في موضوع بحثنا هذا بعض الظواهر الجديدة التي اتصلت بهذه الحياة واهمها ظاهرتان وهما :

#### ١ - ظاهرة الظرف :

الظرفاء طائفة من الطبقة الارستوقراطية الجديدة استهوتهم حياة اللهو والترف فاستنوا لانفسهم اسلوباً خاصاً في الحياة يتراوح بين اسلوب لبسهم واكلهم ومعاملاتهم . يقول الرشيد في طريقة لبسهم<sup>١٤</sup> « واحسن الزي عندهم ما تشاكل وانطبق وتقارب وانفق » .

ويقول الدكتور صلاح المنجد في ذلك<sup>١٥</sup> :

« وفي هذا ذوق وبراعة وفيه تمدن وحضارة بل فيه قانون الملابس والازياء الذي يتبعه

١١ - المفظة . ابن خلدون ١٧٩ - ١٨٩ .

١٢ - السعدي ٢٣٣/٩ .

١٣ - ابن الاثير ٧٦/٩ .

١٤ - الموشى الرشيد ١٤٧/٢ .

١٥ - الظرفاء والشحاذون . صلاح المنجد ص ٢٩ ط دار الكتب الجديدة .

مترفو باريس في هذا العصر سافت المدنية طرافنا اليه قبل مئات من السنين فادركوا ان سر الاناقة في اللباس هو التطابق والاتفاق وان شئت فقل الانسجام فلا تنافر في الالوان ولا تباین في الاثواب فاذا لبسوا اتخذوا من الاثواب الجداد ولم يميز واليس ثوب مغسول مع ثوب جديد ولا ثوب دنس مع ثوب مغسول ولا بد من اختيار الثياب نقية اللون اصفية غير مصبوغة بالزعفران ولا مغموسة بالطيب لئلا يشنع منظرها او يسطح طيها ولان هذه الثياب الصفرة وتلك المطيبات من لبس القيان والاماء .

ذلك جانب عني به الظرفاء وقد تجاوزوه الى « اتيكيت » الاكل ووضع الموائد واستعمال السواك وتزيين اماكن الشرب ووضع الازهار والرياحين فيها . ولقد حسن هؤلاء طرائق مشيهم واباحوا الحب فيما بينهم ذكوراً واناثاً وتفننوا في اظهار زندقتههم .

ولقد اصبح هؤلاء الظرفاء وضع خاص في المجتمع العباسي فلا تخلو المجالس الا بهم ولا يطيب الانس الا بحديثهم . برعوا في اساليب الفكاهة والتندر وبخاصة المتطرفات اللاتي تقرب الخلفاء اليهن بشتى وسائل الاغراء حتى لقد ذكر البيهقي<sup>١٦</sup> ان الرشيد اشترى لدنانير البرمكية جواهر بلغت قيمتها مئتي الف دينار ، وذكر ابن شاذان<sup>١٧</sup> ان الواثق استرضى فريدة بعقد جوهر لم يمنحه خليفة من قبل .

واذا تجاوزنا هذه الخصائص المظهرية وجدنا الظرفاء تميزوا بخصائص ادبية ساعدتهم في بلوغ تلك المكانة التي وصلوا اليها . فقد اثر في اداهم سلاسة اللفظ ورقة الشعور وسرعة البديهة واللباقة والقدرة على الحديث الطلق والتفنن في تنميق الكلام ووشوشته وادخال الوان البديع بما يتلاءم مع مظاهرهم الحياتية . كما اكثروا من العناية بالمعاني القريبة والطرائف الصريحة والملح المستظرفة وغير ذلك مما يدخل في هذا الباب .

٢ - غير ان هذه الصورة « الارستوقراطية » في المجتمع العباسي - لا تشغلنا عن رؤية صورة اخرى معاكسة . فمثل هذا الترف ما كان له ان يحدث لو وزعت الثروة بين الناس توزيعاً عادلاً . ان التباين في امتلاك الثروة هو الذي ساعد طبقة المترفين على الانغماس في ذلك اللون من الحياة . ولقد أدت بهم زيادة الصرف الى مد ايديهم الى اموال البائسين وضعفاء الاثرياء وكان من نتيجة ذلك النهب ان تحول كثير من افراد الشعب الى متسولين لا يجدون من العيش ما يكفي حاجاتهم الضرورية وهذا هو سر التناقض العجيب في

١٦ - المعاسن والمساوي . البيهقي ص ٥٤٤ .

١٧ - عيون التاريخ ابن شاذان خطوط ٦ سنة ٢٣٢ .

طبيعة المجتمع العباسي . طبقة ارستوقراطية تتلهى بكل اساليب اللذة والمجون وطبقة فقيرة لا تجد من القوت ما يكفيها للبقاء .

ولقد جددت ظاهرة اخرى في ذلك المجتمع ادت الى تدهور الامر بالنسبة للكثيرين تلك هي ظاهرة « المصادرة » فقد صادر المتوكل اموال الفضل بن مروان وضياحه كما صادر اموال علي احمد بن خالد ابي الوزير وقد امر اسحق بن ابراهيم ان ينظر له رجلين احدهما يوليه ديوان الخراج والاخر يوليه ديوان الضياع او المصادرة والشواهد على المصادرة في ذلك العصر كثيرة ومن اشهرها مصادرة المعتمد للوزير ابي الصقر بن بلبل وام المفتدر لكتابها ابن الخصيب .

فلا عجب اذن ان نجد الى جانب الفصور الفخمة والبنخ الهائل والظرف المليح اسواقاً تعج بالمسولين « ابناء ساسان » الذين اخترعوا كل اسلوب في التحايل ، ولم يقف التؤس عند تلك الطبقة وحدها بل شمل كثيراً من العلماء والادباء الذين اعيتهم الحيل في التقرب الى الخلفاء او الذين ابت لهم كبرياؤهم ان يمتنوا علمهم ، وكرامتهم في اعتاب البلاط او بين الاقداح والدنان .

فلم يكن غريباً والحال على ما هي عليه ان ينتزع بديع الزمان صور بطله من هذا الواقع البائس العجيب غير ان بديع الزمان لم يرد لبطله ان يموت بالفقر بل اراده صاحب حيلة لا يعرف الكبرياء ، يتحلى بظرف العصر وحيله . ومن حفا ان نطالب الذين يعيرون على ابي الفتح قلبه وعدم ثباته على مذهب واحد ان يسألوا انفسهم .

وكيف لابي الفتح ان يؤلف بين متناقضات العصر في شخصيته ان لم يكن على ذلك النحو من التناقض .

## الدولة في طورها الثاني :

لقد بنينا فكرتنا في تحليل الواقع السياسي والثقافي والاجتماعي على خطة شاملة ارادها العباسيون لتثبيت اسس الحكم في دولتهم . ولكننا في ذات الوقت كنا نعلم ان النظام السياسي للدولة العباسية لم يستمر متأسكاً كما كان عليه الحال في زمن السفاح والمنصور والرشيد فلقد لحقت به اسباب الوهن حتى غدا الخليفة في زمن المتوكل رمزاً للدولة مجرداً من السلطة يتسلم راتباً شهرياً كسائر الموظفين . وقد وصلت الدولة الى اقصى درجات الضعف حين قوى نفوذ الترك وتقلص نفوذ الفرس في بغداد لينبؤا لهم نفوذاً جديداً في المناطق الشرقية . فما ان بلغت السنة ٢٥٩ هـ حتى سقطت خراسان التي كان يحكمها

الطاهريون لتقوم فيها الدولة الصفارية التي أسسها يعقوب بن الصفار وقد امتد نفوذ تلك الدولة ثلاثين سنة الى ان سقطت على ايدي السامانيين الذين بسطوا نفوذهم من عام ٢٦١ هـ الى ٣٩٠ هـ على سائر انحاء ايران ولقد تقلص نفوذهم في منتصف القرن العاشر فحكموا خراسان وبلاد ما وراء النهر ولقد اقام البويهيون نفوذهم في غربي فارس ما بين سنة ٣٣٤ هـ - ٤٤٧ هـ ولقد عاصرتها ثلاث دول اخرى هي الغزنوية في افغانستان ٣٦٦ هـ - ٤٨٥ هـ . والحمدانية ٣١٧ هـ - ٣٩٤ هـ في الشام ثم الدولة الفاطمية في مصر ٢٩٧ هـ - ٥٦٧ هـ .

هكذا عاشت الدولة العباسية في القرن الرابع عصر بديع الزمان في ظل التقسيم ولكن هذا التقسيم لم يبلغ ذلك الواقع الذي تعرضنا له في ظل الدولة الموحدة . اذ لم يؤثر التقسيم في طبيعة البنية التي قام عليها النظام منذ ايامه الاولى فيما تلك الاجزاء المقسمة الا صوراً مصغرة لذلك النظام الذي بناه .

لقد ظل الواقع السياسي في الدول المقسمة كما كان عليه في ظل الدولة الموحدة . كل عنصر يشعر بذاتيته المستقلة وما التقسيم في حقيقة امره الا تأكيد للنزعة العنصرية في اقاليم الدولة العباسية تلك النزعة التي حاول ان يستغلها العباسيون في الحفاظ على التوازن في الدولة الموحدة غير ان قيام الدويلات على اساس عنصري لا يعني نهاية الصراع الشعبي . . فقد تداخلت العناصر بشكل لا يمكن معه ان نقول ان دولة ما قد خلت من بنية العناصر وما حدث بالفعل هو ان بعض العناصر قد سادت في بعض الدول وتغلبت على غيرها . ساد العنصر الفارسي في الدولة البويهية وساد العنصر العربي في الدولة الحمدانية ، واما الصراع فقد ظل باقياً لان الاقاليم كانت ما تزال تحتفظ بشيء من الولاء الشكلي للسلطة المركزية في بغداد .

وبصفة عامة لم تختلف بنية الدولة المستقلة عن بنية الدولة الموحدة اذ حاول حكام الدول المقسمة اقامة أنظمة شبيهة بالنظام الذي سارت عليه الدولة الموحدة . لقد ظل العلم مزدهراً في القرن الرابع تماماً كما كان مزدهراً من قبل بل ان بعض المؤرخين يرون بان القرن الرابع قد شهد نهضة فكرية لم يعرفها الفكر العربي الاسلامي من قبل ويبرر الاستاذ احمد امين<sup>١</sup> سبب ذلك بان كل عاصمة من عواصم الاقطار المستقلة أصبحت مركزاً

١٨ - ظهر الاسلام ١ / ٩٤ .

لحركة علمية مستقلة فلم يعد الامر كما كان في الماضي مقتصرأ على بغداد وحدها . لقد أصبح بمقدور الاديب ان يتنقل من مكان الى مكان بحثاً عن المجد او المال . ومن الطبيعي لازدهار الحياة العلمية على هذا النحو ، ان تشمل في داخلها بعض الظواهر الفكرية المصاحبة كالجدل والخصومات والمناظرات التي تقوم في بعض الاحيان على اساس فكري وفي احيان اخرى على اساس عنصري ، او على مجرد السفسطة والحذق لاساليب الجدل .

كذلك فقد اتسمت الحياة الاجتماعية في تلك المرحلة بنفس الميتم الذي اتسمت به الحياة في عهد سلطة بغداد . لقد تفنن الخلفاء في بناء القصور واستجلبوا القيان والظرفاء وبرزت طبقة من الاثرياء تستمتع بلذائذ الحياة تستنفذ من اموال الخراج ما تشاء ، واذا شاءت صادرت ما عند الطبقات الدنيا من عقار او مال والى جانبها طبقة اخرى تعاني الفقر . واهم من في هذه الطبقة طائفة العلماء الذين روى ابو حيان في كتابه الامتاع والمؤانسة طائفة من اخبار بؤسهم وضنكهم فلقد وصل الحال ببعضهم ان باع اعز ما يملكه من اجل ان يقتات كما فعل ابو علي الذي باع نسخته الاثيرة من كتاب الجماهرة . وقد مر كثير غيره بظروف مماثلة كالزحشري والابوردي والخطيب التبريزي .

وبصورة عامة لم يكن قيام الدويلات الصغيرة كما اسلفنا يعني قيام اوضاع جديدة لان حكام الاقاليم ساروا على غرار دولة العباسيين الموحدة فلم تختلف البنية الاجتماعية او العلمية او السياسية في جوهرها العام وهذا سبب تحليلنا لواقع الدولة العباسية في طورها الاول . انه تحليل يساعدنا على فهم الاسس التي انبثقت عنها تلك النظم التي سادت في عهد تقسيم الدولة والتي اهتم بديع الزمان بطل مقاماته وموضوعها كما سنرى .

#### تعقيب :

وهكذا وفي خضم هذا الانفتاح السياسي والثقافي المملوء بالصراع الطائفي والعنصري ظهر بديع الزمان الهمداني الذي كان عليه لكي يصل الى قمة الكسب المادي والادبي ان يسلك نفس السبيل الذي سلكه غيره من الادباء . وهو سبيل الملق والمداينة وازاقة ماء الوجه . غير ان بديع الزمان لم يكن من الذين يحسنون السير في ذلك الطريق . لانه كان قليل الحيلة ضيق النفس فأورثه كل ذلك المأ شديداً هو الذي تفتق عنه فن المقامة الذي صب فيه ثورته على نظام الحياة العباسية بأسرها . وستلقي فصولنا القادمة انواراً ساطعة على كل ذلك .

## الفصل الاول

شخصية بديع الزمان  
ودورها في الفن المقامي

ذكرنا ان البيئة تحدث أثراً فعالاً في الفنان بتشكيلها للظروف التي يلتقط منها نماذجها الفنية . ولكن البيئة لا تتحكم تحكماً كاملاً في تشكيل النماذج الفنية إذ لا بد للفنان من ان يلعب دوره الايجابي في تكييف تلك النماذج ، ذلك ان اي تجربة فنية لا بد وان تمر بنفس الانسان ومشاعره الداخلية اولا قبل ان تخرج الى الواقع المادي . ومن هنا يصبح من الضروري قيام الباحث بدراسة تحليلية للفنان وظروفه النفسية حتى يوجد العلاقة الموضوعية التي تربط بينه وبين البيئة التي عاش او يعيش فيها . ونحن مع عدم انكارنا لحقيقة ان الفن العظيم يتجاوز ظروف ابداعه الحقيقية ويظل محتفظاً بقيمته الفنية خارج تلك الظروف فاننا نرى من المحتم على مؤرخ الادب ان يتعرف على الاسس الموضوعية والحقيقية التي ساعدت على ظهور النماذج الفنية حتى يتمكن من فهمها فهماً صحيحاً في اطار مرحلتها التاريخية من الزمن ومن هذا المنطلق بدت لنا اهمية دراسة شخصية بديع الزمان دراسة شاملة حتى نرى الحالة التي كان عليها هذا الاديبي في واقع بيئته ثم اثر ذلك في كتابة المقامات التي نحن بصدد درسها .

### بديع الزمان الهمداني :

نجد لبديع الزمان ترجحات عدة موزعة بين يثيمة الدهر للثعالبي<sup>١</sup> ، وشذرات الذهب

لابن العماد<sup>٢</sup> ، ومعجم الادباء لياقوت<sup>٣</sup> ، ووفيات الاعيان لابن خلكان<sup>٤</sup> ، كما نجد له ترجمة حديثة عند الاستاذ « مرجليوث » في دائرة المعارف الاسلامية<sup>٥</sup> ، الى جانب الترجمات الاخرى المتناثرة في كتب الادب والتراجم .

ولا تعني كثرة التراجم هذه اننا امام فيض من المعلومات التي تسبر اغوار تلك الشخصية فما يزال كثير من الجوانب في شخصية بديع الزمان ينقصها التعليل وما يزال الباحث في جهد جهيد حتى يلم بالابعاد المعقدة في شخصية ذلك الرجل .

لقد اثني المؤرخون كثيراً على ترجمة الثعالبي لبديع الزمان مع ان تلك الترجمة لا تمدنا بالكثير من تاريخ حياته ومماته وتحركاته الرئيسية وبعض الصفات المتصلة بملكته الادبية . وقد صمت الثعالبي عن كثير من الجوانب التي لا بد للباحث من ان يلم بها حتى تكتمل الصورة في نظره ، وحتى يصبح قادراً على فهم ادب بديع الزمان على نحو افضل . واهم تلك الجوانب - في رأينا - اصل الرجل ومعتقداته ثم الدوافع التي حكمت تصرفه . فالثعالبي لم يقف عند تلك النواحي مفصلاً الا انه بالرغم من ذلك فقد تنبها من خلال ترجمته الى مصدر هام نعتد عليه وهو رسائل بديع الزمان التي بدا من خلال ما رواه الثعالبي انه اعتمد عليها اعتماداً كبيراً .

يخبرنا الثعالبي ان مولد بديع الزمان كان في همذان ولا يحدد موعداً لتاريخ ميلاده غير انه يخبرنا ان تاريخ وفاته كان في سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة<sup>٦</sup> ، وانه اربى في تلك السنة على الاربعين مما يدل على ان ميلاده كان في بداية النصف الثاني من القرن الرابع .

ويخبرنا كذلك انه كان<sup>٧</sup> « مقبول الصورة خفيف الروح حسن العشرة ناصع الظرف عظيم الخلق شريف النفس كريم العهد خالص الود حلو الصداقة مر العداوة » .

- ٢- ج ٣ ص ١٥٠ .
- ٣- ج ٢ ص ١٦١ .
- ٤- ج ٦ ص ٦٨ .
- ٥- دائرة المعارف الاسلامية مادة مقامة .
- ٦- بتيمة الدهر ٢٥٨/٤ .
- ٧- بتيمة الدهر ص ٢٥٧ .

ولا نعرف كثيراً عن طفولته وكل ما يحدثنا به الثعالبي هو انه هاجر من بلده همذان سنة ثمانين وثلاثمائة اي بعد ان بلغ الثلاثين او كاد ويحدثنا بانه في هذه السن كان قد استنفذ علم استاذة احمد بن الحسين بن فارس واستترف بحره غير انه لا يحدثنا عن الاسباب التي حدث به الى مفارقة بلده وفيما يبدو فانه خرج من همذان بدافع الطموح الذي يعتري اصحاب النبوغ من طبقته اولئك الذين يطلبون المجد كتاباً او مؤسسين في قصور الخلفاء والسلاطين ، اذ يتضح من بعض رسائله انه خرج من همذان على غير رغبة ابيه الذي ظل يرأسه في حرقة ناصحاً اياه بالبعد عن حياة اللهو والمجون .

ولقد كانت وجهة البديع في اول امره الى الصاحب بن عباد وكان الصاحب في ذلك الزمن مقصداً القضاة وكانت حضرته زاخرة باهل العلم والادب .

يحدثنا الثعالبي ان الصاحب اكرم وفادة البديع . وقد اختلف المؤرخون في الفترة التي لبثها في حضرة الصاحب اما نحن فنميل الى الرأي القائل بانها لم تكن فترة وجيزة اذ لا نشك في ان ثمة خطأ وقع في قول الثعالبي ان بديع الزمان قد وافى نيسابور سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة ولعله اراد ان يقول سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة لانه العام الذي وقعت فيه المناظرة بين بديع الزمان وابي بكر الخوارزمي ذلك ان الخوارزمي توفي في عام ثلاثة وتسعين وثلاثمائة اي بعد عام من مناظرته لبديع الزمان . وعلى ذلك نرجح بان الجزء الاكبر ما بين عام ٣٨٠ - ٣٩٢ قضاه البديع في حضرة الصاحب ، وقد انتقل من بعده الى جرجان ونحن لا نستبعد ان يكون بديع الزمان قد غادر حضرة الصاحب غير راض - كما ذكر ذلك بعض المؤرخين - ولكننا نستبعد ان تكون الهجرة بسبب حسد الصاحب لبديع الزمان والارجح اخذ امرين اما ان بديع الزمان بعد طول البقاء احس بانه لم يوفق الى ما كانت تصبو نفسه اليه واما ان خلافاً شجر بينه وبين الحساد في مجلس الصاحب وكان سبباً في مفارقتها له ، ومن الجائز ان يكون العداء العنصري الذي كان يواجهه به سبباً في رحيله عن حضرة الصاحب وان كان هذا الدافع يدخل ضمن السبب الاول .

ومهما يكن من امر فان فترة بقائه عند الصاحب اتاحت له فرصة عظيمة في الاخذ من العلماء والشعراء والتعرف على اساليبهم وقد كانت هذه فرصة مناسبة له كي يتعرف على شعراء « الكذبة » مثل ابن الحجاج وابن سكرة وابي دلف وغيرهم ، وكانت تلك اولى الشرارات التي قدحت زناد فكره في طريق المقامة .

ويذكر الثعالبي ان بديع الزمان اقام مدة في جرجان وهو في طريقه الى نيسابور وقد قضى

تلك الفترة في<sup>٨</sup> «مداخلة الاسماعيلية والتعيش في اكنافهم والاقباص من انوارهم واختص بابي سعيد محمد بن منصور . . . ونفقت بضائعه لديه وتوفر حظته من عاداته المعروفة في اسداء المعروف والافصال على الافاضل ولما استقرت عزيمته على قصد نيسابور اعانه على حركته وازاح عله في سفرته » .

ونستخلص من هذا النص ان حاله قد بلغت من السوء في جرجان حداً لا يوصف . . . كيف لا وهو يلتجئ الى التعيش في اكناف الاسماعيلية مع العلم بان ابا شجاع شيرويه بن شهردار اورد ما يأتي في تاريخ همذان حول مذهبه<sup>٩</sup> ان احمد بن الحسين بن يحيى بن سفيد بن بشر ابا الفضل الملقب ببديع الزمان سكن هراة روى عن ابي الحسين احمد بن فارس بن زكريا وعيسى بن هشام الاخباري وكان احد الفضلاء الفصحاء متعصباً لاهل الحديث والسنة ما اخرجت همذان مثله » .

وليس ثمة ما يدعوننا للشك في رواية ابي شجاع لاسما ان المناظرة بين ابي بكر الخوارزمي وبديع الزمان جاءت مؤكدة لهذا المنحى ، فقد خرج بديع الزمان في تلك المناظرة عن وفاته الموهود لاهل العلم بصورة تؤكد انه رمى من وراء المناظرة الى النيل من الشيعة بهزيمة واحد من اكبر دعائهم في عقر دارهم لاسما وان نيسابور كانت معقلاً من اكبر معاقل الشيعة .

ويؤكد سوء حاله في جرجان تلك الرسالة التي بعث بها الى ابي نصر المرزبانى يقول<sup>١٠</sup> :

« وقد كان رسم ان اعرفه سبب خروجي من جرجان الى خراسان وقد كانت القصة اني لما وردت من ذلك السلطان حضرته التي هي كعبة المحتاج لا كعبة الحجاج ومشعر الكرام لا مشعر الحرام ومنى الضيف لا منى الخيف وقبلة الصلات لا قبلة الصلاة وجدت فيها ندماء من نبات العام اجتمعوا قبضة كلب على تلفيق خطب ازعجني من ذلك الفناء واشرف بي على شرف الفناء لولا ما تدأركه الله بجميل صنعه وحسن وقعه ولا اعلم كيف احتالوا وما الذي قالوا لكن الجملة ان غيروا السلطان واثار على اخواني بمفارقة مكاني » .

٨ - بتيمة الدهر ص ٢٥٧ .

٩ - معجم الادباء : ياقوت ج ٢ ص ١٦١ .

١٠ - هامش خزائن الادب لابن حجة الحموي ص ١٥٩ .

وفي رسالة اخرى يبين لنا ان طريقه الى نيسابور كانت محفوفة بالمخاطر فقد خرج عليه لصووس بزوا . ما معه فوافها خالي الوفاض<sup>١١</sup> .

« وقد كان اتفق علينا في الطريق من العرب اتفاق لم يوجبه استحقاق من بزة بزوها وفضة فضوها وذهب ذهبوا به ووردنا نيسابور براحة انقى من الراحة وكيس اخلى من جوف حمار » .

ويبدو ان بديع الزمان لم يصب حظاً من الحياة في نيسابور فعلى الرغم من انتصاره على اديب نيسابور ابي بكر الخوارزمي في مناظرته الشهيرة فان حاله في هذه المدينة لم يتبدل بل انها ساءت لدرجة ان اصبح مكدياً في شوارع المدينة واسواقها .  
جاء في رسالة كتبها للشيخ العميد<sup>١٢</sup> :

« انا اطل الله بقاء الشيخ العميد مع احرار نيسابور في صفة لا فيها اعان ولا عنها اصابان وشيمة ليست بي تناط ولا عني غماط وحرفة لا فيها اداك ولا عني تزال وهي الكدية التي على تبعتها وليست لي منفعتها فهل للشيخ ان يلطف بصنيعته لطفاً يحط عنه درن العار والافتقار ليخفف على القلوب ظله ويرتفع عن الاحرار كله ولا ينقل على الاجفان شخصه بانعام ما كان عرضه عليه من اشغاله ليعلق باذياله وليستفيد من خلاله فيكون قد صان الفضل عن ابتذاله والاذب عن اذلاله واشترى حسن الشاء بجاهه كما يشتره بماله وللشيخ العميد فيما يجيب به صنيعته من وعد يعتمده ووفاء يتلو ما بعده على رايه ان شاء الله » .

ان هذه الرسالة هامة جداً بالنسبة لأولئك الذين لم يروا في المقامة سوى جانبها الهزلي او الذين تصوروا ان بديع الزمان لم يكن سوى مكدي يعبر عن حال طبخته تعبيراً واقعياً . والحقيقة التي لا مراء فيها هي ان بديع الزمان قد دفع الى هذا الواقع من الحياة دفعاً على ما فيه من فضل وعلو همة وتلك هي المأساة التي اوجدت ادب المقامة . . . فلم يكن بديع الزمان مجرد هازل ينتهج اساليب المكدين وحيلهم كي يوفر لنفسه العيش الرغيد . بل ان واقع حاله يؤكد بانه حتى في تلك الحرفة التي تعلمها في نيسابور لم يستطيع ان يجيد اساليبها وحيلها وبالتالي لم تسعفه في تغيير حاله كما توضح ذلك رسالته للشيخ العميد .

١١ - هامش خزائن الادب لابن حجة الحموي ص ١٦٩ .

١٢ - هامش الخزائن ص ١٦٩ .

والسؤال الملح . . . لماذا لم يجد رجل في مثل فضل بديع الزمان مكانه المناسب في مجتمعه ؟ ان سيرة بديع الزمان من خلال رسائله . تؤكد انه لم يولد ليصبح محتالاً ولو كان باستطاعته ذلك لبلغ اعلى المراتب والحقيقة هي ان بديع الزمان كان رجلاً قليل الحيلة ، وليس لانسان ان يعتقد بانه كان صورة شبيهة لبطله ابي الفتح الاسكندري ذلك ان نموذج ابي الفتح الاسكندري يمثل واقعاً مجسماً امدته به ثقافته وهو يعتمد على الخيال لانسان لا نتصور نموذجاً صحيحاً في الحياة يمكن ان يصل الى تلك الدرجة من الاتقان التي وصل اليها ابي الفتح الاسكندري واما خلق مثل هذا النموذج فليس بالغريب على اولي الذكاء . وعليه فان ذلك الواقع الذي صورته في نيسابور يجعلنا نقف موقف الخذر مما جاء على لسان الثعالبي من تحسين احواله المادية بعد مناظرته الشهيرة للخوارزمي .

يقول الثعالبي ١٢ :

« طار ذكر الهمداني في الافاق وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء وظهرت اماره الاقبال على اموره وادركه اخلاف الرزق واركبه اكتاف العز ، واجاب الخوارزمي داعي ربه فخلا الجو للهمداني وتصرفت به احوال جميلة واسفار كثيرة ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة الا دخلها وجنى ثمرتها واستفاد خيرها وميرها ولا ملك ولا امير ولا وزير ولا رئيس الا استمطر عنه بنوء وسرى معه في ضوء ففاز برغائب النعم وحصل على غرائب القسم والقي عصاه بهراة واتخذها دار قراره ومجمع اسبابه وما زال يرتاد للوصلة بيتاً يجمع الاصل والفضل والطهارة والستر القديم والحديث حتى وفق التوفيق كله وخسار الله في مصاهرة ابي علي الحسين بن محمد الخشنامي وهو الفاضل الكريم الاصيل فتغيرت احوال ابي الفضل بصهره وتعرفت القررة في عينه والقوة في ظهره واقتنى بمعونته ومشورته ضياعاً فاخرة وعاش عيشة راضية » .

فكيف يستقيم لنا ان نسلم بهذا الكلام مع علمنا بان بديع الزمان لم يعيش بعد مناظرته للخوارزمي اكثر من خمس سنوات ذلك ان وفاته حدثت في عام ثمانية وتسعين وثلاثمائة . فكيف تمكن في تلك المدة القصيرة ان يطوف بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلداً بلداً ليحجني ثمارها مع ما نعلمه من بعد الشقة وصعوبة وسائل السفر في تلك الازمنة القديمة ثم

ان الرجل كي يحصل على مير بلد فانه بحاجة الى ان يقيم فيه حتى يتعرف على اهله ويصبح له فيما بينهم من يعينه على قضاء مآربه .

تلك الحقيقة وحدها تجعلنا نقف موقف الخذر من كلام الثعالبي ونرجح ان بديع الزمان ظل فقيراً مقاسياً طوال حياته ، فاذا علمنا انه مات في سن الاربعين او بعدها بقليل فما علينا الا ان ننظر في تلك الرسالة التي كتبها الى الاسفراييني لنعرف واقع حاله في تلك السن ١٤ .

« تصورني الشيخ الجليل حجراً لا يؤثر في الماء ولا ينضجني الليل والنهار وللشباب نزقة طيش ثم يربعون اذا جاء الاربعون وينزعون ، وان كانوا لا يوزعون ولقد نظرت في المرأة فوجدت الشيب يثلهب وينهب ، والشباب يتأهب ويذهب وما اسرج هذا الاشهب الا السير ، واسأل الله خاتمة خير » .

فكيف نطن بعد تلك الرسالة انه اصاب شيئاً من الخير وهو الذي يروي ان حاله لم يتبدل حتى بعد ان جاوز سن الشبان او كاد . وما زال ينتقل من بلد الى بلد بحثاً عن رزقه ولا يرجو شيئاً سوى ان تكون خاتمة خاتمة خير .

حقاً هنالك مسألة عرض لها في باقي تلك الرسالة تجعلنا نقف حائرين . والخيرة تأتي من الغموض الذي يكتنف قوله ١٥ :

« انا ارجو ان يكون ما نسبني اليه ولي النعمة ادام الله علوه من الظلم والعدوان مطاوعة ومزاحاً فان كان اعتقاد فلأمي الويل وسال بي السيل فاما الخراج وتوابعه فوالله ما احوج عاملاً الى اقتضاؤه انما الحديث في جزاف يطلب ومحال يكتب ، فاما حقوق الديوان اصلاً وفرعاً فلا يدعى العمال على باقيا الا غرمت للدرهم ديناراً ، امجنون انا واما الشركاء فهم يقدوني بالامهات والاباء ، وقد سمع الشيخ الجليل كلامهم والذكرى تنفع المؤمنين » .

والغموض يأتي من ناحية اننا لا ندري هل التحق بوظيفة في ديوان الحكومة ثم تأمر مع بعض الشركاء بتحويل جزء من اموال الدولة لمصلحتهم الذاتية ام ان الاموال التي يطلبها منه السلطان هي استحقاق الدولة عليه بعد ان اصاب حظاً من الغنى مع شركائه وما يشير



الشك في نفوسنا تلك المقدمة التي عرضنا لها أولاً ، والتي يروي فيها أن حاله لم يتغير حتى بعد أن بلغ الأربعين أما إذا جاز أن هذه الأموال هي استحقاق الدولة عليه من الخراج ، فنحن نرجح الجزء الأخير من كلام الثعالبي وهو مصاهرته للخشنامي الذي اتساح له أن يتصرف في أمواله ويدبرها له ونستبعد كل البعد أن يكون قد أصاب شيئاً من أدبه في طواف له على الملوك والأمراء .

### شخصية بديع الزمان :

( ١ ) قلة حيلته :

بعد أن المنا بالمراحل الرئيسية في حياة بديع الزمان ، والتي أمدنا بها الثعالبي وغيره من الذين ترجعوا للبديع نعود لنقف قليلاً في محاولة لتجاوز تلك الحدود التي وقفنا عندها عنى أن نسبر أغواراً جديدة في شخصية الرجل . ولعلنا نجد أنفسنا أمام سؤال محير هو : -

لماذا اتصل البؤس في حياة بديع الزمان مع أن الثعالبي يقول في وصفه أنه :

« معجزة همدان ونادرة الفلك وبكر عطار وفرد الدهر وغرة العصر ومن لم يلق نظيره في ذكاء القرينة وسرعة الخاطر وشرف الطبع وصفاء الذهن وقوة النفس ومن لم يتحرك قرينه في ظرف النثر وملحه وغرر النظم ونكته ولم ير أن أحداً بلغ مبلغه من لب الأدب وسره وجاء بمثل أعجازه وسحره فانه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب » .

فكيف يجوز لنا أن نتصور جلاً جمع كل تلك المواهب في شخصه ثم هو لا يستطيع أن يشق طريقه في عصر بلغ فيه من هم دونه شأواً عظيماً لاسيما أن الحكام والولاة كانوا يتبارون فيما بينهم في انتظام الناهيين من أهل الفكر والأدب إلى مجالسهم ، أن الذين يرون بأن بديع الزمان كان رجلاً أثر حياة التسول والاكداء لا يستطيعون أن يعتذروا له بقلة الحيلة في الوصول إلى أولئك الولاة والبقاء لديهم حتى يستفد ما عندهم من عطاء .

ولكنها الحقيقة بالفعل فقد كان بديع الزمان رجلاً قليل الحيلة أو إذا شئنا قلنا أنه لم يكن يحسن استخدام الحيل ولا يغرق أنه امتن مهنة الكدية الوضيعة . فأغلب الظن أنه

١٦ - ينبة الدهر ص ٢٥٦ .

دفع اليها دفعاً وعلى كره منه ورسالته إلى الشيخ العميد تبن امتعاضه من تلك الصنعة التي اعتبرها وصمة عار في جبينه ولعله قد صرح برأيه في الكدية خلال تسجيله للمناظرة التي دارت بينه وبين الخوارزمي ، فقد جاء في قول الأخير :

« أنا قد كسبت بهذا العقل دية أهل همدان مع قلته فما الذي أفدت أنت بعقلك مع غزارته » .

فجاء في رد بديع الزمان :

« فقلت أما قولك دية أهل همدان فما أولاني أن لا أجيب عنه لكن هذا الرأي الذي تتمدح به وتبجح وتتشرف وتتصلف من أنك شحذت فاحذت وسألت فحصلت ، واجتذبت فأغتنيت ، فهذا عندنا صفة ذم يا عافاك الله ، ولأن يقال للرجل يا صانع أحب إليه من أن يقال يا شحاذ ويا مكذوق صدقت ، أنت في هذه الحيلة أسبق ، وفي هذه الحرفة أعرق ولعمرك أنك اشحذت وأنت في الكدية انفذت وأنا قريب عهد بهذه الصنعة » .

أفلا يحفزنا مثل هذا الرأي الصريح أن نغير رأينا في الرجل ونخرجه من وصمة العار التي لحقت به ؟ ... حقاً لقد وجد المؤرخون علاقة مباشرة بين المقامات التي أبدعها بديع الزمان وبين تلك الحرفة التي امتننها مضطراً في فترة من فترات حياته . ولكن هؤلاء قاموا بربط سطحي بين المقامات وبين أسلوب الرجل في حياته الخاصة . لقد وقعوا في خطأ التصور حين خيل اليهم أن بديع الزمان أراد مجرد التعبير عن لون من الحياة خبره ونسوا أنه إنما كان يقدم في مقاماته نقداً مريراً لواقع من الحياة في عصره وضع فيه أهل العلم الحقيقي ورفع أهل الجهل والحيلة .

وكم من مرة خاطب البديع نفسه بقوله :

« يا أبا الفضل ليس هذا بزمانك وليست هذه بدارك ولا السوق سوق متاعك بثت الكتب وما وسقت والأقلام وما نسقت والمحابر وما سقت والاسجاع إذا اتسفت واللوم ولا هبني العلوم » .

وله رقعة أخرى إلى مستميج عاوده مراراً تبين نظره إلى الأدب وتلقى ظلالاً على كرم

١٧ - خزانة ابن حجة ص ٥٨ .

١٨ - خزانة ابن حجة ص ٥٨ .

١٩ - نفسه ص ١٢٥ .

نفس لا يوجد لدى السوقه من المكدين يقول ٢٠ :

« عافاك الله مثل الانسان في الاحسان مثل الاشجار في الاثمار سبيل من اتى بالحسنة ان يرفه الى السنة وانا كما ذكرت لا املك عضوين من جسدي وهما فؤادي ويدي ، اما الفؤاد فيعلق بالوفود واما اليد فتولع بالجنود ولكن هذا الخلق النفيس لا يساعده الكيسل وهذا الطبع الكريم ليس يحتمله الغريم ولا قرابة بين الادب والذهب قلما جمعت بينهما ، والادب لا يمكن ثرده في قصعة ولا صرفه في ثمن سلعة ولي مع الادب نادرة جهدت في هذه الابام بالطباخ ان يطبخ من جيمية الشباخ لوناً فلم يفعل وبالقصاب ان يسمع ادب الكتاب فلم يقبل واحتيج في البيت الى شيء من الزيت فانشدت شيئاً من شعر الكميت الفأ ومئة بيت فلم يغن ، ولو وقعت ارجوزة العجاج في توابل السكياح ما عدمتها عندي ولكن ليست تقع فما اصنع فان كنت تحسب اختلافك لي افضالاً على فراحتي ان لا تطرق ساحتي وفرجي ان لا تحيى والسلام » .

حقاً لقد كان بديع الزمان من اكبر ادباء عصره ، ولكنه لم يكن يحسن اساليب الوصول الى مآربه فما اغناه ادبه شيئاً وضافت به الحياة حتى تسول في الاسواق ذلك في الوقت الذي كان يرى فيه غيره يحسنون اساليب الوصول وحيله فائر ان يصورهم في مقاماته التي لا تمثل - في الحقيقة - واقعه المفروض عليه فحسب ، بل تمثل واقعاً حياً في بيته لم يقدر على معاشته ومع ذلك فلم تكن قلة الحيلة وحدها هي السبب في شقائه بل ان وجوده في غير عصره قد ساعد ايضاً في اتسام واقع حياته بظاهرة البؤس المتصل .

( ٢ ) اصل بديع الزمان واثره في بؤسه :

هناك مسالتان لا بد من الاخذ بهما قبل بحث البؤس في حياة بديع الزمان :  
اولاً - نحن نعلم ان الدولة العباسية في منتصف القرن الرابع وعلى عهد بديع الزمان كانت تعيش مرحلة التقسيم وكما هو معروف فان بديع الزمان قد نشأ في المناطق الشرقية التي يسيطر عليها الفرس ولقد جال كثيراً في المناطق الخاضعة لبني بويه .  
ثانياً - ان الصراع العنصري في تلك البلاد لم يخدم نتيجة قيام الدويلات المستقلة فقد ظل كما هو مع تحول اساسي ادى الى ان يصبح الفرس هم المسيطرين . فبعد ان كان الحكم في يد العرب في بغداد وكان شعراء الفرس وادباؤها يقصدونهم لاختذ نواهم

انعكس الامر الان واصبح كثير من العرب يقصدون حكام الفرس لاختذ نواهم . . لقد رأينا من قبل حكام بني العباس يفسحون المجال امام الفرس حتى مرتبة الوزارة ولكن الامر في الدويلات المستقلة لم يكن على هذا النحو فقد اثر الفرس انفسهم في مناصب الدولة الرسمية وفي مجالس الادب وفي التقرب الى الملوك . فاذا كان الامر على هذا النحو ليس من الغريب ان يظهر رجل له مكانة بديع الزمان الادبية ، ولا ينال حظاً من مناصب الدولة الرسمية ؟ ان هذا الواقع يجعلنا نقف موقف الشك من اصل الرجل .

لقد اجعت كتب الادب على ان همدان هي الارض التي ولد فيها البديع غير ان مجرد الولادة لا تحدد نسبة الرجال الى اصولهم . وللأسف فهذه نقطة ضعف جوهرية لم يستند اليها مؤرخو الادب المعاصرون في الرد على المستشرقين الذين حاولوا ان ينسبوا معظم ما ابدع في التراث العربي الاسلامي الى العقل الفارسي . نحن لا ننكر الدور العظيم الذي قام به الفرس في هذا التراث ولكن من واجبتنا ان ندرك انه ليس كل من ولد في فارس فهو فارسي الاصل ، لان العرب بعد الفتح أثرت الحياة في بلاد فارس الغنية ذات الخيرات الوفيرة والهواء العليل فهاجرت جماعات كثيرة منها الى تلك البلاد ، وتوالدت هناك ولا يستبعد ان كثيراً من الكتاب الذين اجادوا الكتابة بالعربية هم سليلو اولئك المهاجرين .

وبناء على ذلك فنحن نرجح ان بديع الزمان كان احد تلك الطائفة ونستدل على ذلك بقوله في احدي رسائله يعرف نفسه الى الشيخ ابن احمد الاسفراييني<sup>٢١</sup> وهو اول من استوزر لابي القاسم بن سبكتكين الناصر لدين الله فاتح السند والهند .

« اني عبد الشيخ واسمي احمد وهمذان المولد وتغلب المورد ومضر المحتد » .  
وجاء في رسالة كتبها لاساتذه احمد بن فارس<sup>٢٢</sup> :

« وانا وان لم اكن خراساني الطينة فاني خراساني المدينة والمرء من حيث يوجد لا من حيث يولد والانسان من حيث ينبت لا من حيث يثبت »<sup>٢٣</sup> .  
ولقد مر بنا من قبل قوله مخاطباً نفسه « يا ابا الفضل ليس هذا بزمانك ، وليست هذه

٢١ - هامش خزنة الأدب - ابن حجة الحموي ص ٨ .

٢٢ - نفسه ص ٤٤٣ .

٢٠ - خزنة ص ٢٢٤ .

بدارك» ولقد رويت له هذه الابيات في شعوبي هجا العرب :

تريد على مكارمنا دليلاً<sup>٢٣</sup> متسى احتاج النهار الى دليل  
السنا الضاربين جزى عليكم وان الجزى اولى بالذليل  
متسى قرع المنابر فارسي متسى عرف الاغر من الحبول  
متى عرفت وانت بها زعيم اكف الفرس اصراف الخبول  
فامجد من ابيك اذا انتهينا عرا كالليوث وكالنبول

كل تلك دلائل تؤكد ان بديع الزمان كان عربي الاصل ولئن كنا لا نجد من المؤرخين من يثبت له هذا النسب ، فان تركيز المؤرخين على انه كان من اهل السنة او انه كان غداة بين الكفاة<sup>٢٤</sup> في صفاء العقيدة يرجح بانه كان من عرب الحجاز الذين هاجروا مع بداية الفتح وظلوا على ما كانوا عليه من صفاء العقيدة ولعل مما يرجح لدينا هذا الرأي ان بديع الزمان كان من بيت ديني وان اخاه كان مفتي بلده . فقد ذكر ياقوت في معجمه : « قال شيرويه ومحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد بن بشر الصفار الفقيه ابو سعد اخو بديع الزمان ابي الفضل احمد بن الحسين بن يحيى لايه واهمه مفتي البلد روى عن ابن لال وابن تركان وعبد الرحمن الامام ، وابي بكر محمد بن الحسين الفراء وابن جاثحان وذكر جماعة وافرة قال وادركته ولم يفض لي عنه السماع وكان في الحديث ثقة ويتهم بمذهب الاشعرية » .

كذلك فقد وجدنا في رسائله رسالة يخاطب بها احد اخوته في الحجاز مما يجعلنا نعتقد ان بعض افراد أسرته قد هاجر بلاد فارس في وقت لاحق بعد ان ضاقت بهم سبل العيش .

فاذا تبين لنا ملام ذلك ان بديع الزمان كان عربي الاصل سني المذهب عرفنا سرشقائه في بلاد فارس آنذاك لان مثله ما كان له ان ينال حظاً في سلطان الفرس او في معقل الشيعة .

٢٣ - بديع الزمان فكتور الكك ص ٢٧ .

٢٤ - هامش خزانه ابن حجة ص ٣ .

## مناظرته للخوارزمي :

وما دمنا نبحث هذا الجانب من حياة البديع فعلياً ان نقف ولو قليلاً امام تلك المناظرة التي جرت بينه وبين ابي بكر الخوارزمي في نيسابور لما لها من اهمية في تدعيم جانب من رأينا الذي ذكرناه سابقاً . فعلى الرغم من ان تلك المناظرة كتبت بقلم بديع الزمان فان المرء ليعتطف فيها مع ابي بكر الخوارزمي ذلك ان روح التجني فيها كانت ظاهرة . ان السبب الذي ذكره بديع الزمان من ان ابا بكر الخوارزمي لم يحسن وفادته حين قدومه الى نيسابور لا يقف سبباً مقبولاً في قيام تلك الحرب بينه وبين الخوارزمي لاسيما ان الخوارزمي قد اعتذر لبديع الزمان واخبره انه فعل في اكرامه ما قدر عليه وهذا عذر مقبول .

جاء في رقعة لابي بكر<sup>٢٥</sup> :

« وصلت رقعة سيدي ومولاي ورئيسي اطلال بقاءه الى آخر السكباغ وعرفت ما تضمنته من خشن خطابه ومؤلم عقبه وعتابه وصرفت ذلك منه الى الضجر الذي لا يخلو منه من مسه عسرونا به دهر والحمد لله الذي جعلني موضع انس وفطنة مشتكى ما في نفسه اما ما شكاه سيدي ورئيسي من مضايقتي اياه في القيام فقد وفيت له حقه ايده الله سلاماً وقياماً على قدر ما قدرت عليه ووصلت اليه ولم ارفع عليه الا السيد ابا البركات العلوي ادام الله عزه وما كنت لارفع احداً على من جده الرسول » .

ولكن وعلى الرغم من هذا الرد الرقيق من جانب ابي بكر الخوارزمي فان نائبة بديع الزمان لم تهدأ حتى قامت بينهما المناظرة الشهيرة وقد سعى الناس بينهما فيما بعد بالوفاق ولكن بديع الزمان لم يرع عهد الصلح وشرع ينال من الخوارزمي في مجالسه الخاصة حتى ثارت نائبة ابي بكر وبلغ الضجر منه مبلغاً عظيماً فطلب من بديع الزمان اعادة المناظرة لما سمع انه يدعى الغلبة عليه .

وهكذا نرى ان السبب الذي ذكره بديع الزمان لا يقف مقتنعاً في مثل تلك الخصومة الكبيرة لاسيما ان ابا بكر قد وافى بديع الزمان باعتذاره الرقيق .

٢٥ - هامش خزانه ابن حجة ص ٣٦ .

فلماذا اذن اصر بديع الزمان على موقفه المتعسف تجاه ابي بكر ؟

السبب في رأينا لا يخلو من ضجر بديع الزمان بحاله في تلك البيئة التي يسيطر عليها الفرس والشيعه . لقد اراد بديع الزمان ان يهزم ابا بكر حتى ينال بانتصاره من كل خصومه من الفرس والشيعه . ان هذا السبب يبدو في رأينا اكثر « معقولة » مما اثبتته بديع الزمان بخطيده .

### بديع الزمان والمقامة :

واخيراً فقد تكشف لنا من خلال هذه الدراسة حقائق رئيسية وهامة في حياة البديع نوجزها فيما يلي : انه على الرغم من اجماع المؤرخين على نبوغ بديع الزمان وعلو مرتبته في الادب فقد عاش حياة معظمها بؤس . وليس من سبيل الى تعليل البؤس المتصل في حياته سوى تلك السمات التي اتصف بها وهي :

١ - قلة حيلنه .

٢ - عرويته .

٣ - انحيازه الى المذهب السني في بيئة يسيطر عليها الشيعة .

تلك هي العوامل التي ادت الى بؤسه ، وعليه فحين كتب بديع الزمان مقاماته انتزع مضمونها وخصائصها من الواقع الذي عاش فيه . فابو الفتح الاسكندري يمثل قدرة البديع الفائقة في الارتمال وسرعة البديهة بل وتقدمه في صناعة الادب ، غير انه تفوق عليه بتلاقي النواقص الاخرى في شخصيته . فهو محتال يجيد اساليب العصر وفنونه ، يغير مبادئه ويغير اصله يدوس على كرامته ويؤزور شخصيته . وهذا هو سر نجاح الاسكندري كبطل ينجلي الواقع من خلاله . لقد كان متناقضاً لانه كان ابن البيئة تشم رائحتها في سلوكه . وبالرغم من ان بديع الزمان اخفق في ان يسلك سلوك ابي الفتح في واقع الحياة فإنه كان يحمل في ذاته تقديراً عميقاً لا نموذج ابي الفتح الاسكندري الذي ملأه سرور عظيم حين كشف له عن جهل الناس وحققهم واحتفائهم بالسطحيات من امور الحياة . ولعل هذا التقدير قد تجلى بوضوح في درجة الاتقان التي بلغها في رسم صورة الاسكندري اذ قد وجد في ابداعه لتلك الشخصية متنفساً لازمته الخاصة ولان بديع الزمان قد منسج الاسكندري كل جهده وطاقته فقد بقي هذا النموذج على مر الاجيال رمزاً حياً للمأساة العابرة من الفنانين .

## الفصل الثاني

### المؤثرات الانسانية والفنية

في

### صياغة المقامة البديعية

### تمهيد

الحياة العباسية هي البيئة التي التقط منها بديع الزمان موضوعاته المقامية. إنها الجرح الذي انفتح عن نموذج ابي الفتح الاسكندري. ولكن الجرح لا بد له من قوس، ذلك ان الفن الاصيل صناعة لا يتقنها الا عقل ماهر ولعلنا اذا وقفنا امام نموذج من المقامات الهمدانية وجدنا انفسنا امام بناء رصين انعقدت فيه مسالك متشعبة كل مسلك منها امد الفنان بعنصر من عناصر ابداعه، وبديع الزمان لم يوجد نموذجه المقامي من الفراغ والسكون، فالى جانب تأثير البيئة فيه نظر الى التراث الفني في عصره وفي العصور السابقة له واعمل عقله مطورا ومعدلا حتى تهيأ له في آخر الامر أن يخرج بنموذج المقامة الفنية، فلا مناصر اذن من أن نحلل في هذا الفصل عناصر هذا النموذج الذي صنعه ثم نجاول بعد ذلك أن نستجمع الروافد التي أحدثت أثرها في صناعته ولعلنا بإسراء نص كامل لآحدى مقامات الهمداني نستطيع ان نقيم دراستنا بشيء من الموضوعية والتركيز.

### المقامة الأصفهانية :

يقول بديع الزمان<sup>١</sup> :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت بأصفهان اعترم المسير بالري فحللتها حلول الفى أتوقع القافلة كل لمحّة وأترقب الراحلة كل صيحة ، فلما حم ما توقعته نودى للصلاة نداء

١ - إشارة الى نظرية الجرح والتفوس المعروفة في الأدب الأوروبي .

٢ - مقامات بديع الزمان ص ٥١ ط المطبعة الكاثوليكية .

سمعتة وتعين فرض الاجابة فانسملت من بين الصحابة اغتنم الجماعة أدركها وأخشي فوت القافلة أتركها استعنت ببركات الصلاة على وعشاء القافلة فصرت الى أول الصفوف ومثلت للوقوف وتقدم الامام الى المحراب فقرأ فاتحة الكتاب بقراءة حمزة مدة وهزة وبني الغم المقيم المقعد في فوت القافلة والبعد عن الراحلة وأتبع الفاتحة الواقعة وأنا أتصلي نار الصبر وأتصلب وأتفلى على جمر القبط واتقلب ، وليس الا السكوت والصبر أو الكلام والقبر ولما عرفت من خشونة الفوم في ذلك المقام ان لو قطعت الصلاة دون السلام فوقفت بقدم الضرورة على تلك الصورة الى انتهاء السورة وقد قنطت من القافلة وأيست من الرحل والراحلة ، ثم حتى قوسه الى الركوع بنوع من الخشوع وضرب من الخضوع لم أعهده من قبل ثم رفع رأسه ويده وقال سمع الله لمن حمده وقام حتى ما شككت أنه قد نام وضرب بيمينه وأكب لجبينه ثم انكب لوجهه ورفعت رأسي أنتهز فرصة فلم أر بين الصفوف فرجة فعدت الى السجود حتى كبر للقعود وقام الى الركعة الثانية فقرأ الفاتحة والقارعة قراءة استوفى بهما عمر الساعة واستنزف أرواح الجماعة فلما فرغ من ركعتيه وأقبل على التشهد بلحيه ومال الى التحية بأخدعيه وقلت قد سهل الله المخرج وقرب الفرج قام رجل وقال : من كان منكم يحب الصحابة والجماعة فليعزني سمعه ساعة : قال عيسى بن هشام فربطني بالقيود وشدني بالحبال السود ، ثم قال رأيته صلى الله عليه وسلم في المنام كالشمس تحت الغمام والبدر ليل التام يسير والنجوم تتبعه ويسحب الذيل والملائكة ترفعه ثم علمني دعاء اوصاني أن أعلم ذلك امته فكتبته على هذه الأوراق بخلوق ومسك وزعفران وسك . فمن استوهبه مني وهبته ومن رد علي ثمن القرطاس أخذته قال عيسى بن هشام فلقد انثالت عليه الدراهم حتى حيرته وخرج فتبعته متعجباً من حذقه بزرقه وتمحل رزقه وهممت بمساءلته عن حاله فأمسكت وبكاملته فسكت وتأملت فصاحته في وقاحتته وفلاحته في استباحته وربطه الناس بحيلته وأخذته المال بوسيلته ونظرت فإذا هو ابو الفتح الاسكندراني فقلت كيف اهتديت الى هذه الحيلة ؟

فتبسم وانشأ يقول :

الناس حمر فجوز  
حتى اذا نلت منهم  
وابرز عليهم وبرز  
ما تشتهيهم ففروز

## الحبكة المقامية من خلال النص :

لقد اوردنا نصاً كاملاً لاحدى المقامات الهمدانية حتى نتبين من خلاله أهم العناصر التي تكونه . ولنبدأ الآن بتحديد اللون الأدبي الذي تنتمي اليه هذه المقامات .

يقول الدكتور حجاب<sup>٢</sup> ان أسلوب المقامة أسلوب قصصي حوارى يهدف الى تعليم الناشئين الفصيح من القول ويمدهم بالغريب من الالفاظ وقد يهدف الى ازجاء وقت الفراغ وابانة عبقرية المشي والمأمة بالغريب وقد تجمع الى جانب ذلك نقد المفاصد الاجتماعية التي أدت الى عدم رعاية ذوي المواهب أو الساقطين في الطريق .

ويؤكد أن الناحية القصصية في المقامات لا تشكل هدفا أصيلاً بل انها وسيلة لتلك الغايات ويبني على ذلك أن المقامة قد خلعت الى حد ما من العقدة أو الحبكة القصصية التي هي حجر الزاوية في هذا البناء .

ولا ينفرد الدكتور حجاب بهذا الرأي بل اتفق معه معظم الدارسين لفن المقامة أما نحن فلا ننكر أن للتعليم كان إحدى الغايات التي رمى اليها بديع الزمان ، ولكن التعليم وحده لم يكن هو الهدف الأساسي الذي حرك بديع الزمان لكتابة مقاماته ولو كانت غاية البديع تعليمية فحسب ما حصر نفسه في هذا النموذج الصعب .

كذلك فان بديع الزمان لم يرم الى مجرد كتابة قطع أدبية في عبارات بلاغية ولو كانت تلك غايته ما تميز على غيره عبر أزمان التاريخ ذلك أن الأسلوب البلاغي الذي استخدمه لم يكن من ابداعه أيضاً بل هو أسلوب العصر الذي عاش فيه بأسره ذلك الأسلوب الذي يقوم على الصنعة والتصنع في الالفاظ وما يتوافق في ذلك من جناس وطباق وتورية وسجع .

لماذا تميز بديع الزمان اذن ؟

تميز بديع الزمان لأنه تجاوز تلك الحدود التي حصره فيها المؤرخون وانطلق في افاق أرحب حيث أقام بناء معيارياً متكاملًا ذا عناصر درامية قوامها هذه الأصول .

أولاً - الحدث :

وهو في المقامات الهمدانية مناسبات متعددة تتيح لأبي الفتح الاسكندراني ممارسة دوره

٣ - ظاهرة المقامات ، حوليات دار العلوم عام ٦٨ / ٦٩ .

المرسوم .

ثانياً = الشخصيات :

إنها متعددة أيضاً بيد أننا نستطيع أن نميز منها الشخصيتين الرئيسيتين شخصية الراوي عيسى بن هشام وشخصية البطل أبي الفتح الاسكندري .

ثالثاً = المضمون :

أما المضمون فيتجاوز حدود الحدث الضيقة وذلك ليعبر عن قيم أكثر اتساعاً في المجتمع العباسي فقد اتخذ بديع الزمان من شخصية البطل المتسول منفذاً يطل منه على صور متعددة في بيئته .

رابعاً :

استطاع بديع الزمان أن يجعل من نموذج الفنى قمة بلاغية وذلك باستيعابه لجميع العناصر البلاغية السائدة في عصره حتى غدا نموذج المقامة رمزاً لهذا الأسلوب في القرن الرابع .

تلك هي العناصر الرئيسية في المقامات الهمدانية وهي في ذات الوقت العناصر الرئيسية في فن التكيف الدرامي ذلك أن الأحداث والابطال لا تنطلق وفق إرادات عشوائية بل هي محكمة بالسياج الدرامي للفن المقامي .

فلماذا إذن ينكر بعض الدارسين على المقامة أن تكون ضرباً من ضروب الفن القصصي ؟

الحبكة القصصية في المقامات الهمدانية :

اصطلاحاً « الحبكة » و « العقدة » اصطلاحان محدثان لم يعرفهما القدماء من نقادنا وقد استعارهما المحدثون من النقاد العرب من كتاب الغرب ليميزوا بها أسلوب القصة الحديثة عن أسلوب الروايات التقريرية التي حفلت بها كتب الأخبار والتراجم ، غير أن هؤلاء المحدثين وقعوا في حرفة الاصطلاح حين أخرجوا كثيراً من الأعمال القديمة التي تحمل في داخلها تكيفاً درامياً يحقق لها الوجود القصصي من دائرة هذا الفن .

أما نحن فنرى « الحبكة » مجردة من التصور الضيق تعني « المعمار » الذي يقوم عليه العمل القصصي في صورته الدرامية الشاملة وهو في صورته الكلاسيكية التي قال بها

ليست هي تلك التي نرى

ارسطو أن يكون للعمل الفني بداية ووسط ونهاية تتحرك كلها في دائرة درامية شاملة . ونقول في صورته الكلاسيكية لأن المحدثين بعد الحرب العالمية الثانية قد خرجوا على هذا التحديد الأرسطي لاسيما في ألوان الأدب العشي وتركيزنا على التكيف الدرامي يأتي من أنه هو الذي يمنح الأثر القصصي درجته الفنية والا فإن كل عمل نثري يمكن أن تكون له بداية ووسط ونهاية وما نعنيه بالتكيف الدرامي هو أن الأحداث والشخصيات في داخل القصة تسير وفق خط معلوم لا تستطيع الخروج عليه ، وليس بالضرورة أن تكون هذه الأحداث والشخصيات موافقة لنظائرها في الطبيعة لأن النظائر في الطبيعة تملك حرية التصرف ، وهذا حق يسقط عنها في البناء الدرامي .

أما العقدة فتعني في مفهومها الاصطلاحي - أيضاً - القبة التي تلتقي عندها جميع الأنهار المتفرعة في أحداث القصة لتصب أخيراً في مجرى المضمون الكبير وهي لا تفضل عن الحبكة في شيء لأن الحبكة هي المعمار الشامل بما فيه العقدة نفسها .

هل حلت المقامة من العقدة الفنية أو الحبكة القصصية ؟

أو بعبارة أخرى هل الأحداث والشخصيات في المقامات تدور في إطار عشوائي أم أنها تسير وفق خط مرسوم لتخدم تصوراً معيناً أراد الكاتب إبرازه ؟

الاجابة عن هذا السؤال تتطلب منا العودة مرة أخرى الى نموذجنا الذي أثبتناه .

تبدأ المقامة « الأصفهانية » بحدث وقع لراوينا عيسى بن هشام عاقه عن السفر ، ومن خلال هذا الحدث استطاع الكاتب أن يشد القراء الى الراوي ويشير تطلّعهم لمعرفة ما سيحدث له من جراء تأخر الامام في الصلاة غير أن الراوي العارف بمواطن التأثير يصعد كل هذا الترقب ليكشف للانظار في النهاية عن شخصية ابي الفتح الاسكندري الذي ظل محتملاً انتظاراً لفرصته المناسبة كي يحتال على جموع المصلين .

ومن خلال ذلك ندرك ما يأتي :

أولاً : تقوم المقامة على حدث من الأحداث ، بيد أن الحدث في المقامات الهمدانية ليس من الضرورة أن يتطور ليكشف عن المضمون كما هو الحال في القصة القصيرة . ذلك أن الحدث في المقامة مجرد مناسبة يظهر فيها البطل ليؤدي دوره ، أما دور البطل فيحمل في داخله المضمون الذي يرمي الكاتب الى إبرازه ، وهو مضمون يتجدد من مقامة الى أخرى .

ثانياً: هنالك شخصيتان رئيسيتان في المقامة تدور بهما وحولهما أحداثها وهما شخصيتا الراوي عيسى بن هشام والبطل أبو الفتح الاسكندري وكما نرى فيها في اطار المقامة المفردة شخصيتان مسطحتان Flat characters لا يجهد الكاتب في تطويرهما واغلب الظن أن شخصية عيسى بن هشام لم تكلف بديع الزمان كثيراً لأنه استخرجها من الأساليب الخبرية المعروفة كما في أحاديث ابن دريد وابن فارس وغيرها من الأحاديث والأخبار التي تمتلئ بها كتب التراجم .

أما شخصية أبي الفتح الاسكندري فهي شخصية فنية استجمع ابعادها من واقع بيئته وعلى وجه التحديد استخرجها من بين المتسولين والمكدين وقد أضفى عليها عناصر فنية أخرى حتى جعل منها نموذجاً فريداً لهذا النوع من المتسولين في بيئته وهذه الشخصية مسطوحة أيضاً لأنها تعتمد على حركة واحدة ولكنها قد تتغير في طبيعتها من مقامة الى مقامة .

ومما تقدم نستطيع أن نقول ان المقامة قصة قصيرة تشتمل على حبكة شاملة ذات موضوع وأبطالها لا يخرجون عن الاطار الذي رسمه لهم الكاتب في واقعهم الدرامي ، وهذا يتوافق توافقاً تاماً مع مفهومنا للحركة الدرامية وذلك بالطبع لا ينفي وجود بعض الاختلاف عن فن القصة وهو ما نوضح عناصره بالطبع فيما يلي :

اولاً : يحتاج الكاتب في فن القصة الى تطوير احداثه وشخصياته حتى تقدم صورة واقعية للموضوع الذي تعبر عنه . وهو أمر لا نجده في المقامة وإنما نجد بديلاً له ، فقد استعاض الكاتب في الفن المقامي عن التطوير اللازم لأبطال القصة وأحداثها بتنويع الأحداث والمواقع على نحو لا يمكن من رسم صورة شاملة لشخصية أبي الفتح الاسكندري من خلال مقامة واحدة بل لا بد من قراءة سائر المقامات حتى تستجمع ابعاد تلك الشخصية ، وفي ذلك غنى عن التطوير اللازم للشخصية الفنية في القصة القصيرة .

ثانياً : هذا اللون من القصص الشعبي لا يحتاج الكاتب فيه الى تنمية شخصية البطل بصورة خاصة ذلك أن القارئ يقبل على قراءة النص ، وهو على علم سابق بأبعاد شخصيته فالقارئ لسيرة عنترة مثلاً لا يطالب باثبات قوة البطل لأن ذلك أمر مسلم به وكل ما يتطلبه مواقف تكشف له عن صور تلك القوة .

ثالثاً : على الرغم من الاختلاف في المواقف والاحداث في المقامات الهمدانية فقد ظلت المقامات بأسرها ترتبط بخيط واحد هو المأساة التي يمثلها أبو الفتح الاسكندري والتي

يكشف عنها في مقامة إثر مقامة ، ويميز لنا الدكتور محمد يوسف نجم هذا النوع من القصص في قوله :

« ونستطيع أن نقسم القصة من حيث تركيب الحبكة الى نوعين متميزين هما : القصة ذات الحبكة المفككة Looseplot والقصة ذات الحبكة العضوية المتناسكة Organic Plot وتبنى القصة من النوع الأول على سلسلة من الحوادث او المواقف المنفصلة التي لا تكاد ترتبط برابط ما . ووحدة العمل القصصي فيها لا تعتمد على تسلسل الحوادث ؛ وإنما على البيئة التي تتحرك فيها القصة أو على الشخصية الأولى فيها ، او على النتيجة التي تنتظم الحوادث والشخصيات جميعاً ، وهكذا يستطيع الكاتب ان يقدم لها مجموعة الحوادث المتبعة التي تقع على شكل حلقات متتابعة لا تنحدر الواحدة منها عن الأخرى ، ولا تتصل الا بذلك الرباط الذي يخفيه الكاتب عنا حتى نكتشفه اخيراً بعد الفراغ من القصة ، ومن الأمثلة على هذا النوع « أوراق بيكويك » لـ « كنز و » « الشارع الجديد » للسجار و « زقاق المدق » لنجيب محفوظ « والحرب والسلام » لتولستوي .

ونحن نضيف الى هذا النوع من القصص فن المقامة أيضاً فعلى الرغم من أن المقامات تتخذ صوراً متعددة في احداثها ووقائعها فانها ترتبط برابط الفكرة الواحدة أو المنطلق الواحد .

وخلاصة ما تقدم أن المقامات الهمدانية تدخل في اطار الفن القصصي لأنها تشتمل على جميع العناصر التي يشتمل عليها فن القصة من حدث وشخصيات ومضمون وحبكة درامية ، وبما أن هذا اللون من القصص يدخل في اطار القصص الشعبي فقد اكتفى الكاتب فيه بتنويع الأحداث والمواقف التي يظهر فيها البطل مع الاحتفاظ بالخيط العام الذي تعبر عنه شخصيته ومجمل ما أراد أن يعبر عنه بديع الزمان هو تقديم نموذج انساني نلمح من خلاله صورة لواقع المجتمع العباسي ولقد اجاد رسم هذه الصورة من خلال شخصيتي الراوي والبطل .



## المؤثرات الأدبية والفنية في صناعة المقامة

تختلف المؤثرات الأدبية والفنية التي أحدثت أثرها في صناعة المقامة ويأتي في مقدمتها فن الخبر .

١ - الخبر . . ما هو ؟

يقول الدكتور شكري عياد :

« الخبر في أصله تاريخ فهو نوع من التفصيل لحادث ذي قيمة في حياة الجماعة وبناء على ذلك فإن راويه يتحرى صدق الرواية ويسوق خبره للعلم لا للتأثير . . . وسواء أكان الخبر نفسه صادقا أم كاذبا فإن الراوي لا يحمده إلى التمييز الفني في روايته أو ليس من شأنه أن يعتمد إلى شيء من ذلك وإن كان الاخبار يختلط بالاختراع في المستويات الأولى من الحضارة كما يختلط الواقع بالخيال والعلم بالفن والدين بالأساطير ولكن الخبر يظل دائما يؤدي لقيمته في ذاته وعندما ينشأ علم للتاريخ يكون تحقيق التاريخ عملا من أجل أعمال المؤرخين » .

ومؤدى هذا الكلام أن الخبر يقوم في أساسه على عنصر التقرير ، تقرير الأحداث في شيء من الحيدة . . . وبالرغم من ذلك فإن أهمية الخبر لدينا تأتي من أنه أصبح في العصور القديمة للأدب العربي وحدة فنية معتمدة ينقل الكتاب من خلالها أفكارهم ومعتقداتهم إلى الآخرين فقد كان القليل من الكتاب هم الذين يعتمدون أساليب شبيهة بأساليب الكتابة الحديثة يفتح فيها الكاتب على الموضوع بأسره دون التقييد بهذه الوحدات الاخبارية الصغيرة ولكننا بالطبع لا نجمع الاهتمام بالخبر كوحدة فنية عامة بل نجمع الاهتمام بلون آخر من الاخبار . يقول الدكتور شكري عياد فيه انه كان وليد الطبقة البورجوازية الجديدة التي نشأت في ظل الازدهار الاقتصادي الذي تبع قيام الدولة الاسلامية .

ويقول ان الطبقة ( أرادت أخباراً من نوع آخر ، أخباراً تصور حياتها وانماط سلوكها وتمتع سامعها او قارئها في هذا التصوير وان لم تراعى الدقة في النقل وهكذا تميزت هذه الاخبار بأن موضوعاتها مستمدة غالبا من الحياة المعاصرة وأنها تمزج الواقع بالخيال وكان

٥ - الفصحة القصيرة في مصر - شكري عياد ص ١٤ .

٦ - نفسه ص ١٤ .

الجاحظ إمام هذا الفن وكتبه تحفل بهذه الاخبار إلى جانب ما فيها من معارف متنوعة ومختارات من الشعر والنثر وبعض كتبه يكاد يكون مقصورا على هذا الفن ككتاب « البخلاء » و « المحاسن والأضداد » .

ولعله من خلال هذا التعريف الذي أورده الدكتور عياد تبين لنا مواطن اللقاء والاختلاف بين « الخبر والمقامة » . فاللقاء يكون حيث ينقل الخبر لوحات من البيئة العربية أو غيرها أو حيث يتخذ الخبر من الحياة العريضة مادة يستقي منها عناصر موضوعاته وأما الخلاف الرئيسي بين الخبر والمقامة فيكمن في أن الخبر يخلو دائما من عنصر الربط الدرامي بل ويفتقر إلى الحكمة الفنية إلا ما جاء مصادفة ، أما المقامة فإنها عمل فني مصمم يؤدي غاية بعينها ويتقيد بأصول فنية محددة والشخصيات في داخلها لا تستطيع الخروج عن دورها المحدد شأن الشخصية الدرامية الكاملة ، والخبر وإن تشابه في طريقة عرضه مع المقامة فهو لا يتقيد بالأصول التي تتقيد بها المقامة لأن الأحداث تتجدد فيه حسبما يتفق لها والشخصيات التي ترد فيه لا تتقيد بالواقع الدرامي بل تأتي وتروح حسبما تكون الحادثة موضوع الخبر . ومن هنا نرى أن الخبر لا يتقيد بالتصميم الدرامي في حين أن هذا التصميم هو الذي يمنح المقامة قيمتها الفنية . لقد كان بوجدنا أن نتعرض إلى نماذج من الاخبار نوضح فيها هذه الفروق الفنية في واقعها العملي ولكننا نعترف عن ذلك لأننا سنلمح هذه الفروق من خلال دراستنا لبعض الشخصيات التي ذكر المؤرخون أنها أحدثت أثرا في مقامات بديع الزمان ويأتي في مقدمة هذه الشخصيات ابن دريد .

## ٢ - ابن دريد وأثره في المقامات الهمدانية

حقاً فإن بديع الزمان تتلمذ على ابن دريد ومع ذلك فما كنا سنحفل بأثر ابن دريد في المقامات الهمدانية لولا أن نبهنا إلى ذلك الحصري في كتابه زهر الآداب<sup>٧</sup> حيث قال :

« ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره واستنخبها من معادن فكره وأبداها للأبصار والبصائر وأهداها للأفكار والضائير في معارض عجمية وألفاظ حوشية فجاء أكثر ما أظهر تنبؤ عن قبوله الطباع ولا ترفع له حججها الاسماع وتوسع فيها إذ صرف الفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب متصرفة عارضها بأربعين مقامة في الكدية تذوب ظرفاً وتقطر حسناً لا مناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى وعطف مساجلتها ووقف مناقلتها بين رجلين سمى أحدهما عيسى ابن هشام والآخر أبا الفتح الاسكندري وجعلهما يتهاديان الدر ويتنافثان السحر في معان تضحك الحزين وتحرك الرصين يتطلع منها كل طريفة ويوقف منها على كل لطيفة وربما أفرد أحدهما بالحكاية وخص أحدهما بالرواية » .

وقد فطن إلى هذا النص من قبل ياقوت الحموي فأثبتته في ترجمته لبديع الزمان وأما في عصرنا الحديث فقد فطن له أيضاً الدكتور زكي مبارك الذي ذكر أنه حين عرضه على المسيو مارسيه في باريس أبدى اهتماماً مشوباً بالخذر . ولقد صادفت الدكتور زكي مبارك مشكلة وضع اليد على أحاديث ابن دريد التي أشار الحصري إلى أن بديع الزمان قد عارضها . ولكن الدكتور طه حسين ذلل هذه المشكلة حين أشار له بالنظر في أحاديث ابن دريد المروية في أمالي القائل وحين الرجوع إليها رجح الدكتور زكي مبارك أن تلك الأحاديث هي الأحاديث المقصودة بالفعل ولا غرابة في ذلك فإن أمالي القائل في معظمها أحاديث منسوبة إلى ابن دريد ولئن لم تكن تلك الأحاديث هي الأحاديث التي عنها الحصري بالذات فأغلب الظن أنها تمثل أمودجاً صادقاً لأحاديث ابن دريد المشار إليها . ذلك على الرغم من ترجيحنا أن تكون الأحاديث هي نفس الأحاديث المقصودة في وصف الحصري لأنها تمثل أمودجاً متكرراً يظهر فيه تخصص ابن دريد اللغوي وميله إلى الغريب والوحيثي مما جعل القائل يذيلها بشروح المفردات ومن الواضح أن ابن دريد استخدم الأحاديث في غاية تعليمية وهي إحدى الغايات التي حفلت بها المقامات ولربما كانت تلك الشروح التي

٧ - زهر الآداب الحصري ٣٠٧/١ .

ذيل بها القائل تلك الأخبار هي نفس الشروح التي كان يستخدمها ابن دريد في تعليم تلاميذه وليس من المستبعد أن يبيع الزمان قد يسمع تلك الأحاديث في مجالس ابن دريد وأفاد منها في وضع نمودجه الذي ذكر أنه كان يمليه على طلابه في نهاية دروسه في نيسابور .

ولعله بإمكاننا أن نجد بعض عناصر الشبه الأخرى بين المقامات الهمدانية وأحاديث ابن دريد سوى ما ذكرناه وذلك بالنظر في بعض الأحاديث الماثورة عن ابن دريد .

## ١ - الصياغة الفنية :

يقول ابن دريد<sup>٨</sup> :

حدثنا أبو بكر رحمه الله قال أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال مررت بحمى الربهة فإذا صبيان يتغامسون في الماء وشباب جميل الوجه ملوح الجسم قاعد فسلمت عليه وقال من أين وضح الراكب ؟ قلت من الحمى ومتى عهدك به قلت رائحاً قال وأين كان مبيتك قلت أدنى هذه المشارق<sup>٩</sup> فالقى نفسه وتنفس الصعداء فقلت نفساً<sup>١٠</sup> حجاب قلبه وأنشأ يقول :

سقى بلداً أمست سليمان تحله من المزن ما تروى به ونسيم  
ألا حبداً من ليس يعدل قربه لدى وان شط المزار نعيم  
ومن لا مني فيه حميم وصاحب فرد بغيط صاحب وحميم  
ثم سكت سكتة كالغمى عليه فصحت بالأصبية فاتوا بماء فصبته على وجهه فأفاق وأنشأ يقول :

إذا الصب الغريب رأى خشوعي . وأنفاسي تزين بالخشوع  
ولي عين أضر بها التفاني إلى الأجزاء مطلقه الدموع  
إلى الخلسوات تأنس فيك نفسي كما أنس الوحيد إلى الجميع

وبعد . . .

فهل نستطيع أن نذكر الشبه الكبير القائم بين هذا الحديث وبين المقامة الهمدانية ؟ أفلا

٨ - أمالي القائل ٣٦/١ .

٩ - الرمال .

١٠ - شفق . . .

يحمل بطل الحديث بعض خصائص البطل المقامي من ذرابة في اللسان وانفعالات عاطفية عجيبة ٩.

حقاً فإن هذا البطل لا يتخذ من الكدية وسيلة يتعيش بها ولكن التشابه البلاغي بينه وبين أبي الفتح الإسكندري قائم كذلك فإن الطريقة التي عرض بها ابن دريد بطله تشبه إلى حد كبير طريقة العرض عند بديع الزمان الهمداني فقد جهد بديع الزمان أن يخرج بطله في مواقف مفاجئة يكشف فيها عبقرية الإسكندري البلاغية وهذه المواقف تشبه إلى حد كبير

هذا الموقف الذي عرضناه في هذا الحديث أو القصة إذا شئنا تسميته كذلك ذلك من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى فإن صياغة الحديث تشتمل على عنصر المازجة بين الشعر والشر وهو نفس الأسلوب الذي استخدمه الهمداني في كتابة مقاماته .

نحن لا نزع بالطلع أن هذه القصة تقدم صورة طبق الأصل للمقامة الفنية ولكننا في ذات الوقت لا نكاد نخطئ عناصر الشبه التي تجمع بين حديث ابن دريد هذا وبين المقامة الفنية .

## ٢ - الناحية التعليمية :

وكما أن الهدف التعليمي يظهر بوضوح في كثير من المقامات الهمدانية لا سيما تلك المقامات التي يتناول فيها بديع الزمان مسائل الأدب والنقد كالمقامة القريضية والمقامة الجاحظية فإن هذا الهدف يكاد يكون المحور الذي تدور عليه أحاديث ابن دريد فالقاري لهذه الأحاديث لا يخطئ هذه الخصيصة الرئيسية والتي تتضح من الشروح التي أوردها أبو علي القالي للمفردات في ذيل تلك الأحاديث وقد رجحنا أنها نفس الشروح التي كان يذكرها ابن دريد لتلاميذه ؛ وحتى نبين هذه القيمة التعليمية بجلاء علينا بالنظر في نموذج آخر من هذه الأحاديث .

حدثنا أبو بكر بن دريد رحمه الله قال حدثنا اسماعيل بن أحمد بن حفص بن سمعان الدحوي قال حدثنا أبو عمرو الضرير قال حدثنا عباد بن عباد بن حبيب بن المهلب عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبيه عن جده قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم جالس مع أصحابه إذ نشأت سحابة فقالوا يا رسول الله هذه سحابة فقال « كيف

ترون قواعدها » ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد تمكناً . قال : وكيف ترون رجاها ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد استدراكاً . قال : وكيف ترون بواسقها ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد استقامتها . قال : وكيف ترون برقها أو ميضاً ؟ أم خفياً ؟ أم يشق شقاً ؟ قالوا : بل يشق شقاً قال : فكيف ترون جونها ؟ قالوا : ما أحسنه وأشد سواده فقال عليه السلام الحيا ! فقالوا : يا رسول الله ما رأينا الذي هو منك أفصح . قال : وما يمنعني من ذلك فأما نزل القرآن بلساني لسان عربي مبين .

أفلا تدل إشارة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى فصاحته في نهاية هذا الحديث على أن الغرض من إثباته هو تقديم نموذج فصيح من القول يتدرج التلاميذ عليه في معرفة المفردات اللغوية ودلالاتها . ثم ألا يقودنا ذلك إلى الربط بين أسلوب هذا الحديث وأسلوب المقامات الزاخرة بالمفردات الغريبة حتى لنظن أن الهدف من ورائها يقتصر على مجرد التدريب على القول الفصيح ومعرفة أساليب العرب البلاغية ؛ حقاً فإن الصلة في هذا الجانب ظاهرة بين مقامات بديع الزمان وبين أحاديث ابن دريد فلنتجاوزها إلى ناحية أخرى بارزة في حبكة المقامة تلك هي الحيلة التي يستخدمها أبو الفتح الإسكندري فهل نجد لها استعمالاً مشابهاً في أحاديث ابن دريد ؟

## ٣ - الحيلة والكدية :

لننظر في هذا المشهد الذي وقع في المسجد الحرام (\*)

« حدثنا أبو بكر رحمه الله قال أخبرنا أبو حاتم قال أخبرنا أبو زيد قال بينا أنا في المسجد الحرام إذ وقف علينا إعرابي فقال يا مسلمون إن الحمد لله والصلاة على نبيه أني امرؤ من أهل هذا الملقاط » الشرقي المواصي ٢ أسياف تهامة علفت ٢١ على سنون ٢٢ حش ٢٣ فاجتبت ٢٤

١٢ - أسانلها .

١٣ - وسطها ومعظمها .

١٤ - أعاليها .

١٥ - ومقر له .

١٦ - ضمها .

١٧ - الجون الأسود وهو من الاضداد ويعنى الأبيض .

١٨ - الحيا ، مفصود الغيب والخصب .

\* - المرجع نفسه ص ١١٣ .

١٩ - الملقاط أشد انخفاصاً من الغائط وأوسع منه .

٢٠ - المواصل .

٢١ - أقات .

٢٢ - الجدوب .

٢٣ - عرقه .

٢٤ - فطمت .

الذرى وهشمت العرى وحشمت النجم<sup>٢٥</sup> واعجمت اليهم<sup>٢٦</sup> وهمت<sup>٢٧</sup> الشحم والتحت اللحم<sup>٢٨</sup> واحجنت العظم<sup>٢٩</sup> وغادرت التراب مورا<sup>٣٠</sup> والناس أوزاعا<sup>٣١</sup> والنبط<sup>٣٢</sup> قعاعا<sup>٣٣</sup> والفضهل<sup>٣٤</sup> جزاعا<sup>٣٥</sup> والمقام<sup>٣٦</sup> جعجاعا يصبحنا الهاوي<sup>٣٧</sup> ويطرقنا العاوي<sup>٣٨</sup> فخرجت لا أتلفع<sup>٣٩</sup> بوصيدة<sup>٤٠</sup> ولا أتقوت هبيدة<sup>٤١</sup> فالتحضات<sup>٤٢</sup> وقعة<sup>٤٣</sup> والركبات ذلقة<sup>٤٤</sup> والإطراف قففة<sup>٤٥</sup> والجسم مسلهم<sup>٤٦</sup> والنظر مدرهم<sup>٤٧</sup> اعشوا<sup>٤٨</sup> فاغطش<sup>٤٩</sup> وأضحى فأخفش فأسهل ظالعا وأحزن<sup>٥٠</sup> راكعا<sup>٥١</sup> فهل من أمر يجير<sup>٥٢</sup> أو راع يجير<sup>٥٣</sup> وقاكم الله سطوة القادر وملكة الكاهر<sup>٥٤</sup> وسوء الموارد وفصوح المصادر . قال فأعطيته دينارا وكتبت كلامه واستفسرت ما لم اعرفه .

وبعد . أفلا تذكرنا الحيلة في هذا الحديث بحيل أبطال المقامات كما هو الأمر في المقامة الاصفهانية لبديع الزمان أو المقامة الحرامية للحريري .

انها شديدة الشبه ولا ريب بذلك الموقف الذي وقفه أبو الفتح الاسكندري في المقامة الاصفهانية حين خرج من بين المصلين ليقول : « من كان منكم يحب الصحابة والجماعة فليعزني سمعه ساعة » فالجهم بذلك عيسى بن هشام الذي كان على عجل من أمره ، وقد بلغ به الضيق المدي من تلكؤ الامام في صلاته ، فاذا الأمر في آخره يتكشف عن حيلة جديدة من حيل الاسكندري اراد بها أن يبتز ما عند المصلين ؛ وعليه فلم يقتصر نظر بديع الزمان على الاساس العام الذي اقام عليه ابن دريد أحاديثه وهو الاساس اللغوي بل تجاوز

- |                                 |                             |                   |
|---------------------------------|-----------------------------|-------------------|
| ٢٥ - أصلفت .                    | ٣٧ - لا يطمئن من قعد عليه . | ٥٠ - خلعت الحزن . |
| ٢٦ - ما نجم ولم يستقل على ساق . | ٣٨ - الجراد .               | ٥١ - كبوت لوجهي . |
| ٢٧ - العجمي الغذاء السيء .      | ٣٩ - الدثب .                | ٥٢ - عطية .       |
| ٢٨ - أذابت .                    | ٤٠ - اشتعل .                | ٥٣ - القاهر .     |
| ٢٩ - قشرته عن العظم .           | ٤١ - ثوب .                  |                   |
| ٣٠ - عوجته .                    | ٤٢ - حب الحنظل .            |                   |
| ٣١ - الذي يجيء ويذهب .          | ٤٣ - لحم باطن قديم .        |                   |
| ٣٢ - فرق .                      | ٤٤ - متشفقة .               |                   |
| ٣٣ - الماء .                    | ٤٥ - يابس .                 |                   |
| ٣٤ - مالحا .                    | ٤٦ - مدبر .                 |                   |
| ٣٥ - قليل الماء .               | ٤٧ - ضعيف .                 |                   |
|                                 | ٤٨ - انظر .                 |                   |
| ٣٦ - اشد الحياة مرارة .         | ٤٩ - أصبح شعيف البصر .      |                   |

ذلك الى بعض المواقف السلوكية فقلدها كما هو واضح في هذا المشهد الذي عرضنا اليه قبل قليل .

ثم لننظر مرة أخرى في هذا الحديث المنسوب لابن دريد في امالي القائل : « حدثنا أبو بكر رحمه الله تعالى قال اخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهي تقول : والله ان شريك لاشتفاف وان ضجعتك لانجعاف<sup>٥٥</sup> وان شملتك لالتفاف وانك لتشبع ليلة تضاف وتنام ليلة تخاف . فقال لها : والله انك لكرواء<sup>٥٦</sup> الساقين قعواء<sup>٥٧</sup> الفخذين مقاء<sup>٥٨</sup> الرفقين مفاضة<sup>٥٩</sup> الكشحين<sup>٦٠</sup> . ضيفك جائع وشرك شائع . »

الا تعود بنا هذه المساجلة التي تقوم على الخدق وذراية اللسان الى المقامة الدينارية<sup>٦١</sup> تلك التي اتفق فيها عيسى بن هشام أن ينذر دينارا يتصدق به على أشحد رجل في بغداد فطفق يبحث عن أبي الفتح الاسكندري حتى وجده في رفقة من بني ماسان اجتمعت عليه في حلقة من الحلقات فحفزه ذلك أن يقيم بينهم مساجلة كلامية يمنح في نهايتها الدينار الى أحقهم به فوقف به الأمر عند أبي الفتح الاسكندري ورجل آخر تناقشا وتهارشا حتى طلب منهما عيسى ان يتشائما ومن غلب سلب . فقال الاسكندري :

« يا برد العجوز<sup>٦٢</sup> يا كرية تموز<sup>٦٣</sup> يا وسخ الكوز<sup>٦٤</sup> يا درهما لا يجوز يا حديث المغنين يا سنة اليوس<sup>٦٥</sup> يا كوب النحوس<sup>٦٦</sup> . الخ . »

وقال الآخر :

« يا قراد الكرود<sup>٦٧</sup> يا لبود<sup>٦٨</sup> اليهود يا نكهة الاسود<sup>٦٩</sup> ، يا عدما في وجود يا كلبا في الهراش<sup>٧٠</sup> يا قرادا في الفراش<sup>٧١</sup> يا قرعية<sup>٧٢</sup> بماش<sup>٧٣</sup> ، يا أقل من لاش الخ . »

وهكذا فلم يعرف عيسى بن هشام لمن يمنح ديناره . ان ما يهمننا في هذا الاسلوب الذي

- |                               |                                           |                                 |
|-------------------------------|-------------------------------------------|---------------------------------|
| ٥٤ - نفسه ص ١٠٣ .             | ٥٩ - مسترخية .                            | ٦٤ - رائحة الفم من أكل اللحم .  |
| ٥٥ - الانصراع .               | ٦٠ - الخاصرثان .                          | ٦٥ - القرع مع حب كرية الرائحة . |
| ٥٦ - الضعيفة الساقين .        | ٦١ - المقامات ص ٢١٧ .                     |                                 |
| ٥٧ - متباعدة ما بين الساقين . | ٦٢ - يشتد في آخر الشتاء عند لقاء الربيع . |                                 |
| ٥٨ - دقيقة الفخذين .          | ٦٣ - اللبود الفراد من الوساحة .           |                                 |

### ٣ - ابن فارس<sup>٦٦</sup> وأثره في فن المقامة

كذلك لعلمنا لم تكن لنفطن لأثر ابن فارس في مقامات بديع الزمان لولا ذلك النص الذي ذكره ابن خلكان في وفياته وهو قوله « ومنه اقتبس الحريري صاحب المقامات الأتي ذكره ان شاء الله تعالى ذلك الأسلوب ووضع المسائل الفقهية في المقامة الطيبية وهي مائة مسألة » ولا نذهب الى أن الأسلوب المقصود في عبارته تلك هو وضع المسائل الفقهية في المقامة لأن العطف الظاهر يؤكد ان الأسلوب المقصود هو أسلوب المقامة . وهذا لا يتناقض مع علمنا بأن الحريري قد جرى بديع الزمان في مقاماته كما جاء في اعترافه بل يدلنا على ان بديع الزمان نفسه قد اتخذ من ابن فارس مصدرا من المصادر التي ساعدته في صوغ أسلوبه الفني لا سيما ان الثعالبي يذكر في بتيمة الدهر<sup>٦٧</sup> ان بديع الزمان تتلمذ على ابن فارس . وبالرغم من ذلك فنحن لا نستطيع ان نحدد صورة واضحة لأثر ابن فارس في مقامات بديع الزمان ولعل السبب الذي جعل الكثيرين من المؤرخين لا يرون العلاقة بين الصيغة الفنية عند بديع الزمان ، والأساليب المعروفة لابن فارس في الزمن القديم هو أن شخصية ابن فارس اللغوية قد طغت على شخصيته الفنية على الرغم من أن الرجل قد جمع الى جانب شخصيته العلمية شخصية فنية ذات ذوق وظرف ومن الذين فطنوا لهذا الجانب الثعالبي حيث يقول<sup>٦٨</sup> :

« كان بهمدان من أعيان العلم وأفراد الدهر يجمع اتقان العلماء وظرف الكتاب والشعراء وهو بالجبل كائن لنكك بالعراق وابن خالويه بالشام وابن العلاف بفارس وابي بكر الخوارزمي بخراسان وله كتب بديعة ورسائل مفيدة وأشعار مليحة وتلامذة كثيرة منهم بديع الزمان » .

ومن جيد أشعار ابن فارس ما رواه ابن خلكان<sup>٦٩</sup> :

٦٦ - هو أحمد بن فارس بن زكريا بن عماد بن حبيب الرازي المغربي كان أديبا من أئمة اللغة كما يقول ابن خلكان ، وكما تدل على ذلك مؤلفاته اللغوية مثل المقاييس وحلية الفقهاء والمجمل الذي جمع على اختصاره كثيرا من العلم واللغة . راجع وفيات الأعيان ٦١/١ .

٦٧ - بتيمة الدهر ٣/ ٤٠٠ .

٦٨ - نفسه ص ٤٠٠ .

٦٩ - وفيات ٦١/١ .

استخدمه بديع الزمان هو الشبه القائم بينه وبين أسلوب ابن دريد في حديثه والذي يتركز على المقابلات والمقاييس اللفظية ولا يغيب عنا بالطبع أن الأسلوب الذي استخدمه ابن دريد في حديثه قد سمعه في تراشق المخنثين أو الظرفاء الذين امتلأت بهم الحياة العباسية وهذا الأسلوب شائع الى حد بعيد في البيئات الشعبية من أقدم العصور الى يومنا هذا . نخلص من كل ما تقدم الى أن الربط بين أحاديث ابن دريد ومقامات الهمداني جائز جدا وهذا أمر كدت أنكره في بادئ الأمر ولكني ما كدت امعن النظر حتى وجدت الشبه قائما في جوانب هامة تؤثر أن نجملها فيما يلي :

أولا : لقد كانت الغاية الرئيسية لأحاديث ابن دريد غاية تعليمية وقد حرص في أحاديثه على تعليم الناشئين شيئا من مفردات اللغة وأساليب بلاغتها<sup>٧٠</sup> وعلى الرغم من اننا نختلف مع الكثيرين في أن مقامات الهمداني لم تستهدف الناحية التعليمية وحدها فاننا لا ننكر أنها شاركت أحاديث ابن دريد في هذه الخاصة من حيث الحشد لمفردات اللغة الغريبة ووضعها في اطار بلاغي .

ثانيا : لم يغفل ابن دريد استخدام بعض الأحداث ، ذات المنحى القصصي البسيط وهو أسلوب وسعه بديع الزمان بصوغه لحبكة فنية متكاملة .

ثالثا : نظر بديع الزمان في كثير من المواقف التي عبر عنها ابن دريد في أحاديثه وصاغ منها مادة لبعض مواقف بطله أبي الفتح الاسكندردي كما رأينا في المقامة الاصفهانية .

ومع ذلك فنحن لا ننكر أن ثمة اختلافات رئيسة بين مقامات الهمداني وأحاديث ابن دريد وتكمن مواطن الخلاف فيما يأتي :

أولا : لم يكن بديع الزمان يلجأ الى ذكر السند في مقدمة مقاماته ذلك انه لم يكن يكتب خبرا كشأن ابن دريد بل كان يصوغ نموذجاً فنيا ذا حبكة درامية .

ثانيا : تعددت الشخصيات التي تدور حولها أحاديث ابن دريد في حين ان مقامات بديع الزمان اقتصرت على شخصيتين رئيسيتين هما شخصية الراوي عيسى بن هشام وشخصية البطل ابي الفتح الاسكندردي . واما الشخصيات الثانوية فتظهر في الاطار الدرامي لتعكس بعض المواقف التي تتصل بهذين البطلين .

ثالثا : نعلم ان بديع الزمان أن تكون طريقته التعليمية تقريرية ومباشرة في حين أن بديع الزمان غلف اهدافه جميعها في داخل الحبكة الفنية التي اقامها ولعل ذلك ما يميز المقامة كظاهرة فنية تستوجب مثل هذه الدراسة المنفردة .

مرت بنا هيفاء مجدولة تركية تنمى الى تركى  
ترنو بطرف فاتر فاتر أضعف من حجة نحوى  
وله أيضاً :

اسمع مقالة ناصح جمع النصيحة والمقه  
انكر واحذر ان تبيت من الثقات على ثقة

وله :  
اذا كنت في حاجة مرسلأ وأنت بها كلف مغرم  
فارسل حكماً ولا ترصه وذاك الحكيم هو الدرهم

وله :  
سقى همدان الغيث لست بقائل سوى ذا وفي الاحشاء نار تضرم  
ومالى لا أصفى الدعاء للبلدة أفنت بها نسيان ما كنت اعلم  
نسيت الذي احسنته غير انني مدين وما في جوف بيتي درهم  
فهذه الأبيات على قلتها تعكس بعض الجوانب التي عبر عنها أصحاب المقامات لا سيما  
بديع الزمان والحريري في مواقفهم النقدية من أصحاب الفكر والنحوين وعلماء الكلام  
وما داخل هؤلاء من السفسطة والجدل العقيم كما توضح ما آل اليه الناس من فقر في  
القرن الرابع الذي برر انتشار الكدية في ذلك العصر .

وفيما يبدو فان احدين فارس كان مدركاً ادراكاً عميقاً لواقع مجتمعه بل وكان يقف من هذا  
الواقع موقف الناقد الساخر ويبدو أن بديع الزمان قد تأثر كثيراً بموقف استاذاه من هذه  
الناحية حتى في موقفه من همدان بلدته تلك التي يقول فيها :

لا تلمني على ركافة عقلي ان تيقنت انني همداني  
ففي هذا القول مشاركة لابن فارس الذي لم يطلب لتلك المدينة سوى السقيا وما كان له  
ان يطلب غير هذا وهي المدينة التي نسي فيها علمه وضاعت به فيها سبل العيش حتى غدا  
مدينا في احشائه منها نار تضرم .

لقد تجلت مثل تلك المواقف الساخرة بصورة واضحة في أدب المقامة ولكن ليس بين  
أيدينا الآن نصوص نستطيع أن نخرج منها على وجه الدقة ما افاده بديع الزمان من ابن  
فارس في أسلوبه المقامي ، وان كنا نرجح بأن أثر ابن فارس يشبه الى حد كبير أثر ابن دريد  
او نرجح بأن ابن فارس كان يلقي دروساً لغوية شبيهة باحاديث ابن دريد فيها كثير من  
الحيل والألغاز والمواقف النقدية والوعظية .

ويجدثنا السيوطي في ختام الجزء الأول من كتابه « المزهرة » عن ضرب من التأليف يعرف  
« بقية فقيه العرب » يشتمل على ضرب من الألغاز والملاحن توجه الى فقيه العرب الذي  
يجيب عليها .

يقول السيوطي<sup>٧٠</sup> :

« وذلك أيضاً ضرب من الألغاز وقد ألف فيه ابن فارس تأليفاً لطيفاً في كراسة سماها بهذا  
الاسم رأيت قديماً وليس هو الآن عندي فنذكر ما وقع من ذلك في مقامات الحريري ثم ان  
ظفرت بكتاب ابن فارس الحق ما فيه »

وقد أشار ابن خلكان<sup>٧١</sup> أيضاً أنه كانت لابن فارس مسائل في اللغة اهتم بها العلماء ومنها  
« اقتبس الحريري صاحب المقامات . . . ذلك الأسلوب ووضع المسائل الفقهية في المقامة  
الطبية وهي مئة مسألة » .

ولنتظر الآن في نموذج من هذه المقامة لنرى كيف استخدم الحريري تلك المسائل في  
مقامته<sup>٧٢</sup> .

« حكى الحارث بن همام قال : اجعت حين قضيت مناسك الحج وأقمت وظائف العج  
والشج أن اقصد طيبة مع رفقة من بني شيبه لازور قبر النبي المصطفى وأخرج من قبيل من  
حج وجفا فأرجف بان المسالك شاغرة وعرب الحرمين متشاجرة فحرت بين أشفاق يثبطني  
وأشواق تشظني الى أن القى في روعي الاستسلام وتغليب زيارة قبره عليه السلام فاعتمدت  
القعدة وأعددت العدة وسرت والرفقة لا تلوى على عرجه ولانني في تأيب ولا دلجة حتى  
وافينا بني حرب وقد أبوا من حرب فأزمننا أن نقضي ظل اليوم في حلة القوم وبيننا نحن  
نتخير المناخ ونرود الورد والنقاح اذ رأيناهم يركضون كأنهم الى نصب يوفضون ، فرأينا  
أشيائهم وسألنا ما بالهم فقيل قد حضر ناديم فقيه العرب ، فاهراعهم لهذا السب فقلت  
لرفقتي ألا نشهد مجمع الحي لتبين الرشد من الغي فقالوا : لقد اسمعت اذ دعوت  
ونصحت وما ألوت ثم نهضنا نتبع الهادي وتؤم النادي حتى اذا أطللنا عليه واستشرفنا  
الفقيه المنهود اليه الفيته أنا زيد ذا الشقر والبقر والقواقر والفقير ، وقد اعتم الفقهاء

٧٠- المزهرة : السيوطي ١/ ٦٦٢ .

٧١- وفیات ١/ ٩١ .

٧٢- مقامات الحريري ١/ ١٤٠ .

واشتمل الصفاء وقعد القرفصاء واعيان الحي به محتفون واخلاقهم عليه ملتفون وهو يقول سلوني عن العضلات واستوضحوا مني المشكلات فوالذي فطر السماء وعلم ادم الاسماء اني لفقيه العرب العرباء ، وأعلم من تحت الجرباء فصمد له فتى فليق اللسان جرى الجنان وقال اني حاضرت فقهاء الدنيا حتى انتحلت منهم مائة فتيا فإن كنت ممن يرغب عن بنات غير ويرغب منا في مير فاستمع واجب لتقابل بما يجب فقال الله أكبر سنيين المخبر وينكشف المضمير فاصدع بما تؤمر قال ما تقول فيمن توضحاً ثم لمس ظهر نعله ؟ قال : انتفض وضوء بفعله « النعل الزوجة » قال : فان توضحاً ثم أنكاه البرد ؟ قال : يجدد الوضوء من بعد « البرد النوم » قال : أيسح المتوضيء أنثيه ؟ قال : قد ندب اليه ولم يوجب عليه « الأنثيان الأذنان » . الخ .

فهذه مقامة تبدو غايتها التعليمية واضحة ونرجح أن ابن فارس كان يستخدم اسلوباً شبيهاً بهذا في تعليم تلاميذه يجلس ومن حوله تلاميذه يتناوبونه بالأسئلة فيجيب عليهم اجابات شافية ، او انه يصطنع بعض المواقف لفقيه العرب يجيب من خلالها على المسائل التي تعين له امام تلاميذه . ولقد تأثر بهذا الأسلوب فيما بعد الصفدي في كتابة مقاماته فقد كان بطله مغرماً بطرح مثل هذه الاسئلة الفقهية والاجابة عليها . غير أننا لا ندعي لابن فارس السبق في هذا الأسلوب التعليمي ، اذ قد سبقه اليه الجاحظ في رسالة التبريع والتدوير ، ولا يهم أن الجاحظ وضع تلك الرسالة في احدى بن عبد الوهاب بغرض التحدي فالنزعة التعليمية التي رمى اليها الجاحظ من خلال الاسئلة التي طرحها في رسالته واضحة ، وهو وإن لم يجب على تلك الاسئلة اجابة مباشرة فقد اشار الى كتبه التي يجد فيها الدارس اجابة على اسئلته وعلى ذلك فان شخصية فقيه العرب ليست سوى تطوير لتلك الطريقة التي أسسها الجاحظ اساسها . غير أننا أسلفنا القول بأن ابن فارس لم يقتصر على هذا الأسلوب وحده فالمرجح انه كان يستخدم في أساليبه التعليمية كثيراً من القصص شبيهة بتلك التي رأيناها عند ابن دريد ولا نستبعد في أساليبه التعليمية كثيراً من القصص شبيهة بتلك التي رأيناها عند ابن دريد ولا نستبعد أن يكون بديع الزمان قد افاد منها في صنع مقاماته على نفس النحو الذي افاده من ابن دريد . فمن أحاديث ابن دريد يتبين لنا ان هؤلاء اللغويين من أصحاب الذوق والادب كانوا يعتمدون اختيار القصص الطريف والخصب حتى يبعدوا عن المتعلم السأم الذي يلاحقه من حزونة المفردات المتضمنة في النصوص المختارة ولكن كما أسلفنا فثمة فروق أساسية اهمها أن اللغويين ركزوا على القيمة اللغوية البلاغية فحسب في حين أن اصحاب المقامات تجاوزوا ذلك الى الغايات الفنية والاجتماعية والسياسية .

#### ٤ - مقامات الزهاد لابن قتيبة

لقد أضحى لمقامات الزهاد خلال حديثنا عن تطور المدلول اللغوي لكلمة « مقامة » وهذه المقامات تقدم نموذجاً للون من الأدب غايته الوعظ . كان يقف به البطل أمام الوالي او الخليفة . والوعظ كما سنرى احدى الغايات التي اشتمل عليها فن بديع الزمان الهمداني وفكرة الوقوف بين يدي الخليفة تشبه الى حد كبير فكرة وقوف أبي الفتح الاسكندري في جماعة من الناس أو في الأسواق خطيباً أو واعظاً أو مظهراً لبلاغته اللغوية وعلى ذلك فنحن نرى أن بديع الزمان قد نظر الى نماذج تلك المقامات ، وأفاد منها بل لا نشك في أنه طور ذلك اللون بخاصة وصبه في نموذج مقامته الفنية .

ومما نعرفه من هذا اللون مقام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي<sup>٣٧</sup> وهو مقام فيه البطل يقف بين يدي الخليفة واعظاً يقول :

« انه لما سهل علينا ما توعد على غيرنا من الوصول اليك قمنا مقام الأداء عنهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم باظهار ما في اعناقنا من فريضة الأمر والنهي عند انقطاع عذر الكتان ، ولا سيما حين اتسمت بميسم التواضع ووعدت الله وحلة كتابه ايثار الحق على ما سواه فجمعنا وياك مشهد من مشاهد التمحيص لئتم مؤدينا على موعود الأداء ، وقابلنا على موعود القبول أو يزيدنا تمحيص الله ايانا على اختلاف السرور والعلانية ومجئنا حلية الكذابين ، فقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : من خجبت الله العلم عنه عذبه على الجهل واشتد منه عذاباً من أقبل اليه العلم وأدبر عنه ومن أهدى الله اليه علماً فلم يعمل به فقد رغب عن هدية الله وقصر بها فأقبل ما أهدى الله اليك من الستة قبول تحقيق وعمل لا قبول سمعة ورياء فانه لا يعدمك اعلام لما تجهل او وطاة على ما تعلم » .

ان هذا الموقف يذكرنا بمواقف الاسكندري الوعظية في المسجد او في السوق أو في الطريق أو غير تلك من الأماكن . وعليه فان دليل التأثير في مقامات الهمداني يتضح بسهولة .

٧٣ - عبون الأخبار ابن قتيبة ٢٢٣/٤ - العند الفريد ٣٦٤/١ .

كذلك فقد يدخل هؤلاء الوعاظ في وعظهم المباشر الوانا من القصص ذا دلالة رمزية وهذا هو المنطلق الذي انطلق منه الهمداني في تعرية المجتمع العباسي . فهو لم يكتف بتناول عناصر الوهن في ذلك المجتمع تناولا مباشرا بل أثر ان يصور ذلك من خلال القصص المختلفة التي اوردتها لبطلة ابي الفتح الاسكندري . ومن هذا اللون مقام رجل من الزهاد بين يدي المنصور وقصة المقام أن المنصور كان يطوف بالليل فسمع رجلا يشكو من انتشار البغي والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع فاستفسره المنصور عن دعواه فطلب الأمان ، ثم قال<sup>٧٤</sup> « ان الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر من البغي والفساد ، لانت ، قال ويحك وكيف يداخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي » .

فيخبره الرجل بما يعانيه الناس من شظف في الارزاق ومهانة من العمال وحجاب عن السلطان ثم يسوق له قصة أحد ملوك الصين تذكرة وموعظة .  
قال<sup>٧٥</sup> :

« وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر الى الصين فقدمتها مرة وقد أصيب ملكها بسمعه فبكي يوماً بكاء شديدا فحثة جلساؤه على الصبر فقال اما أنى فلست أبكي للبلية النازلة بي ، ولكنني أبكي للمظلوم بالباب يصرخ ولا اسمع صوته ، ثم قال : أما اذا ذهب سمعي فان بصري لم يذهب نادوا في الناس ألا يلبس ثوبا أحمر الا متظلم » .

وهنا ملاحظة أخرى هامة وهي أن البطل في هذه المقامة مجهول ويختفي في النهاية فلا يبقى من أثره سوى الكلمات ترون في أذن الخليفة والسامعين .

أفلا يذكرنا ذلك بأبي الفتح الاسكندري ؟ فمن الذي يستطيع أن يتعرف على أبي الفتح مع كثرة التقلب في أحواله لولا حصافة عيسى بن هشام ومعرفته بأساليبه .

وعلى الرغم من ذلك فثمة اختلاف ظاهر بين مقامات ابن قتيبة ومقامات الهمداني ، ويتركز الخلاف في أن ابن قتيبة لم يركز على عنصر الصنعة في كتابة مقاماته ، لأن مذهب

٧٤ - عيون الأخبار . ابن قتيبة ٤ / ٢٣٤

٧٥ - عيون الأخبار ص ٢٣٥ .

الصنعة لم يكن قد غلب على الحياة الأدبية في عصره وعليه فإن ما أفاده الهمداني من مقامات ابن قتيبة يتركز فيما يلي :

- ١ - وحدة الشكل الأدبي لخدمة غاية فكرية بعينها ، وهي النقد السياسي والديني والاجتماعي لتصرفات الحكام .
- ٢ - التعبير بالقصة والحوار لخدمة المضمون السابق .



## ٥ - أثر النماذج الانسانية الفنية في مقامات الهمداني

لم يكن الهمداني أول من صاغ نموذجاً فنياً ينقد به الحياة السياسية والاجتماعية أو يصور به الظواهر العامة في عصره . فلقد عرف الأدب العربي نماذج مختلفة من هذا اللون يأتي في مقدمتها الأبطال الشعبيون مثل عنترة<sup>٧٦</sup> الذي عبر مؤلفو سيرته من خلال شخصيته عن القيم والعادات العربية ثم نموذج «كليلة ودمنة»<sup>٧٧</sup> الذي اتخذ من قصص الحيوان وسيلة لنصح الخليفة . ونموذج «شهرزاد» التي ذوبت الظلم بمقاومة سلبية ، وغير تلك من النماذج المعروفة . ولا شك في أن بديع الزمان قد نظر الى كثير من تلك النماذج ، وقد ذوبت أمدته بالفعل بفكرة خلق نموذج خاص به يعبر من خلاله عن آرائه الاجتماعية والأدبية والسياسية ونرجح أن النماذج التالية قد أثرت فيه على نحو خاص وهي :

أ - كتاب البخلاء للجاحظ .

ب - رسالة التريب والتدوير .

ج - حكاية أبي القاسم البغدادي .

د - رسائل اخوان الصفا .

### أولاً : كتاب البخلاء :

وهو كتاب رصد فيه مؤلفه ظاهرة اجتماعية غلبت في المجتمع العباسي ، تلك هي ظاهرة الاقتصاد والبخل . لقد انبثقت تلك الظاهرة كثمرة طبيعية لبروز الطبقة الجديدة من الأثرياء الذين لم يعتمدوا في شرفهم على النسب بل اتخذوا من وسائل النجاح الاجتماعي المادي سلماً يرتقون به الى المكانة الاجتماعية العالية ؛ وقد هزت تلك الطبقة بما أحدثته من مفاهيم اقتصادية ظاهرة الكرم القديمة المعروفة في المجتمع العربي . أما الجاحظ فقد تناول هذه الظاهرة وصورها في جميع أحوالها بطريقة فنية فريدة .

يقول الاستاذ محمد المبارك<sup>٧٨</sup> :

٧٦ - راجع : سيرة عنترة .

٧٧ - كليلة ودمنة : ترجمة ابن المقفع .

٧٨ - فن القصص في كتاب البخلاء ، محمد المبارك ص ١٦ طدار الفكر ، دمشق .

« كتاب البخلاء دراسة لطبقة من الطبقات الاجتماعية ، ولكن مؤلفه لم يعتمد في هذه الدراسة الى طريقة فلسفية مجردة أو تاريخية نقدية بل سلك طريقة من التصوير الأدبي البديع يظهر من ورائه عقائدهم ونفسياتهم المختلفة ويغني عن كثير من الدراسات الفلسفية والتحليلات الاجتماعية ويفضلها بابرار الحقيقة بشكل فني جميل » .

ولا نعتقد أن المذهب الجاحظ في كتاب البخلاء يختلف عن مذهب بديع الزمان في كتابه مقاماته . فكلاهما قد انتهج المذهب الواقعي وصور السلوك الاجتماعي من خلال النموذج الذي تخيره . وهو عند الجاحظ نموذج البخل وعند بديع الزمان نموذج المكدي .

ولقد رسم الجاحظ حوادث قصصه لتدور في بلدان مختلفة وقد اقتفى بديع الزمان أثره في ذلك ، وكان الجاحظ بارعاً في تصوير حياة الناس وأكلهم وشربهم وملبسهم ومعاملاتهم وهكذا نهج بديع الزمان في مقاماته .

وقد نحى الجاحظ بعنصر الدعابة والهزل ، وتلك سمة رئيسية لا يخطئها الانسان في نموذج الاسكندراني .

كذلك فإن الجاحظ وقف موقفاً محايداً من تلك الظاهرة ولكن ذلك بالطبع لا يعني أن موقفه لم يكن ظاهراً من خلال تصوييره وتعليقاته غير المباشرة وهكذا رأينا بديع الزمان يسير على نفس النهج إذ صور الاسكندراني في شبه مأساة كاملة ، وفي ذلك دليل ادانة لذلك المجتمع الذي ضيعه وأمثاله من النابغين ورغم ما نراه من التقاء بين نموذج الجاحظ ونموذج بديع الزمان فتجن نرى أن النموذج الانساني في مقامات الهمداني أكمل وأغنى من نموذج البخل في قصص الجاحظ ذلك أن الهمداني صور الظاهرة كلها من خلال شخصية الاسكندراني وراويهِ عيسى بن هشام ؛ وفي ذلك ما فيه من القدرة الدرامية أما الجاحظ فإنه لم يهتم بمثل هذه النزعة فكانت قصصه مجرد أخبار متفرقة لها أبطال مختلفون ونحوس فيها شخصيات مختلفة ؛ والذي يجمع تلك الأخبار الى بعضها هي الظاهرة التي يعبر عنها أي ظاهرة البخل .

وخلاصة الأمر أن أثر الجاحظ في أسلوب بديع الزمان يتجلى فيما يلي :

١ - تناول لظاهرة اجتماعية - هي ظاهرة البخل الشبيهة بظاهرة الكدية عند الهمداني - وجعلها محورا يقوم عليه موضوع كتابه .

٢ - معالجة هذا الموضوع بطريقة قصصية فنية فيها كثير من عناصر السخرية والهزل والفكاهة .

## ثانيا : رسالة الترييع والتدوير :

ولا يقتصر أثر الجاحظ في بديع الزمان على كتاب « البخلاء » وحده بل ان موقف الجاحظ في « رسالة الترييع والتدوير » وما حفلت به تلك الرسالة من نزعة تعليمية قد أحدث أثرا آخر في مقامات الهمداني ، فقد كتب الجاحظ الرسالة ينافح بها نزعة الغرور والكبر . ولعلنا نجد في نموذج أحمد بن عبد الوهاب الذي أنشأ الجاحظ الرسالة من أجله صورة لكل مغرور يخرج عن حجمه الطبيعي على غير أساس . يقول الجاحظ في وصفه<sup>٧٩</sup> :

« كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعى انه مفرط الطول وكان مربعا وتحسبه لسعة جفرتة واستفاضة خاصرته مدورا وكان جعد الاطراف قصير الأصابع وهو في ذلك يدعى السباطة والرشاقة وانه عتيق الوجه أخصص البطن معتدل القامة تام العظم وكان طويل الظهر . عظيم الفخذ . وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها وتكلفه للابانة عنها على قدر غباوته عنها ، وكان كثير الاعتراض لهجا بالراء شديد الخلاف . وكان قليل السماع غرا وصحفيا غفلا لا ينطق عن فكر . وثيق بأول خاطر . يعد اساء الكتب ولا يفهم معانيها ويحسد العلماء من غير ان يتعلق منهم بسبب وليس في يده من جميع الآداب الا الانتحال لاسم الأديب فلما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهود منا ، وكدنا نعتاد مذهبه ونألف سبيله رأيت أن اكشف قناعه وأبدي صفحته للحاضر والبادي وسكان كل ثغر وكل مصر بأن أسأله عن مائة مسألة أهزأ فيها ، وأعرف الناس مقدار جهله » .

وكما نرى فإن الظاهرة التي تناولها الجاحظ ظاهرة اجتماعية ، وهو في موقف التحدي أشبه بالاسكندر في ذلك فيما حواه مذهبه من جنوح الى اظهار العلم والفصاحة تجلي في الطريقة التي وضع بها اسئلته .

يقول<sup>٨٠</sup> :

« هيهات أين عاد وثمود وأين طسم وجديس وأين أميم ووبار وأين جرهم وجاسم أيام كانت الحجارة رطبة واذ كل شيء ينطق ومذ كم ظهرت الجبال ونضب الماء عن النجف وأي هذه الأودية أقدم أنهر بلخ أم النيل أم الفرات أم دجلة أم جيحان أم سيحان أم مهران وأين

٧٩ - الترييع والتدوير . الجاحظ تحقيق شارل بلات طدمشني ١٩٥٥ ص ٥ وما بعدها .

٨٠ - نفسه ص ٢٦ .

تراب هذه الأودية وأين طين ما بين سفوح الجبال الى أعاليها وأي بحر كبست وأي هبطة شحنت وكم نشأ لذلك من أرض وحدث من عين » .

وتتجلى نزعة الجاحظ التعليمية في نهاية رسالته حيث يقول<sup>٨١</sup> : « وقد سألتك وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيرا وإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها وما فيها من خرافة وما فيها محال وما فيها صحيح وما فيها فاسد فالزم نفسك قراءة كتبي ولزوم بابي » ويرى الهمداني ينزع هذه النزعة التعليمية في مقاماته التعليمية تلك التي يستخدم فيها الأسئلة المحيرة والألغاز كما في مقامته العراقية ومقامته الشعرية وسيأتي ذكر ذلك فيما بعد .

## ثالثا : حكاية أبي القاسم البغدادى ، لأبي المطهر الأزدي :

لا يعرف المؤرخون كثيرا عن حياة مؤلف هذه الحكاية وقد ذكر المسيو « ميز » ( Mez ) في مقدمة طبعته أن أبا المطهر عاش في القرن الرابع . والمرجح أنه ولد في الربع الأخير من القرن الثالث وذلك لقوله في إحدى رواياته « ولعهدى بهذا الحديث سنة ست وثلاثمائة وقد أحصيت أنا وجماعة بالكرخ اربعمائة وستين جارية »<sup>٨٢</sup> .

ومما يؤكد أنه عاش في القرن الرابع ما التفت اليه الدكتور زكي مبارك<sup>٨٣</sup> من أنه قضى مجلس أنس نادمه فيه ابن الحجاج وأبو محمد يعقوبى وابن سكرة وجميعهم من أعيان القرن الرابع .

فإذا افترضنا أنه كان في أوج شبابه في بداية القرن الرابع فالمرجح أنه كتب حكاياته قبل منتصف القرن الرابع أي قبل كتابة بديع الزمان لمقاماته بأكثر من ربع قرن .<sup>٨٤</sup> ويقول الدكتور زكي مبارك في وصف هذه الحكاية<sup>٨٥</sup> :

« وليست حكاية أبي القاسم التي وضعها أبو المطهر الأزدي الا فنونا من القول أراد بها وصف المجنون وتصوير الماجنين من أهل بغداد وأصفهان فهي ليست قصة بالمعنى المعروف »

٨١ - نفسه ص ٩٧ .

٨٢ - حكاية أبي القاسم البغدادى - أبو المطهر الأزدي ص ٨٧ .

٨٣ - النشر الفني ط دار الكتب ٣٨٨/١ .

٨٤ - النشر الفني ط دار الكتب ٣٨٨/١ .

ولكنها مجلس واحد يطرد فيه القول من فن الى فن في دعابة وظرف (أبو القاسم البغدادى بطل القصة رجل جمع أدوات النص والاحتياال والنفاق وهو يشبه من بعض الوجوه أبا الفتح الاسكندري في مقامات بديع الزمان الهمداني فاننا نراه يداري أهل المجلس وينافقهم) فيليس ثوب التقى والصالح حتى اذا رآهم في استعداد للهزل انفلت لاعيا متمردا عارفا بغرائب الخلاعة والمجون .

وقد اشتملت الحكاية الى جانب وصف العبت والمجون في حياة البغداديين وصف مظاهر الحضارة في تلك المدينة ومقارنتها بغيرها من المدن والمناطق كاصبهان . والواقع أن شخصية أبي القاسم تشبه الى حد كبير شخصية أبي الفتح الاسكندري في قدرته البانية على الوصف والتلون والخذاع وان ظل يعبر عن كل تلك المظاهر في موقف واحد ويرى الدكتور زكي مبارك أن حكاية أبي القاسم البغدادى في النثر تشبه الى حد كبير قصيدة أبي دلف السامانية فكلاهما وصف لأخلاق الأرباش وتقليد لتصرفاتهم والفاطمهم ولا يخفى بالطبع أثر القصيدة السامانية في تبصير بديع الزمان بصوغ نموذج أبي الفتح الاسكندري .

وقد رأينا بديع الزمان يقلد أبا المظهر في بعض أسلوبه في هذه الحكاية . يقول أبو القاسم في وصف ثقبيل<sup>٨٥</sup> :

« يا أول ليلة الغريب اذا بعد عن الحبيب يا طلعة الرقيب يا يوم الأربعاء في آخر صفر يا لقاء الكابوس في وقت السحر يا خراجا بلا غلة يا سفرا مقرونا بعة . »

لقد اتبع بديع الزمان هذا الأسلوب في المقامة (اللاتينية) حيث طلب عيسى بن هشام من الاسكندري وأحد بني ساسان أن يتشائما كي يظفر أحدهما بالدينار فعمدا الى قول شبيه بهذا .

وعلى وجه الاجمال فان مظاهر الشبه متعددة بين المقامات وحكاية أبي القاسم البغدادى وقد جمع بديع الزمان كثيرا من صفات أبي القاسم التي ذكرت في شخصية بطله .

#### رابعا : رسائل اخوان الصفا :

كذلك فنحن لا نستبعد أن يكون بديع الزمان قد تأثر بتعاليم «إخوان الصفاء» ذلك أن بديع الزمان كان يهدف الى كشف وتعرية السوء الذي حفل به المجتمع العباسي بطريقة غير مباشرة وبأسلوب فني حتى تهب عليه رياح الثورة وذلك هو نفس ابتداء الذي رمى اليه اخوان الصفا وهم جماعة سرية يرجح الدكتور طه حسين<sup>٨٦</sup> أنهم من غلاة الشيعة ومن الاسماعيلية كانوا يستهدفون تقويض حكم بني العباس في العراق وحكم الفاطميين في مصر غير أنهم لم يستهدفوا ذلك عن طريق الثورة المسلحة بل عن طريق الكشف «العقلي» وهم في ذلك أشبه بجماعة «الفيثاغوريين» الذين كانوا يستهدفون تقويض النظام السياسي اليوناني في المستعمرات اليونانية الايطالية . وكان منهم اخوان الصفا يقوم على التدريب العقلي الذي حفلت به احدى وخمسون رسالة يصل بعدها المجاهد الى مرحلة الرسالة الثانية والخمسين ولا نعرف شيئا عن محتوياتها لأنها كانت رسالة سرية لا يطلع عليها بغير المرور بهذا الطريق الطويل . ولعل أسلوب المجاهدة عند «إخوان الصفا» يشبه الى حد كبير أسلوب المجاهدة عند «الصوفي» ويرى الدكتور طه حسين أن الإمام الغزالي قد أفاد كثيرا من مذهبهم . كما يرى الدكتور مصطفى الشكعة أن هنالك علاقة بين مذهبهم العقلي والمذهب الصوفي في شخصية أبي الفتح الاسكندري .

يقول<sup>٨٧</sup> :

« ومن الجدير بالملاحظة أن شخصية أبي الفتح الاسكندري التي يبدو فيها مظهره غير مخبر قد تكون انعكاسا للحياة الصوفية التي ذاعت في القرن الرابع اذ المعروف أن الصوفية لا يهتمون بالمظهر وانما عنايتهم كلها بالنفس ودخائلها فقد يكون الصوفي غنيا موسرا ويبدو أمام الناس فقيرا معسرا وذلك نوع من الحياة أقبل عليه الناس في ذلك العصر هربا من ظلم السلطان وجور الحكام وتلك الحال نلاحظها في شخصية أبي الفتح فهو في مظهره يبدو حقيرا تافها فاذا ما انطلق في الحديث بدا لسانا منطوقا أدبيا حكما مسامرا أو يظهر أحيانا وقد لبس مسوح الرهبان يعظ الناس وينهاهم عن المنكر فاذا ما خلا الى نفسه أقبل على فعل ما يلذ له من معاقرة للكأس وغير ذلك . »

٨٦ - مقدمة رسائل اخوان الصفا ، المطبعة العربية بمصر ، تحقيق خير الدين الزركلي ٧/١ وما بعدها .

٨٧ - بديع الزمان رائد القصة العربية

٨٥ - حكاية أبي القاسم ص ١٢٠ .

والمهم فإن وجه الشبه بين المقامات ورسائل اخوان الصفا يتجلى في أن كليهما عمد إلى تعرية المجتمع العباسي وفضحه تمهيدا لقيام الثورة التي تحت أصول الفساد فيه .

## ٦ - الكدية والمكدون

ذكرنا عند حديثنا عن البيئة العباسية أن ظروف الفقر التي عانت منها قطاعات كبيرة من الناس أدت إلى ظهور طبقة من المكدنين والمتسولين . غير أن جماعة بعينها تميزت من بين هؤلاء لما اتسمت به من الذكاء والتوسع في الخيلة وقد أفاد بديع الزمان منها كثيرا في صوغ الأبعاد الفنية لبطله أبي الفتح الاسكندري الذي لا يكاد يخطئ أحد في أنه واحد من تلك الجماعة . وأما الجماعة فهي طائفة « الساسانيين »

### من هم الساسانيون ؟

هم جماعة من الناس تفرقوا في أقاليم شتى من العالم وفي كل بلد يسمون باسم مختلف ونعرفهم في بلادنا باسم « الغجر » « النور » « الخلب » و « بني ساسان » ومن دأب هذه الجماعة التنقل والسفر من مكان لآخر بحثا وراء الرزق والعيش في كنف الطبيعة الرحب . وأما أماكن سكنائهم فهي الخيام والعربات المتحركة وهم سريعو التعلم للغات الأمم التي ينزلون عليها . أما رجالهم فتميزون بالكسل على عكس نسائهم اللاتي يتميزن بالنشاط والحياة والفجور ، ويتفنن في لبس الملابس الزاهية ويبالغن في وضع الكحل ويتخذن من الرقص والغناء واللعب وسيلة لجمع المال . وكما هو معروف فانهم اباحيون لا يتقيدون بمذاهب الأخلاق ودينهم مجرد طلاء ظاهري يغيرونه بحسب البلد الذي يذهبون إليه . ويعتقد بأن أصلهم يرجع إلى قبيلة « السوادس » الهندية والتي اشتهرت بالحدادة وتدريب الخوول وقد هجرت الهند أيام فتوحات « تيمورلنك » .

يقول الدكتور جميل سلطان :

« كان بنو ساسان في المشرق مدعاة عجب وأصحاب طرب وأرباب أدب عرفت بعض أخبارهم الطريقة وأحوالهم العجيبة وأغرب ما كان لديهم احتياهم للرزق وأساليبهم في جمع المال ولقد كان يمر الزمان هؤلاء دون أن يابه لهم ولكنه كان أحيانا يدفع بعضهم من

أولى الذكاء والابداع إلى المدن والداكر يجربونها يتعلمون ويعلمون يستمعون ويسمعون فما وقفوا موقف سؤال الا اظهروا بعض مواهبهم في الشعر والانشاد أو التحايل ولا اجتماعوا إلى مجلس الا أخذوا منه بعض ما يمكن أن يؤخذ من موعظة وحكمة أو نادرة أو لحن حتى إذا تقلبت بهم الأيام وطرحتهم النوى مطارحها رأيتهم قد جمعوا ثروة فنية جيدة من الغناء والأدب .

وقد ذكر البيهقي<sup>٨٩</sup> في كتابه « المحاسن والمساوي » بعض حيل بني ساسان ومنها :

- ١ - المكي : وهو رجل يدخل المسجد ويدعي أن اللصوص قد قطعوا عليه الطريق وأخذوا ما معه من تجارة وتركوه على حالة من البؤس فيرق له الناس وهمشون لعطائه .
  - ٢ - الشجوي : وهو الذي يصيب يده اليمنى بأثر حتى يوهم بأنه كان مغلولاً ويحمل في يده تكة ينسجها موهما أنه من الخلدية وقد حنس خمسين سنة .
  - ٣ - الذراحي : وهو الذي يلصق أفعى بيده ثم يخرج عريان بعد أن يتقيح جسده ويبدو كالخروق وقد صب على جسده شيئا من الرماد .
  - ٤ - المشعب : وهو الذي يعمي ولده حتى يسأل به الناس .
  - ٥ - العواء : وهو الذي يخرج للمصدقة بين المغرب والعشاء ويطرب بصوته .
- والظاهرة الجديرة بالانتباه هي أن معظم هؤلاء المكدنين من الطرفاء<sup>٩٠</sup> وقد اتصل بهم بديع الزمان وفي مناظرته لأبي بكر الخوارزمي اعتراف صريح بأنه امتهن الكدية ، وقد كتب مقامه أسماها المقامة « الساسانية » .
- فاذا نظرنا إلى أبي الفتح الاسكندري وجدنا تشابها كبيرا بينه وبين أفراد هذه الطائفة وذلك من حيث حيلة ومكره وتقلبه ثم اجادته لألوان الفصاحة والأدب . ولم تقتصر معرفة الهمداني بتلك الطائفة على مجرد مواكبتهم في المهنة بل لقد درس آدابهم ، وبطله أبو الفتح الاسكندري في الواقع قد تشرب فلسفة الاحنف العكبري وأبي دلف في قصصيهما الساسانيتين والشاعران من اعلام الكدية في عصرهما وقد وجدنا الهمداني يستشهد في نهاية مقامته القريضية بيتين من قصيدة أبي دلف أجراها على لسان أبي الفتح وهما :

ويحك هذا الزمان زور  
لا تلتزم حالة ولكن  
فلا يغرنك الغرور  
در مع الليالي كما تدور

وعلى ذلك نرى من واجبنا أن نتبين الفلسفة الساسانية عند الأحنف العكبري وأبي دلف .

### الأحنف العكبري وفلسفته الساسانية :

هو أبو الحسن عقيل بن محمد العكبري<sup>٩٠</sup> .

يقول عنه الثعالبي « شاعر المكدين وظيفهم وملح الجملة والتفصيل منهم وقرأت للصاحب فصلا في ذكره فأوردته وهو : لو أنشدتك ما أنشدني الأحنف العكبري لنفسه وهو فرد بني ساسان اليوم بمدينة السلام وحسن الطريقة في شعره لامتلات عجا من ظرفه وأعجابا بنظمه » .

ويبدو ظرف العكبري في هذه الأبيات التي يظن القاريء من الوهلة الأولى أن المقصود منها هو أن الساسانيين أمة ذات مجد وقوة فرضت سيطرتها على البقاع النائية في حين أن المقصود ، ما يحملون به أنفسهم من التجوال في سبيل الكدية .

يقول<sup>٩١</sup> :

على أنسي بحمد الله	في بيت من المجد
ياخوانسي بني ساسا	ان أهل الجند والحد
هم أرض خراسان	فقاشات الى الهند
الى الروم الى الزنج	الى البلغار والسند
اذا ما أعوز الطرق	على الطسراق والجند
حذار من أعاديهم	من الأعراب والكرد
قطعنا ذلك النهج	بلا سيف ولا غمد

٩٠ - ينمة الدهر للثعالبي ١٢٢/٣ .

٩١ - ينمة الدهر للثعالبي ١٢٢/٣ .

ومن خاف أعاديه  
وقد فسر صاحب هذا البيت الأخير بقوله :

« ولهذا البيت الأخير معنى بديع يريد أن ذوي الثروة وأهل الفضل والمروءة اذا وقع أحدهم في أيدي قطاع الطريق وأحب التخلص قال أنا مكتر فانظر كيف غاص وأبرز هذا المعنى المعتاص » .

ولعل من أبرز أفكار العكبري التي أثرت في بديع الزمان تلك التي تحمل في طياتها عدم الرضي وتنادي بالثورة<sup>٩٢</sup> .

رأيت في النوم دنيا مزخرفة مثل العروس تراءت في المقاصير  
فقلت جودي فقالت لي على عجل اذا تخلصت من أيدي الخنازير  
وما أثر في الهام بديع الزمان شخصية أبي الفتح قول العكبري :

قد قسم الله الرزق في البلاد فما يكاد يدرك الا بالتفريق  
ولست مكتسباً رزقاً بفلسفة ولا بشعر ولكن بالمخاريق  
والناس قد علموا اني أخو حيل فلست أنفق الا في الرساتيق<sup>٩٣</sup>  
وأما أبو دلف الخزرجي : فهو مسعد بن مهلهل ويعرفه الثعالبي بقوله<sup>٩٤</sup> :

« شاعر كثير الملح والظرف مشحوذ المديّة في الكدية خنق التسعين في الاطراب  
والاعتراب وركوب الاسفار الصعاب وضرب صفحة المحراب بالجراب في خدمة العلوم  
والاداب » .

كان أبو دلف من المعتادين لحضرة صاحب بن عباد وقد كان بالصاحب كلف بأبي دلف  
وأمثاله من شعراء الكدية كأبن الحجاج وابن سكرة ويقال إنه كان يحفظ « مناكاة بني  
ساسان » .

ولأبي دلف قصيدة « ساسانية » شهيرة عارض بها دالية الأحنف العكبري وفيها توسع

٩٢ - ينمة ١٢٢/٣ .

٩٣ - ينمة ٣٥٦/٣ .

وشرح لحيل المكدين وأساليبهم وقد بلغ به التندر فيها أن أدخل الخليفة المطيع لله في جملة المكدين (ولعل روح أبي دلف في هذه القصيدة قد فتحت باب الخيال وأسعا أمام بديع الزمان كي ينوع في أساليب بطله أبي الفتح الاسكندري ، وبصفة عامة فإن هذه القصيدة تعد انجيلا في حيل المكدين من بني ساسان . يفوز فيها

حسون دمعها يجري	لظول الصبد وأهجر
وقلب ترك الوجد	به جمر على جمر
لقد ذقت الهوى طعمين	من حلو ومن مر
ومن كان من الاحرا	رسلو سلوة الحر
ولا سيما وفي الغر	بة أودى أكثر العمر
تعريت كغصن البيا	ن بين السورق والخضر
وشاهدت أعاجيبا و	ألوانا من الدهر
قطابت بالنوى نفسي	على الامساك والفطر

فهو في هذه الأبيات يحدد طبيعة تلك الجماعة المماثلة الى التجوال ويرى في ذلك ضربا من الحرية والانطلاق لمعرفة ما تخبئه الحياة من أعاجيب .

ونراه يعرف جماعته بتعريف أشبه بما ذكره الأحنف العكري من قبل فهم جماعة لا يباسون وقد وطنوا العزم على معايشة الحياة مهما كانت ظروفها

على أني من القوم	البهاليل بنسي الغر
ففضل البين يرميا	شوى بطننا الى ظهر
كما قد تفعل الريح	بكثب الرمل في البر
فطننا نأخذ الأوقا	ت في العسر وفي اليسر
فما تفك من صمي	وما نفتق من متر
فأحلى ما وجدنا العيش	بين الكمد والخمر

٩٤ - نفسه ص ٣٥٨ .

٩٥ - نفسه ص ٣٥٩ .

٩٦ - الشرب

٩٧ - المتر والكمد - الكاح .

الآخرين وقد عبر العكري عن هذا المدلول في قوله

فنحن الناس كل النبا	سر في البر وفي البحر
أخذنا جزيرة الخل	ق من الصين الى مصر
ألى طنجة بل في كل أر	ض خيلنا تسري
إذا ضاق بنا قطر	نزل عنه الى قطر
لنا الدنيا بما فيها	من الاسلام والكفر
فنصطاف على الثلج	ونشتو بلد التمر

- وبالطبع فإن بطل الهمداني لا يصل الى الدرك المنحط الذي وصل اليه الساساني المشرد في قصيدة « أبي دلف الخزرجي » كما يوضح ذلك الجزء المتبقي من القصيدة وهو ألوان من حيل بني ساسان . لقد استفاد بديع الزمان من هذا النموذج المشرى . ولكنه لم يجعل بطله يصل درجة الاسفاف التي وصل اليها وصف الساساني في قصيدة أبي دلف . فقد استفاد من هذا النموذج أهم الخصائص التي تميزه وهي الحيلة (الذكاء) والتجوال . ثم طوع تلك الخصائص لتعبر عن واقع بطله وهو في صورته الشاملة عمقري مشرد لم ينصفه مجتمعه فآثر كشف ذلك المجتمع وفضحه بأساليب الحيلة وعلى ذلك فإن بطل الاسكندري قد حمل في داخله بذور الثورة الاجتماعية في حين ظل نموذج الساساني رمزا للصلعوك الذي لا تستهويه من الحياة سوى ملذاته .

وبذلك فإن التأثير العام لشعراء الكدية في بديع الزمان يكمن في أنهم حفزوه لصوغ نموذج على غط نماذجهم مع اختلاف في المنطلق الأساسي . ذلك أن بديع الزمان أراد تصوير الواقع العباسي من زاوية تعريته في حين اكتفى أولئك بتقرير الظاهرة تقريراً أدبياً .

٩٨ - نفسه ص ٣٥٩ .

٩٩ - راجع بقية النص في مصلره .

الفصل الثالث  
مقامات الهمداني

١ - أمراض الحساسية  
٢ - أمراض الجهاز الهضمي  
٣ - أمراض الجهاز التنفسي  
٤ - أمراض الجهاز البولي  
٥ - أمراض الجهاز العصبي

## مقامات الهمذاني

نقسم الحديث في مقامات الهمذاني الى اقسام ثلاثة :

الخصم

١ - موضوع المقامات .

٢ - البطل « أبو الفتح الاسكندري » .

٣ - الراوي « عيسى بن هشام » .

وكما رأينا في نموذج المقامة الأصفهانية الذي درسناه فإن جميع تلك العناصر تتداخل في إطار البناء الدرامي الشامل وإثارتنا للتجزئة في هذا الفصل بغرض الايضاح غير أن ذلك بالطبع لا يحجب عنا الرؤية الشاملة التي أرادها بديع الزمان لمقاماته .

## أولا : موضوع المقامات

تناولت المقامات الهمذانية موضوعات متعددة تتألف جميعها لتخدم الغاية التي رعى إليها بديع الزمان وهي تقديم صورة شاملة لواقع بيئته يصب من خلالها ثورته على ذلك النظام . وقد أثر بديع الزمان أن يربط الصور المختلفة التي قدمها لنا من خلال شخصية أبي الفتح الاسكندري الذي يقوم بطولية المقامات أو شخصية الراوي عيسى بن هشام في بعض المقامات التي لا يظهر فيها أبو الفتح الاسكندري / وسنرى الأثر الواضح الذي أحدثته تلك المؤثرات التي أشرنا إليها من قبل في صوغ النموذج المقامي .

فما هي الأغراض المقامية ؟



## أ - الكدية :

وهي صفة ملازمة لبطل المقامات معروف بها وقد ظن بعض الدارسين أنها الموضوع الأساسي الذي تقوم عليه مقامات الهمداني وليس ذلك صحيحاً لأن المقامات تتناول مواضيع مختلفة وأما الكدية فهي صفة من صفات البطل فرضها عليه مجتمعه على الرغم من تميزه ونبوغه ومع ذلك فهناك بعض المقامات كان موضوعها الأساسي هو الكدية ولكن حتى في هذه المقامات فإن الكدية لم تقصد لذاتها بل أراد بديع الزمان أن يصور من خلالها ظاهرة عمت المجتمع العباسي ودفعت كثيراً من العلماء وأولى النبوغ إلى التسول والتفنن في أساليب الاحتيال حتى يكسبوا لقمة عيشهم ، لأجل ذلك كان من واجبنا أن ندرس الظاهرة متصلة بشخصية البطل - وذلك ما سنفعله في غير هذه الفقرة ، أما الآن فسندرس الكدية وأساليبها كغرض من الأغراض التي تناولتها مقامات الهمداني .

\*\*\*

## ١ - التكدى بالبراعة الأسلوبية :

نلمح عدداً من المقامات تخصص موضوعها في الكدية ، ووسيلة الاسكندري الى ذلك براعته البلاغية كما في المقامة « الأرازية » فقد روى فيها عيسى بن هشام أنه خرج ذات يوم الى بغداد كي يشتري بلحاً وفي طريق عودته لمح رجلاً محتضن عياله ويقول بصوت فيه ضعف :

ويلي على كفين من سويق <sup>١</sup>	أوشحمة تضرب بالدقيق
أو قصعة تملأ من خرديق <sup>٢</sup>	يفشأ عنا سطسوات الرقيق
يقيمنا عن منهج الطريق	يا رزاق الشروة بعد الضيق ؟
سهل على كف فتى لبيق <sup>٣</sup>	ذي نسب في مجده عريق
يهدي إلينا قدم التوفيق	ينقذ عيشي من يد التريق <sup>٤</sup>

٥ - التكدى .

١ - مقامات الهمداني ص ١١ .

٢ - جريش الشعير والقمح .

٣ - المرق .

٤ - حاذق .

فما كان من ابن هشام الا أن اعطاه شيئاً مما في كيسه فتكشف له السائل عن أبي الفتح الاسكندري ، والمقامة لا تسفر عن شيء سوى براعة الاسكندري البلاغية في لفت الأنظار اليه استدرازا للعطاء .

ويستخدم الاسكندري نفس الطريقة - مرة أخرى - في مقامته « الأذربيجانية » وفيها يمر ابن هشام في سوق « أذربيجان » فإذا به أمام رجل يتكىء على عصاه ويقول : « اللهم يا مبدى الأشياء ومعيدها ومحى العظام ومبيدها وخالق المصباح ومديره وفالق الاصباح ومديره وموصل الألاء سابعة علينا وعمسك السماء أن تقع علينا . . أسالك الصلاة على سيد المرسلين محمد وآله الطاهرين وأن تعينني على الغربة أثني حبليها وعلى العسرة أعدو ظليها وأن تسهل على يدي من فطرته الفطرة وأطلعته الطهرة وسعد بالدين المتين ولم يعم عن الحق المبين راحلة تطوي هذا الطريق وزادا يسعني والرفيق » .

فيخالج عيسى اعتقاد بأن هذا الرجل أفصح من الاسكندري المعروف ولكنه سرعان ما يتكشف له عن الاسكندري الذي بلغ تلك الأرض كيداً وانتهى الى ذلك الشعب صيده .

## ٢ - الحيلة :

كذلك فقد استخدم الاسكندري الى جانب براعته البلاغية حيلة أمدته بها ثقافته في الاحتيال ذلك لأن المثقف الفقير في المجتمع العباسي لا مفر له من أن يجيد ألواناً من الحيل تساعد في الارتزاق وكسب العيش ومن بعض ما استخدمه الاسكندري بغرض التكدى :

## أ - طرق الليل :

فقد كان الاسكندري على علم بأن الكرم صفة ملازمة للطبيعة العربية وأن طارق الليل يحظى بعطاء لا يناله غيره من الطارقين . ذلك أنه في معظم أحواله مسافر أو مشرد في الصحراء ومثله من يهب العرب لنجدته ، ومن واقع هذا الإدراك نجده يستغل تلك الظاهرة لمصلحته احتيالا ، فقد ورد في المقامة الكوفية أن عيسى بن هشام حين نوى الحج التقى في الطريق برفيق أسفر عن أصل كوفي ومذهب صوفي فلما وصل معه الى الكوفة مال

٦ - مقامات الهمداني ص ٢٤ .

به الى داره وعندما جن الليل قال الراوي<sup>٢</sup> :

« قرع علينا الباب فقلنا من القارح المنتاب فقال وفد الليل وبريده وقل<sup>١</sup> الجوع وطريده وحر قاده الضر والزمن المر وضيف وطوء خفيف وضالته رغيف وجار يستعدي على الجوع والجيب المرقوع وغريب أوقدت النار على سفره ونبح العواء على أثره ونبذت خلفه الخسفيات<sup>٣</sup> وكنت بعده العرصات فنضوه<sup>٤</sup> طليح<sup>٥</sup> وعيشه تبريح ومن دون فرخية مهامه فيح<sup>٦</sup> قال عيسى بن هشام فقبضت من كيسي قبضة اللبث وبعثتها اليه وقلت زدنا سؤالا نزدك نوالا<sup>٧</sup> .

ولكن الأمر لا يطول فقد كشف ابن هشام عن هوبة الطارق فاذا هو الاسكندري الذي أنشد على الفور<sup>٨</sup> :

لا	يغرنك	الذي	انا فيه من الطلب
انا	في ثروة	تشق	هنا بركة الطرب
انا	لو شئت	لاأخذ	ت سقوفاً من الذهب

وهي أبيات تكشف أنه كان يتنذل تلك الصفة الحميدة التي ظل يتحلى بها العرب وهي صفة اكرام الضيف الطارق أما الذي دفع البطل الى ذلك فطبيعة العصر الذي يعيش فيه ، ذلك العصر الذي تبدلت فيه القيم السامية لتحل محلها قيم السلب والنهب واستغلال الذكاء في تحويل المواقف كلها في سبيل المصلحة الذاتية .

### ب - التعامي :

وهي حيلة كان يكثر الساسانيون استخدامها في شحاذتهم وقد استخدمها الاسكندري في مقامته « المكفوفية » فقد روى عيسى بن هشام أنه بينما كان يجتاز بعض بلاد الأهواز أدى

٧ - المقامة الكوفية ص ٢٥ .

١٢ - واسعة .

١٣ - المقامة الكوفية ص ٢٨ .

٨ - الغل . المنهزم .

٩ - جمع حصية تصغير حصاة .

١٠ - النضر الخزيل من الأبل .

١١ - نعب .

به السير الى رقعة فسيحة من البلد وجد فيها الناس ملتفين حول رجل ظن أنه أعمى في أول الأمر قال<sup>٩</sup> :

« وسرحت الطرف عنه الى حزقة<sup>١٠</sup> كالقرني<sup>١١</sup> أعمى مكفوف في شملة صوف يدور كالحذروف متبرساً بأطول منه معتمدا في عصا فيها جلاجل يحيط الأرض بها على ايقاع شنج بلحن هزج وصوت شج من صدر حرج وهو يقول :

يا قوم قد أثقل ديني ظهري	وطالبتني طلستي بالمهر <sup>١٢</sup>
أصبحت من بعد غنى ووفر	ساكن قفر وحليف فقر
يا قوم هل بينكم من حر	يعتني على صروف الدهر
يا قوم قد عيل لفقرى صبري	وانكشفت عني ذيول الستر <sup>١٣</sup>

« وحين نفحه ابن هشام بدینار أردف منشدا<sup>١٤</sup> :

« يا حسنها فاقعة صفراء  
ممشوقة منقوشة قوراء<sup>١٥</sup> »  
فعلم أنه متعام وليس أعمى لسرعة ما عرف الدينار في يده .

### ج - القراد :

انها حيلة أخرى ظهرت في مقامته « القرديّة » .

يقول الراوي<sup>١٦</sup> بينما كان في طريق عودته من البلد الحرام انتهى بمدينة السلام الى حلقة رجال مزدهمين يلوي الطرب أعناقهم ويشق الضحك أشدافهم - يقول - فساقني الحرص الى ما ساقهم حتى وقفت بمسمع صوت رجل دون مرأى وجهه لشدة الهجمة وفرط الزهمة فاذا هو قراد يرقص قرده ويضحك من عنده فرفقت رقص المخرج وسرت سير الأعرج يلقتني عاتق هذا لسرة ذاك حتى افترشت لحية رجلين وقعدت بعد الأين وقد أشرقني الخجل بريقه وأرهقني المكان بضيقه فلما فرغ القراد من شغله وانتفض المجلس عن أهله

١٤ - المكفوفية ص ٧٨ .

١٥ - العظم البطن القصير .

١٦ - دوية تشبه الخنفساء .

١٧ - زوجته .

١٨ - المقامة المكفوفية ص ٨٠ .

١٩ - بها حرف مستدير .

٢٠ - المقامة القرديّة ص ٩٦ .

تمت وقد كساني الدهش حلته ووقفت لأرى صورته فاذا هو والله أبو الفتح الاسكندري .

ونلاحظ الاسكندري في هذه المقامة يكتبني بحيلته وحدها ولا يستعين ببلاغته

## د - الادعاء بتبديل الحال مع وجود العيال

استخدم الاسكندري هذه الحيلة في أكثر من مقامة وتتخذ مثالا لذلك المقامة الجرجانية وفيها نجد عيسى بن هشام في مجمع من الناس يطل عليهم الاسكندري ويقول<sup>٢١</sup> :

« يا قوم اني امرؤ من أهل الاسكندرية من الثغور الأموية غمتني سليم ورحبت بي عس جبت الأفاق وتقصيت العراق وحللت البدو والحضر وداري ربيعة ومضر وما هنت حيث كنت . . . ثم ان الدهر يا قوم قلب لي من بينهم ظهر المجن فاعتضبت بالشوم السهر وبالأقامة السفر .

الى أن يقول :

« فطلعت من همدان طلوع الشاردة ونفرت نفارا الأبد افرى المسالك واقتفر المهالك أعاني الممالك على أني خلفت أم مثواي وزغلولا لي :  
كأنه دملج<sup>٢٢</sup> من فضة نبه<sup>٢٣</sup> في ملعب من عزاري الحي مفصوم ؟ وقد هبت بي اليكم ريح الاحتياج ونسيم الألفاج<sup>٢٤</sup> » .

وكانت هذه الصورة المؤثرة سببا في اعطائه وهكذا تتوالى حيله في المقامات المختلفة لتعكس في النهاية صورة شاملة لما آل اليه أهل النبوغ من آمثال الاسكندري في المجتمع العباسي وقد تصور بعض المقاميين المتأخرين الاسكندري بطلا شريفا فجعلوا لابطالهم التوبة في آخر المقامات كما فعل الحريري أو صنعوا نموذجاً مناقضا له كما فعل الخففي في مقاماته والحقيقة غير ذلك لأن الاسكندري كان يقوم بتلك الحيل بدافع الظرف لكشف

٢١ - المقامة الجرجانية ص ٤٦ .

٢٢ - حلي من فضة .

٢٣ - نريف .

٢٤ - الأفلاس .

حقيقة المجتمع الذي يعيش فيه وقد دفع الى ذلك دفعا اذ نراه في المقامة الساسانية يحمل الزمان مسؤلية حالة<sup>٢٥</sup> :

هذا	الزمان	مشوم	كما	تراه	غشوم
الحمق	فيه	ملح	والعقل	عيب	ولوم
والنال	طيف	ولكن	حول	اللثام	بحوم

فهو لا يرفض العقل ولكنه يرى بضاعة العقل لا تسعف صاحبها في مجتمع اختلت فيه القيم وأصبحت السيادة فيه للثام وهكذا نرى موقفه في المقامة القردية حيث يحمل الليالي الذنب كله<sup>٢٦</sup> :

الذنب	للأيام	لا لي	فاعتب	على	سرف	الليالي
بالحمق	أدركت	المني	ورفست	في	حلل	الجمال

ولعل عيسى بن هشام نفسه قد عذر الاسكندري في مواقفه وحل الفقر مسؤلية ضئيلة وتشرده يقول في المقامة السارية<sup>٢٧</sup> على أثر ذهاب الاسكندري :

يا لست شعري عن أخ	ضاقبت	يداه	وطال	صيته
قد بات بارحة لدى	فأين	ليتنا	مبيته	
لا در در الفقر فهو	طريده	وبه	رزيته	
لأسطن عليه من	خلف	بن احمد	من	بيته

## ب - الأدب والنقد والألغاز

١ - النقد الأدبي والفلسفي :

لم يكن بديع الزمان مجرد ناثر اجتماعي بل كان الى جانب ذلك ممثلا لمدرسة أدبية جديدة

٢٥ - ص ٩٥ .

٢٦ - المقامة القردية ص ٩٧ .

٢٧ - ص ٢٣٤ .

١. ربيعة عله لا مستر

المحنا لا ليد ربيعة / كحقيقة

٢. ربيعة عله لا مستر

فما لم يفرده

٣. ربيعة عله لا مستر

٤. ربيعة عله لا مستر

عقد لها لواء الانتصار في القرن الرابع على وجه الخصوص . تلك المدرسة التي نادى ابو تمام بمبادئها الاولى في القرن الثاني ومنذ ذلك العهد وهي تعاني من عنت الخصوم الذين اعتبروها خطراً على طريقة العرب . وما كان لتلك الطريقة أن تنتصر انتصاراً ساحقاً في القرن الثاني بل كان لا بد لها من أن تسلك طريقها الوعر وتقاوم في اصرار حتى يكتب لها الانتصار . وها هي المقامات الأدبية تعتبر النموذج الكلاسيكي الذي تبلور فيه هذا الاتجاه الذي غدا رمزاً لأساليب المجددين ؛ لقد ذهب بعض الكتاب الى القول بأن انتصار مذهب الصنعة في القرن الرابع كان بسبب جهل الحكام الأعاجم بأساليب الكتابة العربية واكتفائهم بما يحدث في داخل الأساليب من أبقاعات وهذا رأي غير صحيح لأن انتصار هذا المذهب كان نتيجة طبيعية للصراع بين المقلدين والمجددين والذي يحسم في كل الظروف لصالح المجددين .

وعليه فقد كان لا مفر لبديع الزمان من أن يدافع عن هذا الانتصار في مقاماته وذلك ما فعله من خلال النقد المرير الذي وجهه الى الجاحظ على لسان بطله أبي الفتح الاسكندري .

يقول في المقامة الجاحظية<sup>٢٨</sup> :

« ان الجاحظ في أحد شقي البلاغة يقطف وفي الآخر يقف والبلوغ من لم يقصر نظمه عن نثره ولم يزر كلامه بشعره فهل تروون للجاحظ شعراً رائعاً ؟ قلنا لا : قال فهلما الى كلامه فهو بعيد الاشارات قليل الاستعارات قريب العبارات مثقاف لعريان الكلام يستعمله نفور من معاصره يمله فهل سمعتم له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة فقلنا : لا »

وكما نرى فإنه يعيب على الجاحظ نفوره من التصنيع والتصنع وجنوحه الى الاسترسال والسهولة غير أن اختيار بديع الزمان للجاحظ كنموذج ينقد من خلاله أساليب القدماء لم يحالفه التوفيق لأن الجاحظ قيمة في ذاته وهو نسيج وحده وأسلوبه لا يعتبر ممثلاً لطرائق القدماء .

لقد جنح الجاحظ الى أسلوب الاسترسال لأن عمق القضايا التي تناوضا وكثرتها لا يسمحان له بصرف ذهنه وأعماله في الصنعة والتصنع وانتصار مذهب الصنعة في القرن الرابع لا يعني نهاية مذهب الجاحظ لأنه انتصار وقتي جنح اليه المجددون ولكنهم سرعان

ما ارتدوا مرة أخرى لطريقة الجاحظ الملائمة لأساليب الكتابة الثرية أكثر من غيرها من أساليب الصنعة . وقد استمرت طريقة الجاحظ الى عصرنا الحديث حيث طورها الكتاب في ألوان الكتابة المعاصرة .

غير أننا مع ذلك نقف مع بديع الزمان في نقده لطريقة الجاحظ الاستطردية في المقامة « المضيرة » فهو وإن لم يصرح فيها بنقده المباشر للجاحظ فإن القارئ يدرك أن المقصود من ورائها طريقة الجاحظ الاستطردية . والمقامة لا تتعرض للمسائل الأدبية ولكنها تتعلق بدعوة وجهت لعيسى بن هشام وجمع من الناس قدمت فيها وحنة المضيرة فإذا بالاسكندري يقف ويذم تلك الوجبة ويلعنها وسببه في ذلك انه لبي من قبل دعوة أحد التجار لوجبة « المضيرة » وفي الطريق أخذ التاجر يحدسه عن زوجته وأصلها وطبائعها ثم استطرد الحديث عن متجره ثم منزله وما فيه من طاق وباب وأواني وظل يخرج من موضوع الى موضوع فيما هو صارف النظر عن الوجبة فما كان من الاسكندري الا أن التمس الفرار والرجل يصبح من ورائه<sup>٢٩</sup> « يا أبا الفتح المضيرة » فتعلق الصبيان به ظناً منهم أن المضيرة لقب له فرمى أحدهم بحجر كان سبباً في ادخاله السجن عامين فأقسم ألا يأكل المضيرة .

والمقامة ترى حالة الملل والضجر التي تعتري الانسان من عدم التركيز في الموضوع الأصلي والانشغال بما دونه من الجزئيات غير المطلوبة وتلك هنة حفل بها الأسلوب الجاحظي وسببها في الواقع عدم معرفة الكتاب الأقدمين بما فيهم الجاحظ « بوحدة الموضوع » في المقالة أو البحث الأدبي وقد حرص الحمداني على التزام وحدة الموضوع في مقاماته .

\*\*\*

وللهمداني لون آخر من النقد الأدبي لا نشك في أن غايته تعليمية فهو لا يأتي فيه بشيء جديد بل يكتفي بتدوين الآراء النقدية والأدبية المتداولة لدى جبهة النقاد والأدباء وقد أورد هذه الطريقة في مقامته القريضية وفيها نرى الاسكندري يخاطب الناس بقوله<sup>٣٠</sup> :

« سلوني أجبكم واسمعوا أعجبكم فقلنا : ما تقول في امرئ القيس قال : هو أول من وقف بالديار وعرضاتها واعتدى والطير في وكناتها ووصف الخيل بصفاتها لم يقل شعراً كاسبا ولم يجد القول راغبا ففضل من تفتق للحيلة لسانه وانتجع للرغبة بنانه قلنا : فما

تقول في النابعة قال يثلب<sup>٣١</sup> اذا حق<sup>٣٢</sup> ويمدح اذا رغب ويعتذر اذا رهب ولا يرمي الا صائبا  
وقلنا فما تقول في زهير قال : يذيب الشعر والشعر يذيبه ويدعو القول والسحر يجيبه .  
وهلم جرا .

ولا يقتصر نقد الهمداني على الأدب وحده بل نجد عنده نقدا لأساليب المتكلمين  
ومعتقداتهم أيضا وقد ورد ذلك في المقامة « المارستانية » ولا ندري لماذا اختار لبطله أبي  
الفتح الجنون وهو ينقد أبا داود المتكلم وتابعه عيسى بن هشام ولا نعتقد أن ذلك موقف  
منه تجاه الاسكندري بل ترجيح أن ذلك بسبب ما كان يلقاه أصحاب الآراء الحرة من  
الكبت اذا تعرضوا لأصحاب المذاهب القهرية كمذهب الخوارج ؛ يقول الاسكندري  
المجنون موجها حديثه لابن هشام وأبي داود :

« فليخزكم ان القرآن بغيضكم وأن الحديث يغيطكم اذا سمعتم من يضل الله فلا  
هادي له ألدتم واذا سمعتم عرضت على الجنة حتى هممت أن اقطف ثمارها وعرضت  
على النار حتى اتقبت حرها بيدي انفضتم رؤوسكم ولويتم أعناقكم وان قيل عذاب القبر  
تظه تم وان قل الصراط تغامزتم وان ذكر الميزان قلت من الفرغ كفته وان ذكر القلب  
قل من الفد<sup>٣٣</sup> دفناه يا أعداء الكتاب والحديث بما تطيرون أبا لله وآياته ورسوله تسهزون  
أما مرقم مازقه فكانوا حيث الحديث ثم مرقم منها فانتهم حيث الحديث يا مخاييل الخوارج  
ترون رأيهم الا القتال وانت يا ابن هشام تؤمن ببعض وتكفر ببعض سمعت أنك افترشت  
منهم شيطانة الم ينهك الله عز وجل أن تتخذ منهم بطانة »

وليس من الغريب أن يقف الهمداني هذا الموقف من المتكلمين والمعتزلة على وجه  
الخصوص فقد وقف من قبل موقفا حقيقيا مماثلا من أبي بكر الخوارزمي في مناظرته الشهيرة  
دفاعا عن مذهبه السني .

### الغايات التعليمية في المقامات الأدبية :

هنالك ناحية أخرى ركز عليها الدارسون في مقامات الهمداني وهي الناحية العلمية أو  
التعليمية فقد كان بديع الزمان حريصا على أن تكون مقاماته الى جانب فوائدها الاجتماعية  
ذات فائدة تعليمية لقارئها . وكان بطله الاسكندري على الرغم من هزله وانطلاقه يحل

٣١ - بشم .

٣٢ - غضب .

٣٣ - جلد .

هذه الصناعة ويقيده نفسه من أجلها ولقد أوضح لنا منهاج عسرا في تحصيل العلم وذلك في  
مقامته العلمية . روى عيسى بن هشام<sup>٣٤</sup> « كنت في مطارح الغربية مجتازا فاذا برجل يقول  
لاخر أدركت العلم وهو يجيبه قال : طلبته فوجدته بعيد المرام لا يصطاد بالسهم ولا يقسم  
بالأزلام<sup>٣٥</sup> ولا يرى في المنام ولا يضبط باللجام ولا يورث عن الأعمام ولا يستعار من الكرام  
فتوسلت اليه بافتراش المدر<sup>٣٦</sup> واستناد الحجر ورد الصخر وركوب الخطر وادمان السهر  
واصطحاب السفر وكثرة النظر واعمال الفكر فوجدته شيئا لا يصلح للغرس ولا يغرس الا  
في النفس وصيدا لا يقع الا في الندر ولا ينشب الا في الصدر وطائرا لا يتجده الا قصص  
اللفظ ولا يعلقه الا شرك الحفظ فحملته على الروح وحبسته على العين وانفقت من العيش  
وخزنت في القلب وحررت بالدرس واسترحت من النظر الى التحقيق ومن التحقيق الى  
التعليق »

ونرى الاسكندري في المقامات التعليمية يستخدم أساليب شتى كالاسئلة المحيرة والألغاز  
كما في المقامة العراقية ونجد فيها عيسى بن هشام يلتقي بالاسكندري في بغداد وهو يسأل  
الناس ويحرمونه فأعجب بفصاحته وحين سأله عن العلم الذي عجم عوده أخبر أنه رمى في  
كل علم بسهم أما عيسى فانه قد ذكر أنه عجم عود الشعر وحده فسأله الاسكندري في بابه  
بنحو قوله<sup>٣٧</sup> :

« هل قالت العرب بيتا لا يمكن حله وهل نظمت مدحا لم يعرف أهله وهل لها بيت  
سمح وضعه وحسن قطعه وأي بيت لا يرقأ ذمعه وأي بيت يثقل وقعه »

وكان ذلك مثار عجب عيسى الذي وقف حائرا يستفسر عما أورده الاسكندري فقال  
الاسكندري<sup>٣٨</sup> :

« أما البيت الذي لم يعرف حله فكثير ومثاله قول الأعشى :

دراهمنا كلها جيد فلا تحسنا بتقارها

وهذه الطريقة التعليمية أفادها بديع الزمان من أسلوب الجاحظ « في رسالة التربيع  
والتدوير » وهي رسالة كتبت بغرض التحدي والتعليم وقد أشار الجاحظ في كتابتها الى أن

٣٤ - المقامة العلمية ص ٢٠٢ .

٣٥ - الألداح .

٣٦ - الطين البابس .

٣٧ - العرافة ص ١٤٣ .

٣٨ - نفسه ص ١٤٥ .

الإجابة على أسئلته يجدها القارىء في بطون كتبه .

## ٢ - الألفاظ :

فقد استخدمها بديع الزمان في غاياته التعليمية أيضاً كما في المقامة الشعرية وموضوعها أن عيسى بن هشام كان في رفقة من أصدقائه في بلاد الشام يتذكرون الشعر فإذا بفتى يتسمع إليهم وقد أثار ضجرهم فأبعدوه عنهم ثم عاد إليهم وطلب منهم أن يسألوه في المعميات فأنهالت عليه الأسئلة وهو يجيب وحين أفرغوا ما في جعبتهم شرع هو في سؤالهم بقوله<sup>٣٩</sup> :

« عرفوني أي بيت شطره يرفع وشطره يدفع وأي بيت كله يصفح وأي بيت نصفه يغضب ونصفه يلعب وأي بيت كله أجرب وأي بيت غروضه يحارب وضربه يقارب . . . وهلمجرا » .

فظن القوم أن كل هذه معاني جود نحتها ولا معاني تحتها غير أنه عطف وأجاب على خمس قضايا منها وترك لهم أعمال النظر في غيرها . ونراه يستخدم طريقة مشابهة في مقامته المغزلية وفيها نرى فتيين يدخلان على عيسى بن هشام يتشكيان له قال الأول<sup>٤٠</sup> :

« دخل هذا الفتى دارنا فأخذ قبح سنار<sup>٤١</sup> بوسطه زنار وفلك دوار وخيم الصوت أن صر سريع الكر أن فر طويل الذيل أن جر نحيف المنطق<sup>٤٢</sup> ضعيف المقرطق<sup>٤٣</sup> . . . إلى آخر النص .

فقال الآخر<sup>٤٤</sup> :

« أيد الله الشيخ لأنه غصبي على :

مذلق  
تفريق شمل شانه

مرهف  
سنانه  
أعوانه  
أولاده

٣٩ - المقامة الشعرية ص ٢٢٣ .

٤٠ - المقامة المغزلية ص ١٦٤ .

٤١ - لا يعرف معناها .

٤٢ - مكان النطاق .

٤٣ - مكان القرطق .

٤٤ - نفسه ص ١٦٥ .

مواثب لصاحبه

مشتبك الأنياب

حلو مليح الشكل

رام كثير النبل

معلق بشاربه

في الشيب والشباب

ضاو زهيد الأكل

خوفه اللحي والسبل

فقال ابن هشام مخاطباً الأول : رد عليه الشط ليرد عليك المغزل .

## شيطان الشعر :

وقد نراه يعبر عن فكرة أدبية تعبيراً مباشراً كما في مقامته الابليسية وفيها يروي عيسى بن هشام أنه خرج بنشد أبلاً ضالة له فإذا به يلتقي بشيخ جالس في واد من الوديان ويدور بينهما الحديث فيسأله الشيخ أن يروي له شيئاً مما قالت العرب فينشده ابن هشام من شعر امرئ القيس وعبيد وليد وطرفة فلا يطرب ويبدأ الشيخ في انشاد شيء من شعره قوله :

بان الخليط ولو طوعت ما بانا  
وقطعوا من حبال الوصل أقرانا

فيعجب ابن هشام من ادعاء الشيخ شعر جرير ولا يخفى بالطبع على القارىء بأن هذا الشيخ هو « شيطان الشعر » الذي كانت تؤمن به العرب وهو الذي كان يضع الشعر على لسان جرير وتلك فكرة لا بد للمتعلّم أن يصادفها حين يدرس شعر العرب . وهكذا فإن بديع الزمان قد نوع في أساليبه التعليمية والمهم هو أنه استخدم المقامة لهذا الغرض .

## الاغراض الشعرية في المقامات الأدبية :

لا ريب أن هنالك دوافع قوية حركت بديع الزمان الهمداني كي يوجد في الشر الأدبي نموذجاً يعُدُّل في شرفه ديباجة القصيدة الجاهلية المعروفة وقد كان هذا النموذج هو المقامة التي ما أن أبدعها حتى تهافت عليها الكتاب ، كل يحجب مقدرته تماماً ، كما فعل الشعراء مع الديباجة الشعرية . ولم يكتف بديع الزمان بإبداع النموذج الفني فحسب بل حاول أيضاً تضمين بعض الاغراض الشعرية فيه وقد تجلّى ذلك في المقامة « الحمدانية » . ونرى فيها عيسى بن هشام يحضر مجلس سيف الدولة فيعرض سيف الدولة قرصاً يسأل عمن يقدر

٤٥ - يأتي من حواشيها .

٤٦ - السبلة ما على الشارب من الشعر .

على وصفه فيخبره احد الخدم بامر الاسكندري الذي يحضر ليصف الفرس بقوله<sup>٤٧</sup> :

« هو طويل الاذنين قليل الاثنين واسع المرات<sup>٤٨</sup> لين الثلاث غليظ الاكراع غامض الاربع شديد النفس لطيف الخمس ضيق الفلت<sup>٤٩</sup> رقيق الست حديد السمع غليظ السبع دقيق اللسان عريض الثمان مديد الضلع قصير التسع واسع الشجر بعيد العشر ياخذ بالسابع<sup>٥٠</sup> ويطلق بالرامح يطلق بلائح ويضحك عن قارح يحز وجه الجديد<sup>٥١</sup> بمذاق الحديد ويحضر كالبحر اذا ماج والسيل اذا هاج » .

ووصف الخيل والابل غرض ظاهر من اغراض القصيدة الجاهلية ومعلقة امرئ القيس بها وصف للحصان وقد استخدم الهمداني من اغراض الشعر ايضاً المدح ويتجلى ذلك في المقامة « الناجية » . وفيها يطرق الاسكندري على عيسى بن هشام ورفقته الدار ليلاً فيسامرهم ويبههم بفصاحته ثم يجعل السؤال عن وجهته تخلصاً لمدح الممدوح تماماً كما يحسن الشاعر الجاهلي التخلص في اول قصيدة حتى يتجرد لمدح ممدوحه<sup>٥٢</sup> :

« قلنا لا فض فوك ولله انت وابوك ما يحرم السكوت الا عليك ولا يحل النطق الا لك فمن اين طلعت واين تغرب وما الذي يحدو املك امامك ويسوق غرضك قدامك قال اما الوطن فاليمين واما الوطر فالمطر واما السائق فالضر والعيش المر قلنا : فلو اقمنا بهذا المكان لفاسمناك العمر فما دونه ولصادفت من الامطار ما يزرع ومن الانواء ما يكرع قال ما اختار عليكم صحباً ولقد وجدت فناءكم رحباً ولكن امطاركم ماء والماء لا يروي العطاش قلنا فاي الامطار يرويكم قال مطر خلفي وانشا يقول :

سجستان	ايتها	الراحلة	وبحرأ	يؤم	النسي	ساحله
ستقص	ارجان	ان ررتها	لواحدة	مائة	كاملة	
وفضل	الامير	على ابن العميد	كفضل	قريش	على	باهلة

٤٧ - المقامة الحمدانية ص ١٥٢ .

٤٨ - خردان الفرس .

٤٩ - النقرة في رأس الورك .

٥٠ - سح الفرس : عدا عدواً سريعاً .

٥١ - الأرض .

٥٢ - المقامة الباجية ص ١٩٢ .

اما الامير المقصود هنا فهو ممدوحه خلف بن احمد امير سجستان . ونجد ان اسلوب المدح المستخدم في هذه المقامة هو نفس اسلوب المدح في القصيدة ومن اغراض الشعر « الفخر » وقد استخدمه في المقامة « السجستانية » وفيها ينتحي ابن هشام سوق سجستان فيرى الاسكندري واقفاً على فرسه مفتخراً بنفسه<sup>٥٣</sup> :

« انا باكورة اليمن واحدثة الزمن انا ادعية الرجال واحجية ربات الحجال سلوا عني البلاد وحصونها والجبال وحزونها والاودية وبطونها . . . . . وهلمجرا . . . . . » .

غير انه يخلص من موقف الفخر هذا الى الكدية حيث يورد في نهايتها انه لا يدخر عن المسلمين منافع صفاته ولذلك فهو يعرضها للبيع في الاسواق وفي هذا مناقضة لمذهب الشعراء لان الشعراء انما يكدون بمدح غيرهم لا بمدح انفسهم .

### جم - الوعظ :

الوعظ ايضاً من الاغراض التي تناولتها « مقامات الهمداني » ولم يكن الهمداني ليغفل هذه الظاهرة الهامة في المجتمع الاسلامي ذلك ان كثيراً من الاصلاح تم تحقيقه من خلال تلك الظاهرة . غير ان الهمداني يخضع الظاهرة للنقد فيقدم لنا ثلاثة انماط من الوعظ :

- ١ - الوعظ المجرد من الهوى والمقصود به الاصلاح الحقيقي .
- ٢ - الوعظ الذي يتخذه اصحابه تقية لتحقيق مآربهم .
- ٣ - الوعظ المتستر على الضلال .

ومثال الاول المقامة الاهوانية وفيها نجد عيسى بن هشام مع رفقة من اصحابه وقد ازمعوا المسامرة وفي طريقهم الى حيث يقيمون استقبلوا رجلاً في طمرين في يمناء عكازه وعلى كتفيه جنازه فتطيروا منه فاذا به ينبري لهم ويقول<sup>٥٤</sup> :

« لثرتها صفراً ولتركبتها كرهاً وقسراً مالكم تطيرون من مطية ركبها اسلافكم وسيركها اخلافكم وتتقلدون سريراً وطئه اباؤكم وسيطره ابناءؤكم اما والله لتحملن على هذه العيدان الى تلكم الديدان<sup>٥٥</sup> ولتتقلن بهذه الجياد الى تلكم الوهاد<sup>٥٦</sup> .

٥٣ - السجستانية ص ١٩ .

٥٤ - المقامة الاهوانية ص ٥٦ .

وفي آخر المقامة يعرض عليه الجماعة عطاءهم فيعزف عنه ويحثهم في الاسراع بالعمل الصالح وتلك « فلتة » ليست من شيم الاسكندري ولكننا نعلم ان بديع الزمان كان يقدم صوراً لواقع عصره من خلال فنه المفاامي وما كان له ان ياخذ سائر الوعاظ بعجربة غيرهم اولئك الذين جعلوا من تلك المهنة وسيلة لقضاء مآربهم .

واما مثال النوع الثاني فنجده في المقامة القزوينية وفيها يقف الاسكندري على جماعة بينهم الراوي عيسى بن هشام فيلخص الاسكندري حاله في هذه الابيات<sup>٥٥</sup> :

ادعو الى الله فهل من مجيب	الى ذرى ارحب ومرعى خصب
وجنة عالية ما تنى	قطوفها دائية ما تغيب
يا قوم انسى رجل تائب	من بلد الكفر وامري عجيب
ان اك امنت فكس ليلة	جحدت ربي واتيت المريب
يا رب خنزير غششته	ومسكرا حرزت منه النصيب
ثم هداني الله وانتشلي	من ذلة الكفر اجتهد المصيب
فظلت اخفي السدين في اسرتي	واعبد الله بقلب منيب

ويزعم في نثره انه ترك امواله وراء ظهره مؤثراً دينه على دنياه خوف الرقباء - الذين يحظرون عليه تعبده - من الروم - ثم يطلب من الحاضرين ان يعينوه كي يتغلب على شرهم .

وهكذا فان الوعظ الذي قدمه من خلال توبته انما كان الفصد منه استرقاق القلوب حتى يخلص الى غايته الاساسية وهي الكدية .

اما مثال النوع الثالث فتقدمه لنا المقامة « الحميرية » التي اتفق فيها لعيسى بن هشام وجماعته ان يصلوا خلف الاسكندري وهم مخمورون فانبرى لهم بقوله<sup>٥٦</sup> :

« ايها الناس من خلط في سيرته وابتلى بفادورته فلبسه ديماسه<sup>٥٧</sup> دون ان تنجسنا انفاسه التي لا جد منذ اليوم ريح ام الكبائر من بعض القوم فما جزاء من بات صريع الطاغوت ثم

٥٥ - المقامة القزوينية ص ٨٧

٥٦ - الحميرية ص ٢٤١

٥٧ - الكس .

ابتكر الى هذه البيوت التي اذن الله ان ترفع وبداير هؤلاء ان يقطع »

ثم اشار الى السكارى فوسعهم الناس ضرباً وفي اليوم الثاني يلتقي هؤلاء بالامام الطريف ابي الفتح الاسكندري في احدى الحانات فيبتدره عيسى بن هشام بقوله كما انما نظر اليك ونطق<sup>٥٨</sup> عن لسانك الذي يقول :

كان لي فيما مضى عقل ودين واستقامة
ثم قد بعنا بحمد م الله فقها بحجامة
ولكن عشنا فليلا م نسال الله السلامة

### د- الظواهر الاجتماعية والتفسية في المجتمع العباسي

عندما نتحدثنا عن الواقع الاجتماعي في العصر العباسي قلنا انه واقع اختلف فيه القيم الصحيحة واصبحت السيادة فيه للاقوياء الذين حولوا كل شيء لمصلحتهم حتى اقوات الفقراء الذين ارهقوا بكثرة الضرائب وتحولوا الى فرق متعاطمة من ابناء ساسان ولم يكن هذا الواقع لينيب عن ذهن الهمداني وهو الذي نظر الى واقع مجتمعه بعين المجلل الناظر ورسم منه صوراً خالدة في فنه المقامي . ومن اولى الظواهر التي رسمها قلم الهمداني ظاهرة البؤس وقد صورها في مقامته « المجاعية » وفيها نلتقي بعيسى بن هشام في بغداد في عام مجاعة حيث يميل الى جماعة من الناس يكدي وهذا امر غريب على عيسى بن هشام الذي نجده في معظم مقاماته رافلاً في التعيم متقدماً في التجارة ولكن واقع الحياة في هذا المجتمع لا بد وان يحيل امثاله الى الكدية .

وعند هذا الموقف يسأله غلام من الجماعة عن خطبه فيقول « حالان لا يفلح صاحبها فقير كده الجوع وغريب لا يمكنه الرجوع » فاذا بالفتى يسخر منه سخرية لا حد لها وذلك في مثل قوله<sup>٥٩</sup> :

« فما تقول في رغيف على خوان نظيف وبقل قطيف الى خل ثقيف ولون لطيف الى خردل حريف وشواء ضعيف الى ملح خفيف يقدمه اليك الان من لا يملك بوعد ولا يعذبك بصبر ثم يغلك بعد ذلك باقباح ذهبية من راح عنية اذاك احب اليك ام اوساط محشوة واكواب

٥٨ - الحميرية ص ٢٤٤

٥٩ - المجاعية ص ١٢٧



مملوءة وأنفال معددة وفرش متضدة وأنوار مجودة ومطرب مجيد له من الغزال عيّن وجيد فان لم ترد ذا ولا ذاك فما قولك في لحم طري وباذنجان مقلي وراح قطربلي وتفتح جنى »  
ثم يتكشف الموقف عن لا شيء . ان ابلغ ما يحسم هذا الموقف هو قول ابن هشام :  
« فقلت لا حياك الله احببت شهوات قد كان اليأس اماتها » .

## المعاملات :

وفي هذا الواقع المليء بالمأساة لا تتوقع ان تكون المعاملات بين الناس والتجار على ما يرام فلا بد من ان يداخلها الزيف والنفاق وقد صور ائمهذاني هذا الواقع في مقامته « الوصية »  
وفيها ينصح الاسكندري ولده بعد ان جهزه للتجارة بقوله :  
« دعني من قولهم ان الله كريم انها خدعة الصبي عن اللبن بل ان الله لكريم ولكن كرم الله يزيدها ولا ينقصه وينفعنا ولا يضره ومن كانت هذه حاله فلتكرم خصاله فاما كرم لا يزيده حتى ينقصني ولا يريشك حتى يبريني فخذلان لا اقول عبصري ولكن بقصري افهمتها يا ابن المشؤمة انما التجارة تنبسط الماء من الحجارة وبين الأكلة والأكلة ربح البحر بيد ان لا خطر والصين غير ان لا سفر افتكره وهو معرض ثم تطلبه وهو معوز افهمتها لا ام لك انه المال عافاك الله فلا تنفقن الا من الربح عليك بالخبز والملح ولك في الخلل والبصل رخصة ما لم تذقهما ولم تجمع بينهما واللحم لحمك وما اراك تأكله ..... كن مع الناس كلاعب الشطرنج خذ ما معهم واحفظ كل ما معك » .

الا نلمح في هذه الصورة واقعاً يترزله الوجدان من الانانية والبخل وعدم الثقة حقاً . . ولكن علينا ان نساءل ايضاً هل كان بإمكان الانسان ان يعيش في ذلك الواقع بغير هذا الاسلوب ؟

سؤال عجيب عنه المقامة الرصافية وفيها الوان من حيل اللصوص

## احيل اللصوص :

تقدم لنا المقامة الرصافية جانباً آخر من الحياة في المجتمع العباسي وهو حيل اللصوص

٦٠ - الوصية ص ٢٠٤ .

فقد كان لا بد وان تظهر هذه الطائفة وتتفنن في حيلها الى جانب طائفة المكيدين . ان اللصوص يختلفون عنهم في الاسلوب ولكن الدوافع التي تحركهم جميعاً في معظم الحالات واحدة وهي الحاجة مع الفقر فكيف كانت اساليب اللصوص ؟

يقول عيسى بن هشام انه خرج من « الرصافة » في طريقه الى دار الخلافة وحين اشتد به الحر مال الى مسجد من المساجد تذاكر الناس فيه حيل اللصوص فذكروا منهم : « من جاءك بالقفل » وشق الارض من سفلى ومن نوم بالبنج او احتال بنيرنج » ومن بدل نعليه ومن شاد بحبله ومن كابر بالسيف ومن يصعد في البير ومن سار مع العير واصحاب العلامات ومن يأتي المقامات ومن فر من الطوف » ومن لاذ من الخوف ومن طير بالطير ومن لاعب بالسير ..... وهلمجرا . . .

ويبدو ان هذه الظاهرة الراسخة في القدم قد تأصلت اصولها في العصر العباسي فقد رأينا الجاحظ من قبل يؤلف كتاباً في حيل سراق الليل وسراق النهار مما يؤكد انها اصبحت ظاهرة تلفت الانظار .

\*\*\*

ومن الظواهر الاجتماعية التي عبرت عنها المقامات ظاهرة الظفر ولعل تصرفات الاسكندري كلها تقدم نموذجاً وافياً لتلك الظاهرة في المجتمع العباسي غير اننا نجد في المقامة « الصفريّة » نموذجاً خاصاً اذ نجد فيها الاسكندري يدخل على عيسى بن هشام ويقول له :  
« عندي رجل من تجار الصفر يدعو الى الكفر ويرقص على الظفر وقد ادبته الغربة وادتني الحسبة اليك لاملث حاله لديك وقد خطب منك جارية صفراء تعجب الحاضرين » .

فعلم ابن هشام انه يشحذ ديناراً كان معه .

٦١ - المقامة الرصافية ص ١٥٩ .

٦٢ - من جاء التاجر بقفل مكسور يسهل فتحه .

٦٣ - السحر .

٦٤ - العسس .

٦٥ - الصفريّة ص ٢٣١ .

وظاهرة الظرف ملائمة للمجتمعات البائسة - يستخدمها الفقراء في التسترية عن انفسهم او في التودد للآخرين واما الاغنياء فان نظام حياتهم القائم على الملئ والتباهي يحتم عليهم ان يتصرفوا كذلك .

\*\*\*

ومن الظواهر الاجتماعية في البيئة العباسية ظهور طبقة من مخائيل الطرفاء وهؤلاء يمتلكون مقدرة فائقة من الفصاحة لاسيما في السباب وهتك الاعراض وقد قدم لنا ابن المطهر نماذج من ذلك في حكاية ابي القاسم البغدادى وقد استغل الهمداني اسلوبهم الذي يقوم على المعارضة في مقامته الدنيارية وفيها نجد الراوي عيسى بن هشام ينذر ديناراً على اشحذ رجل ببغداد فسأل عن الاسكندري فوجده في رفقة من ابناء ساسان فسألهم ايهم اعرف بسلخته فقال الاسكندري انا وقال آخر انا فطلب منهم ابن هشام ان يتشاموا فقال الاسكندري : « يا برد العجوز يا كربة تموز يا وسخ الكوز يا درهما لا يجوز يا حديث المغنين يا سنة البوس يا كوكب النحوس يا وطه الكابوس يا تحمة الرؤوس ... وهلم جرا » .

وقال الآخر :

« يا قراد القروء يا لبود اليهود<sup>٦٦</sup> يا نكهة الاسود يا عدما في الوجود يا كلبا في الهراش يا قراداً في الفراش يا قرعية مجاش يا اقل من لاش » .  
فحار ايهما احق بالدينار . وهذا اسلوب تمحسه « العوالم » والمستهترات من النساء غير انه كان يشكل واقعاً في الحياة العباسية .

\*\*\*

اما الحالة النفسية فكان من المستحيل ان تكون طيبة في هذه الحياة المضطربة . ففي المقامة الحرزية يصور الهمداني جانباً من القلق الذي كان يعتري الناس فيها نحن نجاء ابن هشام في رفقة من الناس يركبون البحر الهائج المائج وهو رمز للحياة المضطربة - رعب عبر عنها بديع الزمان بطريقة لا شعورية - وفي ساعة الخطر والناس يتباكون فاه

٦٦ - القراد وللهود شهرة في الوسخ فيتجمع عليهم القراد .

بالاسكندري يزعم ان له « حرزاً » لا يفرق صاحبه فتدافعت الهبات عليه كل يريد ان ينجو بنفسه تماماً كما يفعلون في حياتهم الحقيقية . وتتم لهم النجاة ولشان حال الاسكندري يقول :<sup>٦٧</sup>

ويك لولا الصبر ما كنت م ست ملأت الكيس تبرأ  
لن ينال المجد من ضاق م بما يغشاه صدرا

### هـ - مقامات عامة في الاخلاق والسلوك والقصص :

كذلك فقد اشتملت مقامات الهمداني على مقامات ذات فائدة عامة بعضها في الاخلاق وبعضها في السلوك وبعضها في القصص وكيفية تحصيل العلم . فنراه في المقامة « الخلفية » يحدثنا فيما ينبغي ان تكون عليه اخلاق الخدم فقد اتفق لعيسى حين ولي امر البصرة ان صاحبه في الطريق اليها ابو الفتح الاسكندري فلما وصل البصرة غاب عنه اياماً فسأله ابن هشام حين عودته عن خبره فقال :<sup>٦٨</sup>

« من لقينا بانف طويل لقيناه بخرطوم فيل ومن لخطنا بنظر شزر بعناه بثمان نزر وانت لم تغرسني ليقلعي غلامك ولا اشتريتني لتبيعي خدامك والمرء من غلمانك كالكتاب من عنوانه فان كان جفاؤهم شيئاً أمرت به فما الذي اوجب وان لم تكن علمت به كان اعجب » .

ثم يجعل الحديث مناسبة كي يخلص لمذبح خدم الامير خلف بن احمد الذين ادبهم فاحسن تأديبهم . ونحن نتصور أهمية مثل هذه المسائل في عصر كان الخدم فيه احسن الوسائل في التقرب الى الملوك والعيش في أكنافهم .

واما في المقامة الاسدي فيحدثنا عما كان يلاقه المسافرون في رحلاتهم من المشقة اما بسبب وحش مفترس واما بسبب قاطعي الطريق .

وفي المقامة « الصميرية » يرسم لنا صورة للاخوان الناكرين للجميل الذين يقعون على جفان الاصدقاء اذا امتلأت بالاكل ثم يهرون من وجوههم اذا اصابهم القحط والفقر .

٦٧ - ص ١٢٠ .

٦٨ - الخلفية ص ١٩٧ .

وفي المقامة « النهيدية » يقدم لنا صورة شبيهة بتلك الصورة التي رأيناها في المقامة « المجاعية » حيث يذهب الراوي في نعر من صحابه يلتمسون القرى فيمنهم صاحب الخيمة بالوان من الاطعمة والاشربة ثم لا يقدم لهم شيئاً فيثير حقهم ويمسكون « بتلابيه » حتى تنفذ ابنته الموقف بتقديم الطعام . وهي قصة في اطارها هذا تدخل في باب « نوادر العرب » .

واما المقامة « البشرية » فتحكي قصة بشر بن عوانة العبدي وقد كان صعلوكاً اغار على ركب فيه امرأة جميلة انتزعها وتزوجها فتشدد الزوجة شعراً جحلاً في فتاة فيسألها عنها فتقول له انها ابنة عمك فاطمة فيرجع الى عمه يطلبها فيكلفه مشاق صعبة ثمناً لزوجاه منها فيقدم عليها بشر وبرغم ذلك فان الفتاة لا تكون من نصيبه بل تكون من نصيب ابنه من زوجته الاولى . وهي حكاية من القصص الشعبي الذي كان يتخلده العرب للمسامرة او العظة لما فيه من قيم اخلاقية وسلوكية .

### خلاصة :

نبخلص من كل ما تقدم الى ان بديع الزمان الهمداني حرص على ان تقدم موضوعات مقاماته صورة كاملة لواقع المجتمع العباسي الذي عاش فيه . فقد عرى في ذلك المجتمع اساليب الخور والضعف وابان ما اعتراه من زيف ونفاق في سبيل كسب لقمة العيش . واما عنصر الثورة في نفسه فقد تجلى في بصيرة الفنان الذي لم تفته ظاهرة من الظواهر المكونة لمجتمعه . فقد اجاد قلمه رسم الواقع رسماً دقيقاً بحيث تجلت المأساة واضحة وذلك اقصى ما يطمح اليه الفنان الذي يريد الاصلاح . ولم يكن بالطبع في مقدور بديع الزمان ان يقضي على عوامل الضعف المعقدة والمتشابكة في مجتمعه ولا نحسب ان تلك مهمة الفنان وكفى انه استطاع ان يستقطب القلوب شفقة على مأساة بطله ابي الفتح الاسكندر الذي بالرغم من ظرفه فقد كانت نفسه تمتلئ بالالم والغضب لما يلقاه من الم وتشرد .

### ثانياً : البطل : ابو الفتح الاسكندر

لم يكن هدف بديع الزمان من كتابة مقاماته ان يقدم منوعات ادبية وفكرية واجتماعية على النحو الذي وضح من دراسة موضوع المقامات : بل كان مهتماً الى درجة كبيرة بتقديم ذلك وغيره من خلال النموذج الانساني الذي ابتدعه والذي اراد له البقاء كغيره من النماذج الفنية التي ابتدعها الكتاب قبله ولقد احكم الهمداني ربط المواضيع المختلفة التي تطرق لها من خلال شخصية بطله ابي الفتح الاسكندر بحيث بدا التجاوب واضحاً بين مأساة ابي الفتح الاسكندر ومأساة المجتمع الذي يعيش فيه . وقد رأينا شخصية ابي الفتح الاسكندر تكشف عن ذاتها في مجالين :

- ١ - مجال يحقق فيه البطل عبقريته وضياعه في مجتمعه .
- ٢ - ومجال يحقق فيه ان الحيلة وحدها هي التي تغني صاحبها عن الاخفاق . ومن هنا فان دراسة موضوع المقامات دراسة مجردة لا يمكننا من الالمام بابعادها ومراريتها اذ لا بد من دراسة شخصية البطل والراوي ايضاً حتى نتبين الفلسفة الكاملة من ورائها . فما هي مقومات البطل ؟

### البطل : ابو الفتح الاسكندر

اختار بديع الزمان لبطله اسم ابي الفتح الاسكندر وهو باختصار عبقرى مكدر يتخذ من الحيلة والمراوغة وسيلة لعيشه . وهو يظهر في القصة المقامية بعد ديباجة يقدم بها عيسى ابن هشام لموضوع مقامته : هو في سائر مقاماته اما ان يقوم ببراعة لفظية او وعظمية واما ان يقوم بحيلة فنية متوجهاً بذلك كله الى نيل العطاء وابتزاز ما عند الآخرين . ونراه في معظم مقاماته محتجباً او متكرراً حتى يجوز حيله على الآخرين ولكن حصافة الراوي عيسى بن هشام هي التي تكشف عن شخصية الاسكندر في آخر الامر . وقد تنوعت اساليب الاسكندر في مقاماته وان كنا في بعض مقاماته نجده لا يهدف لغرض الكدية بل ويرفع عنها غير ان هذه فلتات لا يعول عليها . ومع ذلك فاننا نعتبر كل ذلك مسحاً ظاهرياً لشخصية البطل الذي لا بد من النظر في الفلسفة التي تكمن من ورائه والتي حدد بها معالم شخصيته .

## فلسفة الاسكندري :

تسجل هذه الفلسفة من واقع الاشعار المتناثرة والتي اجمل بها جوهر تصرفاته ! فهو يعرف نفسه بأنه من الاسكندرية وهي إحدى الثغور الاموية وقد عرفها الشيخ محمد عبده بقوله : « الاسكندرية من ثغور الاندلس على النهر الاعظم نهر اشبيلية درست اليوم ولم يبق لها اثر » ونرى ذكراً لموطنه هذا في المقامة الجاحظية ، وذلك في قوله « ٧٢ » :

اسكندرية	داري	لو قر	فيها	قراري
لكن	ليلي	بنجد	وبالحجاز	نهاري

ويقول في المقامة المجاعية ٧٣ :

انسبا من ذوي الاسكندرية	من نبعة فيهم	زكية
سحف الزمان واهله	فركبت من شخصي	مطية

ومن الجائز ان تكون شخصية الاسكندري شخصية حقيقية وجد فيها الهمداني تشابهاً مع النموذج الذي اراد ان يعبر عنه غير ان ذلك لا يهمننا كثيراً لان المهم هو الشخصية الفنية التي استطاعت ان تستوعب الظواهر الحبة في انبيئة العباسية .

وعلى الرغم من ادعاء الاسكندري بانه من الاسكندرية الاموية فان احداث مقاماته لا يتخذ من بلد مسرجاً لها بل هو حوالة نادرة في البصرة واخرى في بغداد واخرى في اذربيجان وغيرها في سجستان ثم في حلوان وهلم جرا . ولا غرابة في هذا فان الادباء في تلك الفترة كانوا ينتقلون من بلد الى بلد بحثاً عن العطاء في دواوين الملوك والامراء ولكن الاسكندري لم يكن يبحث عن هؤلاء ولو كان حقاً يمثل شخصية بديع الزمان فلنفل انه اخفق عند هؤلاء وشرع يبحث له عن طريق آخر واما هدفه في التجوال فيبتدى من مثل قوله ٧٤ :

انسا	جواله	البلا	د	وجوابه	الافق
انسا	نخروفة	الزما	ن	وعماره	الطرق

٦٩ - الجاحظية ص ٧٧ .

٧٠ - ص ١٢٩ .

٧١ - الأذربيجانية ص ٤٥ .

لا تلمني لك الرشا د على كديتي وذق  
فهو يتخذ من التجوال وسيلة لتجديد مواقع الكسب ولا يكتفي بتغيير مواقع الكسب  
فحسب بل قد يلجأ الى تغيير ذاته ايضاً لنفس الغاية ، يقول في المقامة « القزوينية » ٧٢ :

انسا	حالي	من الزما	ن كحالي	من الشب
نسبي	في يد	الزما	ن اذا	سامه انقلب
انسا	امسي	من النيبط	واضحى	من العرب

ويقول في « المكفوفية » ٧٣ :

انسا	ابو قلمون	في كل لون	اكون
اختر من الكسب	دونا	فان دمك	دون
رج الزمان	بحمق	ان الزمان	زبون
لا تكذبين	بعقل	ما العقل	الجنون

ويقول في « الازادية » ٧٤ :

فقضي العمر	تشبيهاً	على الناس	وتوحيها
أرى الايام	لا تبقى	على حال	فاحكيها
فيوما شرها	في	ويوما شرتي	فيها

ويؤيد هذا المنحى في المقامة « البلخية » حيث يقول ٧٥ :

ان لله	عبيداً	اخذوا	العمر	خليطاً
فهم يمسون	اعرا	با	ويضحون	نيطاً

ويحكم هذا التغيير فلسفة تتجلى في قوله ٧٦ :

٧٢ - ص ٨١ .

٧٣ - ص ٨١ .

٧٤ - ص ٨٠ .

٧٥ - البلخية .

٧٦ - المارستانية ص ١٢٦ .

انا ينبوع العجائب في احتيالي ذو مراتب  
 انا في الحق سنام انا في الباطل غارب  
 انا اسكندرية دارى في بلاد الله سارب  
 اغتدى في الدبر قسيماً وفي المسجد راهب

ولا بد لنا من التساؤل هنا كيف ولماذا اصبح رجل كهذا قادراً على استخدام عقله مهياً بعمله ان يتخذ من اسلوب الاحتيال والتلون ديدناً له في حياته ؟ تلك هي المأساة !

وهي الجرح الذي جعل العبقرى بديع الزمان يبحث عن ذلك النموذج ليعبر به عن واقع مأسائه ولا يجد الاسكندري من يحمله المسئولية سوى الزمان فهو يقول في المقامة

الساسانية<sup>٧٧</sup> :

هذا	الزمان	مشوم	كما	تراه	غشوم
الحمق	فيه	مليح	والعقل	عيب	ولوم
والمال	طيف	ولكن	حول	اللكام	يحموم

ويقول في المقامة القردية<sup>٧٨</sup> :

الذنب	للأيام	لا	لي	فاعتب	على	صرف	الليالي
بالحمق	ادركت	المبنى	ورفلت	في	حلل	الجمال	

ويقول في المقامة الحمدانية<sup>٧٩</sup> :

ساخف	زمانك	جداً	ان	الزمان	سخيـف
دع	الحمية	نسيا	وعش	بخير	وريف
وقل	لعبدك	هذا	يجيئنا	برغيف	

ونراه في المقامة الخمرية يرد على عيسى بن هشام مفحماً حيث يلومه الراوى على احتياله<sup>٨٠</sup> :

٧٧ - ص ٩٥ .

٧٨ - ص ٩٧ .

٧٩ - ص ١٥٦ .

٨٠ - ص ٢٤٤ .

دع من اللوم ولكن اي دكاك<sup>٨١</sup> تراي  
 انا من يعرفه كل من تهسام ويماني  
 انا من كل غبار انا من كل مكان  
 ساعة الزم محراباً واخري بيت  
 وكذا يفعل من يعقل في هذا الزمان

وكل هذه المواقف تؤكد حقيقة ثابتة وهي ان الاسكندري لم يتخذ كل تلك المواقف بدافع الشر بل كان مدفوعاً اليها بجور الزمان . انه يعرف ان بضاعة العقل نافقة وبضاعة الحمق رائجة فهو اذن يقف من الزمان موقف المتحدي اذ يقابل منه حمقاً بحمق وهذا عنصر من عناصر الثورة في شخصية البطل الاسكندري الذي رفض ان يقف موقفاً سلبياً وينأى بنفسه لكي يفترسه الفقر .

### مقامات لم يظهر فيها الاسكندري :

هنالك عدد من المقامات لم يظهر فيها البطل الاسكندري وهي المقامة البغدادية والنهيديـة والتميمية والبشرية والصيمرية والمغزلية والغيلانية .

وتختلف الدوافع في عدم ظهور الاسكندري بحسب موضوع المقامة فالمقامة البغدادية يتولى بطولتها عيسى بن هشام ويقوم فيها بدور احتيال على احد البغداديين بنفس الطريقة التي كان يقوم بها الاسكندري . والمقامة النهيدية تروي نادرة من نوادر العرب ليس لبديع الزمان فضل في تأليفها وربما كان ذلك هو السبب الذي جعله يحجم عن جعل الاسكندري بطلا لها وهكذا الامر مع المقامة البشرية حيث يروي فيها حكاية من قصص العرب المعروفة .

وفي المقامة المغزلية يقوم عيسى بن هشام بحل لغز حول المغزل والمشط وقصر المقامة لم يهيء للاسكندري فرصة الظهور . واما المقامة الغيلانية فهي ذات نزعة خيرية ونرى فيها الفرزدق يعرض عن ذي الرمة تكبراً .

كذلك المقامة الصيمرية فانها تحكي تجربة خاصة للراوى مع بعض الاصدقاء الناكرين

للجميل ففربوا منه وقت الوساع وهربوا منه وقت الضيق والمقامة التيمية مجرد خبر صغير  
عن موقف لابي الندى التيمي لم يكن ثمة مبرر فيه لظهور الاسكندري .

### مقامات لا يكدي فيها الاسكندري :

كذلك هنالك عدد من المقامات ظهر فيها الاسكندري ولكنه لم يكدي ؛ تلك المقامات  
هي : الوعظية والمضيرية والرصافية والشرابية والنيسابورية والاهوازية والملوكية  
والخميرية والمارستانية والعلمية والحلوانية والمجاعة والخلفية والبصرية والوجدية  
والسارية . وتختلف الاسباب ايضاً في عدم الاكداء وان كان عدم الاكداء لا ينفي وجود  
الحيلة .

ففي مقامة الوصية كان يوصي ابنه بكيفية المعاملة في التجارة ولم تكن هنالك مناسبة  
للكدية .

وفي المقامة « الشرازية » يلتقي عيسى بن هشام بالاسكندري بعد غيبة طويلة ويراه فد  
تبدلت حاله فيسأله عن السبب فيخبره ان ذلك بسبب زواجه من خضراء دمنة انجب منها  
ابنة وكانت سبباً في شقائه وتبدل حاله فينصحه الراوي بالانطلاق .

وفي المقامة المارستانية نراه يدعى الجنون لكي يشن حملته على ابي داود المتكلم وتابعيه  
عيسى بن هشام ولم يكن في موقف يمكنه من الكدية وهو يشن عليهم تلك الحملة .  
واما المقامة الوعظية فلم يكن ثمة مبرر يمنعه من الاكداء فقد قام في الناس واعظاً ولكنه  
لم يلمح بانه يريد شيئاً وكانت تلك فلتة فيما ذكرنا .

واما في المقامة الخلفية فنرى له موقفاً فريداً يحتاج فيه على بلاط عيسى بن هشام حين ولي  
امر البصرة . فنراه يرفض البقاء في القصور اذا كان الخدم سينغصون عليه حياته ولا نعرف  
ان ابا الفتح يتضجر من مثل هذه المضايقات ولقد كان الاجدر بان تكون تلك المقامة خاتمة  
لمقامات الهمداني حتى تكشف عن جانب اصيل في شخصية الاسكندري وهو انه انما كان  
يمر بمرحلة معينة في حياته هي مرحلة الاجتياح واما العنصر الخير فما يزال موجوداً . وكان  
من الممكن ان تكون تلك المقامة اشبه بمقامة التوبة عند الحريري وهي التي تاب فيها ابو  
زيد السروجي عن احتياله .

### وسائل الاسكندري في الخداع :

وبالطبع ليست بنا حاجة مرة اخرى للحديث بافاضة عن هذا الجانب الذي تطرقنا اليه  
ضمن حديثنا عن الكدية في موضوع المقامات . ولكننا نعيد التأكيد مرة اخرى بان اساليب  
كديته قد جمعها من شتى المصادر جمعها من حيل الساسانية وحيل اللصوص ومن ملاحظاته  
الدقيقة لتصرفات المجان والمتطرفين ومن الظواهر الاجتماعية المختلفة التي حفلت بها البيئة  
العباسية ولا نشك في ان بديع الزمان قد اعطى كل تلك الاساليب طعماً خاصاً وهو  
يعرضها من خلال بطله ابي الفتح الاسكندري .

### خاتمة :

من كل ما تقدم يتأكد لنا ان الاسكندري يمثل نموذجاً انكشف من خلاله اهتراء البنيان  
الاجتماعي في المجتمع العباسي في القرن الرابع وان المأساة التي تمثلت في ضياعه مع تفوقه  
الفكري هي التي عرت ذلك المجتمع وابانت زيفه وتجوفه . ومع ذلك فان شخصية  
الاسكندري لم تكن شخصية شرير حقيقي بل تقتصر دور الشرير لتكشف عن الجوانب  
التي ذكرناها .

### ثالثاً : الراوية : عيسى بن هشام

تبدأ مقامات الهمداني - عادة - بقول المؤلف :

« حدثنا عيسى بن هشام » .

وعيسى بن هشام هو الراوية الذي اختاره بديع الزمان لمقاماته . وكما قلنا فان شخصية  
الراوية لم تكلف بديع الزمان جهداً كبيراً لانه استقاها من الاساليب الخيرية التي حفلت  
بها كتب الاخبار والتراجم .

وشخصية « الراوية » مهمة في القصص الشعبي لانها تشيع جواً واقعياً يمتزج بمسحة  
« رومانسية » هي التي تمنح هذا اللون من الادب حلاوته وجماله .

غير ان شخصية « الراوي عيسى بن هشام » ذات اهمية خاصة في مقامات الهمداني لانه  
هو الذي يمهّد لظهور البطل وهو الذي يتابعه لنا حيناً وجد وفي كل ذلك يحسن طريقة  
التقديم فيجعلها الصدفة او يجعلها المناسبة او ما الى ذلك . ولعيسى بن هشام دور ايجابي

في تكوين الصورة النهائية لشخصية ابي الفتح الاسكندري لانه من خلال تعليقاته  
المقتضبة نلم بالابعاد الكاملة لتلك الشخصية العجيبة .

### فكرة الغربية في المقامات الهمدانية :

ومما نلاحظه فان سائر المقامات « الهمدانية » يبدأها عيسى بن هشام بمكرة الغربية وعلى  
سبيل المثال يقول في المقامة « المكفوفية »<sup>٨٢</sup> : كنت اجتاز في بعض بلاد الاهواز وقصاراي  
لفظة شرود اصيدها وكلمة بليغة استزيدها فاداني السير الى رقعة فسيحة من البلد واذا  
هناك قوم مجتمعين . . . . »

ويقول في المقامة الاصفهانية<sup>٨٣</sup> :

« كنت باصفهان اعترم المسير الى الري فحللتها حلول الفي اتوقع القافلة كل لمحمة  
واترقب الراحلة كل صبيحة فلما حم ما توقعته نودي للصلاة نداء سمعته . . . . » وهكذا  
في سائر المقامات فهو ينتقل من بلد الى بلد . والغربة في الحقيقة تشيع جواً رومانسياً في  
أحداث القصة اذ ان السامعين يتطلعون دائماً الى معرفة الحوادث والاخبار التي تدور في  
بلاد غير بلادهم .

غير ان ذلك لم يكن السبب الوحيد في ذكر الغربية فقد رأينا الراوي ينتقل في بلاد متعددة  
ولكنها كلها تدخل في حدود الدولة العباسية او البلاد التي انقسمت عنها ولذلك مزينة  
خاصة اذ ان بديع الزمان رمى من ذلك الى القول بان هذا الواقع الذي صور لا يختص  
بمنطقة واحدة من اقاليم الدولة العباسية بل انه شامل لكل اجزائها فان الاسكندري لم يجد  
التقدير في اي من المناطق ولذلك فهو يتجهج اساليب الاحتيال في كل مكان يذهب اليه .

ولا نستبعد ايضاً تأثير الهمداني بديباجة القصيدة الجاهلية التي كانت الرحلة تشكل  
عنصراً هاماً في مقدمتها يخلص منه الشاعر الى غرضه الاساسي ؛ والمهم فان ابن هشام كان  
يتخذ من الغربية مدخلاً يتخلص منه الى المناسبة او الى المكان الذي يلتقي فيه بالاسكندري  
حيث تدور أحداث مقامته :

٨٢ - ص ٧٨ .

٨٣ - ص ٥١ .

### مكانة ابن هشام الاجتماعية :

وعلى العكس من شخصية الاسكندري فان ابن هشام لم يعش مشرداً بل كان في معظم  
حالاته رافلاً في اثواب العز والنعيم فهو يقدم نفسه في المقامة « البصرية » بقوله<sup>٨٤</sup> : دخلت  
البصرة وانا من سني في فتاء ومن الزري في حبر ووشاء ومن الغنى في بقر وشاء<sup>٨٥</sup> .  
ويقول في المقامة « المغزلية »<sup>٨٥</sup> :

« دخلت البصرة وانا متسع الصيت كثير الذكر » .

وفي غير ذلك نجده محوطاً بالاصدقاء والوجهاء لا هم لهم سوى السمر والشرب والعرب  
بل انه بلغ ولاية البصرة . في المقامة الحلقية يقول<sup>٨٦</sup> :

« لما وليت احكام البصرة وانحدرت اليها عن الحضرة » .

كما بلغ ولاية الشام في المقامة التيممية يقول فيها<sup>٨٧</sup> :

« ووليت بعض الولايات من بلاد الشام » .

ويقول الدكتور محمد رشدي حسن في ذلك<sup>٨٨</sup> :

« وعيسى بن هشام لا يحده زمان ولا يحده مكان كالبطل تماماً فهو رمز لمجتمع صالح  
ولكن البطل رمز لمجتمع متلون فاسد » .

ولكن هذا النقاء والثراء الذي تميز به عيسى بن هشام لا يلائم تماماً فنحن نجد عيسى بن  
هشام يقوم ببطولة بعض المقامات ولا يختلف سلوكه فيها عن سلوك ابي الفتح الاسكندري  
كما هو الحال في المقامة البغدادية . فقد التقى فيها باحد البغداديين فابتدره بقوله اهلاً ابا  
زيد فقال لست ابا زيد ولكن ابو عبيد فقال لعن الله الشيطان وابعد عني النسيان ثم ساله  
عن حال ابيه والعراقي في عجب الى ان اقنعه بتناول الطعام معه عند شواء فلما نالا من

٨٤ - البصرية ص ٦٣ .

٨٥ - المغزلية

٨٦ - الحلقية ص ٦٩٦ .

٨٧ - التيممية ص ٢٣٦ .

٨٨ - رسالة تطور فن المقامة : د . محمد رشدي حسن ص ٤٢ .

الاكل ما يكفيها استاذن بالذهاب ثم العودة . فانصرف ووقع العراقي في « مازق » اوسعه الشواء فيه ضرباً .

ثم نراه في المقامة « المجاعية » ايضاً يميل الى جماعة قد ضمهم سمط الثريا يطلب منهم شياً في موقف شبيه بمواقف الاسكندري التي يهم فيها بالاكداء .

ويعلل الدكتور محمد رشدي حسن هذه الظاهرة بان المجتمع الصالح الذي يمثله عيسى ابن هشام لا يمكن ان يكون واقعياً الا اذا شابه بعض الشواثب من هذا القبيل . ذلك ان الحياة خليط من الصلاح والبطلان .

### الراوي والبطل

وكما ذكرنا فان دور الراوي لا يقتصر فقط على رواية الاحداث بل قد لعب دوراً ايجابياً في تكوين الصورة الشاملة لابي الفتح الاسكندري فابو الفتح الاسكندري يقع من قلب عيسى بن هشام موقع العطف والتقدير فهو يقول عنه في مقدمة المقامة الاسدية<sup>٨٩</sup> :

« كان يبلغي من مقامات الاسكندري ومقالاته ما يصغى اليه النفور وينتفض له العصفور ويروي لنا من شعره ما يمتزج باجزاء النفس رقة وبغض عن اوهام الكتبة دقة وانا اسال الله بقاءه حتى ارزق لقاءه واتعجب من فعودهمته بحالته » .

وقد قال على اثره في المقامة السارية<sup>٩٠</sup> :

يا ليت شعري عن اخ	ضاقته يداه وطال صيته
قد بات بارحة لدى	م فانين ليلتنا مبيته
لا در در الفقر فهو	م طريده وبه رزيته

ولا يجد ابن هشام مناسبة الا ويشيد فيها بفضل الاسكندري وبراعته وفصاحته ومجمل القول انه هو الذي استطاع ان يقدم النموذج الفني لابي الفتح الاسكندري وعليه فان موقفه في الرواية لم يكن سلبياً بل كان ايجابياً الى اقصى درجة تحملها هذه الكلمة .

٨٩ - الاسدية ص ٢٩ .  
٩٠ - ص ٢٣٤ .

### الفصل الرابع

### المقامة البديعية ومنزلتها في الأساليب النثرية



## أ - الأسلوب الأدبي في المقامات الهمدانية

### الصنعة والتصنع في المقامات الهمدانية :

ذكرنا من قبل أن الأسلوب الأدبي لا يقتصر على الصياغات اللفظية وحدها ، بل يتجاوز ذلك إلى المعمار بأسره وهو الشكل والمضمون ، وقد بينا ذلك في دراستنا لنموذج المقامة الاصفهانية . غير أننا نقف الآن مع المقامات الهمدانية بوصفها أعلى النماذج التي انتصرت للمذهب الصنعة والبديع في العصر العباسي وذلك كي نستجلي منها الطواهر البلاغية بحسب الاصطلاحات المتعارف عليها في علم المعاني والبيان والبديع ، لا لأننا نعتبر أن هذه هي السمات التي يجب أن يستخرجها الدارس من دراسته للأساليب وإنما لأن هذه السمات كانت تمثل نزعة أسلوبية طاغية في ذلك العصر وأن بديع الزمان نفسه كان من أكبر الدعاة لهذا المذهب كما تجلى ذلك في نقده لاسلوب الصنعة الجاحظية .

ولم تكن هذه النزعة لتلقت نظرنا في المقامات الهمدانية لولا الطريقة المقصودة من الحشد والصنعة التي لجأ إليها بديع الزمان ، والتي نستجليها من النماذج التالية :

## ١ - التشبيه :

ونلمح فيه تفننا في استخدام التشبيه البليغ والتشبيه الضمني في نحو قوله :  
« الا وان الدنيا دار جهاز وقنطرة جواز من عبرها سلم ومن عمرها ندم الا وقد نصبت لكم الفخ ونثرت لكم الحب فمن يرتع يقع ومن يلقط يسقط الا وان الفقر حلية نبيكم فاكتسوها والغنى حلة الطغيان والغنى حلة الطغيان فلا تلبسوها » .

## ٢ - المجاز اللغوي :

ولقد أكثر الهمذاني من استخدام المجاز اللغوي على نحو ما في قول الاسكندردي :  
« اما اني أريد كعبة المحتاج لا كعبة الحجاج ومشعر الكرم لا مشعر الحرم وبيت السبي لا الهدي وقبله الصلات لا قبله الصلاة ومنى الضيف لا منى الخيف » .  
والغرض المجازي واضح من خلال هذه المقابلات التي أوردها .

## الإطناب والمساواة والايجاز :

عند ذكرنا هذه الانماط علينا أن نذكر أنه ليس من الضرورة ان نجد الهمذاني يلتزم نمطا واحدا منها في القطعة الواحدة ، لأنه من الجائز أن يجمع أكثر من نمط في القطعة الواحدة ، كما في المقامة العلمية التي نجد في اولها اطنابا وهو زيادة اللفظ عن المعنى كما ورد في قول الاسكندردي يسأل به أدركت العلم فيقول<sup>٤</sup> :

« طلبته فوجدته بعيد المرام لا يصطاد بالسهم ولا يقسم بالأزلام ولا يرى في المنام ولا يضبط باللعام ولا يورث عن الأعمام » . وفي هذا القول اطناب يبعد بالمجيب عن اجابته المباشرة . وأما الايجاز والمساواة فهما من مذهب الجزالة وذلك أن تكون الألفاظ على قدر المعاني في مذهب المساواة أو أن تكون المعاني الكثيرة في اللفظ القليل وذلك في مذهب الايجاز وتجد لهما هذا النموذج من المقامة العلمية يروى فيه الاسكندردي كيف حصل

علمه :

« وجررت بالدرس واسترحت من النظر الى التحقيق ومسح التحقيق الى التعليق واستعنت في ذلك بالتوفيق » .

البديع :

أولا : الجنس :

من الأبواب التي استخدمها بكثرة من علم بديع باب الجنس بنوعيه التام والناقص . وقد أكثر من استخدام الجنس الناقص . كما في المقامة القريضية<sup>٥</sup> :

« قلنا فما تقول في جرير والفرزدق وأيهما سبق فقال : جرير أرق شعرا وأغزر غزرا والفرزدق أمتن صخرا وأكثر فخرا وجرير أوجع هجواً وأشرف يوما والفرزدق أكثر روما وأكرم قوما » .

ثانيا : السجع :

أما السجع فهو من أكثر الأنماط البلاغية استخداما في مقامات الهمذاني وقد يلتزم فيه مالا يلزم .

يقول الراوي في المقامة المضيرية<sup>٦</sup> :

« فلما أخذت من الخوان مكانها ومن القلوب أوطانها قام أبو الفتح الاسكندردي يلعنها وصاحبها ويمقتها واكلها ويثلبها وطابخها وظنناه يمدح فاذا الأمر بالضد واذا المزاح عين الجد وتنحى عن الخوان وترك مساعدة الاخوان » .

وهكذا نستطيع ان نستجلي سائر أبواب البلاغة من تورية وطباق وكناية وغير ذلك مما لم نذكره . وليس المهم في الأمر كله هو تتبع بعض النماذج المندرجة تحت هذه الانماط بل المهم هو ان نقرر أن بديع الزمان قد أكثر من استخدام تلك الاساليب بحيث بدا اسلوب الصنعة في مقاماته واضحا بل واستحقت به المقامة أن تكون المثال الأعلى لهذا الاسلوب المتصنع في القرن الرابع

ظاهرة :

وعلى الرغم من ان بديع الزمان قد عمد الى الصنعة في اسلوبه فهو لم يبلغ من التكلف

٤ - العلمية ص ٢٠٣ .

٥ - ص ٧ .

٦ - ص ١٠٤ .

١ - الوعظية ص ١٣١ .

٢ - المقامة النيسابورية .

٣ - العلمية ص ٢٠٢ .

ما بلغه الحريري وبعض المقامين اللاحقين كما سنرى ذلك في حينه - وأبلغ وصف لأسلوب الهمداني هو أنه كان يتبع تكلفاً وشيقاً وذلك ما جعل أسلوبه ينضح بالهاء والجمال . ويصبح نسيج وحده بل وقمة لا تجاري في أسلوب الصنعة المثينة والرشيقة في ذات الوقت . وقد تجلّى حرصه على الرشاقة والجمال في اتقان مزجه بين الشعر والنثر ، إما بغرض التحلية وإما بغرض التجسيم .

## ب - أسلوب المقامة في ضوء تطور الأساليب الأدبية

تبين لنا أن أسلوب المقامة البلاغي يقوم على مذهب الصنعة والتصنع . ولم يكن ذلك مجرد مصادفة بل كان نتيجة حتمية لصراع بدأت أرهاصاته منذ مطلع القرن الثاني وكتب فيه الانتصار للمذهب الجديد في القرن الرابع ولما كانت ( المقامة ) هي النموذج الاسمي لهذا الأسلوب كان لزاماً علينا أن نرى كيف تدرجت الأساليب الأدبية في الأدب العربي حتى تبلور عنها في آخر الأمر أسلوب ( المقامة ) ثم نرى موقع هذا الأسلوب المقامي من تطور الأساليب الأدبية في الأدب العربي .

### تطور الأساليب

عند الحديث عن تطور الأساليب تستوقفنا ظاهرة هامة فطن لها الدكتور عبد الله الطيب<sup>٧</sup> وهي أن الجذور التي انبثقت عنها سائر الأنماط المعروفة في الأدب العربي تكاد تكون واحدة وهذه المرحلة اطلق عليها مرحلة ما قبل الشعر وهو يرى أنه في هذه المرحلة الأدبية كانت هنالك سائر أصناف المقابلة والازدواج والسجع والموازنة وقد تفرعت عنها اوزان الشعر المحكم واللوان النثر المختلفة . وإذا أمعنا النظر في الأنماط التي ظهرت في العصر الجاهلي لأول مرة وجدنا منها :

- ١ - الحكم والأمثال .
- ٢ - الخطب .
- ٣ - سجع الكهّان .
- ٤ - القصص والخرافات .

ولقد ظهرت الصنعة اللفظية في تلك الأنماط جميعها ، ولكن الأدباء لم يفرقوا فيها ذلك أنهم كانوا يستخدمون المقاطع الصغيرة ولا يبالغون في استخدام السجع أو الجناس أو المحسنات البديعية الأخرى بل كانوا يلمسونها لمساخيفاً .

تبدأ بعدئذ المرحلة الإسلامية ويأتي في مقدمتها « القرآن الكريم » ويقول الدكتور عبد الله الطيب<sup>٨</sup> « جاء خارجاً من أعاريض القصيد ولكنه مع ذلك ذو إيقاع رصين وفواصل كالقوافي واسجاع وازدواج بارع النغم » . « ويرى أن سورة الرحمن من أروع النماذج التي تجلت فيها تلك المقدرة الفائقة على تسجيع القوافي واتقان أحكام الازدواج والإيقاع وتكرار

٧ - المرشد الى فهم أشعار العرب . د . عبد الله الطيب ٧٨ / ٣ .

٨ - نفسه ص ٧٨ .

نعم بعينه كي يزاد رنين الايقاع وذلك في قوله « بأي آلاء ربكما تكذبان »<sup>٩</sup>  
والحقيقة الهامة المستخلصة من أسلوب القرآن هي انه احكم أساليب الأولين وتوسع في  
تلك الانماط التي لمسها الاقدمون لمسا خفيفا بحيث اصبح نسيج وحده في احكامه ودقته  
فتهافت عليه المتأخرون ياخذون من اسلوبه .

ومع ذلك فاذا نظرنا الى الأساليب الأدبية عقب القرآن الكريم مباشرة لم نلمح سوى  
تحول طفيف في الأسلوب الادبي فقد ظلت الانماط الشعرية هي نفس الانماط التي كانت  
سائدة في العصر الجاهلي ، وكما يقول الدكتور حجاب<sup>١٠</sup> فإنه في حين امتاز الشعر الجاهلي  
« بجزالة الألفاظ وكثرة الغريب وضعف الرابط بينهما » مع افضة في الحكم والأمثال  
والكنايات الغريبة فان هذه الألوان من الشعر امتازت في العصر الاسلامي بالترابط والاحكام  
وتخصص القطعة الأدبية في موضوع واحد مع نفور من تعمد استخدام السجع .

غير أن تحولات هامة قد بدأت تطرأ على الحياة الأدبية في هذه المرحلة واهمها انشاء ديوان  
الرسائل الذي نال مكانة سامية في الدولة الأموية وقد تولى العرب امره في بادئ الأمر ثم  
آل منهم الى الموالي الذين كان لهم حظ وافر من الثقافات الأجنبية وقد علا امر هذا الديوان  
في عهد هشام بن عبد الملك ، وقد عرفت البلاغة الأعجمية في عهده طريقها الى الأسلوب  
العربي لا سيما في أسلوب عبد الحميد ، وهو كما يقول الدكتور حجاب<sup>١١</sup> « الأسلوب  
المنطقي المطبق القائم على جزالة اللفظ وترادف الجمل » ثم على الطباق والمكملات

المجمل ، لا سيما الحال والتميز وقد كانت هذه تحولات هامة في طريق الشعر الأدبي .  
أما بدخول العصر العباسي فقد نشطت حركة التأليف بصورة كبيرة وقد حفزت « حركة  
الشعبوية » كثيرا من الكتاب الى تأليف الكتب دفاعا عن مذهبهم كما نشطت حركة الترجمة  
ونقلت كتب كثيرة من الفارسية والهندية الى العربية من ذلك « هزار افسانه » « الف ليلة  
وليلة » ثم كتاب « كليله ودمنة » الشهير وقد قام بترجمته ابن المقفع .

غير أن أسلوب ابن المقفع قد جنح الى أسلوب مغاير للأساليب المعروفة ، فقد جنح الى  
السهولة والمباشرة والبعد عن التكلف اللفظي وربما دفعه الى ذلك تركيزه على دقة الترجمة  
اكثر من تركيزه على الصناعة اللفظية .

ولكننا نلمح في الجانب الآخر أسلوب سهل بن هارون والجاحظ وهو أسلوب وان لم  
يغرق في استخدام المحسنات البديعية والصنعة فهو لم يهملها اهيالا تاما لانه جنح الى

٩ - بلاغة الكتاب في العصر العباسي . د . نبيه حجاب ص ٤٨ .

١٠ - نفسه ص ٦٦ .

التلوين العقلي والنفسي ثم الازدواج والترادف ايضا .  
غير انه حتى هذه المرحلة فان أسلوب الصنعة والتصنع لم يكن قد انتصر بل كان يخوض  
صراعة المرير في اطار تيار آخر هو تيار النقد الأدبي .  
**أثر النقد في اكمال المرحلة :**

ذكرنا ان القرآن احكم أساليب الأولين وذكرنا كذلك أن الكتاب من الفرس قد بداوا  
يدخلون اساليب جديدة على الكتابة العربية . وكان طبيعيا ان يتأثر الشباب الجديد بهذه  
الأساليب ثم يضيف اليها ، وهكذا بدأت حركة التجديد على يد أبي نواس ومسلم بن  
الوليد تنادي بضرورة التعبير بأساليب جديدة لا تكون تقليدا لأساليب الأولين ، وقد تبلور  
هذا الاتجاه عند أبي تمام في مذهب الصنعة والبديع . غير ان مذهب أبي تمام اثار  
اعتراضات واسعة من الذين يؤيدون طريقة العرب .

وهنا دخل النقاد والمجددون المعركة فرأينا ابن المعتز يكتب كتابه « البديع »<sup>١٢</sup> يحاول أن  
يثبت فيه أن البلاغة الجديدة ليست دخيلة على اللغة العربية بل ان لها اصولا في القرآن  
الكريم والحديث وكلام السلف .

ورأينا الأمدى<sup>١٣</sup> يعقد موازنة بين مذهب أبي تمام والبحثري ويبيد ميله للبحثري .  
ثم رأينا الصولي<sup>١٤</sup> ينتصر لمذهب أبي تمام في كتابه اخبار أبي تمام وكما نرى فان هذه المعركة  
ظلت في مسرح الأحداث من القرن الثاني الى القرن الرابع ، وهو القرن الذي ظهر فيه  
الصاحب وابن العميد وبديع الزمان الهمداني الذين انتصروا للمذهب الجديد .

ولقد رأينا بديع الزمان يهاجم أسلوب الجاحظ في مقامته الجاحظية ذلك أن الجاحظ كسب  
مكانة عالية في الشعر العربي مع انه لم يتطرق في استخدام المحسنات والصنعة تطرف  
المجددين .

ومن حقنا أن نتساءل ما دامت اصول الصنعة هذه موجودة في الشعر الجاهلي وفي القرآن  
الكريم فلماذا تأخر انتصار مذهب المجددين ؟

الاجابة على هذا السؤال هي أن نفور الأدباء من السجع في العصر الاسلامي اقتداء  
بالرسول الكريم في بعض مواقفه جعلهم يتبعون شيئا فشيئا من أسلوب الصنعة ، لأن

١١ - كتاب البديع لابن المعتز .

١٢ - الموازنة بين أبي تمام والبحثري للأمدى .

١٣ - اخبار أبي تمام للصولي .

السجع يفري بها . اما في هذا العصر فقد زالت دوافع الحرج فليس هنالك من يكتب بالسجع اقتداء بكهان الجاهلية كما انه ظهر من أدباء العصر من يجد الجراءة بالخروج على المؤلف .

وخلاصة القول أن المقامة تأتي في مرحلة انتصر فيها مذهب المجددين وهي تقف نموذجاً بارزاً في هذا العصر ، لأن بديع الزمان اراد لمقامته أن تكون نموذجاً يحتذى في أسلوب الصنعة والتجديد .

### ج - ظاهرة المقامة في تيار القصة العربي

جدير بنا وقد تبين لنا أن المقامة من الوان القصص الأدبي ان نتابع تطوراتها المختلفة منذ نشأتها لنضعها في وضعها الصحيح من تيار القصة في الأدب العربي .  
رأي رينان :

هنالك رأي قال به « رينان » وبعض الدراسين من معاصريه يهتمون فيه العقل العربي « بالدونية » ويرون أن تلك الدونية المزعومة مسؤولة عن انعدام « الميثولوجيا » في أدب العرب الجاهلي ، وانقضاء « الميثولوجيا » في رأيهم حتم ألا يكون للعرب أدب قصصي يعدل في قيمته الأدب الذي أثر عن قدماء اليونان . وهذه النظرية خربة ، وقد أثبتت الدراسات المعاصرة تهافتها لا سيما الدراسة القيمة التي قام بها جوليان « بلاكيرن » في فصله عن اختلافات الاجناس<sup>١٤</sup> ، فقد أثبتت تلك الدراسة عدم وجود اختلاف في درجة الذكاء في تطور المجتمعات .

وعليه فإن عدم وجود « ميثولوجيا » شبيهة « بميثولوجيا » اليونان عند العرب لا يمكن أن نرجعه الى تمايز عقلي « قالميثولوجيا » ليست مجرد قصص وأساطير ، ولكنها حياة كاملة تعيش . واما اختلاف طرق الحياة بين الأمم فتتحكم فيه البيئة والظروف المناخية والنفسية وغير تلك من العوامل . ولقد كان ظهور الأدب القائم على الفكر « الميثولوجي » امراً طبيعياً في بيئة اليونان المعقدة . أما في الحياة العربية فإن الظروف كانت جد مختلفة ، ومع ذلك فقد ابدع العرب الوانا من الأدب تصور واقعهم تصويراً ممتازاً .

وعليه فإن التفاضل بين الأمم لا يكون باختلاف الانماط الأدبية والفنية التي تبدعها بل بدرجة الجودة التي تصل اليها في ابداعها ؛ ذلك أن اختلاف الانماط في حد ذاته امر ضروري بل وحتمي في مثل هذا العالم المتباين .

حقاً . لقد كان لليونان آداب قصصية لم تكن للعرب كأدب الملاحم وأدب المسرح ، ولكن ظروفها خاصة هي التي اوجدتها . فقد كتبت الملاحم « الهوميروسية » لتحكي قصص طواع طويل ومرير خاضته الامة اليونانية . فجاءت تلك الملاحم تصويراً لواقع معاش فعلاً . كذلك فإن فكرة المسرح نشأت في ظروف طبيعية حين كان اليونان يجتمعون في اعياد العنب يغنون ثم يجاوبون بعضهم بعضاً فتهلورت فكرة « الكورس » التي طورت

لينبتق عنها الحوار المسرحي المعروف . وما كان لهذا الفن أن يزدهر لولا ظروف الاستقرار المدني الذي كانت تعيش فيه الأمة اليونانية .

أما العرب فإن ظروفهم البيئية قد هيأتهم للون آخر من الأدب هو « فن الشعر الغنائي » وهو شعر يصور الحياة الفردية والجماعية للمجتمع الجاهلي . وقد طغت القصيدة الغنائية لأن الشعر ظهر في البيئة الجاهلية كضرب من التروم يقوم به الأفراد المسافرين ، ثم ما لبث الشاعر أن احتل مكانة سامية في المجتمع القبلي وأصبح هو المنحدث باسم القبيلة ولكنه بالرغم من هذا الواقع الجديد لم يتخل عن نزعة الفردية حتى في تحدته عن الجماعة وبذلك اتسم الشعر أبداً بنزعة الغنائية الفردية التي عرف بها ولم تكن ظروف السفر المتلاحق تهيم مثل ذلك المجتمع المرحل أن يبدع الوانا من القصص شبيهة بتلك التي كانت عند اليونان . ومن ثم فإن وجه المقارنة لا يجب أن يكون في اختلاف الأنواع لأن الأنواع تخلقها الظروف بل يكون في درجة الجودة ؛ وهنا من ينكر على العرب إبداعهم في فن الشعر ؟

بل من يستطيع أن يجد أمة تفوقت في هذا اللون كما تفوق العرب ؟  
وأما الذين يقولون بأنه حتى بعد أن استقر المجتمع العربي ونهيات له ظروف شبيهة بظروف اليونان فإنه لم يبدع الوانا من الفن القصصي المسرحي نقول : إن الفنون تظهر عند الأمم بطريقتين :

١ - طريق التبلور الطبيعي « كظهور الشعر عند العرب والمسرح عند اليونان » .

٢ - طريق التعلم .

وقد رأينا الطريق الأول لم ينهياً للعرب . وأما الطريق الثاني فقد كان من الممكن أن يثمر لولا خطأ وقع في ترجمة كتاب أرسطو « فن الشعر » ، إذ إن المترجمين ترجوا كلمة « الملهاة » بقصيدة المدح وكلمة « المأساة » بقصيدة الهجاء - وهذا خطأ يمكن تصوره - وبذلك لم يعرف المسرح اليوناني طريقه إلى الحياة العربية . وفي تلك المرحلة لا يمكن لأحد أن يتهم العقل العربي « بالدونية » لأنه سيد الفكر وحافظه في عصر كانت فيه سلاله اليونان وغيرهم يعيشون في ظلام العصور الوسطى .

### حقيقة النزعة القصصية عند العرب :

ولا يعني ما تقدم أن العرب أهملت ناحية القصص في حياتها - فهذا قول لا يتصور أبداً - ولكن القصة في أول أمرها لم تجد من الاهتمام - كضرب من ضروب التعبير الأدبي ما وجده الشعر . فبالإضافة للأساليب السابقة فإن عدم تدوين الأدب في العصر الجاهلي قد أدى إلى ضياع قدر كبير منه لأن الذاكرة لا تستطيع حمله كما تحمل الشعر وبالتالي فإن عدم

التدوين قد وقف حائلاً دون ازدهار هذا الفن على نحو مرض . ومع ذلك فقد عرفت الحياة الجاهلية الوانا من القصص والأسفار متشعبة . فقد كانت الصحراء تتحول في الليل إلى مجالس سمر كل يظهر ما لديه من القصص والعجائب والأخبار وكما يقول الدكتور عبد العزيز عبد المجيد<sup>١٥</sup> :

« فإنه كان للعرب كجميع الأمم قصص تنسبها لغير الإنسان من الجمادات والحيوانات نراهم فيها يتصرفون بحكمة وكانهم إناس ؛ ونرى العرب فيها يمازجون بين الخيال والحقيقة . وقد انشأوا بعض القصص عن الأشجار والصخور ذات الأشكال الغريبة » .  
وقد رأينا الجن والعفاريت تلعب دوراً هاماً في الأدب الذي سبق الإسلام ، كذلك فقد كانت للعرب نزعة في خلق الأبطال الشعبيين « كعمتر »<sup>١٦</sup> و« سيف بن ذي يزن » و« زنوبيا » و« زرقاء اليمامة » كما أبدعت تخيلاتهم تصوير بعض الشخصيات الحقيقية لتصبح ذات مدلولات رمزية كبيرة ؛ من ذلك شخصية حاتم الطائي والسموأل بن عاديا ولقيان .

ولعلنا إذا راجعنا كتاب « أيام العرب » وجدنا كثيراً من المادة القصصية التي كان يتداولها العرب في الجاهلية ولا نستبعد أن تكون هنالك بعض القصص المسيحية واليهودية عرفت طريقها إلى الحياة العربية ثم ضاعت قبل أن تصل إليها يد التسجيل في القرن الثاني .

### تطور الفن القصصي :

إن أول مرحلة من مراحل التطور القصصي عند العرب بدأت بالقرآن الكريم فقد حوى الكتاب الكريم بعض القصص التي كانت سائدة قبل الإسلام ؛ فقد رأينا يسوق قصص الأنبياء والأمم الغابرة للتذكرة والموعظة . ومن ثم بدأ اتجاه رواية القصص التي تؤدي إلى غاية تعليمية مع نفور من القصص التي تدعو إلى الوثنية أو الإلحاد .

ولقد جاء وقت عين فيه عمر بن الخطاب قاصاً في جامع المدينة وفي سنة ٤٠ هـ عين سليمان بن عطر في جامع عمر . وقد شجع معاوية فيما بعد هذا الاتجاه وأصبحت وظيفة القاص في عهده وظيفة رسمية ، وهي توسع في منصب الإمامة ؛ ولقد لقي القصاص قبولا كبيراً لأنهم كانوا يشوقون الجمهور بما يحفظونه من قصص وأخبار ومن هنا نشأت الخصومة التقليدية بين القصاص والوعاظ .

ومع ذلك فلا نرى في هذا اللون الأخير من القصص سوى امتداد لأسلوب القصص

١٥ - الفصحة القصصية في الأدب العربي الحديث ص ٣٩ . د . عبد العزيز عبد المجيد .

١٦ - هذا القصص وإن دون بعد الإسلام ، فإن أسامه كان موجوداً في فم الجاهلية .

في الجاهلية ؛ غير أن اتساع حركة التدوين والترجمة في العصر العباسي وفي القرن الثاني على وجه الخصوص ساعد على تطوير القصص المعروفة حيث قام الكتاب بتسجيلها على نحو أفضل ، واحسنوا طريقة عرضها ؛ وقد بدأت في نفس الوقت ترجمة القصص الاعجمية ، فترجم ابن المقفع كتاب « كليله ودمته » وهو ألوان من القصص تروي على السنة الحيوانات وهي ذات مغزى في نصيح الحكام ، ثم ترجم كتاب ألف ليلة وليلة وهو ايضا ألوان من القصص تروي على لسان شهرزاد تصرف بها ذهن الملك عن قتلها ؛ وقد بدأ في ذات الوقت تدوين القصص الشعبية كقصة عنترة وغيرها .

وفي هذه المرحلة احس الجاحظ بضرورة التعبير عن الظواهر الخاصة في المجتمع العباسي فكتب كتابه « البخلاء » الذي استوعب فيه النموذج الانساني لشخصية البخيل . وكتب أبو المظهر الأزدي حكاية ابي القاسم البغدادى ؛ وهي حكاية تدور على مدى يوم كامل يروي فيها ابو القاسم صورا من الحياة والأخلاق في بغداد . هذا بالطبع الى جانب القصص والأخبار التي حفلت بها كتب التراجم والأخبار . ثم يأتي بديع الزمان فسر مدفوعا باحساس قوى لخلق نموذج انساني قصصي من واقع البيئة العباسية . ويتميز بديع الزمان في خلق هذا النموذج ، لانه استطاع ان يقدمه من خلال بناء درامي متكامل هو فن المقامة الذي تفوق فيه على نموذج البخيل عند الجاحظ لأن الجاحظ وان اجاد تصوير الظاهرة من خلال القصص والأخبار التي جمعها فهو لم يستطع ان يخلق شخصية متكاملة البناء كشخصية ابي الفتح الاسكندري وبالتالي فان فن المقامة يقف كأول عمل قصصي تحقق فيه العنصران التاليان :

١ - التكامل الفني الدرامي

٢ - التعبير عن ظاهرة محلية غير مستوردة او مترجمة .

وبصورة اكثر شمولاً فانه عمل ادبي تحقق فيه التكامل بين الشكل والمضمون وقد كان ذلك في القرن الرابع ايذانا ببدء النزعة القصصية القائمة على مزج الخيال بالواقع « والتي تمخضت عن تيار هام في الأدب العربي التحم في آخر الامر بفن القصة والمقالة في العصر الحديث .

## « الباب الثاني »

### أدب المقامة

### بين المشرق والمغرب بعد بديع الزمان

من القرن الخامس  
والى بداية العصر الحديث

## فن المقامة بين المشرق والمغرب

بعد

بديع الزمان

النقد  
واللغة  
وكشف العيوب

من القرن الخامس وإلى بداية العصر الحديث

ما ان ظهرت مقامات الهمداني في الحياة الادبية بالمشرق حتى كانت بداية لسيل عرم من الفن المقامي ، لم نحمد جذوته منذ القرن الرابع وحتى عصرنا الحديث . ولقد وجد الكتاب والعلماء في هذا الفن ارضا خصبة يصورون فيها الموقف الانساني لعصورهم كما وجدوا فيه مجالا مناسباً يمتحنون فيه قدراتهم اللغوية والبلاغية

والظاهرة العامة التي اتسمت بها المقامة الادبية في جميع عصورها هي ظاهرة النقد والثورة وكشف العيوب الانسانية والاجتماعية ووضع البديل لها في بعض الاحيان ، ومن هنا تبدو الاهمية الحضارية والتاريخية لهذا الفن وهي اهمية اهملها المؤرخون والنقاد لانهم لم يروا في المقامة سوى وعاء ملىء بالتعبيرات الغريبة واللغات الوعرة والبلاغة المعقدة ، وفي الواقع فان اولئك المؤرخين لم يكونوا يريدون من المقامة غير هذا ذلك لان المنهج الذي انطلقوا منه كان لغويا بلاغيا لا يحفل بالقيم الانسانية والحضارية التي نحفل



بها الان حتى تظهر المقامة في ثوبها الصحيح وحتى تثبت لأعداء الثقافة العربية الاسلامية  
ان الفكر العربي لم يكن قاصرا في يوم من الايام ، ذلك انه اسهم في الفنون الانسانية ولا  
سيما فن القصة الذي انكروه عليه - يقدر وافر وتقدمي في ذات الوقت .  
وفي هذا الباب نتابع رحلتنا مع الفن المقامي في بلاد المشرق والمغرب .

## الفصل الاول

### ( مقامات المشاركة )

### القرن الخامس :

يعرف على اثنين من مقامي المشرق في هذا القرن وهما الغزالي وابن نايقا ، ولم أستطع الحصول على مقامات الغزالي ونسختها المخطوطة موجودة في مكتبة برلين وذكر انها تعبر عن مواقف صوفية .

أما مقامات ابن نايقا فقد حاول كاتبها ان يسير فيها على نسق المقامات الهمدانية بيد انه لم يحفل بتاحية المضمون كما حفل بها الهمداني ولذا جاءت مقاماته مجرد مفارقات ادبية ، ولقد كنا نجد شدة القسوة في بعض الأحيان على بطله على عكس الهمداني الذي كان يحتل البطل منه موضع العطف . اما الراوي في مقامات ابن نايقا فقد كان متعددًا ولم يلتزم فيه نموذجًا واحدًا كعيسى بن هشام ، وقد رأينا ابن نايقا - كما هو الحال مع سائر المقاميين - يميل الى أسلوب الصنعة اللفظية ولكنه بالطبع قصر فيها عن شأن الهمداني من حيث الطلاوة والجمال .

### القرن السادس :

اما في القرن السادس فان أهم من يقابلنا من المقاميين أبو القاسم الحريري . وقد سار الحريري في مقاماته على غرار المقامات الهمدانية وذلك من حيث البناء الفني والالتزام بشخصيتي الراوية والبطل ، ومن ناحية كشف العيوب الاجتماعية ومعالجة المسائل الفكرية واللغوية ، وقد تفوق الحريري على الهمداني تفوقًا ظاهرًا في الصياغة الأسلوبية والاحكام الدرامي حتى غدت مقاماته قمة في ذاتها واصبحت هي النموذج الذي يحتذى فيما بعد بل واخلت المقامات الهمدانية فكثير شراحها ودارسوها وكانت سببًا هامًا في تسلسل المدد المقامي

الذي أتى بعدهما ، ذلك أن معظم الكتاب رأوا فيها نموذجاً جديراً بالتقليد

ومن مقامي القرن السادس كذلك ، الامام الزمخشري وهو لم يلتزم الديباجة الهمدانية ، فلم يظهر عنده اهتمام بعنصر الراوي أو البطل ولقد رأينا ينفذ الى الموضوع الاساسي مباشرة واما موضوعه الاساسي فهو الوعظ والارشاد ، لقد كانت المقامة عنده موقفاً من المواقف الوعظية ، ومن ثم أصبح هذا المنحى الذي سلكه الزمخشري بداية لاتجاه خاص عرف فيما بعد باتجاه المقامات الصوفية ، غير أن الزمخشري لم يهمل الصنعة اللفظية في مقاماته بل اهتم بها الى حد كبير .

أما مقامة الاسواني فهي وان حافظت على الديباجة المقامية من حيث اشتغالها على عناصرها الاساسية وهي القصة والبطل والراوي والصنعة فنحن نجد فيها شيئا من التصرف لأن مؤلفها قد وضعها على شكل مناظرة تدور بين طائفة من العلماء كل يجد العلم الذي تخصص فيه وهي مناظرة يحسمها البطل الذي يبين للمتناظرين قصر باعهم . ولقد ظهرت للمؤلف في هذه المقامة اصالة خاصة اوضحت ان بإمكان المقاميين ان يتصرفوا في الديباجة المقامية دون ان يخلوا بروائثها ، وقد كان مثل هذا التصرف ضروريا لان المقامة جمعت في داخلها الوانا من الفنون لم تتبلور على نحو واضح في ذلك الوقت كفن القصة والمقالة .

✽ اما ابن الجوزي فقد اهتم الجانب الهزلي الذي اتسمت به بعض المقامات السابقة ، فقد عالج موضوعاته كلها بشيء من الجدل فجاء اسلوبه رشيقا عليه مسحة من ادب القصة . ولقد قام ابن الجوزي برواية مقاماته بنفسه وقد اسبغ عليها مسحة دينية ، وقد رأينا متفوقا على الزمخشري في اسلوب صياغته ذلك انه حافظ على الجانب الفني في المقامة فاحتفظ بشخصيتي الراوي والبطل ، ولكنه نفى عن البطل تلك الصفات الذميمة التي عرف بها في المقامات الهمدانية والحريرية .

أما آخر العنقود في مقامات القرن السادس فهي مقامات ابن بسام الحنفي ولقد التقت هذه المقامات مع المقامات الهمدانية والحريرية في معظم عناصرها ولكنها قصرت عن شأن المقامات البديعية من حيث الجمال التعبيري وفصاحة الاسلوب .

ومع ذلك فنحن نلمح فيها نواحي اختلاف ظاهرة . فاول مرة نجد ان هدف المقامة الاساسي يتحول الى المدح ، ذلك ان الحنفي كان يتخذ من مقاماته مقدمات يخلص منها الى غاية المدح . ولقد رأينا ايضا ينشئ مقامات اخرى مناقضة للمقامات التي يقوم

التوخي بطولتها تعكس المضمون . فهو لا يوافق على خسة التوخي ونذالته ، وقد اشتملت مقامات المناقضة على مضامين خيرة . وقد رأينا من قبل الحريري وقد جعل التوبة لبطله في آخر مقاماته غير انه لم يصنع مقامات مناقضة كما فعل الحنفي .

### القرن السابع :

وفي القرن السابع نتعرف أولا على الشاب الطريف ومقامته اشبه باحدى القصائد الصوفية ، فهو لم يتعرض فيها لموضوع الكدية ، ولكنه حافظ على الشكل المقامي الا من ناحية جعله البطل متعددا . لقد قام هو برواية المقامة وأوكل بطولتها لثلاثة من العشاق كل يبت مواعده الصوفية والمقامة في نزعتها الصوفية تمثل رفضا للواقع الحسي الذي كانت تعيشه البلاد الاسلامية آنذاك .

أما مقامات ابن الصيقل الجزري فعلى الرغم من الصعوبة التي صادفناها في قراءتها فهي لا تختلف كثيرا عن مقامات الهمداني والحريري في موضوعاتها واغراضها ، ولقد انتهج الجزري في هذه المقامات اسلوبا وعرأ ربما كان ذلك سببا في تأخرها .

أما مقامة الكازروني فتعبر عن رحلة في مدينة بغداد بعد ان خربها التتار وقد قارن فيها بين ما كانت عليه بغداد من مجد وما آلت اليه من دمار ، ولقد خرج الكازروني من ذلك بحكمة فحواها ان التنكب عن طريق الدين والصلاح لا بد وان يقود الى مثل ذلك الواقع المرير .

### القرن الثامن :

وفي القرن الثامن نلتقي بمقامات الصفيدي وهي ذات نزعة تعليمية قدم فيها الصفيدي كثيرا من المعلومات الدينية والفقهية ، وعلى الرغم من ان شخصية بطلها وراويها لم تختلف كثيرا عما في المقامات الهمدانية فان الجانب العلمي قد غلب على شخصية البطل ولقد عرفنا من خلال هذه المقامات بعض طرق التدريس التي كانت تستخدم في غرض التعليم في هذا العصر .

وأما مقامات ابن المعظم فقد شاركت مقامات الحريري في بعض اهدافها كالاختيال والوعظ ولكن اغراق صاحبها في الصنعة بايراد المقاييس وحشد المفردات الصعبة قد اخل ببنائها وجعل من العسير أن نلمح لهذا الكاتب شخصية اسلوبية ظاهرة ، فهو لم يدرك المرامي الحقيقية لقن المقامة اذ حصر ذهنه كله في التكلف والاغراق في الوعورة مما أفسد

عليه مقاماته .

ونجد في هذا القرن أيضا مقامات ابن الوردي وهي مقامات لم يركز فيها كاتبها على الناحية القصصية وقد خلت من عنصر الكدبة والحيلة وليس لها بطل محدد مع انها احتفظت بشخصية الراوي . وهي في عمومها أشبه بالمقالات الأدبية التي تمنح لمعالجة مسائل فكرية او قضايا عامة . وهذا الاتجاه هو الذي جعل ابن الوردي يميل نحو الترسيل ولا يحفل كثيرا بالصنعة اللفظية .

كذلك نجد في هذا القرن مقامة للقلقشندي وهي ذات فائدة أدبية اذ ان الكاتب اراد أن يعلم بها أصول كتابة الانشاء وهي أشبه بالمقالة المطولة .

### القرن التاسع :

أما في القرن التاسع فالتقى بمقامات القواس التي لم تلتزم شكلا فنيا محددًا فهي وإن اعتمدت على عنصر القصة فإنها لم تشتمل على موضوع محدد بل كان الراوي يسترسل فيها من موقف لآخر محليًا محدثًا بالتشعر والزجل والتوسيع . كذلك فإن البطولة في هذه المقامات جماعية وقد شارك الراوي في معظم نوار البطولة .

### القرن العاشر :

نتعرف في بداية القرن العاشر على المقامة البديعية في وصف المعالم المكية لمؤلفها عبد القادر الفيومي وهي وصف للمعالم المكية بمكة المكرمة تجاه البيت الشريف ولم اعثر على نسختها في دار الكتب المصرية على الرغم من وجودها في الفهارس غير ان الدكتور رشدي اشار اليها في رسالته .

ونجد في هذا القرن ذاته مقامات للامام جلال الدين السيوطي وهي مقامات ذات انماط مختلفة بعضها اخذ طابع المناظرة وبعضها اخذ طابع المقالة او النقد او القصة ، وتلتقي هذه المقامات في هدف واحد ذي طبيعة اخلاقية .

### القرن الحادي عشر :

أما في القرن الحادي عشر فتتعارف على مقامات احمد بن محمد بن عمر المشهور بشهاب الدين الخفاجي وهي مقامات تمنح الى السهولة وتنفرد عن التكلف ، والخفاجي يشترك مع اصحاب الثورة من كتاب المقامات في نقد المفاصل الاجتماعية ، وقد لقي من جراء ذلك

اذى شديدا واقصى عن منصبه كقاض لمصر .

### القرن الثاني عشر :

أما في القرن الثاني عشر فالتقى بطائفة من كتاب المقامة ، يأتي في مقدمتهم ابو بكر بن محسن باعبود صاحب المقامات الهندية وعددها خمسون ذكرت في فهارس دار الكتب ويندو ان النسخة الوحيدة منها مفقودة ايضا ، غير ان الدكتور رشدي اشار اليها في رسالته . ومن هذه الدراسة نعلم أن باعبود في هذه المقامات اراد أن يقدم نماذج سهلة من هذا الفن على عكس النماذج التي وجدناها عند الحريري وابن الصيقل الجزري وقد اسند روايتها الى الناصر بن قنقش واسند بطولتها الى أبي الظفر الهندي السباح وتدور احداث المقامات في بلاد الهند ويكون الراوي فيها ضحية لحيل البطل .

والمقامات على وجه الاجمال تنقل الفن المقامي نقلة كبيرة في فن القصة القصيرة وموضوع المقامات يدور حول مشكلات المجتمع ولكن ليس عن طريق الاسلوب التعليمي المباشر بل عن طريق الاشارات واللمحات الفنية الجميلة .

أما اللقيمي صاحب المقامة الرضوانية فلا يقدم جديدا في هذا الفن فقد كتب مقامته بغرض المدح كما فعل الهمداني في مدح الأمير خلف وتتفق هذه المقامة في غرضها مع مقامة السويدي التي كتبها بغرض المدح ايضا ، وهو غرض من اخص خصائص القصيدة الكلاسيكية وعنصر الرحلة والوصف في فن المقامة قد شجع الكتاب لكتابة المدح في الديباجة المقامية حتى يدخلوا هذا الفن في النثر .

أما مقامة الكريدي فتحكي قصة رحلة بحرية وجلها مغازلة ومسامرة .

ومن أهم ما نجده في هذا القرن مقامة طيف الخيال للشيرازي وهي مقامة طويلة موضوعها مناظرة بين العلم والمال ضمنها المؤلف كثيرا من آرائه في الفكر والأدب والحياة ونقد فيها الحياة المادية نقدا مريرا .

وأما مقامة العمري فهي ذات طابع جديد ايضا . والعنصر السائد فيها هو عنصر البطل وهو عالم جليل قلب له الدهر ظهر المجن ولكنه لم يقف من الحياة موقفا سليما . فقد خرج بفلسفته ان كل شيء آيل لزوال فلماذا الضجر ؟

انه أول بطل مقامي يتمثل فيه روح الحق والخير المجرد ، انه يرفض مبدأ الاحتيال وهو

المقامات

مستعد للبلد والتضحية ، وما يؤخذ على هذه المقامة هو ان بناءها لم يكن متماسكا على النحو الذي وجدناه عند الحريري وبديع الزمان وغيرهما من المقامين .

خلاصة :

تلك لمحة سريعة عن المقامين المشارقة الذين تعرضنا لدراستهم في القسم الاول من هذا الباب ولعلنا نستطيع ان نقول على وجه الاجمال ان سبيل المقامة لم يتوقف لحظة واحدة عن الاندفاع منذ ان ارسى بديع الزمان دعائمها فلا يخلو قرن من هذا الفن وقد ذكرت لنا كتب الأدب كثيرا من المقامين الذين لم نعر على نتائجهم مما يؤكد ان الكتاب قد وجدوا في هذا الفن مجالا خصبا يفتنون فيه ما يجيش في صدورهم .

والحقيقة هي ان القالب الفني الذي اشتملت عليه المقامة شجع كثيرا من الكتاب لكشف العيوب الاجتماعية والثورة عليها ذلك أن التعبير عن الأفكار الهامة والخطيرة من خلال الاحداث او الشخصيات الفنية يكسبها جمالا اخاذا يفوق ما يحققه الكاتب عن طريق الوعظ والارشاد المباشر وهذه خاصية يتميز بها فن القصة على ما سواه ، ولقد راينا ان للمقامة نصيبا كبيرا من هذا الفن .

ومن خلال دراستنا التي ستظهرها فصولنا التالية سيتكشف لنا ما قرناه من قبل ان الفن المقامي لم يقتصر على الناحية البلاغية فقط بل ان المضمون كان يشكل عنصرا هاما بالنسبة للكتاب ومن هنا فقد رايناهم في كثير من الحالات يخرجون على الديباجة الحمداية ويتصرفون فيها بما يلائم الموضوعات التي يودون معالجتها .

ومستلحظ ان فكرة الصراع بين الخير والشر أو الحق والباطل كانت تلعب دورا هاما في تحريك المقامين لصياغة موضوعاتهم فقد كان البطل المقامي في نظرهم صورة للمجتمع المثلون الفاسد ولذلك فقد فرض الحريري التوبة على بطله في نهاية مقاماته حتى يطهره من أدرانته وكأنه اراد أن يطهر المجتمع كله من ارجاسه ، كما رأينا الخنفي يعكس موضوعات مقاماته بجعل الراوي يقوم بدور البطولة في مقامات يناقض بها مقامات التنوخي بطله معلنا بذلك عن رفضه واستنكاره لسلوك هذا البطل وحتى أولئك المقامين الذين لم يتعرضوا لهذا الصراع مباشرة يستطيع القارئ ان يدرك اهدافهم من خلال هذا التصور .

وبصفة عامة نستطيع ان نقول اننا نقف بالفن المقامي ازاء فن له أصوله الدرامية حقا وإن قد عبر بالفعل عن قيم حضارية تكشف عن اصالة النزعة الفنية عند الكتاب العربي وتنفي عنه صفة الحمول والسذاجة الفطرية التي الصفها به بعض المستشرقين .

## ١ - مقامات ابن ناقياء

مؤلف هذه المقامات هو الاستاذ الفاضل ابو القاسم عبد الله بن ناقياء ذكر ابن خلكان انه ابو القاسم عبد الله وقيل عبد الباقي بن محمد بن الحسين بن داوود بن ناقياء ولد سنة ست عشرة واربعمائة ونشأ ببغداد ثم كانت وفاته بها سنة خمس وثمانين واربعمائة ويقال ان جده الثاني ينحدر من ارومة سريانية او أرمنية وكما يقال انه كان مؤمنا بذهب التعطيل . ومن مؤلفاته مجموع سباه ( ملح - الملاحه ) وكتاب ( الجمان في تشبيهات القرآن ) وقد اختصر كتاب الاغانى وشرح كتاب التصحيح وله ديوان شعر وديوان رسائل .

اما مقاماته التي نحن بصدها فقد ذكر بروكلمان<sup>١</sup> في دائرة المعارف الاسلامية ان عددها تسع مقامات غير ان النسخة التي بين ايدينا والتي تم طبعها في اسطنبول لا تحتوي على اكثر من سبع مقامات ، وقد حذفت منها المقامة الأولى والتاسعة وقد وجد الدكتور محمد رشدي حسن المقامة الأولى في مخطوطة المستشرق الفرنسي هيوارث . وموضوعها عن الضب اثبتها الدكتور رشدي في ( رسالته ) وقد ذكر ( هيوارث ) ان لابن ناقياء مقامة عاشرة ولكنها ليست موجودة في الكتاب الذي بين ايدينا .

### منهج التأليف المقامي عند ابن ناقياء :

يركز ابن ناقياء في تأليفه على هدف رئيسي هو تحسين العبارة وتهذيب اللفظ حتى تبرز المقامات على سامعيها وراويها في حلى البلاغة .

« قال الاستاذ الفاضل أبو القاسم عبد الله بن ناقياء بن داوود هذه حكايات احسننا العبارة فيها وهذبنا الفاظها ومعانيها وحبوناها في البلاغة على سامعيها وراويها وقد سلك بعض المتقدمين هذا المسلك في مثلها كرياضة للخاطر وتحديا للقرينة غير ناثر جفيرا للمرمى ولا رايدا لسوامها عند أحد مرعى » .

وكما نرى فليس في هذا الهدف ادراك كامل لمرمى المتقدمين في كتابة المقامة ، وعلى سبيل المثال فان بديع الزمان لم يكتب مقاماته مجرد رياضة للخاطر أو شحذا للقرينة بل تجاوز

١ - مقامات الخنفي وابن ناقياء ص ١٢٣ طبعة مصطفى احمد كامل سلطان بايزيد ، ده جاور جيلر فيوس . اسطنبول

٢ - وليات الاعيان ٩٨/٣ ط دار الثقافة .

٣ - دائرة المعارف الاسلامية ١٦٦/٨ - انجليزي .

ذلك كله الى الغايات الاجتماعية والسياسية اعمل فيها النظر ناقدًا ومبصرًا بمواطن الضعف والوهن في المجتمع . وبذلك جاءت مقاماته ثورة اجتماعية متكاملة .

وحتى في اسلوب الصنعة الفنية فنحن نجد ابن نايفًا مقصرًا في ادراك بعض الغايات الرمزية فهو يقول : « واغما وسميتها باسم مستعار على عادة الشعراء من تشبيب القاصد والحكماء في وضع الحكمة على السنة البهائم وليس ذلك بمحظور واغما هو تصرف في العبارة وراحة من تعب الجهد الى ملح البلاغة وقد قال بعضهم جد الأدب وهزله معًا جد وكان ابن عباس رحمه الله اذا اكثر من الجدل قال احضروا يريد الأخذ من طرف الأحاديث كما تتنمرا الابل بالحمض اذا بشتت الكلال . وقد ورد من أمثال العرب ما يستحيل في الحقيقة على ما استعمل له ولا يسمى ذلك كذبًا وقالوا على لسان ولد الضب يخاطب اياه :

قد هدموا بيتك لا أبالك  
وعزموا انك لا أخالك

وأنا أمشي الدألا حوالكا

فنحن لا نجد في هذا الفهم ادراكًا كاملاً لما اعتادت عليه العرب من وضع الكلام على السنة البهائم وما شابهها كما ورد في قصص الغول والسحابة وترجمات ابن المقفع المعروفة بقصص ( كليله ودمنة ) إذ الغايات التي رمى اليها أصحاب هذا النوع من القصص تتجاوز الظاهر بكثير وذلك في الحالات التي يضطر فيها الكتاب لحل آرائهم التي لا يستطيعون الجهر بها السنة البهائم والحيوانات بقصد التقية وتلك غاية من غايات الرمز .

ولا يعني ذلك بالطبع أنه لا يوجد بعض القصص الذي لم يصل الى هذا المدى العميق إذ هنالك كثير من القصص السطحي الذي لا يتجاوز حدود مدلولاته الظاهرة وهذا النوع هو الذي ينطبق عليه قول ابن نايف .

غير أننا ما كنا نتوقع كاتبًا مقاميًا يأتي بعد بديع الزمان ولا يدرك سر هذه الصنعة المقامية اما الفكاهة في الفن المقامي فما هي الا اطار خارجي يبرر به المؤلف تصرفات بطله العجيبة او هي وسيلة الى موافقه الفكرية والفلسفية والاجتماعية .

## موضوع المقامات :

المقامة الأولى هي مقامة ( الضب ) وموضوعها يتركز في أن بدويًا مر ( باليشكري ) - بطل المقامات - في الصحراء فاقنعه اليشكري بأكل الضب وزين له ما يجده الانسان من لذة في ذلك وهنا تتم المشاركة بينهما . والمقامة لا تعدو بعد ذلك أن تكون مجالًا لاستعراض التعابير الوعرة والمفردات الصعبة على نسق الحريري فيما بعد وان قصر ابن نايف عن شأوه .

وأما المقامة الثانية فهي قصة رواها بعض الفتاك مؤداها انه تبع اليشكري في الليل الى المقابر فرآه يسطو على اكفان الموتى ثم يعرج بعد ذلك الى أحد المساجد القريبة هربًا من العسس وهناك يعلو المئذنة منذرًا ومخوفًا فيعجب الفتاك من هذا التناقض العجيب ولكن اليشكري يزيل التناقض بشيء من الظرف حيث يقول : ان صاحب الشريعة قال : ( اطلبوا الرزق في خبايا الأرض ) .

فيقول الفتاك ( ويحك يعني في استخراج النبات لا في نبش الأموات ) .

وفي المقامة الرابعة يخبر بعض الأصدقاء النازلين بشرقي ( الزوراء ) انه بينما كان يتناول الطعام مع عياله اذا به يسمع سائلًا في الباب « يتوخى بكلامه الاغراب وينطق بلسان الاغراب ويعتمد على غريب اللفظ ويمزج سؤاله بالوعظ فلم يزل يسهب في مقاله ويصف سوء حاله وفاقة عياله ونحن سكوت عن جوابه قعود عن ثوابه حتى طرقت الباب بعصاه وقال يا أهل الدار أما تعلمون اننا لله وانا اليه راجعون » .

وبالرغم من ذلك فلا أحد يجيبه غير أن السائل الملحف لا يرحل بل ويلج في السؤال فيتبدله أحد الصبية بقوله : بورك فيك فينهال على الصبي سبابًا وحين يقرعه الراوي على فعلته يتضرع بقوله تعالى ( وأما السائل فلا تنهر ) ولكن ذلك لا يشفع له فيخرج الراوي ليوقع به وهنا يستجير السائل بنسبه ويكشف عن هويته فاذا هو اليشكري ، فيتحول من موقف المنع الى موقف العطاء .

وكما نرى فان طارق الليل يبدو في هذه المقامة ثقيلًا سمجًا كما ان الذين يطرقهم لا

يهشون له في بادئ الامر كمادة العرب في اكرام الضيف . وهذا الموقف من المؤلف تجاه بطله لا نجد له نظيرا عند بديع الزمان الذي يبدو مزهوا ببطله بل ويعتبره ادعى للشفقة والرحمة لأن في شخصه تجسد مأساة مجتمع بأسره وهذه وجهة لم يتبينها ابن نايقا لأنه لم ير في المقامة سوى ديباجة يختبر فيها براعته اللفوية ويخلص فيها من الجد الى الهزل ومن الهزل الى الجد .

وأما في المقامة الخامسة فيروي أحد أهل الجوار أنه رأى الشكري يتشبث بأعطاف رجل في ظلام الليل فإذا يسلك به الى بعض الغيطان ليدور بينهما أمر مخجل فلا يعرف الراوي من السائل أو المسؤول ولا الفاعل من المفعول حتى يخرج أحدهما ويقول :

( يا لك من نجلا - طعنة - تفرى الوجاح - الستر - قد ابدلتني بسلاحي سلاح - الغائط فأراد الراوي احتجاله ولكنه خرج من المأزق بقوله :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفساز بالطيسات الفاتك اللهب والمقامة كما ترى تركز على موقف من المواقف الشاذة ولكن الكاتب لا يشعرنا أنه أراد تعرية ظاهرة خبيثة في مجتمعه لأن الموقف الفكاهي يغطي فيها على الموقف اللاأخلاقي . وهذا يتوافق مع المنزع العام لابن نايقا الذي لم يهتم في معظم حالاته بالرمز الى الدلالات المنسوبة من خلال قصصه .

ونحن بالطبع لا نريد بهذا القول ان نجرد ابن نايقا تجريدا كاملا من نزعة الفكر في مقاماته فرجل مثله لا بد وان يكون له نظر في مسائل الفلسفة والدين وقد وضع ذلك في مقامته السادسة .

ونرى فيها بعض المتكلمين وقد دخل أحد البساتين فوجد الشكري سكران يتوسم بالشعر فابتدره بالسلام وجلس فامهله الشكري حتى انس ثم مد له بكاس فأردف المتكلم على أثر ذلك قائلا : « أنا رجل من أصحاب الكلام وممن له نظر في الدين وقد حظر علينا هذا الشراب فقال ما تقول في هذه الكأس وأجال الماء والخمر فيها ثابتان معيا أم بطل

٦ - مقامات ابن نايقا ص ١٣٥ .

٧ - نفسه ص ١٣٩ .

٨ - مقامات ابن نايقا ص ١٤١ .

أحدهما أم دخل في الآخر فلا يجوز أن يبطل أحدهما لأن ما هنا خرا وماء ولا يدخل كل واحد منهما في صاحبه فيصير دخلا في نفسه وإنما هما ثابتان وبالاختلاف وقع التغير .

وعندئذ يدور نقاش بينهما فيتحدث الشكري في ضروب الفلسفة وعن الطبيعة المستعالية على الكون والفساد والآخرى المعرضة الاجزاء لذلك ثم يتحدث عن النفس النامية والمتحركة ويزعم أن النفس في الأجسام كالصورة في الهيولى فهي التي تحرك الأجسام ثم يشبه بها تلك الخمر لأنها في رأيه تحرك النفس وهو في كل ذلك لا يهدف لغير الضلال والباس الحق لباس الباطل مستخدما براعته المنطقية شأنه في ذلك شأن الفلاسفة والمتكلمين ونراه في كل ذلك منحازا المذهب ارسطوطاليس :

أما المتكلم الذي يسوء ذلك فيقول :

( يا هذا اياك والضلال والاخذ في زخارف المحال وما الذي تنكر له أمر الميعاد وبيعك على فساد الاعتقاد والاحاد أم أجل المصير الى البلى وتفرق الأجزاء في الثرى او ليس الحبة لا تنبت الا بعد العفن والاضمحلال والبيضة لا تفرخ الا بعد الفساد والانتقال الى غير ذلك من الامثلة الظاهرة والشواهد الدالة ) .

ثم يتلو عليه قوله تعالى :

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه ياكلون » الى قوله تعالى : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » وكان ذلك بداية لمناقشة أخرى أبان الشكري فيها أنه لا يفهم معنى قوله تعالى « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر » فالادراك في نظره يقع في أوان كل محقق ويكون الادراك الحقيقي في الكسوف الشمسي .

فيمحاول المتكلم شرح الآية على نحو صحيح فيقول الشكري : « دعني من خرافات المتكلمين وأقاويل المشرعين » وهذا هو الحكم الذي أراد ان يصل اليه ابن نايقا في مقامته غير أن حكمه جاء ضعيفا لأنه وضعه على لسان عرييد سكران .

وأما في المقامة الثامنة ، فقد حدث بعض أهل الأدب أنه خرج مع جماعة الى إحدى الحدائق فكانت جلسة هنيئة الى أن وفد عليهم خلال أنسهم رجل من البشر ثقیل الرطاة

٩ - نفسه ص ١٤١ .

١٠ - مقامات ابن نايقا ص ١٤١ .

كأنه حجر قبيح الشكل يبدو على محياه الفقر فاستعاضوا من قربيه ولكن ليس ثمة وسيلة للفرار فوقف يعرف نفسه بالشعر ولا فائدة .

يقول الراوي :

« وجعل يمر في السناد ويتعثر في الانشاد ويخطيء في قوافيه ويخالف بين اعجازه وهوايه فسأله أحد الجماعة عن روى شعره للردف أم للتجريد وعن الحركة التي ساند فيها للحدو أم للتوجيه فلم يفهم شيئا . . ولم يعدل عن طريق جهله ومذهبه ولم يزل يملأ قلوبنا غيظاً ويعيد فصلنا قيظاً حتى تقصينا من المكان هرباً من الهديان » .

والمحدث عنه هو الشكري بطل المقامات .

الذي يقسو عليه المؤلف قسوة كبيرة في هذه المقامة .

فماذا بقي لبطل المقامة اذا اتصف بالجهل وثقل النفس ؟

انها صورة غريبة مخالفة تماماً لما درج عليه بديع الزمان من تصوير بطله في صورة الذكي النابغة المشتغل بالظرف والحنكة .

ولكن كما قلنا فان ابن نايقا لم يتفقد بالمرامي الاساسية لفن المقامة .

أما المقامة التاسعة فانها تسير على نفس النهج وفيها نرى مجلساً من مجالس السمر يحضره ( الشكري ) فاذا بجماعة يحاولون العبث به واظهار بخله وشؤمه لما رأوا ميله للمغنية فأوصوها بان تطلب خاتماً كان في يده وينتهي المجلس ولا تظفر منه بشيء .

تعليق وخاتمة :

مما تقدم نستطيع ان نجمل الآراء الآتية في مقامات ابن نايقا :

١ - الاختلاف الاساسي بين ابن نايقا وبديع الزمان يتركز في ان ابن نايقا لم يحفل كثيراً بالمضمون الشامل لمقاماته فقد وضع هدفاً منذ البداية استغرقه في الصنعة اللفظية ولم يحفل بتصوير القيم الانسانية والفكرية العالية فجاءت مقاماته مجرد مفارقات طريفة قام بها بطله الشكري والمقامة الوحيدة التي حاول ان ينطق فيها الشكري بمدلولات

فكرية كان البطل فيها سكران مما لا يجوز اخذ كلامه مأخذ الجد .

٢ - لم يحتل البطل موضع العطف من قلب ابن نايقا كما احتل ابو الفتح الاسكندري موضع العطف من قلب بديع الزمان فقد رأينا ابن نايقا في المقامة الثامنة يجرّد بطله من صفات البطل المقامي الاساسية وهي الظرف والذكاء ورأيناه في المقامة الثالثة يظهره ملحاً ثقيلاً .

٣ - أما من ناحية البناء الفني فان مقامات ابن نايقا لا تختلف كثيراً عن مقامات الهمذاني الا من جانب واحد هو تعدد الرواة . فلقد وجدنا لكل مقامة راوياً منفصلاً فيما ظل الشكري بطلاً لسائر المقامات . ولقد جهد ابن نايقا في اعمال عقله في الصنعة اللفظية فغاص في المفردات الوعرة ولكن مقاماته لم تبلغ في طلاوتها مبلغ المقامات الهمذانية .



## ٢ - مقامات الحريري

تهجد :

نقف الآن أمام أعظم الآثار المقامية بعد مقامات بديع الزمان الهمداني ، تلك هي مقامات الحريري . لقد كسبت هذه المقامات شهرة واسعة طغت بها على مقامات الهمداني نفسه بل وأصبحت نقطة انطلاق لسيل عرم من الفن المقامي حاول كل كاتب فيه أن يبلغ شاو الحريري أو يتروسم خطاه ؛ فما أن كتب الحريري مقاماته حتى عكف الأدباء على روايتها وتعليمها في بلاد المشرق والمغرب . وقد روى الشريشي عددا من العلماء تلقى عنهم هذه المقامات وأشهرهم <sup>١٢</sup> الشيخ النقيع المقرئ أبو بكر بن أزهر الحجري وصهره أبو القاسم بن عبد ربه القيسي المعروف بابن جهور وقد حدث بها أيضا أبو بكر بن مالك عن ابن جهور وعن الشيخ أبي الحجاج الأزدي القضاعي كما حدث بها أبو الحسين بن جبير والأستاذ أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود الحشني .

وقد ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون ثبنا عظميا للعلماء الذين قاموا بشرح مقامات الحريري يدل على عظم تداول هذه المقامات وانتشار استخدامها بفرض (التعليق) أو المذاكرة ولعل أشهر الشروح التي نعرفها لهذه المقامات شرح الفنجديني نسبة إلى قرية فنجدية من أعمال خراسان وهو الشيخ الحافظ أبو سعيد محمد بن عبد الرحمن بن محمد السعودي ثم شرح ابن ظفر فشرح أبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي المتوفى سنة ٦٢٠ هـ . وهو الشرح الذي يتداوله الدارسون بصورة واسعة وهو أحسن الشروح في نظرهم لأن الشريشي قيد نفسه بالأخذ عن العلماء بسند متصل عن الحريري كما عكف على دراسة الشروح المختلفة لهذه المقامات وأضاف إليها .

يقول <sup>١٣</sup> في مقدمة شرحه :

« قسم من ذلك مجموع جامع وموضوع بارع أودعته من اللغات أصحها وأوضحها واسلسلها قيادة للفظه واسمحتها وأولاها بالصواب في مظان الاختلاف وأرجحها ونسبت المشكل منها إلى قائله من جهابذة العلماء وجمعت بين مشهور اللغات ومشهور الأسماء

وسبكت العبارة عن المعاني سبكا يدل على الالتقاء والاصغاء وهذا الفضل وإن سبقتني من تقدمني من الشارحين قبلي فلي فيه مزية إيراد اللفظ البعيد عن الاشكال والمطابقة بين الأقوال وأرباب الأقوال ثم زدت في هذا التأليف التعريف بالامصار المذكورة في المقامات . . ثم استوفيت أيضا ذكر من وقع فيه من الرجال والنساء . . ثم زدت فيه فصلين مفيدين لم أر من اعتنى بهما ولا من قصد قصدهما سوى أبي سعيد الفنجديني في بعض المواضع فانه الملع والمورد اليسير فما شفى ولا اقنع أحدهما تبين ما أخذ الحريري من الكلام واخراج الاحالات المودعة فيه من حيز الابهام والرد على المنشأ في آية أو أثر أو خطبة أو خبر أو حكمة فائقة أو لفظة رائعة أو بيت نادر أو مثل سائر وهذا تتميم بين وتكميل متعين والفصل الثاني التنبيه على صناعة البديع وتوقية أسماؤه كالتجنيس والتتميم والترصيع . . الخ » .

وعلى الرغم من أن مقامات الحريري قد أهملت إلى حد كبير مقامات الهمداني بل وأصبحت النموذج الذي يحتذى فما بعد فان ذلك لا يصرفنا عن الأهمية التاريخية والفنية لمقامات الهمداني وذلك أن الهمداني قام بدور الفنان المبدع الذي وضع أصول الصنعة ومنحها وجودها الدرامي من حيث الصباغة وتكوين الشخصيات وهذا أصعب ما في عملية الابداع ؛ وهو الذي جعلنا نستكشف الجوانب النفسية والبيئية والفنية التي مرت ببديع الزمان لتري كيف صاغ منها هذا الفنان المبدع نموذجة الفني . أما الحريري وإن جود أسلوب (الصنعة) واتقنه بل وتفوق فيه على بديع الزمان فهو لم يعان الأزمات النفسية التي عاناها بديع الزمان وكل ما فعله هو تقليد الصناعة الدرامية لبديع الزمان وكان لديه متسع من الوقت كي يحكم صنعته ويتقنها بل لربما كان له أيضا قدرة تفوق قدرة بديع الزمان في الصناعة وهو وإن تفوق على بديع الزمان في هذه الناحية فقد قصر عنه في نزعة الابتكار .

ولقد وقعت الأستاذة زكية عوض ساتي في خطأ منهجي عندما بحثت عن العوامل النفسية والاجتماعية التي حركت الحريري لكتابة مقاماته وتصوير شخصيته السروجي والحارث بن همام فعلى الرغم من أن نموذج السروجي وأفعاله التي تمثلت في مقاماته ذات أصول واقعية في المجتمع العباسي فإن الحريري لم يأخذها مباشرة من واقع ذلك المجتمع بل استعملها مباشرة من المقامات الهمدانية كما سنرى ذلك في حينه . وقد اعترف الحريري في مقدمة مقاماته بذلك حيث قال <sup>١٤</sup> :

<sup>١٤</sup> - مقامات الحريري شرح الشريشي ط عبد الحفي ص ١٤ .

<sup>١٢</sup> - مقامات الحريري شرح الشريشي ط عبد الحفي ص ٦ .

<sup>١٣</sup> - مقامات الحريري شرح الشريشي ط عبد الحفي ص ٧ .

« وبعد فانه قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركبت في هذا العصر ربحه وخبت مصايحه ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان وعلامة همدان . . فأشار من اشارته محكم وطاعته غنم الى أن انشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع وان لم يدرك الظالع شاو الضليع . . هذا مع اعترافي بان البديع رحمه الله سباق غايات وصاحب ايات وان المتصدي بعده لانشاء مقامة ولو أوتي بلاغة قدامة لا يغترف إلا من فضالته ولا يسري ذلك المسرى إلا بدلالته » .

ففي هذا النص اعتراف صريح بالنظر في مقامات الهمداني وسنلمح أثرها واضحا في الصياغة الدرامية عند الحريري ومع ذلك لا يسعنا الا أن نعترف بأن الحريري كان متواضعا جدا حين زعم أنه قد قصر عن شاو الهمداني في الصياغة لأن الحريري قد بذل بالفعل - الهمداني في صناعته وذلك من حيث أحكام الربط الدرامي ومن حيث استخدام الأساليب البلاغية السائدة في ذلك العصر ، ولعل شهرة المقامات الحريرية ترجع الى هذين العاملين الأخيرين . فقد وجد المعلمون في موضوعاتها غناء عن الموضوعات التي تناولها الهمداني كما وجدوا في متانتها أسلوبها وصياغتها نماذج عالية لتعليم الأساليب اللغوية . ومن ثم فقد تداولها العلماء بالرواية والشرح وتداولها الطلاب بالحفظ والفهم فتناقلتها الأيدي وبلغت شهرتها كل مكان في المشرق والمغرب وبذلك فقد أغنت الناس عن النظر في مقامات الهمداني وأصبحت مطمحا للعلماء في كل العصور ينسجون على منوالها ويقلدون طريقتها .

مقدمة

فلنبدا بالنظر في أمر هذه المقامات حتى نستجلي منها ما ذكرناه

محمد بن عثمان الحريري

### مؤلف المقامات :

ذكر ياقوت<sup>١٥</sup> انه ابن الحريري أبو محمد البصري وذكر ابن خلكان أنه أبو محمد القاسم ابن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري الحرامي ؛ من أهل قرية قريبة من البصرة تسمى « المشان » كان مولده سنة ست وأربعين وأربعمائة وكانت وفاته سنة ست عشرة وخمسةائة عن عمر يناهز السبعين عاما .

١٥ - معجم الأدباء ١٦ / ٢٦١ .

قال ياقوت<sup>١٦</sup> :

« وكان غاية في الذكاء والفطنة والفصاحة والبلاغة وله تصانيف تشهد بفضله وتقر بنبيله وكفاه شاهدا كتاب المقامات التي أبر بها على الأوائل وأعجز الأواخر وكان مع هذا الفضل قدرا في نفسه وفي صورته ولبسه وهيبته قصيرا دميما بخيلا مبتلى ينتف لحيته .  
وأما أشهر تأليفه<sup>١٧</sup> كتاب درة الغواص في أوهام الخواص وكتاب ملحمة الاعراب وهي أرجوزة في النحو وكتاب شرح ملحمة الاعراب ثم كتاب رسائله المدونة وكتاب أشعاره .  
وأشهر كتبه على الإطلاق هو كتاب . . المقامات الذي أشار اليه ياقوت أنفا .

لقد ذكر ياقوت<sup>١٨</sup> أن الحريري قال :

« لقد وافق كتاب المقامات من السعد ما لم يوافق مثله كتاب ألفته فانه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة واتسعت له الالفاظ وانقادت له نور البراعة حتى أخذ بازمتها وملك ربقته . يقول ياقوت : فاختار ألفاظها وأحسن نسقها حتى لو ادعى بها الاعجاز لما وجد من يدفع في صدره ولا يرد قوله ولا يأتي بما يقار بها فضلا عن أن يأتي بمثلها ثم رزقت مع ذلك من الشهرة وبعد الصيت والاتفاق على استحسانها من الموافق والمخالف ما استحقت وأكثر » .

### كتاب المقامات

أ - صحة نسبته اليه :

يروى ابن خلكان<sup>١٩</sup> ان الحريري بعد أن أتم عمل المقامات حملها من البصرة الى بغداد فوجد فيها من أنكرها عليه وفي مقدمة هؤلاء أبو القاسم علي بن أفلح الشاعر فقد زعم هو وجماعة له انها من عمل رجل مغربي من أهل البلاغة مات في البصرة ووقعت أوراقه في يد الحريري فادعاها لنفسه ؛ فلما سمع به الوزير استدعاه الى الديوان وسأله عن صناعته فقال انه منشئ فاقترح عليه كتابة رسالة في واقعة عينها فلم يفتح الله عليه بشيء فانصرف

١٦ - نفسه ص ٢٦٢ .

١٧ - معجم الأدباء ١٦ / ٢٧١ .

١٨ - نفسه ص ٢٦٧ .

١٩ - مقامات الحريري ٢ / ٢٥١ .

وهو خجلان فانشد أبو القاسم المذكور في أثر ذلك هذين البيتين لاين جكيتما الحريري  
البغدادي :

شيخ لنا من ربيعة الفرس ينتف عشونه من الهوس  
أنطقه الله بالمشان كما رمناه وسط الديوان بالخرس

ويروي هذه الحادثة ياقوت الحموي على نحو آخر اذ يقول انه لما صنع الحريري المقامة  
الحرامية<sup>٢٠</sup> اصعد الى بغداد فدخل دار السلطان وهو منقص بأهل البلاغة والبراعة فسأله  
بعضهم عما يجيده من ألوان الكتابة حتى يباحثه فيه فقال : « كل ما يتعلق بهذا وأشار الى  
القلم » فاستكثر منه ذلك فقال : امتحوا تختبروا فسألوه في ألوان الأدب واللغة والعلم  
فأجاب باتم خطاب حتى بهرهم فسمع بأمره الوزير أنو شروان بن خالد فاستدعاه اليه  
وتباحث معه فلما انتهى الحديث الى ذكر المقامة الحرامية استحسناها أنو شروان وطلب منه  
أن يتبعها بأخرى فحكف في البصرة الى أن صنع على غرارها أربعين مقامة ثم أصعد الى  
بغداد مرة أخرى وعرضها على أنو شروان فاستحسناها ووجد في بغداد من أنكر عليه  
صناعتها وزعم أنها لرجل مغربي استضاف به ومات عنده وقال آخرون انه اشترى جرابا  
لأحد المغاربة باعه بعض العرب في البصرة فوجدها في داخله ، وتخدوه بأن يكتب مثلها  
فجلس في منزله في بغداد أربعين يوما فلم يتهأ له أن يكتب مثلها فرجع الى البصرة ففتح  
الله عليه بعشر مقامات اخر أثبت بها فضله وعلم الناس انها من عمله .

والاختلاف واضح بين هذا الخبر ورواية ابن خلكان فقد زعم ابن خلكان أن الحريري  
أصعد بمقاماته الى بغداد فانكرها عليه الناس وحين سمع به أنو شروان استدعاه الى مجلسه  
وطلب منه أن يكتب في موضوع معين فلم يستطع .

وتقول رواية الحموي انه أصعد الى بغداد مرتين المرة الأولى ناظر فيها العلماء وتم له  
اللقاء مع أنو شروان فعرض عليه المقامة الحرامية وطلب منه أنو شروان أن يكتب مثلها لا  
بغرض التحدي بل لانه استحسناها وحين كتب مثلها حدث الانكار من الأدباء .

ولا يستغرب الانكار بعد أن عرف الأدباء من فضل الحريري ما عرفوا ولا يستغرب أيضا  
الانكار لانه تعرف على الوزير أنو شروان وسعى للعمل في الديوان وهذا وحده كفيلا بأن

٢٠ - ترجمة الحريري - معجم الأدباء ج ١٦ .

يخيف من يقلبون عنه شأننا فيحاولوا بكل الوسائل التقليل من قدره بالصاق التهم  
والتشكيك في بلاغته .

لقد ذكر ابن خلكان حادثة الشك ولكنه لم يذهب الى ما ذهب اليه ياقوت من القاء  
الضوء على أسبابها وهو الحسد . أما الزعم بأن هذه المقامات لرجل مغربي فأمر لانكاد ننق  
فيه لانه ليس من الجائز أن يكون في المغرب رجل بلغ هذه القدرة من التعبير الأدبي وظل  
مغمورا لا يكاد يعرفه أحد . ثم ان المقامات الحريرية لاقت حظوة في بلاد المغرب بشكل  
عجيب وشرحها أكثر من شارح مغربي ولم نجد من بينهم شارحا واحدا أثبت ان هذه  
المقامات من صنع كاتب مغربي .

وما يباعد الشك لدينا أن هذه المقامات تختلف في طريقة بنائها عن المقامات المغربية  
التي وصلت إلينا ، فمعظم المقامات المغربية لم تحافظ على الشكل الدرامي الذي وضعه  
بديع الزمان ولم تلتزم شخصية البطل والرواية وكانت مجرد أحاديث أو مقالات أدبية في  
النقد أو في الوصف أو في المشاهدات والكاتب الوحيد الذي التزم بالشكل البديعي هو  
السرقسطي وقد اعترف اعترافا ضريحا بانه قلده أسلوب الحريري ولم يكن تقليد المشاركة  
بالمستغرب في ذلك الوقت .

ولعل مما يقوي حجتنا في نسبة هذه المقامات للحريري أننا لا نجد من الكتاب من أنكر  
عليه نسبة كتبه الاخرى وهذا كفيلا بتأكيد علو مرتبته في البلاغة والبيان .

ولكننا مع ذلك لا نود أن نترك هذه القضية دون أن نتساءل من أين جاء الشك أصلا في  
قدرة الحريري ؟ نعمتقد بأن الحريري كان هدفًا لحسد الحساد من الكتاب في الديوان .

وعليه فقد كانوا لا يتركون مناسبة تثبت عجزه الا وأظهروها بل وجسموها وزادوا  
عليها . فقد روى لنا ابن الأثير خيرا على جانب كبير من الأهمية في هذا الأمر اذ قال :

« هذا ابن الحريري صاحب المقامات قد كان على ما ظهر عنه من تنميق العبارات واحدا  
في فنه فلما حضر ببغداد ووقف على مقاماته قيل هذا يستصلح لكتابة الانشاء في ديوان  
الخلافة ويحسن أثره فيه فاحضر وكلف كتابة كتاب فافحم ولم يجر لسانه في طويلة ولا  
قصيرة فقال فيه بعضهم :

شيخ لنا من ربيعة الفرس ينتف عشونه من الهوس  
أنطقه الله بالمشان وقد الجسمه في بغداد بالخرس

وهذا مما يعجب منه وسألت عن ذلك فقلت لا عجب لان المقامات مدارها حكاية تخرج الى مخلص اما المكاتبات فانها بحر لا ساحل له لان المعاني تتجدد فيها بتجدد حوادث الأيام » .

هذا الخبر يكشف لنا حقيقة الأمر كله اذ من الجائز ان ابن الحريري قد عين في الديوان فلم يظهر براعة كتلك التي أظهرها في كتابة المقامات فكان ذلك سبب الشك .

ولكن الاعتذار له لا يكون بأن المقامة حكاية يخرج منها الى مخلص فهذا الاعتذار يهون من أمر المقامة لأن المقامة صناعة لا تقل في شرف أسلوبها عن الأسلوب المستخدم في كتابة الرسائل ان لم تفقه ؛ وصاحبها قد يبذل من الجهد ما يفوق المترسل العادي . فالاعتذار اذا يأتي من أن كاتب المقامة رجل فنان يحتاج قدرا كبيرا من الوقت حتى يتخير موضوعها ثم يقوم بصناعة ما يتخيره صناعة درامية في تودة وأناة وليس من الضروري أن يكون صاحب هذه القدرة سريعا في غير هذا اللون من كتابة الانشاء . والمتأمل في صناعة المقامة الحريرية يدرك أنها ليست مما يأتي عفوا الخاطر كما يحدث في المكاتبات الديوانية فهي ذات أسلوب خاص لا بد فيه من التأني سواء كان ذلك في اختيار الموضوع أو في صنع العبارات والانشاء وهذا الذي أكسبها مكانتها التي فاقت بها سائر أنماط الانشاء المعروفة حتى اننا لا نعرف كتابا نال من الاستحسان والدراسة ما ناله كتاب المقامات غير الكتاب المقدس ويتضح ذلك من الشروح الكثيرة التي ذكرها حاجي خليفة لهذا الكتاب . فلا غرابة اذا ان تصبح التودة هي الطريقة التي أخذ بها الحريري نفسه في كتابة المقامات حتى غدت عادة عنده أو لعلها هي عادته التي جبل عليها لا يوافق الكتابة الديوانية - التي تحتاج لسرعة الخاطر والبديهة - فلعل الحساد قد استغلوا ناحية التأني في شخصية الحريري وصوروها على أنها عجز في قدرته ومما يؤكد دقة الحريري وأناته هذا الخبر الذي ذكره ياقوت قال ٢١ :

« قرأت بخط صديقنا الكمال عمر بن أبي بكر الدباس رحمه الله حدثني علي بن جابر بن هبة الله بن علي حاكم ساقية سليمان قال حدثني والدي جابر بن هبة الله أنه قرأ على القاسم ابن علي الحريري المقامات في شهور سنة أربع عشرة وخمسةائة قال وكنت أظن أن قوله :  
يا اهل ذا المغنى وقيتم شرا ولا لقيتم ما بقيتم صرا  
قد دفع الليل الذي اكفهر الى ذراكم شعشا مغبرا »

٢١ - معجم الأدباء ١٦ / ٢٩٩ .

انه سغبا معترا فقرات كما ظننت سغبا معترا ففكر ساعة ثم قال لقد أجدت في التصحيح فانه أجود فرب شعث مغبر غير محتاج والسغب المعتر موضع الحاجة ولولا أنني كتبت خطي الى هذا اليوم على سبعةائة نسخة قرئت علي لغيرت الشعث بالسغب والمغبر بالمعتر » .

هكذا كان الحريري يفاضل ويداول .

والمفاضلة والنظر صفتان ملازمتان لمن ينهج أسلوب الحريري في الصنعة اللغوية وهما صفتان لا تتوافقان مع الاسراع اللازم في الكتابة الديوانية - ومن هنا نال الحساد الحريري وتشككوا في مقاماته .

### سبب تأليف المقامات :

روى ابن خلكان ٢٢ ان أبا القاسم عبد الله ولد الحريري ذكر أن أباه كان جالسا في مسجد بني حرام فدخل عليه رجل رث الثياب عليه أهبة السفر وكان فصيحاً بليغاً فسأله الناس عن بلدته فقال انه من سروج وكنيته أبو زيد فأوحى ذلك للحريري كتابة مقامته الحرامية وجعل لها بطلا هو أبو زيد السروجي فلما اطلع عليها الوزير شرف الدين أبو نصر أنوشروان وزير الامام المسترشد أعجب بها وطلب من الحريري أن يضم اليها اخوات لها فكتب خمسين مقامة أخرى والوزير أنوشروان هو الذي أشار اليه الحريري في خطبة الكتاب بقوله : ( فأشار من اشارته حكم وطاعته غنم الى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع وان لم يدرك الظالع شاو الضليع ) ٢٣ .

وقد روى ياقوت ٢٤ خبرا شبيها بهذا غير أنه أضاف ان جماعة من فضلاء البصرة اجتمعوا عند الحريري فحكى لهم ما شاهد من أمر السائل وما سمع من لطافة عبارته في تحصيل مراده وظرافة اشارته في تسهيل ايراده فحكى كل واحد من جلسائه انه شاهد من هذا السائل في مسجده مثل ما شاهدت وأنه سمع منه في معنى آخر فصلا أحسن مما سمعت وكان يغير في كل مسجد زيه وشكله ويظهر في فنون الحيلة فضله فتعجبوا من جريانه في

٢٢ - مقامات الحريري ٢ / ٢٥ .

٢٣ - معجم الأدباء ١٦ / ٢٩٣ .

٢٤ - قال ابن خلكان انه رأى في بعض شهور سنة ست وثمانين وسبعمائة بالقاهرة نسخة من المقامات بخط الحريري ذكر أنه ألفها لعبيد الدولة أبي الحسن علي بن أبي العز علي بن صفقة وزير المسترشد ورجح هذا لانه بخط المؤلف .

ميدانه وتصرفه في تلونه واحسانه فانشات المقامة الحرامية ثم بنيت عليها سائر المقامات وكانت أول شيء صنعته .

وقد زاد ابن الجوزي في تاريخه على هذه الحكاية ان الحريري عرض المقامة على النوشروان بن خالد فاستحسنها وطلب منه أن يضيف إليها .

وكما نرى فان الروايات الثلاث تظهر الحريري وكأنه ابداع شخصية السروجي أو أنه مبتكر فن جديد نال الاستحسان فاضاف اليه والحقيقة غير ذلك لان المقامة الحريرية - في تكوينها وفي أغراضها - صورة طبق الأصل للمقامة الهمدانية . ذلك أن المقامة الحريرية قصة تعبر عن موقف من مواقف البطل المكدي أبي زيد السروجي يرويها راو هو الحارث ابن همام . وهكذا كانت المقامة الهمدانية قصة لموقف من مواقف البطل المكدي أبي الفتح الاسكندري يرويها عيسى بن هشام . وتشابه المواقف عند الحريري والهمداني الى حد كبير والتفاوت يأتي في درجة احكام الصنعة عند كل منهما . وقد اعترف الحريري في خطبة مقاماته انه قد نظر في مقامات الهمداني قبل كتابة مقاماته وقد أشرنا الى ذلك في موضع سابق .

وعليه فمن الجائز أن نقول ان هذا المشهد الذي مر بالحريري في مسجد بني حرام قد ألهمه ان يكتب نموذجاً يقلد فيه الهمداني أما أن نقبل الخبر بالصورة التي وردت في الروايتين فانه يعني ان الحريري قد ابتدع شخصيته الفنية ابتداءً من هذا المشهد وهذا قول لا يتوافق مع الحقيقة التي نعرفها .

## موضوعات الحريري

### ١ - الكدية :

رأينا من قبل ان الكدية هي الصفة الرئيسة الملازمة للبطل في مقامات الهمداني وهذا هو الحال في مقامات الحريري ، غير أننا نلاحظ أن الكدية عند الهمداني كانت تشكل قمة المأساة بالنسبة لبطله أما الحريري فلانه كان يقلد بطل الهمداني فالكدية عنده هي المرأة التي يعكس بها ظرف بطله وحنكته بل ودهاءه ومع ذلك فقد كانت أساليب السروجي في الكدية شبيهة بأساليب الاسكندري في تحقيق مآربه فهو اما ان يدعي بأن الحال قد تغير به مع كثرة العيال وإما ان يتخير حيلة يحتال بها على جمع من الناس وفي كل ذلك سرعان ما

يكشف أمره الراوي الحارث بن همام تماماً كما كان يفعل عيسى بن هشام مع بطله أبي الفتح الاسكندري .

ومن نماذج هذه الحيل ما نراه في المقامة المكية فقد هجم فيها السروجي وابنه على جماعة من الحجاج فسأله الحجاج عن كربه فادعى الفاقة وضيق ذات اليد بسبب الأدب .

يقول :

ولو	خبرتم	حسبي	ونسبي	ومذهبي
وما	حوت	معرفتي	من	العلوم
لما	اعتزتك	شبهة	في	دائي
فليت	انسي	لم	أرضعت	ثدي
فقد	دهانسي	شؤمه	دعقني	فيه

أما ابنه فقد ادعى أن سبب كربه هو الجوع وأنشد قصيدة طويلة قال فيها :

أريد	منكم	شواء	وجردقا	وعصيدة
فان	غلا	فرقاق	به	تواري
ار	لم يكن	ذا	ولا	فاشعة
			من	ثريدة

يقول الحارث بن همام :

فلما رأينا الشبل يشبه الأسد أرحلنا الوالد وزودنا الولد وهكذا فقد انطلق هذا الموقف على هذه الجماعة . وهو في الواقع لا يعدو أن يكون موقفاً من سلسلة المواقف التي يهيئها السروجي طبعاً في نيل العطاء والافادة مما عند الآخرين . ومواقف الكدية كثيرة عند السروجي وفي جميعها يتبع السروجي ألواناً من الحيل شبيهة بتلك التي كان يستعملها الاسكندري .

كذلك فقد كان للسروجي موقف محدد من الأدب شبيه بموقف الاسكندري اذ الأدب في نظره بضاعة كاسدة وهي التي أدت به وبأمثاله الى الفاقة والعسر . انه نفس المنطلق الذي انطلق منه الهمداني وصاغ فيه بطله . ففي المقامة التاسعة الاسكندرية تقف زوجة السروجي أمام قاضي الاسكندرية - وقد أحضر مال الصدقات - لتدعي أن زوجها السروجي قد خدع والدها حين زعم أن له صناعة يكسب منها ذهباً - وهي صناعة الأدب -

فتزوجها بذلك ولكنها لم تجد عنده بعد ذلك سوى البؤس والكساد والتعطيل وهو لا يصرف الا من ماله أو مال المجموع فلما استوضحه القاضي أساس مشكلته انشد قصيدة طويلة جاء فيها<sup>٢٦</sup> :

وكنيت من قبل امتري نشيا	بالأدب المقتنى واحتلب
ويعتطي اخصى لمرمته	مراتبنا ليس فوقها رتب
وطالما زفت الصلات الى	ربعي فلم أرض كل من يهب
فاليوم من يعلق الرجاء به	اكسد شيء في سوقه الأدب
لا عرض ابنائه يصاب	ولا يرقب فيهم ال ولا نسب

فقال القاضي على الاثر :

« اما انه قد ثبت عند جميع الحكام وولاية الأحكام انقراض جيل الكرام وميل الأيام الى اللئام » .

وعلى الرغم من أن الموقف كله لا يعدو أن يكون حيلة من حيل السروجي على غرار الحيل الاسكندرية فهو يعكس الرأي الذي يبدو أنه كان شائعا عند أهل القرن الرابع والخامس من أن الأدب والأدب كليهما كانا في حالة ضياع ونكران .

### الألغاز :

وكما استخدم المحدثاني الألغاز في مقاماته فقد استخدمها الحريري أيضا ، ففي المقامة الثامنة المجرية<sup>٢٧</sup> يختصم اثنان الى قاضي المعرة فيدعي أحدهما وهو السروجي انه كانت له جارية « رشيقة القد أسيلة الخد صبور على الكد تحب احبانا كالفهد وترقد أطوارا في المهد وتجد في نوم من البرد ذات عقل وعنان وجد وسنان وكف بينان وفم بلا أسنان تلدغ بلسان نضناض وترفل في ذيل فضفاض وتجلى في سواد وبياض . الخ » فادعى ان الخصم - وهو ولده - استعارها منه فأعادها وقد افضاها وبذل عنها قيمة لا يرضاها ، فلما سئل الولد عن حقيقته قال : وأما الافضاء ففرط عن خطأ » .

المقامات المجرية

فيحار القاضي في أمرها فيطلب منها الافصاح عما يكنيان به فاذا الجارية ابرة أعارها السروجي لغلामه قال الغلام :

أعارني ابرة لارنو اطيارا عفاها البلي وسودها  
فانخرمت في يدي على خطا مني لما جذبت مقودها  
فاعجب القاضي بفصاحتها وانالها من عطائه وهكذا كان اللغز بغرض اظهار البراعة املا في الغطاء .

كذلك فقد يستخدم الحريري الألغاز بغرض التعليم كما في المقامة الفرضية<sup>٢٨</sup> وفيها يلتقي السروجي برجل يتحسر على ضيعة العلم فيسأله عن خطبه فيقول ان له رقعة لم يجد من الناس من يعرف سرها وحين يستظهرها السروجي يجد مكتوبا فيها :

ق ذكاء فماله من شبه	انها العالم الفقيه الذي فا
كل قاض وحرار كل فقيه	افتنا في قضية حار عنها
حر تقي من أمه وأبيه	رجل مات عن أخ مسلم
أخ خالص بلا تمويه	ولته زوجة لها ايا الخبر
ما تبقى بالارث دون أخيه	فحوت فرضها وحاز أخوها
فهو نص لا خلف يوجد فيه	فانشفنا بالجواب عما سألنا

فيطلب منه السروجي أن يكرم مثواه حتى يسمعه فتواه فيفعل الرجل فينشد السروجي حل هذا اللغز في ابياته التالية :

كاشف سرها الذي تحفه	قل لمن يلغز المسائل اني
ع اخا عرسه على ابن ابيه	ان ذا الميت الذي قدم الشر
بحياة له ولا غرو فيه	رجل زوج ابنه عن رضاه
فجاءت بابن يسر ذويه	ثم مات ابنه وقد علقست منه
واخو عرسه بلا تمويه	فهو ابن ابنه بغير مرء
الى الجسد وأولى بارثه من أخيه	وابن الابن الصحيح ادنى

وهكذا يبلو الغرض التعليمي في هذه المقامة واضحا اذ ان المؤلف قد قصد تعليم بعض أصول الشرع في اطار من الملاحاة البلاغية .

الاحاجي:

وكما استخدم الحريري الالغاز استخدم أيضاً ضرباً آخر منها يعرف بالاحاجي وغرضه التسلية والتعليم فقد حضر السروجي في المقامة المملطية<sup>٢٩</sup> مجلساً لجماعة من الناس يحتاجون فلماً نضب معينهم قال لهم :  
« اعدوا يا ذوي الشبائل الأدبية والشمول الذهبية أن وضع الاحجية لامتحان الالمية واستخراج الحية الخفية وشرطها ان تكون ذات مماثلة حقيقية وألفاظ معنوية ولطيفة أدبية . . ولم أركم حافظتم على هذه الحدود » فاعترف له الجمع وطلبوا منه أن يكيل لهم من عبابه فقابل القوم وقال لأولهم :

يا	من	سما	بذكاء	في	الفضل	واري	الزفاد
ماذا	يمائل	قولي	جوع	أمد	بزاد		

ثم ضحك الى الثاني وأشد :

يا	ذا	السدي	فاق	فضلا	ولسم	يدنسه	شين
ما	مثل	قول	المحاجي	ظها	اصابته	عين	

وهكذا دواليك حتى فرغ منهم جميعاً ثم شرع يفسر ما عناه فقال استحسان القوم بعد أن سلاهم وعلمهم . وهكذا يفعل في مقامته النجرائية<sup>٣٠</sup> حيث يلغز أمام جماعة من الناس في مروحة الخيش وحابل النخل والقلم وهلمجراً .  
فقد قال في القلم :

ومأموم	به	عرف	الامام	كما	باهت	بصحبته	الكرام
له	اذ	يرتوي	طيشان	صاد	ويسكن	حين	يعسره
ويذري	حين	يستسقي	دموعاً	يرقن	كما	يروق	الابتسام

ومثل هذا نجده في المقامة الشتوية . وبصفة عامة فان الالغاز والاحاجي استخدمت في المقامات الحريية على نفس النحو الذي استخدمت به في المقامات الهمدانية وذلك بغرض التسلية والتعليم .

٢٩ - مقامات الحريري ٣/٢١٧ .

٣٠ - مقامات الحريري ٤/١١٨ .

البلاغة:

كان بديع الزمان مثلاً لجيل جديد من الكتاب هو جيل المحدثين اولئك الذين آثروا الصنعة والتصنع في سائر كتاباتهم ولكأن هذا الاسلوب غدا اسلوب العصر في القرن الرابع والخامس وما تلاهما . ولقد مر بنا الهمداني ينتقد في مقاماته الطريقة الجاحظية لخلوها من الصنعة المتكلفة . ولم يكن الحريري بكل تأكيد غير منتم لهذا الجيل فقد جعل من مقامته النموذج الاعلى الذي يحتذى في هذا الباب بل واحكم اسلوب صنعته بصورة جعلته نسيج وحده وفريداً لا مساوى له . ففي المقامة المرامية<sup>٣١</sup> نرى السروجي يتعنى على جماعة من القوم اسرافهم في تفضيل القدماء على المحدثين فقد ذكروا « انه لم يبق من ينقح الانشاء ويتصرف فيه كيف يشاء ولا خلف بعد السلف من يبتدع رسالة عذراء وان المغلق من كتاب هذا الاوان المتمكن من ازمة البيان كالعيال على الاوائل » .

فتصدى لهم حيثذ بقوله « لقد جئتم شيئاً اداً وجرتم عن القصد جداً وعظمت العظام الرفات وافنتم في الميل الى من فات وغمصتم جيلكم الذين فيهم لكم اللدات » .  
ثم عطف بعد ذلك ليري ما تفوق به المحدثون على القدماء تماماً كما فعل الهمداني في نقده للطريقة الجاحظية .

نراه يقول : « انسيتم . . . ما ابرزته طوارف القرائح وبرز فيه الجذع على القارج من العبارات المهذبة والاستعارات المستعذبة والرسائل الموشحة والاساجيع المستملحة وهل للقدماء اذا انعم النظر من حضر غير المعاني المطروقة الموارد المعقولة الشوارد » .

فاستكثر الناس منه ذلك لاسيما انه ادعى امامهم انه يستطيع ان يجاري القدماء بل ويتفوق عليهم كذلك ، فطلب منه احدهم ان يكتب له رسالة الى الوالي احدى كلمتيها يعمها النقط وحروف الاخرى لم يعجمن قط وكان الوالي قد طلب منه ذلك لقضاء حاجته فانبرى السروجي واملاه رسالته التي يقول فيها : « الكرم ثبت الله جيش سعودك يزين واللؤم عض الدهر جفن حسودك يشين والاروع يثيب والمعور يخيب » .

وهكذا فقد ضمن السروجي القطعة ما اراده منه الرجل فنال بذلك استحسان الناس والوالي. والرسالة على هذا النحو ضرب من الشعوذة المبالغ فيها وتلك سمة اهتم بها

٣١ - مقامات الحريري ١/١١٠ .



الحريري في كتابة مقاماته ولم نعرف ان بديع الزمان قد جنح الى هذا الضرب من التكلف :

ولقد رأينا السروجي في المقامة الرقطاء<sup>٣٢</sup> يكتب رسالة شبيهة بهذه فقد بلغ به الفقر مبلغاً عظيماً في طوس وطالبه الدائن بحقه فلم يجد بداً من كتابة رسالة رقطاء الى امير طوس ادرت عليه اخلاف الرزق ودفعت عنه الكيد وقد جاء فيها :

« اخلاق سيدنا تحب وبعقوته تلب وقربه تحف ونايه تلف وصلته نصب وقطيعته نصب وغربه ذلق وشبهه تأتلق وقويم نهجه بان وذهنه قلب وجرب ونعته شرق وغرب ».

ويتم هذا اللون من الوان الصنعة بخطبة غير منقوطة في المقامة السمرقندية<sup>٣٣</sup> وقد كان في موقف من مواقف الوعظ فقد قال فيها :

« الحمد لله الممدوح الاسماء المحمود الالاء الواسع العطاء المدعو لحسم اللاواء مالك الامم ومصور الرمم واهل السماح والكرم ومهلك عاد وارم وادرك كل سر علمه ووسع كل مصر حلمه . . . الخ ».

وعلى وجه العموم فان الحريري قد كان في بلاغته يسير على نهج المتحدثين الذين آثروا الصنعة واستخدام البديع ولكنه كان ذا طابع خاص في احكامه لصنعة وكفى ان مقاماته قد اخلت ما عداها من اساليب البيان واعتبرت نموذجاً عالياً في هذا الباب يدلنا عليه كثرة الشراح والدراسين لمتونها .

المقامات

الوعظ

الوعظ غرض اساسي ومهم في المقامات الحمداية<sup>٣٤</sup> كذلك في المقامات الحريرية فهو مجال يظهر فيه الكاتب حكمته الدنيوية التي لا تتجاوز ان هذه الدار دار فناء وغرور وان العمل الصالح هو الذي يتوجه به المخلوق الى الخالق ويرجو به ثواب الاخرة . غير اننا من خلال هذا الوعظ نتعرف على انماط مختلفة من الوعاظ فهناك الواعظ الذي لا يروم من وعظه سوى نيل العطاء الدنيوي وهنالك الفاسق الذي يخفي حقيقته في ثياب الوعظ وهنالك

٣٢ - مقامات الحريري ٤٣/٣ .

٣٣ - نفسه ٧٣/٣ .

الواعظ الذي لا يرجو بالفعل سوى ثواب الاخرة ، وقد قدم لنا الحريري انماطاً من هؤلاء جميعاً . ففي المقامة الصنعائية<sup>٣٥</sup> نلتقي بالسروجي في جمع من الناس وقد وقف يعظهم فيبلغ من التأثير مبلغه فيرفده كل بما يتيسر وحين ينصرف يتبعه الحارث الى ان يدخل مغارة فيتطلع اليه مستراً فيراه مع غلامه وقد وضع الطعام والخمر فيعنفه على فعلته هذه . فيقول السروجي :

لست الخميصة ابغي الخميصة  
وصيرت وعظي احولة  
والخاني احتيالي حتى ولجت  
وانشبت شصي في كل شيعة  
اربع القنيص بها والقنيصة  
بلطف احتيالي على الليث عيصه

وفي المقامة الساوية<sup>٣٦</sup> نلتقي بالسروجي وقد وقف في المقابر واعظاً الناس كي يتدبروا حالهم وليعملوا لمثل هذا اليوم فينال عطاء كثير ويكتشف الحارث امره كالعادة فيخاطبه بقوله : « بعداً لك يا شيخ النار وزاملة العار فما مثلك في طلاوة علانيتك ونجبت نيتك الا مثل روث مفضض او كنيف مبيض » .

واما في المقامة الرازية فيلتقي الحارث بالسروجي وقد وقف يعظ جماعة من الناس احتشدوا نحوه وبعد ان فرغ من موعظته استصرخ مستصرخ بالامير فلم يأنه له فالتفت اليه السروجي وقال :

عجساً لراج ان ينال ولاية  
حتى اذا ما نال بغيتنه بغى

ثم انشد قصيدة طويلة اتبعها بموعظة توجه بها الى الوالي حثه فيها على العدل والالتفات الى الرعية وهي تذكرنا بتلك الموعظ التي ضمنها ابن قتيبة عيون الاخبار وهي التي كان يقف بها الواعظ امام الخليفة .

ومن الموعظ التي اراد بها السروجي وجه الله تلك الموعظة التي ضمنها الحريري المقامة الرملية<sup>٣٧</sup> فقد اعترض السروجي جماعة من الناس وهم في طريقهم الى الحجاز فقال :

« يا معشر الحجاج الناسلين من الفجاج اتعقلون ما تواجهون والى من تتوجهون ام

٣٤ - مقامات الحريري ٢٧/١ .

٣٥ - مقامات الحريري ١١/١ .

٣٦ - نفسه ١٢٥/٣ .



تدرون على من تقدمون وعلام تقدمون اتخالون ان الحبح هو اختيار الرواجل وقطع المراحل واتخاذ المحامل . . . . . ام تظنون ان النسك هو نضو الادران وانضاء الابدان ومفارقة الولدان والثاني عن البلدان . . . واستمر على هذا النحو الى آخر مقامته فتعرف عليه الحارث فعانقه وطلب منه مزاملته ولكن السروجي رفض وذكر انه الى على نفسه الا يرافق احداً في رحلته هذه بل يحج راجلاً لا يبغي غير وجه الله .

### المقامات

### التعليم

وتلقني المقامات الحريرية مع المقامات الهمدانية ايضاً في غرض من اهم اغراضها وهو التعليم ويتبع الحريري عدة طرق في التعليم ففي مقامة القطيع<sup>٣٧</sup> نرى جماعة الناس وقد جلسوا يتسامرون فانشد مغنيهم :

فان وصلنا الذ به فوصل وان صرنا فصرم كالطلاق

فسأله الجمع لم نصب الوصل الاول ورفع الثاني فاقسم بترية ابويه انه نطق بما اختاره سيبويه فتشعبت الاراء حوله في تجويز النصب والرفع .

فانبرى السروجي بقوله :

« انه ليجوز رفع الوصلين ونصبهما والمغايرة في الاعراب بينهما وذلك بحسب اختلاف الاضمار وتقدير المحذوف في هذا المضمار فرغب بعض الجماعة في مجاراته ومنازلته فعندئذ اخذ في مساءلتهم على نفس النحو الذي كان يسائل فيه الجاحظ احمد بن عبد الوهاب في رسالة التربيع والتدوير من مثل قوله : « فما كلمة هي ان شئت حرف محبوب او اسم لما فيه حرف حلوب واي اسم ينزدد بين فرد حازم وجمع ملازم وأية هاء اذا التحقت اناطت الثقل واطلفت المعتقل . وهلمجرا . »

وفي النهاية بالطبع فانه يكشف عن معمياته بعد ان ينال من العطاء وهذه طريقة من طرق التعليم واما في المقامة الطيبية<sup>٣٨</sup> فانه يتبع طريقة فقيه العرب وهو الذي يجتمع حوله الناس يسألونه في مسائل شتى يجيب عليها بطلاقة ، من ذلك سأل احد الفتيان السروجي

وهو يلبس حلة فقيه العرب في هذه المقامة .

« ما تقول فيمن توضحاً ثم لمس ظهر نعله قال انتفض وضوءه بفعله ( النعل الزوجة ) قال فان توضحاً ثم انكأه البرد قال يجدد الضوء من بعد وهلمجرا . »

وفي المقامة الحلبية نرى السروجي في مشهد آخر وحوله جماعة من الصبيان يعلمهم وقد طلب منهم انشاد بعض الاشعار المتضمنة لشيء من الصنعة فانشد الطلاب تباعاً على النحو الذي اشتملت عليه بلاغته في مقاماته .

### الفرايب

### القيم الاجتماعية :

كذلك فقد اشتملت هذه المقامات الى جانب الاغراض السابقة على بعض القيم الاجتماعية العامة ؛ ففي المقامة الفرائية<sup>٣٩</sup> يتخذ السروجي مع جماعة من الناس مركباً على نهر الفرات فيزدرونه لريثائه حاله ثم تدور بينهم مناقشة في التفضيل بين الكتابتين الانشاء والحساب فيمتد بينهم الدجاج حتى يحسم السروجي الامر ، وخلاصة قوله ان صناعة الانشاء ارفع وصناعة الحساب انفع ؛ فيعلم الناس فضله فيقبلون على اكرامه ولكنه يعرض عنهم لانهم ازدروه اول الامر ولم يعرفوا الفضل فيه لما رأوه من رثائه مظهره فكانه اراد ان يعلمهم الا يزدروا انساناً دون ان يخبروا كنهه .

وقد رأينا يتراشق مع زوجته في المقامة التبريزية<sup>٤٠</sup> امام القاضي بكلام اشبه بكلام المخشين والظراف وقد تعرضنا لمثله عند حديثنا عن هذا النمط في المقامات الهمدانية .

وقد رأينا السروجي في المقامة الساسانية<sup>٤١</sup> وقد بلغ به الهرم فاخذ يعظ ابنه بان يتبع مذهبه ويسير فيه على نهج بني ساسان يقول :

« يا بني اني جربت حقائق الامور وبلوت تصارييف الدهور فرأيت المرء بنشبه لا بنسبه والفحص عن مكسبه لا عن حسبه وكنت شجعت ان المعاش امانة وتجارة وزراعة وصناعة فمارست هذه الأربع لانظر ايها اوفق وانفع فما احدثت منها معيشة ولا استرغدت فيها عيشة . . . . . ولم ار ما هو بارد المغنم لذيد المطعم وافي المكسب صافي المشرب الا الحرفة

٣٩ - نفسه ١ / ١٨٤ .

٤٠ - مقامات الحريري ٤ / ٣٣ .

٤١ - نفسه ٤ / ٢٤٢ .

٣٧ - مقامات الحريري ٣ / ٣ .

٣٨ - مقامات الحريري ٣ / ١٤٠ .

التي وضع ساسان اساسها ونوع اجناسها» .

فهو يوصيه بان يصبح مكدياً ولقد تعرضنا للظروف الاجتماعية التي صيرت امثال هؤلاء مكدين في مجتمعاتهم .

### شخصية البطل والراوي

يقول ابن خلكان<sup>٤٢</sup> :

« وذكر القاضي الاكرام كمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف الشيباني القفطي وزير حلب في كتابه الذي سماه انباء الرواة على انباء النحاة ان ابا زيد المذكور اسمه المظهر بن سلال وكان بصرياً نحويّاً لغويّاً وصاحب الحريري واشتغل عليه بالبصرة وتخرج به . . . . .  
واما تسميته الراوي له بالحارث بن همام فانما عني به نفسه ، هكذا اوقفت عليه في بعض شروح المقامات وهو مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم كلكم حارث وكلكم همام  
فالحارث الكاسب الكثير الاهام وما من شخص الا وهو حارث وهمام لان كل كاسب مهتم بأمور » .

ولا نجد في هذا النص اي اشارة لبطل بديع الزمان الهمداني وراويهِ ومع هذا فنحن لا نستبعد ان شخصية ابي زيد المذكور قد حفزت الحريري لكتابة مجموعة من القصص على غرار المقامات الهمدانية ولكن مما لا ريب فيه فان نموذج ابي زيد السروجي الذي قدمه الحريري هو صورة طبق الاصل لابي الفتح الاسكندراني بطل بديع الزمان في المقامات الهمدانية . فهو حاذق وذكي وفصيح وعالم ومتشرد وجوال قد اخنى عليه الدهر فاتخذ من الحيلة وسيلة لكسب عيشه .

يقول ابو زيد واصفاً نفسه<sup>٤٣</sup> :

لك عندي كرامة وعزاة  
وسرى في مفازة فمفازة  
وجهازي الجراب والعكازة

قل مستطلع دخيلة امري  
انا ما بين جوب ارض فارض  
زادي الصيد والمطية نعلي

٤٢ - مقامات الحريري ٢/ ٢٥١ .

٤٣ - المقامة الوبرية ٣/ ٦٦ .

فاذا ما هبطت مصرأ فبيتي  
ليس لي ما اساء ان فات او احزن  
غير اني ابنت خلوا من الهم

غرفة الخان والسديم جزاة  
ان حاول الزمان ابتزازه  
ونفسي عن الاسى منحازة

وكما نرى من واقع هذه الفلسفة فلا اختلاف في الواقع بين صوغ هذه الشخصية وشخصية ابي الفتح الاسكندراني فكلاهما نموذج اراد الكاتب ان يقدم من خلاله صورة قصصية للحياة الاجتماعية واللغوية والفكرية في العصر العباسي ؛ ولئن اتسمت شخصية الاسكندراني بنزعة ثورية عنيفة فلانها كانت النموذج الاول الذي سلط لكشف العيوب التي كان يعاني منها المجتمع العباسي . ولئن كشفت شخصية السروجي عن هذه العيوب فان شخصية الاسكندراني ما تزال تتميز بالسبق .

اما شخصية الحارث بن همام الراوي فهي قريبة جداً من شخصية الراوي عيسى بن هشام في المقامات الهمدانية والذي كان دوره ايضاً رواية الاحداث والتمهيد للمقامة بالشكل من مكان الى مكان ووضع عنصر الاغتراب فيها .

غير ان الاختلاف بين الشخصيتين يبدو في مجال آخر ؛ وهو ان الحريري قد حرص ان يكون راوي مقاماته سلبياً لا يشارك في احداثها وهذا عكس ما كان عليه عيسى بن هشام في بعض الاحيان .

فقد رأينا عيسى بن هشام يقوم ببطولة المقامة البغدادية حيث احتال فيها على احد البغداديين ورأيناه يكد في المقامة المجاعية على نفس النهج الذي سار عليه الاسكندراني ، كذلك فقد حاول الهمداني ان يجعل من شخصية الراوي في بعض الاحيان نقيصاً لشخصية البطل المتسول فوجدنا راويه في بعض المقامات يرفل في اثواب الثراء بل لقد بلغ به الحال ان وصل الى مرتبة ولاية البصرة في المقامة الخلفية وعلل ذلك الدكتور رشدي بان ابن هشام قد غدا بهذا الوضع يرمز الى المجتمع الصالح في حين كانت شخصية الاسكندراني ترمز لمجتمع متلون فاسد .

ولعلنا نجد في توبة السروجي في مقامة التوبة البصرية تفسيراً لسلبية الحارث بن همام . فلم يرد الحريري ان يجعل من بطله رمزاً للمجتمع المتلون الفاسد بل انه فرض عليه التوبة في آخر الامر كناية عن الرفض لواقعه الاليم . فقد وقف في جامع البصرة يقول<sup>٤٤</sup> :

٤٤ - مقامات الحريري ٤/ ٢٥٨ .

### ٨ ٣ - مقامات الزمخشري

صاحب هذه المقامات هو ابو القاسم الزمخشري<sup>٤٥</sup> محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي النحوي اللغوي المعتزلي ، ذكر ابن العماد ان وفاته كانت سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة وانه عاش احدى وسبعين سنة اي ان مولده كان سنة ٤٦٧ هـ وقد ذكر ابن خلكان من تصانيفه الكشف في تفسير القرآن واساس البلاغة وربيع الابرار ونصوص الاخبار ومثابه اسمي الرواة وغيرها وكان قد جاور بمكة زماناً فسمي بذلك جارا لله وعرف بهذا الاسم .

#### المقامات :

النسخة التي بين ايدينا من مقامات الزمخشري هي التي نشرتها المطبعة العباسية بشارع كلوت بك سنة ١٣١٢ هـ وعلى هامشها شرح الفاظها اللغوية ونكات البلاغية بقلم مؤلفها ، ولم يمنح الزمخشري لتأليفها تقليداً لمن سبقه من المقامين او رياضة للخاطر وامتحاناً للقريحة كما اتجه الى ذلك ابن ناقيا بل فيما يذكر فان صوتاً قد استدعاه في بعض اغفاءات الفجر<sup>٤٦</sup> « يا ابا القاسم اجل مكتوب وامل مكذوب » فهب من نومه وضم الى هذه الكلمات ما ارتفعت به مقامه ثم انشأ اخوات قلائل على غرارها وانقطع بعد ذلك عن الكتابة حتى اصيب بمرضه سنة اثنتي عشرة بعد الخمسمائة . وهي المرضة التي سماها ( المنذرة ) والتي كانت سبباً في تبديل حاله فأل على نفسه عهداً اذا تم له الشفاء ان يترك بهرج الدنيا ويكف عن قرص الشعر في السلطان وان يعمل على قطع صلته بالديوان بل ويسقط اسمه منه ويأخذ نفسه بالشدة حتى تنقيا ما استطاعته من ماله وان يكرس بعد ذلك نفسه لعمل الخير متنزهاً من اغراض الدنيا والا يتنافس الا فيما يرضي الله ؛ فحقق الله له الشفاء فرجع الى عمله الاول واتم هذه المقامات حتى بلغ بها خمسين مقامة .

وقد كتب الزمخشري هذه المقامات يعظيها نفسه في المقام الاول على ان تكون بعد ذلك منارة تهدي مقتسيها في باب العلم والتقوى والادب ؛ فقد أجهد الزمخشري نفسه في احكام صنعتها وسبك معدنها وابداعها المعاني السامية التي تزيده المتبصر في دين الله نوراً لما فيها من قيس الحق والجمال والخير .

٤٥ - شذرات الذهب لابن العماد سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ١١٨/٤ .

٤٦ - مقامات الزمخشري .

« فاما الان وقد استشن الاديم وتاود القويم واستنار الليل البهيم فليس الا الندم وترقيع الخرق الذي قد اتسع . . . . . فقصدتكم انضي الراجل واطوي المراحل حتى قمت هذا المقام لديكم ولا من لي عليكم اذ ما سمعت الا في حاجتي ولا تعبت الا لراحتي ولست ابغي اعطينكم بل استدعوا ادعيتكم ولا اسالكم اموالكم بل استنزل سؤ الكم فادعوا الله تعالى بتوفيقه للكتاب والاعداد للمهمات فانه رفيع الدرجات مجيب الدعوات وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو السيئات ثم انشد :

استغفر الله من ذنوب افرطت فيهن واعتديت  
كم خضت بحر الضلال جهلا ورجعت في الغي واعتديت

الى آخر القصيدة ؛ فالتوبة هنا رمز للرفض فلا يريد الحريري لبطله ان يكون رمزاً ابدياً للضلال ، بان يجعل من الراوي اقتراحاً للمجتمع الفاضل كما فعل الهمداني بل اراد لبطله ان يغير واقعه تغييراً تاماً وهذا الذي يمنح المقامات الحرية صفة التكامل .

#### خلاصة :

نما تقدم نلمح ان الحريري قد سار في الواقع على نفس الاطار الذي سار فيه الهمداني مع اختلافات طفيفة في الصياغة ، غير ان ما يميز الحريري بالفعل هو احكامه للصناعة المقامية من ناحية الاسلوب ومن ناحية التكامل الدرامي فلا نحس بالاسراع عنده في تصوير المشاهد بل كانت قصصه وافية بصورها من جميع جوانبها فاذا بدأ قصة اهتم بالمقدمة ثم بالحدث ثم بالنتيجة التي يسفر عنها هذا الحدث ؛ فمثلا في المواقف التي كان يحتال فيها السروجي على القضاة فان الامر لا ينتهي بمجرد تجويز حيلته على القاضي بل لا بد للقاضي من ان يتبعه ويعرف حقيقة الامر بنفسه في حين نجد في المقامات الهمدانية ان الحقيقة مقتصرة على الراوي والبطل فحسب .

تبقى في النهاية حقيقة لا بد من التركيز عليها مرة اخرى وهي ان مقامات الهمداني وان تميزت بعنصر الابتكار فان مقامات الحريري تميزت بالاحكام في الصناعة الاسلوبية والدرامية وهذا الذي جعلها قمة تحتذى في الصياغة البلاغية منذ القرن الخامس والى هذا العصر فلا نجد مقامياً الا واران ان يجرب حظ في صوغ نموذج شبيه بنموذج الحريري .

## الصنعة الفنية في مقامات الزمخشري :

بعد هذا التفسير الواضح لهدف التأليف المقامي عند الزمخشري يحق لنا ان ننظر في الطريقة التي عالج بها موضوعات مقاماته ؛ واول ما نلاحظه ما اشرنا اليه سابقاً من ان الزمخشري لم ينسج مقاماته على غرار من سبقه من المقامين فهو لم ينسج على منوال المقامة البديعية ولم يستخدم ديباجتها والسبب في ذلك هو ان جلال الموضوع الذي عالج لم يترك له مجالاً للهلزل . وهو وان عالج موضوع الوعظ في مقاماته فهو وعظ حقيقي وليس من ذلك النوع الذي يهدف به ابو الفتح الاسكندري اظهار البراعة أو التوسل للكدية .

لقد كانت المواعظ تأتي من الزمخشري مباشرة وبطريقة تقريرية وبذلك فلم يكن هناك مجال لظهور بطل شبيه بابي الفتح الاسكندري . لننظر الان في مقامة « المرشد » كنموذج يوضح لنا هذا اللون من المقامات الذي صاغه الزمخشري ؛ يقول موجهاً الكلام الى نفسه<sup>٤٧</sup> :

« يا ابا القاسم ان خصال الخير كتفاح لبنان كيفما قلبتها دعتك الى نفسها وان خصال السوء كحسك السعدان اتى وجهتها غتكت عني مسها فعليك بالخير ان اردت الرفول في مطارف العز الاقص واياك والشر فان صاحبه ملتفت في اطوار الاذل الانفس ؛ اقبل على نفسك فسمها النظر في العواقب وبصرها عاقبة الحذر المراقب وناغها بالتذكرة الهادية الى المرشد ونادها الى العمل الدافع والكلم الصاعد والجمها عما يكلم دينها ويثلم يقينها وحاسبها قبل ان تحاسب وعاتبها قبل ان تعاتب واخلص اليقين وخالص المتقين وامش في جادة الهادين الدالين وخالف عن بنيات طرق العادين الظالمين واعلم ان الحامل على الضلال صل اصلال لسعته لا ينفعك منها الرقى الا اذا كانت رقيتك التقى سقى الله اصداء قوم هفوا ثم انتعشوا وجدوا فيما اجدى عليهم وانكمشوا ويحك اخلط نفسك بغمارهم واحملها على شق غبارهم فعسيت بفضل الله تنجو وتفوز ببعض ما ترجوه »

وكما ترى فان الوعظ هنا مباشر ولا يحتويه اي بناء درامي شبيه بما وجدنا عليه الوعظ في مقامات الهمذاني ؛ وقد استخدم فيه الزمخشري السجع ذا المقاطع القصيرة والالفاظ المنتقاة . وقد ذهب الدكتور احسان عباس في احدى تصوراته الى ان الزمخشري قد اسقط

عامداً الراوية والبطل وابقى على الهدف الاساسي في المقامة وهو الوعظ ؛ ويختلف مع الدكتور عباس لان الوعظ ما هو الا غرض ضمن اغراض المقامة الفنية المختلفة .

والحقيقة هي ما ذكره الدكتور فارس ابراهيمي في دراسته بعنوان المقامة في الادب الفارسي حيث قال ان الصوفية منحوا كلمة مقامة مدلولاً جديداً وتعني لديهم موقفاً من مواقف النسك او التبتل او الوعظ وقد اثار الى الزمخشري بصفة خاصة كنموذج لهذا اللون ؛ وهذا ما نراه عنده بالفعل اذ ان مقاماته لا تمثل الوأناً من القصص ذات المضمون كما عند الهمذاني بل هي مواقف للوعظ والتأمل .

فاذا تجاوزنا هذه المقامة لم نجد اختلافاً كبيراً بينها وبين المقامات الاخرى في طريقة بنائها ومضمونها ونظرة في هذه العناوين تبين لنا التقارب في ما اشتملت عليه مقامات الزمخشري فقد كتب الى جانب مقامة المرشد « مقامات في التقوى والرضوان والارعواء والزهد » . وفي كل هذه المقامات نراه يوجه الحديث لنفسه بقوله يا ابا القاسم وهي كلها كما تبين عناوينها مواقف للوعظ والارشاد الديني .

## تحلية المقامات بالشعر :

بمراجعة لنص المقامة ( المرشد ) - التي ذكرت من قبل - نجد عناية تامة في استخدام الالفاظ والصنعة البلاغية . وتلك نزعة بلاغية اساسية في ادب المقامة اذ لا بد ان يجيد الكاتب في صنعها حتى يحفظ للمقامة جلالها ، ونرى الزمخشري يستخدم الى جانب ذلك حاضية اخرى في الادب المقامي وهي ممازجة النثر بالشعر كما ورد في مقامة الزهد<sup>٤٨</sup> :

« بلى ان نزل اللبيب على قضية ليه ان دعاه داعي الشهوة لم يلبه وهيهات ان مدعو الهوى لمحجب وان سهم دعوة الداعي لمصيب اللهم الا عبداً بحيل الله يعتصم ويتمسك بعروته التي لا تنفصم » .

على صراط سوي ثابت قدمه  
في الارض مشتهر فوق السما رسمه  
تعلسو نواظرها عنه وتفتحه

طوبى لعبد بحيل الله معتصمه  
رث اللباس جديد القلب مستر  
اذا العيون اجتلتته في بداذته

ولا يختلف الزمخشري عن غيره في غرض استخدام الشعر في داخل النثر وهو للتحلية وتلخيص المواقف بل وتحسيمها .

## الظرف والفكاهة :

ذكرنا ان مقامات الزمخشري غلب عليها طابع الجدل وانها نفرت من اسلوب الهزل ولكن ذلك لا يعني انها خلت من الظرف الوقور ذلك الذي لا يخل بالتجاسك الرزين الذي قام عليه موضوع هذه المقامات فقد وجدنا مقامة العروض ناخذ بنصيب وافر من الفكاهة والظرف يقول فيها :

« يا ابا القاسم لن تبلغ اسباب الهدى بمعرفة الاسباب والاولاد او يبلغ اسباب السموات فرعون ذو الاولاد ان الهدى في عروض سوى علم العروض في العلم والعمل بالسنن والفروض . ما احوج مثلك الى الشغل بتعديل افعيله عند تعديل وزن الشعر بتفعيله من تعرض لانتقاء صنوف الخير وضرويه اعرض عن اعاريض الشعر واضرب عن ضروبه » .

والفكاهة كما ترى تأتي من الغازه بمصطلحات العروض التي يصلح بها الشعر ومقابلتها بما يحتاجه الانسان لصلاحه .

نخلص من كل ما تقدم الى ما يلي :

- ١ - اقتصرت مقامات الزمخشري على الوعظ والنصح الديني الداعي لصلاح النفس والزهدي في الحياة والتوجه لعمل الخير .
- ٢ - لم تلتزم المقامة عنده بالديباجة المقامية المعروفة بل اقتصر فيها على توجيه النصائح لنفسه بطريقة مباشرة ؛ ومع ذلك فان الزمخشري قد اعتنى بأسلوب الصنعة البلاغية
- ٣ - ان هذا الاتجاه الذي وجدناه عند الزمخشري قد شكل اتجاهاً جديداً أشار اليه بعض المؤرخين فيما يعرف بالمقامات الصوفية وسوف نلاحظ له نموذجاً آخر في مقامات ابن الجوزي الاتي ذكرها .
- ٤ - اما الالغاز بمصطلحات « العلوم » فهو وغيره فيه سبان .

## ٤ - المقامة الحصيبية للاسواني

وجدت في مقدمة المخطوط الموجود بدار الكتب المصرية<sup>٤٩</sup> ان مؤلف هذه المقامة وشارحها هو جلال الدين أحمد بن علي الزبيري المغربي الاسواني المتوفى مقتولا سنة ٥٩٥ هـ . ووجدت كذلك استدراكا في أسفل الصفحة بأن مؤلفها هو القاضي الرشيد أبو الحسن ابن علي بن ابراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الغساني المتوفى سنة ٥٦٣ هـ . ولا يحدثنا المستدرك وهو الاستاذ محمد افندي الزناتي عن سبب استدراكه ومع ذلك فان هذا لن يؤثر على هذه الدراسة لان الراجح هو أن المقامة من نتاج القرن السادس .

### المقامة :

تبدأ المقامة كعادة المقامين السابقين باغتراب الراوي ، والراوى فيها هو المؤلف الذي نراه يسبح على نفسه تلك الصفات التي تقوم شخصية البطل المقامي من رغبة في التجوال وتميز في العلوم والآداب وما شاكل ذلك . يقول : « كنت في عشوان عمري وريعانه وشرخ شبابي وعيسانه اشتاق الى الاغتراب شوق الغريب الى الاياب واصبو الى مفارقة الجنب وأرى ملازمة الوطن مجلبة للافن ومشبهة لادراع الكفن حتى فلتوت الفلوات تشريقا وتقريرا وايدت قوى البید اسادا وتأديا وكنت لا احط بواد ولا أنزل بحضر ولا بواد الا صرت علما لعلمائهم وفضلائهم ومعلما لادبائهم والباطهم فلما نزلت بالحصيب نزول المتلوم ووضعت عصا الحاضر المتخيم ألفت بها من وجوه الأدب وعيونه وينابيع العلم وعيونه ما اظفرني بقصوى الطلب ونزلت من على آل المهلب وأذهلنى عن الرحل والوجناء وحننت الى طول الثواء » .

وهكذا فقد أصبحت الرحلة معلما بارزا في ديباجة المقامة ، فبالرحلة يتخير الكاتب البيئة التي تدور فيها أحداث مقامته كما انها تحلى المقامة بنزعة رومانسية تثير الشوق في القارئ الذي يترقب دائما ليرى ما وراء المجهول .

أما بعد هذه الرحلة فيتخير الاسواني مجلسا من المجالس تدور فيه مقامته وهي في مجملها مناظرة بين فتیان الباء ؛ يظهر بينهم البطل أيضا ولا يبدى الاسواني أول الأمر في صورة مشرقة بل يدعه يكشف عن علمه وفضله شيئا فشيئا تماما كما كان الحال مع الاسكندري

٤٩ - المقامة الحصيبية مخطوط رقم ت ١٣٤٦٩ - ٢ وفيات الأعيان ١٦٠ / ٢ طدار الثقافة .

وابى زيد السروجي الذين لا يعرف فضلها الا بعد الاختبار . يقول : « فبينما انا ذات يوم في ناد يجعل العقود بهاء وحسن انتظام بكواكب الجوزاء كمال بهجة والثناء قد جمع فتيانا ما منهم الا من يفصح بالذكاء ذكاً ويتوقد لودعيه وذكاً ونحن نجعل قداح المذاكرة ونجتني جنى المحاوره اذ قد وقف بنا كهمل كالرئبال عليه طمر بال فحيانا تحية تشديد وجلس منا غير بعيد فرددنا عليه السلام ولم نكد وخلصنا ان مجلسنا قد نكد ثم ثبنا الى اعاده الحديث والتميز بين القديم من العلوم والحديث » .

وكما نرى فان الاسوانى هنا يمازج بين المدلول اللغوى لكلمة مقامة وهي لغة المجلس وبين المدلول الفنى ؛ فنراه يتخذ المجلس مداراً تدور فيه مناظرته والى جانب ذلك فهو لا يهمل دور الراوى أو البطل في المقامة الفنية .

واختيار المجلس مجالاً تدور فيه المناظرة حتمته ضرورة فنية لان المؤلف اراد أن يعكس آراء مختلفة في اطار قصصي درامي وقد وجد في أسلوب المناظرة ما يبعد عن القراء السأم والملل اللذين ينتجان في العادة من تقرير الآراء العلمية تقريراً مباشراً .

وعلى الرغم من أن البطل كان مشاركاً مع غيره في هذه المناظرة فقد جعل له المؤلف دوراً متميزاً فكان بذلك أكثر المتناظرين شمولاً في رأيه وحتى نستجلي هذه المزية التي تحلى بها البطل علينا أن ننظر في بعض الآراء التي جرت في هذه المناظرة .

قال النحوى<sup>٥٠</sup> :

« النحو أعلى العلوم منزلة وأعجلها منفعة ولولاه ما عرف الخطأ من الصواب في الكلام وهو من العلوم بمنزلة الملح من الطعام به يتوصل الى كلام رب العالمين واختبار سيد المرسلين صلوات الله عليه وعليهم اجمعين ومن جهله من الفقهاء لم يأمن أن يأتى في فتاويه ويلحن فيما يرويه » ويؤيد هذا المنحى آخر غير أنه يستدرك على سابقه بأن منزلة النحو من علم اللغة كمنزلة الاعراض من الذوات ؛ وهنا يتدخل ثالث فيقول<sup>٥١</sup> :

« أراكما اضربنا عن علم الشعر صفحا وطويتم دونه كشفا وهو ميدان العرب لانه المنبه

- ٥٠ - مخطوط المقامة ص ١
- ٥١ - مخطوط المقامة ص ١
- ٥٢ - مخطوط المقامة ص ٢

على حكمتها ولسان الفصاحة وترجمانها وعلما النحو واللغة له خادمان وبعده حاذيان وقد فضله رسول الله ﷺ قدما بقوله ان من الشعر لحكما واهله اقل الناس هما وانفذهم حكما اقوالهم مقبولة ومؤثرهم محمولة ترهب منهم المحال ولا يستحسن منهم الا المحال ولا يخافون سطوة قادر ولا يخشون من بر ولا فاجر ان مدحوا الكلب البسوه فعخرا او هجوا المسك صبروه شرا » .

وتعنى المناظرة على هذا النحو بين أصحاب البديع والعروض وأصحاب علم الفرائض والجبر والهندسة والموسيقى كل ينظر الى المشكلة من مجال تخصصه تماما كما يحدث في واقع الحياة كل يراها من زاويته غير آبه بالآخرين ولكن الشيخ البطل لا يرى الامر على هذا النحو فقد نهض ليقول<sup>٥٢</sup> :

« ما منكم الا من اورى زناد فكره ودل على فضله وعلو قدره الا انكم يا فرسان الكلام ومصابيح الظلام تعلمون صفر الاكياس والحاجة الى الناس تطمس أبصار القلوب وهم المعاش أولى من هم المرفوع والمنصوب ومن ذا الذي يصبح طاوي الاحشاء ويميت مضطرا الى العشاء فيجبل في العلم فكره أو يجيب بمسألة كلا والله لم يكلف بصلة فطوى لمن ظفر بصناعة تريحه من الكل والعناء وتلحقه بالسعداء وتلك والله صناعة الكيمياء » .

فأخبروه بأن هذه الصناعة ليس فيها سوى الكد والتعب فلا يستطيع صاحبها أن يصنع ذهباً الا من الذهب فأعرض عنهم اعراض المتأفف .

قال الراوى<sup>٥٣</sup> :

« فأحفظني بتعريضه واعراضه واغرى بي ما رأيت منه باعتراضه فجذبت ردى طمره وحلت بينه وبين مستمره وقلت ايها المعجب بهواه الزارى على من سواه والله ما كان لك مناص ولا من ايدينا خلاص أو نمتحن سر بكرك ونستين دخيلة فكرك فان صدقت تخيلة برقك حمدنا وان زاغ ناظر نظرك مومنا فعاد عودة العرم الملتهم واصلت لسانا كالعضب الحزم - الماضي - ثم عقد نطاق حبهوته وهدر ملاء شقشقته وقال اما اذا ناديتم هل من منافث وكنتم وبحثتم غير مباحث فسترون ما يهيج النبائث وايم الله لاريكنكم جهلكم بانكم تجهلون وليأتينكم انباء ما كنتم تستهزئون احسبتم يا سبابة الال واعلام الضلال ان كل من

- ٥٣ - مخطوط المقامة ص ٤
- ٥٤ - نفسه ص ٤



نظر في علم أو علمين وحفظ مسألة أو مسألتين ثم قصر سرباله وقص سباله مظهرا للنسك والزهادة متعرضا للاستفادة في معرض الافادة فهو يستوهب بذلك الطعام ويستجاب الحطام ويحلب الحرام ويسمى بالشيخ الامام قد صلح بان يفصل بين العلوم ويميز بين المحمود والمذموم كلا والله حتى يهجر الدنيا ويودعها ويطلق الدعة ويودعها ويميت هوى النفس فيحیی ليلته بالدوس فلا يبقى علما الا كشف قناع ستره وهتك حجاب سره وهيهات والله كمال المعرفة ممن ليست له هذه الصفة .

هكذا يكشف البطل عن جوهره ويقف من الجماعة موقف الواعظ المتحدي ولعل موقفه في هذه المقامة يذكرنا مرة أخرى بموقف الجاحظ في رسالة التربيع والتدوير فالبطل لا يقنع بما قال بل يخبرهم بان كل واحد منهم قد ميز علما وفضله ولو سئل عن حقيقته لجهلها واثبت لهم ذلك بالدليل حين أخذ يسألهم واحدا تلو الآخر في علمه الذي تخصص فيه ليبين عجزهم . سأل متحلل الاعراب المفتري على الاعراب عن نصب الفعل المستقبل بمعنى مقدر أو عامل مضممر واتبع ذلك بسؤال صاحب علم الكلام والهندسة والهيئة والتصوف فوقفوا جميعا موقف العاجز المتحير وهو يصول بينهم ويجول مظهرا قدرته البلاغية التي هي سمة ملازمة لبطل المقامة وفي نهاية الأمر يقول لهم : .

( ما هذا الجمود الفاضح والعجز الناصح والله ما كلفتم صعبا هضلا ولا سألتكم امرا مشكلا ثم على اقاتكم ان استقلتم والا ابنت لكم ان سألتكم ) .

فاعترفوا له بالتقصير عن خوض البحر وافاضوا في الثناء ثم أخذ كل منهم يدعوه الى منزله فلم يجتر سوى المسجد وحين ذاعت شهرته اقبل الناس عليه ونثروا المال بين يديه وفي الصباح اقبلوا لزيارته فلم يجده فاذا به قد جوز عليهم حيلته وترك وراءه قوله :

اي	هذا	المتبع	فات	ما	فات	فارجع
ودع	اللوم	جانبا	رب	لوم	مضيع	
واسمع	العذر	منعها	ثم	ما	شئت	فاصنع
انا	شمس	ولا	ر	لشمس	بموضع	

فأعجب الجميع بمكره ودهائه وقد تألم الراوي لفراقه .

### خاتمة :

وكما نرى فان هذه المقامة اشتملت على العناصر الرئيسة في فن المقامة وهي الراوى والبطل والصنعة في اطار من الفن القصصى ؛ غير ان لاسلوب الاسوانى طريقته الخاصة ؛ فعلى الرغم من تصنعه فنحن نجد في مقامته طلاوة تذوب في داخل الموضوع الذي يستغرق القارىء استغراقا كاملا يخفى الصنعة فلا تبدو واضحة الا لمن يتلمسها وهذا مذهب أهل الطبع .

كذلك فان البطل قد امتلك مقدرة عجيبة في اقناع مشاهديه وقارئيه بحديثه ولكنه بالطبع لم يكن يختلف كثيرا عن الاسكندرى أو أبى زيد من حيث الدهاء والحيلة . ونلاحظ الى جانب ذلك اهتماما ظاهرا لدى الاسوانى بالموضوع الذي عاجله فقد عانى كثيرا من أولئك الادعياء المتسلقين بغير وجه حق في حين يقاسى أصحاب الفضل والعلم الحقيقي وهذه كما نرى نفس القضية التي انطلق منها بديع الزمان الهمداني . يقول الاسوانى في المقدمة : .

« على أنى فيما أقاسيه من شوائب الزمان وأعانيه من مكافحة الأيام شغلا شاغلا وداء داخلا وهما يكدر من قلب القلب حمامه وينهج من نهج العلم اعلامه هذا الى ما منيت به من عدم المذكر والمباحث وفقد المعاضد والمساعد بحيث صارت الفضيلة مسبة لصاحبها وعارا على طالبها . .

حتى أصبح الفكر عازبا والصواب عائباً والعقل ذاهلا وأزمة الآمال معروفة بيد الاضطراب » .

وهكذا نرى أن هذه المقامة قد ركزت في نقدها على مضمون اجتماعي وحافظت في ذات الوقت على أصول الفن المقامى .

## ٥ - مقامات ابن الجوزي<sup>٥٧</sup>

هنالك نسخة مخطوطة من هذه المقامات في دار الكتب المصرية<sup>٥٨</sup> وعددها خمسون مقامة  
الفها ابن الجوزي ليعرف بها شرف العقل . يقول<sup>٥٩</sup> :

« وكنت كثيرا ما أدخلو بالعقل في بيت الفكر فاجرى منواله ويجيب ويجري لي وله كل  
عجيب والاختبار بتلك الاخبار على الحقيقة عنى لانه منبع السؤال والجواب منى فأحببت  
أن أؤلف بفكرة تستظرف مقامة لأعرف شرف العقل الذي اعرف مقامه وقد كنيته ليعرف  
أبا التقويم لاني رأيت قد تلتطف من أبا التقويم وانه يتفاوت في ضرب الامثال العالمون وما  
يعقلها الا العالمون » .

ولا نطمح في أن نجد ملامح المقامة البديعية مطبوعة على مقامات ابن الجوزي كما لا  
نطمح أن نجد في مقاماته بطلا يشبه أبا الفتح الاسكندري او اليشكري يقيم سلوكه على  
الاحتياال والكدية والهرز .

ومع ذلك فليس ابن الجوزي من الذين يهملون أسس الصنعة البلاغية أو يغيب عنهم  
ادراك المكنونات الرمزية في العمل الأدبي يقول<sup>٦٠</sup> :

« ان اللغة العربية ارتب قدم في الأدوات وأكتب قلم في الدواة ثم تنقسم قسمين مجهور  
لا يغطي ظاهره ومستور لا يتخطى سائره ان المستر ارسم القسمين واوسم الرسمين  
لاندرجه على الكتابة « والتمريض » والتجوز والتعريض والتشبه والاستعارة والرمز  
والاشارة ورصف الامثال بوصف الامثال » .

ففي هذا القول كما نرى ادراك واع لقيمة الرمز في صوره البلاغية ولكي يدلل ابن

الجوزي على عمق تفهمه لقيمة الرمز ساق في مقدمة مقاماته بعض قصص الحيوان التي  
تنطوي على مدلولات معنوية كخادج لاسلوب الرمز والاشارة الذي يعنيه ؛ وفيها نجد  
ادراكا يتجاوز حدود الفهم المسطوح الذي رأيناه عند ابن ناقي من قبل .

ولعل النزعة الصوفية قد ساعدت ابن الجوزي على فهم قيمة الرمز واهميته كاساس لا  
عنى عنه في التعبير البلاغي ؛ ولقد جعل ابن الجوزي بطله أبا التقويم رمزا للعقل الذي  
يكون له الحكم حين النظر في الكون والطبيعة .

### المقامات :

كما أسلفنا لم يسر ابن الجوزي على نهج الهمذاني في مقاماته وبالتالي فلن نجد في مقاماته  
نموذجا انسانيا نعنى بدرسه وتتعرف من خلاله على مرامييه الفكرية بل نجد انفسنا امام  
فيض زاخر من الأفكار والموضوعات المباشرة في الدين والتصوف والعلم والأدب وتكفى  
نظرة واحدة في هذه العناوين لتعرف ما انطوت عليه مقامات ابن الجوزي من فنون . لقد  
تعرضت مقاماته الى مثل هذه المواضيع<sup>٦١</sup> :

« قصة ادم عليه السلام - وصف قاص - قصة ابراهيم عليه السلام - من أسبغ عليه من  
النعم - نبوة محمد عليه الصلاة والسلام - الألفاظ العربية - ايثار محبة الحق - أسرار الله عز  
وجل - في محاكمة النفس - في الغزاة - في اطلاق النظر - في الوحدة والعزلة - في النصائح  
والوعظ - في الحج والعمرة - في طواف البيت - في فصل الربيع - في اعراب النحو - في ذم  
الحياة ومدحها - في ذم ابليس اللعين - في دواء العشق - في صوفية الزمان - في علم القرآن  
والحديث - في مخاطبة العقل للنفس - في التعازي - وهلمجرا » .

ولا نعرف مقاميا عدا ابن الجوزي قد تعرض لمثل هذا الفيض من الموضوعات وبما انه لم  
يلتزم شكلا معينا بحيث يمكننا ان ندرس المقامات كلها من خلاله فنرى ان نتعرض لبعض  
النماذج التي أوردها وسيكون لنا في ذلك غنى عما تعرض له في مقاماته الاخرى .

يقول في مقامته السابعة والثلاثين الموسومة « مقامة العزلة »<sup>٦٢</sup> :

« من أعجب ما يرى في عرض أسفاري ما جرى في بعض أسفاري فررت من أذى

<sup>٥٧</sup> - نفسه ص ٢٠ .

<sup>٥٨</sup> - أدب ص ٩٦ .

<sup>٥٧</sup> - هو أبو الفرج بن الجوزي عبد الرحمن بن محمد بن علي وينسب لنسب إلى أبي بكر الصديق ذكر ابن المهاد في أخبار سنة  
سبعة وتسعين وخمسةائة انه الواعظ المتفنن صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة في أنواع العلم من التفسير والحديث والفقه  
والزهد والوعظ والاخبار والتاريخ والطب وغير ذلك - ولد سنة عشر وخمسةائة أو قبلها .

<sup>٥٨</sup> - أدب رقم ١٤٢٩ .

<sup>٥٩</sup> - نفسه ص ٥ .

<sup>٦٠</sup> - نفسه ص ٢ .



اشجان مقيمة الى بادية فلاح لي الوقود على رأس جبل فصاح بي الجوع المجهود - العجل -  
العجل . فلما قربت من اطناب تلك الرحلة رأيت من الاعراب سادة جلة » .

انه ما يزال يبدأ المقامة بالرحلة اذ لا بد للبطل أو الراوي من أن يسافر او يتغرب حتى  
يقف على مسرح موضوعه ولقد وصل الراوي الى مكان القوم وحياتهم فأكرموا وفادته  
واعتذروا له بانهم لا يملكون من طعام القرى شيئا وكل ما لديهم لبن ولها وزبد ولحم فلم  
يؤثر غير هذا الطعام ؛ وبعد فراغه من الاكل اخذ في مسامرتهم الى أن قال لهم ٦٣ :

« انكم لمن جاوركم لفهما ولكن لو جاورتم العلماء فقالوا لا تهرف بما لا تعرف عندنا فقيه  
البلد وسيد السند اختار العزلة في حلتنا فما من حلتنا احد يقتنع من التمر بالحشف ومن  
الماء بالنسف ويؤثر الزهد والقشف فاذا عرض لنا معنى كشف » .

فطلب منهم أن يوصلوه اليه فوجده شيخا صبيح الوجه مليح الشبهة عليه نور النور  
وهيئة الهبة فعرض عليه عويص المشكلات فما وقف في تخليص مشكلة بلسان بفيض  
بلاغة وحسناً فلما عرض لأمر عزلته قال ٦٤ :

« قد كنت في البلد اعقد مجلس المناظرة فما بقى من اقعد معه للمحاضرة انهم ما  
يتواصون بالحق انما يتواصون على الاحق فاشتكوا الى الله لا الى الغير زمن الزمن وأعود به  
من السير على غير السنن ، فما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت  
تعرف - ثم قال - « كنت امرهم باخلاص الاسرار في الاعلان والاسرار فتطير الى الشرار  
من أولئك الاشرار فانا ادعوهم الى النجاة ويدعونني الى النار » .

فيطلب اليه الراوي عندئذ أن يسوق اليه شيئا من صفاتهم وأعمالهم المكروهة فيحدثه  
عن جهل العلماء وانهم يستدلون باحاديث لا يعرفون طيبها من خبيثها ويكثرون من  
المسائل الطوال لكثرة ما فيها من القيل والقال ويفنون الوقت في المجادلة والسفسطة متزينين  
بالحرير مؤثرين الكذب في ثناء الأمير واما الحكماء فانهم يبنون احكامهم على شهادة الجهال  
والاغرار واما التجار فياكلون الربا ويصانعون بزكاتهم .

وحين يسأله عن كيفية التخلص من هذا الزمان ٦٥ :

« انظر فان وجدت العالم ديناً عاقلاً والا فاجعل نصيب العالم معا قلى فقلت سبحان من  
اوقعك بترك المداراة على الجادة وعلمك المداواة بالجادة فهلا قبستني من علمك ما يروى  
فؤادي قبل ان أرحل ، فؤادي بلدنا من مثل هذا قد اعمل قال ان اردت العلوفات درج  
التقوى وان اردت العز فضع جبهة التواضع وان آثرت الرئاسة فارفع قواعد الاخلاص »  
وحين يسأله أن يتصدق بصحبته عليه يقول الوحدة أحب اليه ، وينصح الراوي بالتزام  
النصيحة .

والمقامة كما ترى ذات نزعة تعليمية وعظمية دينية وهي تتوافق مع نزعة ابن الجوزي  
الدينية والوعظية في ذات الوقت ، فقد كان ابن الجوزي واعظاً ومعلماً ومبشراً وكانت  
محالسه درسه عامرة بالتلاميذ بل ان الخليفة المستعصم كان يحضر مجلسه ويقال ان أكثر من  
مائة ألف قد اسلموا وتابوا عليه ؛ والمقامة وان اتخذت نزعة قصصية حيث يظهر فيها  
الراوي ثم الصوفي الذي يبدو في براعة البطل الاسكندري فليس ثمة مجال للمقارنة  
بينهما ، لان ابن الجوزي لم يلتزم ديباجة بعينها ، بل نوع في أساليب عرضه ، ولكنه  
حافظ في كل مقاماته على نزعة التعليمية ونزعة ابن الجوزي تشبه الى حد كبير نزعة  
الزمخشري في مقاماته ولكن ابن الجوزي احسن طريقة العرض من خلال المواقف  
والقصص في حين التزم الزمخشري اسلوب الوعظ المباشر .

وفي المقامة الأربعين الموسومة « بصوفية الزمان » ٦٦ ترى المؤلف يصطحب ابا التقويم  
رمز العقل عنده - في رحلة الى البرية وقد تعالى الهجير وبدت حاجتها الى الظلال ماسة  
فلاح لها رباط صوفية ، وهنا رغب الراوي - وهو ابن الجوزي نفسه - في الميل اليه ولكن  
أبا التقويم اعرض عن ذلك واعتذر بأن معاناة الحر في القلوات اهن لديه من مصاحبة  
اهل تلك الخلوات وتكون تلك مناسبة يصب فيها أبو التقويم نقده على هذه الطائفة من  
الصوفية يقول ٦٧ :

« فباطلوني باعمال الصلاح ثم خالطوني بافعال قباح يسمون مناخ البطالة الرباط  
ويحوضون في الجهالة الى الاباط فرباطهم نصب دكان للنصب انقطعوا عن الجماعات في  
المساجد وجروا على سنن ما خالف السنن معادن طهاراتهم اذا تأملتها وسواس والطهارات

٦٦ - الأدب ص ١٠٤ .

٦٧ - الأدب ص ١٠٥ .

٦٣ - نفسه ص ٩٦ .

٦٤ - أدب ص ٩٧ .

٦٥ - نفسه ص ٩٨ .

عندهم كالانجاس يتلفون الاقدام للمشي على القطيفة ولو قطع بطهارتها الشافعي وأبو حنيفة بعدوا عن كنف الكسب وقعدوا عن الفتوح يختالون في ملابس الزهاد ، ويختالون على الناس في المراد قد جمعوا التدليس بألوان الحذق ورفعوا الحديد لا الدزيس الخلق فقد لبسوا للنفاق جلد حية ولبسوا بحيل كلها في النفاق حية » .

وهكذا يصب أبو القويم ثورته على طائفة المتصوفة فيسميهم بارذل الصفات ويفضح مذهبهم ذلك انهم لا يسيرون على نهج من سار على هذا الطريق من القدماء فالقدماء كانوا يعتبرون التصوف حرقة ، أما هؤلاء فيعتبرونه ( حرقة ) :

يقول أبو القويم :

اهل التصوف قد مضوا	صار التصوف مخزقة
صار التصوف صيحة	وتواجدوا ومطبعة
كذبتك نفسك ليس ذا	سنلى الطريقة الملحقة
حتى يكون بعين من	منه العيون المحدقة
تجري عليك صروفه	وهموم سرك مطبعة

وحيث تبدوا الحقيقة واضحة للراوي الذي يبين له عوار الثوب من صقله ويصبح قادرا على التفريق بين اللجين والرصاص .

والمقامة كما نرى وقفة تأمل بين الراوي - ابن الجوزي - وعقله أبي القويم - الذي يحكم النظر في طائفة الصوفية فيبين تهافت طرائقهم ، وما يعتملون من زيف ونفاق .

أما في المقامة التاسعة والثلاثين الموسومة « في اعراب النحو » فنجدته يتحدث عن حاجة الانسان الى تعلم اللغة في مهدها الأول أي البادية .

يخرج كعادته في يوم قاتظ فيقترب من بيت من بيوت الأعراب يبدو منه شيخ فيعلمه بما عليه حاله من جوع وعطش فيدعوه الشيخ الى طعامه ويؤنسه بفصاحته ويبدأ الحديث عن المائدة فيقول انها لا تسمى مائدة الا اذا كان عليها طعام والا فهي خوان ولا يقال للعظم عرق الا اذا خلا من اللحم كذلك فلا يقال للزجاجة كأس وهي خالية من الخمر وبينما هما

٦٨ - نفسه ص ١٠٥  
٦٩ - الأدب ص ٦٣

- ١٨٨ -

على هذه الحال يبرز ولدا الشيخ يتشكيان لابيها من مشاجرة وقعت بينهما عندئذ يقول الراوي :

« فقلت للشيخ انما جئت اقتبس علما فقال سلها . . . فقلت لأحدهما حدثني عن بعض تصرف العرب فسمعت من ذلك الصبي العجب قال : ايها المسترشد نتصرف وغيرنا يتكلف تأتي الى اللفظة فنغير حركتها تارة فيختلف معناها كالجمل والجمل والروح والروح وتارة يقع التغير بالاعجام كالنضح والنضح » .

وهكذا يبدي الفتى ألوانا من البراعة اللغوية فيسأله الراوي كم لك في هذه البادية فيقول مد رايت شعرات وجهي بادية .

فيسأل الراوي الشيخ ان يعرف بنفسه حتى ينسب اليه هذا التعليم فاذا بالشيخ أبو القويم .

### تقويم شامل للمقامات :

وهكذا . . ليست بنا حاجة للافاضة في ضرب النماذج ويكفى أن نعلم بأن مقامات ابن الجوزي قد خاضت في مبادئ شتى على النحو الذي ذكرناه في البداية وانها لم تتخذ من الأسلوب الهزلي وسيلة في التعبير عن المضامين الفكرية وقد التمس فيها ابن الجوزي موضوعاته بشيء من الجدة غير أنه لم يهمل الأسلوب الأدبي فجاء رشيقا عليه مسحة من أدب القصة .

والمقامات كلها مروية على لسان كاتبها ابن الجوزي الذي يحتكم دائما الى أبي القويم - رمز العقل عنده - والذي يبدو في صور شتى ، فهو تارة صديق واخرى ناصح وغيرها مسامر وهلم جرا .

ولقد كانت غاية ابن الجوزي الدينية واضحة في هذه المقامات فقد حفلت بالنصائح والارشادات لتهديب النفس والارتقاء بها من قاع الدنيا والجهل الى قمة للعلم والنور والبصيرة الحية . وهو في كل ذلك متفوق على نده الزنخشري لما حفلت به مقاماته من ثراء موضوعي ومعالجة فنية جذابة . فالزنخشري كما اسلفنا - قد جرد مقاماته من الاطار الفني

٧٠ - نفسه ص ٦٣

- ١٨٩ -

واكتفى بالتوجيه المباشر للمواعظ في حين أن ابن الجوزي التزم بالديباجة المقامية من حيث الاحتفاظ بشخصية الراوي والبطل بيد أنه نفى عن البطل تلك الصفات الدميعة التي ظهرت عند ابطال المقامة السابقين . وحقيقة الأمر أن التفرقة بين البطل والراوي في مقامات ابن الجوزي تفرقة اعتبارية لأن البطولة كانت متقاسمة بين الراوي وأبي التقويم . وأبو التقويم في حد ذاته ما هو إلا الراوي نفسه ولكنه يتصرف بطريقة أكثر إيجابية . غير أن ما يجعلنا نفصل في الحقيقة بينهما هو أن الراوي في هذه المقامات كان يمثل ( التجربة ) في حين أن أبا التقويم كان يمثل الحقيقة كاملة .

## ٦ - مقامات الخنفي<sup>٧١</sup>

كتب الخنفي هذه المقامات<sup>٧٢</sup> وأهداها لرئيس الحكام القاضي أبي حامد محمد بن محمد القاسم الشهر زوري وهي - على عدد ليالي الكليم - ثلاثون لا أربعون . وقد ذكر الخنفي أنه لم يحد فيها حدو البديع أو الحريري بل اتخذ منها منزلة بين المنزلتين : يقول :  
« ان البديع حرر كلامه على الخطاب الفصل وقرر مرامه وهو متحام عن السخف والهزل وابن الحريري أورد اللغات الوعرة وأظهر المعاني المشككة العسرة ذا أوجز وهذا أعجز وما أنا واضعه كريم الطرفين مشتملا على كلا الوصفين لا بكثير بل ولا بوجيز يقل وكل يعمل على شاكلته » .

وقد ذكر أنه ضمن مقاماته شيئا مما حفلت به المقامات السابقة من هزل ومن وصف للحسان والغلمان ، وقد جعل راويته القارس بن بسام المصري على وزن الحارث بن همام البصري وجعل بطله أبا عمر التنوخي على وزن أبي زيد السروجي . وهما أيضا مماثلان لعيسى بن هشام والاسكندري في مقامات الهمذاني .

ونلاحظ في مقامات الخنفي ظاهرة جديدة إذ أنه بعد أن يورد المقامة متخذاً من ابن بسام راوياً وأبي عمر التنوخي بطلا نراه يورد مقامة أخرى ينقض بها مقامته السابقة ويترك لابن بسام المصري أن يقوم ببطولتها ؛ فقد صرح منذ البداية أنه لا يفضل كلام التنوخي ، بل ويعتبره رمزا للشر ولذلك فقد أثر أن ينقض أفعاله بأفعال ابن بسام الذي هو رمز للصالح والخير . وهذا المنحى هو الذي يمنح مقامات ابن بسام قيمتها الأخلاقية . يقول<sup>٧٣</sup> :

« ولم أفضل كلام أبي عمر على ابن بسام كما فعلوا ولا أقدم مسجد الضرار على المسجد الحرام كما نقلوا بل أورد المقامات عنهما على سبيل المناوئة وأسرها ككتب المجاوبات على وجه المجاوبة » .

٧١ - مؤلف هذه المقامات هو العلامة أحمد بن أبي بكر بن أحمد الرازي المعروف بالخنفي .  
٧٢ - مطبوعة مع مقامات ابن ناقي وغيرها - مطبعة أحمد كامل باستانبول .

٧٣ - نفسه ص ٤ .

وقد ذكر انه سوف يمازج فيها بين النظم والنثر ولكنه لن ينقل من دفاتر الشعراء او كتبهم بل سيعتمد في النظم على نفسه الا في الحالات النادرة حيث يصعب اغفال العين عن البيت او المصراع ؛ وسوف يتخذ في كل مقامة مخلصا للمدح كالذي يتخذ الجوالون والمترسلون ومن في طبقتهم من الوعاظ ذريعة يتذرعون بها ؛ وفي هذا تأكيد لرأينا أن الكتاب اتخذوا من الديباجة المقامية صنوا للديباجة الشعرية يسخرونها لأغراض المدح .

#### المقامات :

نستطيع أن نجمل القول بأن الهدف الذي انطلقت اليه هذه المقامات هدف اخلاقي فهي لم تنطلق في مجالات عريضة كما فعلت مقامات الحريري وبديع الزمان ؛ ومضمونها على وجه التخصيص ادانة لمواقف الخسة والنذالة والاحتياال المتمثلة في شخصية البطل أبي عمر التنوخي في المقامات الفردية ، واعلاء لتقائض هذه المواقف من القيم العالية المتمثلة في مواقف بطل المقامات الزوجية ابن بسام المصري .

لقد كان واضحا أن الكاتب لا يقدم بطله التنوخي في ثوب من الاعجاب والاشفاق بل يقدمه في ثوب من الامتعاض والكران فيها هـ يصفه في بطانة من بطانات السوء التي تصاحبه يقول :

« فقممت وطففت في سوق فلسطين واشتريت بفلس سدرا وبفلس طين وقلت الام هذه البشاعة وحتام ثم مضيت ودخلت الحمام وانا كاره للجلوة فقعدت في بيت الخلوة اغتسل الاوساخ عني واذا بازفلة انجس مني .

ذئاب غيروا الشكل والثياب واعتادوا اللوم والعتاب قوم لوثوا عرض كل مجد مجدود وهم في الكفر اكفر من كل كافر مردود منكربين متكربين مدهوشين حيارى لا مسلمين ولا مجوس ولا يهود ولا نصارى هذا دينهم وأديهم وهذا شرعهم ومذهبهم » .

وفي حقيقة الامر فانه لم يمر بنا بطل من أبطال المقامات بلغ من الخسة والنذالة ما بلغ التنوخي فهو شيخ لا يراعي حرمة وليس له حياء .

فاذا نظرنا في المقامات الأولى الوصفية التي قام التنوخي ببطلتها نجد أولاها تلك المساجلة الشعرية بين التنوخي وبطانته وتقوم على الحروف الهجائية كحرف الشين والقاف وهلم جرا .

ثم المقامة الحمامية ونرى فيها وصفا للحمام . ثم المحبرية وفيها وصف للمحبرة .

الدواتية وهي وصف للدواة ثم القلمية وهي وصف للقلم وقد حرف التنوخي كل هذه الأوصاف لترمز الى مدلولات جنسية في غاية من البذاءة . فهو على سبيل المثال يقول في وصف القلم ٧٤ :

« انه مشقوق الرأس كالليل مدور الاساس مصقول القامة محدد الهامة صاحب العصب والعروق كثير التعصب للعلوق يغوص في الدواة كالغواص وجوهره ارضن من الرصاص واذا لعب مع الاناث يكتب في الظلمات الثلاث أعور كالرجال وأقوم كالنصال شديد البطل كالاجل كثير الهوس كالامل ذو الكيد والمحال المعروف بالمحال اطعن من الرمح وأبين من الصبح أصر من الحمار وأصير من الحمار افسق من اليربوع والزمن من الشروع اطفى من الماء واسرع من الهواء اطول من الصور ورمح الغور اذا نكح انكح من العصفور لا يعرف القريب من الاجنبي ولا يميز الشريف من الدني يلقط حيث يلقط ويخبط حيث يسقط كالجرامي يسلب الكل وكالصوف يلف الجمل مجوسى اذا قصد وأم سيان عنده الأخت والام واذا كثر هواه وعم لا يخلى العمة والعم لا يتفلت عنه الأخ والحال كافر في الذي لم يلد ولم يولد » .

وقد أدرك ابن بسام ما ينطوي عليه كلام الشيخ من التورية فبادره بقوله ٧٥ :

« فقلت للشيخ الهتاك لا غفر الله احيالك ولا موتاك قال لي من بهذا افتاك قلت لي اصف القلم فطفقت تصف العلم فقال هذا وصف القلم وما ادري وصف العلم » .

ولا تقل مواقفه في سائر المقامات من حيث البذاء عن مواقفه في المقامات الوصفية فهو في المقامة ( الوعظية ) يقف في جمع من الناس في سوق بلدة تدعى ( عسكر كرم ) يعظ الناس بما ينبذى له الجبين من بذيء الكلام » .

يقول ابن بسام بعد دخوله هذه البلدة ٧٦ :

« فما زلت انفرج في افاقها وانفرج في دروبها وأسواقها الى ان لحقت قائلا والخلق حوله يكلمهم ويردد عليهم قوله ايها الناس قد دنا اجلي ودعاني الى التوبة خوفاً ووجلتي وفي

٧٤ - نفسه ص ٣٣ .

٧٥ - نفسه ص ٣٥ .

٧٦ - نفسه ص ٤٨ .

الجمع من الشباب والكهول والخنثائي والفحول ثم تأوه المسكين وجزع جزع من جرح بالسكين ثم قال للمرد الناعمين الجرد اولادي وثمرة فؤادي جتتكم اليوم كشافع لاعظكم بوعظ نافع وعظتي ان تستكثروا من حرفائكم وتستجذبوا قلوب عرفائكم . الى آخر ما في النص من بدء .

« ثم التفت الى اللاطة مثله الوقف حوله وقال اخواني كونوا من اظرف الحرفاء ولا تجوروا كالظلمة على الضعفاء واثبتوا على دينكم واعلموا ان هؤلاء الاولاد عوان عليكم » .

وهكذا تسير المقامات الفردية يكشف فيها ابو عمر التنوخي عن عدم اخلاقيته وتنكره للقيم الدينية والاجتماعية وكل ما تعارف عليه الناس من المثل وحتى حين عين قاضيا فقد سعى بين الناس بالظلم وقبل الرشوة ولم يتقيد بقوانين الارث ومضى مشبعاً لنزواته ورغباته .

ونحنا اسلفنا فان الحنفي قد وقف موقف المدين لمواقف بطله ابي عمر التنوخي ولذلك فقد نقصها في المقامات الزوجية بمواقف ابن بسام المناقضة فمثلا في المقامة العاشرة وهي في جواب ما تضمنته المقامة التاسعة المعروفة بالقلمية حكى الفارس ابن بسام انه بعد قضاءه مناسك الحج قرر الرجوع الى طرسوس لمنادمة وزيرها وهناك التقى في مجلسه بابي عمرو التنوخي الذي طلب منه ان يرد على مقامته القلمية فقال ابن بسام<sup>٧٨</sup> :

« أما القلم فهو اللسان القويم والصراط المستقيم وهو احد اللسانين واحد السنانين عدة الكاتب وعدة الكتاب ، وهو نديم الأحرار وحافظ سر الاسم ضئيل الجسم به تجري الاقدار وعليه تدور الادوار قوام الأصل والفرع وبه قوام ممالك الشرع وبه نحفظ الدول وبه نعرف الملل الى آخر النص » .

والفرق بين مرمى ابن بسام النبيل مميز على مرمى التنوخي اللثيم ، وهكذا ينقض ابن بسام التنوخي في سائر مقاماته ومع ذلك فان الحنفي لم يرد لبطله أن يضيع الى ما لا نهاية في وادي الضلال فلا بد للشر من نهاية ولا بد لرمزه من الاندحار وهكذا فقد اظهره في آخر مقامة له وهو يعلن عن توبته وذلك في رسالة بعث بها لابن بسام المصري من الحجاز بعد أن أدى فريضة الحج .

يقول في هذه الرسالة<sup>٧٩</sup> :

« من ابي عمرو المودع لرزق ومكر كتبه من مدينة سيد الانام الى ابن بسام امير الكلام . اما بعد من له المنة والطول وبه المنة والحول انني اطال الله بقاءه في عز صاعد واقبال موافق مساعد ما شكر الروض للغنائم وفخرت العرب بالعيان لما اطلعت على مقاصد املتي وطالعت منشور عملي فرأيت اصلاح العمل بالانزواء وقهر الأمل بترك الاهواء ، كما رأيت خراب الفاني بعارة الاخرة وراحة المطمئنة بذبح الامارة الغادرة » .

فاجابه ابن بسام مباركا له توبته النصوح .

لماذا التوبة ؟

ولعل من واجبنا هنا أن نتساءل لماذا وقف الحنفي هذه المواقف الصارمة من ابي عمرو التنوخي ثم لماذا حمل على التوبة في آخر الأمر ؟

الاجابة هي ان الحنفي كتب مقاماته بقصد مدح القاضي ابي حامد ، ولم يكن من المستساغ ان يخلص من مواقف التنوخي الشريرة ليمدح القاضي ولذلك فقد اضطر بمعارضتها بمواقف ابن بسام الصالحة حتى يتهيأ من ذلك للمدح ، وذلك أن قصة المقامة التي تقوم في العادة على النصب والاحتيال لا تصلح أن تتخذ مخلصا للمدح ، فلا بد له اذن من حسن التخلص .

الصنعة في مقامات الحنفي :

تشابهت مقامات الحنفي في نواح عدة مع مقامات الحريري وبديع الزمان نوجزها فيما يلي :

- ١- معظم مقامات الحنفي تبدأ بفكرة الاغتراب حيث نجد الراوي فيها اما في بلاد فارس واما في اليمن واما في طريقه الى بلد من البلدان حيث يلتقي مصادفة بالتنوخي بطل المقامات .
- ٢- كذلك فقد جمع التنوخي عناصر شخصية ابي الفتح الاسكندري فهو جوال وشحاذ ومحتال وذكي ولكنه على درجة كبيرة من الفسق .

٣ - لقد جهد الحنفي في اظهار براعته الاسلوبية والبلاغية لا سيما في وصف الدواة والمحبرة وفي مناقضة هذا الوصف غير انه قصر عن شاو البديع من حيث الجمال التعبيري ونصاعة الاسلوب .

أما مظاهر الاختلاف فتتجلى فيما يلي :

- ١ - ركزت مقامات الحنفي على جانب واحد في شخصية البطل وهو اظهار نذالته وخسته .
- ٢ - كان المدح هدفا أساسيا يخلص اليه الكاتب في نهاية مقامته وليس غرضا ضمن سائر الاغراض .
- ٣ - استحدث الحنفي فكرة المناقضة حتى لا يعتقد بانه يدعو الى تقليد مسلك التنوخي في الحسة والشر وفي هذا تحريف للغايات التي رمى اليها بديع الزمان من قبل لان بطله لم يكن شريرا بل جعل من شخصه مرآة تنعكس عليها امراض مجتمعه .

## ٧ - مقامة الشاب الظريف

مؤلف هذه المقامة هو الامام شمس الدين المعروف بالشاب الظريف وهو ابن الشيخ عفيف التلمساني كان مولده في عام ٦٦٢ هـ وتوفي في سنة ٦٨٧ هـ أي عاش نحواً من خمس وعشرين سنة وهذا مخالف لرأي ابن العماد الذي ذكر انه عاش نحواً من ثلاثين سنة<sup>٨٠</sup> . وقد كان الشاب الظريف ذا شهرة فائقة في عصره وأتيح له الاتصال بالسلطان المملوكي المنصور ( قلاوون ) في القاهرة وهو شاعر رقيق وله ديوان .

مقامته<sup>٨١</sup> :

تقدم هذه المقامة نموذجاً آخر من مقامات المتصوفة فهي لا تلجأ الى الوعظ المباشر بل يغلب عليها الغزل الذي لا يخطيء القارئ مراميه الصوفية . ولعل الاشراق الذي بدت به هذه المقامة يؤكد حقيقة هامة وهي ان الشكل المقامي قد احيط بكثير من الجلال لدى بعض الكتاب المتأخرين فغدت المقامة عندهم قطعة من النثر الفني العالي تحمل مضمونا فكرياً فيه الكثير من اسلوب الرمز وتلك لعمري - سمة الادب الراقى لان من سمات هذا الادب الا يتلقاه الانسان في شكل اوامر أو نواه بل يجب ان يحس بمضمونه يسرى في وجدانه فلننظر فيما اشتملت عليه هذه المقامة .

الاعتراب :

اعتراب الراوي في الفن المقامي يساعده على تخير بيئته ويمهد له تنويع المواضيع التي يتطرق اليها . ولا يحول ذلك دون تصرف الراوي في طريقة الاعتراب اذ ليس من الضروري أن يكون مكان الرحلة بعيداً أو سفراً فقد يكون منتزهاً في نفس المكان الذي يعيش فيه وذلك ما وقع بالفعل للراوي في مطلع مقامة الشاب الظريف .

يقول<sup>٨٢</sup> :

٨٠ - شفرات الذهب ج ١ ، ص ٤٠٣ .

٨١ - ملحقة بديوان محمد بن يوسف الشيباني التلعفري من منشورات المكتبة الادبية بيروت ١٣١٠ .

٨٢ - ملحقة بديوان محمد بن يوسف الشيباني التلعفري من منشورات المكتبة الادبية بيروت ١٣١٠ .

« لم ازل مذ بلغت سن التمييز اتولع بنظم الارجيز وقد شب عمري عن الطرق مغرى بالغرام والتوق اعتمد خلع الازار في حب السالف . ( غير ظاهرة ) واهيم بالشمول والشئائل واشرب في زجاجة صفراء كالاصائل وأقدم على رشف ثغور البيض ولا أقدم حذرا من ضرب المرهفات البيض واتوجه لضم اعطاف السمر ولا اتوجع لضيم انعطاف السمر واتزهر في كل واد وناد واتزهر عن كل معاند ومعاد فخرجت بعض الايام الى الفياض وولجت بين حياض ورياض قد ضاع نشرها وضاء بشرها وقبل خد الشفق بها ثغر الاقحاح » .

لقد اختار المؤلف الروضة الغناء مجالا تدور فيه احداث مقامته ولقد اتخذ من جمال الطبيعة في هذه الروضة أداة يزين بها الخلفية التي تدور عليها احداث المقامة الى جانب ما ابدعه من صنعة لفظية .

المضمون :

أما المقامة فتدور بعد هذه المقدمة في مجلس من المجالس به جماعة يتذاكرون الادب ويروون الشعر والخطب وقد بدا بينهم شاب عليه امارات الغرام فاجب الراوي ان يعلم شيئا من امره فسأل الجماعة عنه فبدت حيرتهم ؛ عندئذ بادروهم الشاب بقوله<sup>٨٤</sup> :

خذوا خبري من نظم دمعني ونثره	عن الحب ينيكم بغمامض سره
ولا تسالوا عمن هويت فإتني	اغار عليه ان أبسوح بذكره
وان رمتسو وصفني لحسن جماله	فايسر ما فيه الجمال بأسره
مليح جلاله ضوء بدر جلاله	ولسكن أراني يوم بدر بهجره
امير جمال ما انتضى سيف ناظر	على عاشق الا وقام بنصره
وقد كان عهدي الدر في البحر قبلما	رايت رضابا منه تجسري بده

ثم يتصاعد زفيره وييدي من الوجد ما لا طاقة لانسان به حتى نرفت له القلوب فطلبوا منه ان يرشداهم الى من هداه الى الوجد فلربما كان بينهم عضد يعاضده او مساعد يساعد فلما الحوا في السؤال قال ودمعه ينساب على خده اما اسمه ( فمحمد ) .

يقول<sup>٨٥</sup> :

« وأما سبب تعلقي بحبه ووقوع قلبي في شرك عينيه وهديه انه تراءى لي بعض الايام بالجامع المعمور وهو من وجهه وشعره كالقمر في الديجور يمس كالقضيبي ويرنو كالرشا الربيب قد حمي وردا خده واقاح ثغره بعقارب اصداغه وحجاب شعره » .

وهكذا تبدو مظاهر العشق الصوفي واضحة في هذا التوله والغرام . فاي حبيب هذا الذي يدعى محمداً ويتراءى في المسجد ان لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

ان الاوصاف الحسية في هذا الغزل لا تحجب عنا الحقيقة ، وقد سبق الشاب الظريف في هذا المنحى كبار الصوفية من نحو ابن الفارض ومحيي الدين بن العربي الذين تغزلوا في الذات الالهية باوصاف حسية حتى لكان المحبوب كائنا ماديا تعالى الله عن ذلك .

ومما يؤكد أن الشاب الظريف أراد هذا المنحى استخدام بطله للاصطلاحات التي ترد في الغزل الصوفي كالشوق والتشوق والارق والتحرق والوجد والصبابة والغرام . والسقام .

يقول :

صبوت الى الصبابة والغرام	ودع ناظري طيب المنام
ومسام القلب من أولاد سام	غزال طرفه من آل حام
يريني الموت في سيف ورمح	مقما في اللواحظ والقوام
جعلت لغيري عنه ورائي	وجبرت الغرام به امامي
فهل لي مسعد في الحب يرثي	لما ألقاه من حرق السقام

فلما فرغ من انشاده نهض آخر من المجلس وصاح جعلت فداك ثم شرح ما يلاقيه هو أيضا من الوجد والبكا والارق والنصب وشبه نفسه في ذلك بعروة الغرام أو جميل الوله والهام قضى فروض الحب وسنته ورعى ذماره وجنى ثماره ثم تخلص من ذلك الى قوله وليس الحق كالضلال فاثار الجماعة بقصته فطلبوا منه التفصيل فروى قصة شبيهة بقصة سابقة محلاة باللوان من الشعر تبعه بعدها آخر واقدم على نفس فعلته وفي الختام يقول الراوي :

« فما بقي احد حتى رق له وود لو حمل وجده ، وثقله ثم عزمنا على التفريق وذهب كل



من الجماعة في طريق وابت وقد ملئت من الطرب ووهنت لما شهدت في يومي من العجب » .

التعليق :

كما رأينا فإن هذه المقامة حافظت على الديباجة المقامية من حيث وجود الراوي وهو المؤلف - وكذلك البطل ولكن البطل فيها لم يكن مفردا بل ثلاثة افراد وظيفتهم في الحقيقة واحدة وهي رواية حال عشقهم . ولم يتعرض موضوع المقامة للكدية لأن المؤلف أراد أن يعبر عن نزعة صوفية في اطار ثري . وقد كان تحيره للشكل المقامي بسبب ما فيه من جلال . وهذه المقامة أشبه باحدى القصائد الصوفية لابن الفارض ومحيي الدين بن العربي ؛ فقد عني الكتاب عناية كبيرة فيها بالصنعة اللفظية كما عني بتوشيتها بالشعر والالفاظ المتقاة وهذا ديدن الصوفية الذين يرون أن الالفاظ في حد ذاتها قادرة على حمل الرموز .

ومن الغريب حقا أن نجد الدكتور محمد رشدي حسن يقول حول هذه المقامة<sup>٨٥</sup> :  
« ولم نجد هذه المقامة تنجس الى ما كنا ننتظره منها في التعبير عن الواقع الحربي الذي كانت تعيشه البلاد الاسلامية حينئذ فلما تتفاعل مقامة الشاب الظريف هذا التفاعل الصادق مع الحقيقة كما تتفاعل الشعر في ذلك العصر » .

إذ ليس من الصحيح القول بأن الشاب الظريف لم يتفاعل في هذه المقامة مع عصره تفاعلا صادقا ذلك أن النزعة الصوفية على الرغم مما فيها من سلبات فانها مغرقة في التفاعل مع الواقع الا انها رفض حاسم للواقع الحسي بكل ابعاده ؛ ومع ذلك فاننا لا نستطيع أن نصادر حكما حاسما على الكاتب من خلال مقامة واحدة هي التي بقيت على الزمن .

## ٨ - مقامات ابن الصيقل الجزري<sup>٨٦</sup>

كتب هذه المقامات أبو الندى محمد بن نصر الله بن الصيقل الجزري الذي حدثت وفاته سنة ٧٠١ والمخطوطة التي بين أيدينا ذات خط رديء يصعب على القارئ النظر فيه وهي مصورة عن نسخة سوهاج ورقمها ٤٦ أدب .

يذكر المؤلف أن سبب تأليفه هذه المقامات إشارة جاءت من أبيه طلب اليه فيها أن يكتب مقامات على نسق مقامات الحريري التي كان شديد الإعجاب بها - فتهيب أول الأمر ثم عاد وكتب المقامات وعددها خمسون مقامة . وقد ذكر بعد الديباجة أن مقاماته فيها « ما يسلب العقول من الغرائب وما يطرب العقول من الخطب اللطيفة والنخب الوديفة ومن حاسب الأمثال ومعادن السجر الحلال الحلي المثال الحلي عن المثال والتمثال ومن العبارات الحسنة والحكايات المستحسنة والمقاصد البالغة الرضية والقواعد السائغة الفرضية والافانين الصادحة الأدبية والقوانين الواضحة الطبية ومن النكت الفقهية والأصول المتداولة النحوية وحليتها بالؤلؤ المنثور وإخليتها من شطر المعنى في الحديث الماثور ونسبت مجموع ذلك الى أبي نصر المصري وعزوت روايتها الى القسم بن جريال الدمشقي ولم أرصع بها شعرا من غير نظم بديهي ولا ثرا من غير رقم قريحتي سوى مصراع لأمريء القيس وأبيات للضمة » .

ويعترف المؤلف بأن غايته من كل ذلك هي التعليم .

يقول : فما نفحتها برند الفصاحة والشيخ الا على سبيل الترشيح وما نفحتها للفظن العليم الا على مهيع التعليم » . . . .

ونلاحظ في هذه المقامات الشبه الكبير بينها وبين مقامات الصفدي<sup>٨٧</sup> من حيث تعدد الحوادث في المقامة الواحدة . فالمقامة قد تبتدىء بديباجة الراوي المعروفة ثم يخلص الى الموقف الذي نلتقي فيه بالبطل ولكنها لا تنتهي عند هذا الحد بل قد تسترسل مصورة بعد ذلك مواقف البطل موقفا اثر موقف من قبيل الاستطراد الذي لا ريب انه أدخل بالبناء الفني

٨٥ - تطور فن المقامة العربية - الدكتور محمد رشدي حسن ، رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة ، ص ١٩١ .  
٨٦ - مخطوطة مصورة رقم ١٥٤٧٨ جامعة القاهرة فرع الخرطوم .  
٨٧ - تعرض لها فيما بعد بإذن الله .

٨٥ - تطور فن المقامة العربية - الدكتور محمد رشدي حسن ، رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة ، ص ١٩١ .



والتصميمي للمقامات .

كذلك فقد نجد الراوية في هذه المقامات يقحم نفسه بطريقة عجيبة في أحداث القصة حتى وكأنه يشارك البطل أحداث مقامته وثمة ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي أنه على الرغم من ادعاء المؤلف بسلاسة مقاماته فهو قد انتهج فيها منهجا وعرا من التكلف لا ريب أن أثر تأثيرا كبيرا في صرف الأنظار عنها .

### تحليل مقامة :

تبتدى المقامة الرابعة الشينية بفكرة الغربة المعروفة في الديباجة المقامية<sup>٨٨</sup>

« روى القنسم بن جريال قال الفت ايان نهاي وابان طراوة اهابي واجتلاء حبابي واختلا أفانين لبابي مداومة الاسفار وانتياي المخارم واجتناب المحارم وانام مع مناسمة السر والساكب ومكاسرة الساو الكاسب ذو حد غير محدود وخد غير محدود ما خالط مسك فودي كافور يهاب ولا خامر مسك جنبي فضول تعاب فلم أزل أضارع نعامي واجعل الخيل طعامي واسبر بالدور الدامي واصير النخب اداامي الى ان أدتني عجوة الشحاء والفقر مناسم العنيس العنساء الى نواحي البصرة » .

ويخلص الراوي من هذا الموقف ليصف ما آلت اليه حاله من الضنك والتعب ويشير على الفور في البحث عن معين يعينه على قضاء ليلته فيقبل عليه رجل يصطحب طفلا ليقوده الى مجلس القوم وهناك يسألهم الرجل عن أميرهم فلما يجبرونه به يشرع في مخاطبة بكلمة سينية جاء فيها<sup>٨٩</sup> :

« السيد السكوب السند الكسوب السامق النسيب السابق الحسيب القصور السقا  
الأسود السحاج الباسم السني الناسل السري المداعس الخميس المنافس النفيس المسعد  
السعيد .

الى أن يخلص الى قوله :

« فأمسيت رسما ليس يسعد كسراتي سوى سيبك السامي السني المساعد » .

ولا يخفى بالطبع الغرض من هذه المقامة وهو التكدى باستخدام البراعة الاسلوبية ولكن كما نرى فإن البطل قد غالى غلوا شديدا في أسلوب صنعته وذلك بتركيزه على حرف السين وهذا نهج قد استخدمه من قبل الحريري ابان فيه قدرة بطله على الارتجال والتلاعب بمفردات اللغة وحروفها . ويبدو أن ابن الصيقل الجزري قد فطن بهذا الأسلوب الذي رأى فيه ضربا من المهارة اللغوية فلم يقصر هذه اللعبة على بطله فحسب بل لا بد وأنه استخدم براعته على لسان الغلام الذي أظهر قدرة لا تقل عن قدرة أبيه فقد ارتجل هو الآخر شينية جاء فيها<sup>٩٠</sup> :

« اشعر الشجاع الشارخ والشرار الشامخ الاقشع الشنخوب الابش الشوبوب الاشع  
الشديد الاقشع الرشيد المشمرى الشكور الشموكلي المشكور شيد مشيد شجاعة وشرد  
مشاخنة بجيش شراسته وشكرت شيم شادت مناشدته وشهرت اشعة شوارف شدته  
وشرفت شهب شهامته واشرفت شمس ششنته » .  
قال الراوي :

« فحين ناهي بشينته وضاهي أباه في سينيته اخرج عضبه وهو من سيول الدما كاب  
والذي في خدور الدما ناب ثم اشار بيده الى رأسه فجعل دمه يتساقط . . . فتشقت  
لمصابها غلائل الشموع وتدفقت لمصابها افواه الجموع » .

ويكشف هذا الموقف عن حيلتهما اذا انهما ارادا استمالة هذا الامير للحرب معها ضد بني سعد التي أغارت على حيهما فيما يزعمان ؛ فيعتذر الأمير عن عدم قدرته على منازلة بني سعد ويعرضهما عن ذلك بمال وفير وذهب نظير .

وكما نرى فإن المقامة لا تخرج عن أسلوب المقامة الفنية في شيء فهي تحوى عناصرها الرئيسية من بطل وراوية وحيلة وصنعة لفظية وان كان ابن الصيقل قد غالى في أسلوب صنعته مما جعل مقاماته تفقد كثيرا من الرواء الذي تتحلى به المقامة الفنية .

٨٨ - نفسه ص ٢٦ .

٨٩ - مقامات ابن الصيقل الجزري ص ٢٨ .

٨٨ - مقامات ابن الصيقل الجزري ص ٣ .

٨٩ - مقامات ابن الصيقل الجزري ص ٢٥ .

## خلاصة :

لم نشأ أن نقف طويلا عند مقامات الجزري ، ذلك لصعوبة قراءتها من جهة ، ولأننا لم نجد اختلافا في أغراضها أو في صناعتها عما درج عليه المقاميون السابقون من جهة أخرى ، فالمقامة البحرانية على سبيل المثال تشبه الى حد كبير المقامة المغزلية عند بديع الزمان الهمداني وفيها نرى الشيخ أبا نصر المصري يمسك بتلابيب أحد المختلين يتهمه فيها بسرقة مكحلتة والخنيث يدعى بأنه خطف ميله ؛ تماما كما احتكم فتيان في المقامة المغزلية لعيسى بن هشام أحدهما يدعى أن الآخر سرق مغزله والآخر يدعى أن صاحبه سرق مشطه . والمقامتان لا هدف لهما سوى إبانة القدرة اللفظية عند كل محتكم في الدفاع عن قضيته وإن المختث في المقامة البحرانية قد قدم صورة أخرى لاساليب المختلين وقدراتهم اللفظية وقد عرضنا الى شيء من هذا عند الحديث عن حكاية أبي القاسم البغدادي ومقامات بديع الزمان .

كذلك نجد تشابها بين المقامة الشامية عند الاسكندردي والمقامة الاسكندرية عند الحريري والمقامة التاسعة والثلاثين عند ابن الصيقل الجزري وموضوع هذه المقامات خلاف بين البطل وزوجته يؤدي بها الى الاحتكام عند القاضي أو الوالي .

ونجد في المقامة السادسة والعشرين الرقطاء عند ابن الصيقل الجزري تقليدا آخر لمقامات الحريري فهو يعجم أحد الحروف ثم يهمل الآخر ويسير على هذا النحو الى آخر مقامته .

وكما جعل الحريري التوبة لبطل مقاماته المكدي في آخر امره فقد جعلها ابن الصيقل الجزري أيضا لبطله في المقامة اليمينية لأنه كان صورة أخرى لبطل الحريري في نصب واحتياله .

وعلى العموم فقد انتهج ابن الصيقل الجزري أسلوبا وعرا في صنيعة اللفظية ربما كان ذلك سببا في نبذ مقاماته .

## ٩ - مقامة الكازروني<sup>٩٢</sup>

مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية  
لظهير الدين الكازروني من أهل المئة السابعة

أكثر من مقامى افرد مقامة خاصة بمدينة بغداد فقد كتب بديع الزمان الهمداني مقامة أسماها المقامة البغدادية هي الثانية عشرة في نظم مقاماته وكتب الحريري المقامة الثالثة عشرة وأسماها البغدادية وعرفت المقامة الأولى من مقامات ابن الصيقل الجزري بالمقامة البغدادية وقد كتب الوهراني أيضا مقامة أسماها ( المقامة البغدادية ) ، أما في العصر الحديث فقد أفرد الشيخ ناصيف اليازجي مقامته الثامنة لمدينة بغداد كما أفرد الشيخ عبد الله بن مصطفى الموصلى مقامة أخرى لبغداد لم تطبع ، وقد ذكر المحققان أنها موجودة عند حفيدة بالموصل . أورد ذلك الدكتور داؤود الجلبى في مخطوطات الموصل .

وليس غريبا أن تحتل بغداد هذه المكانة الزاهرة في أدب المقامة فقد كانت بغداد حاضرة الخلافة الاسلامية في العصر العباسي وهو العصر الذي ازدهر فيه هذا الفن . ليس ذلك بحسب بل إن حياة بغداد في واقع الأمر هي التي شكلت المادة الأصيلية التي اعتمد عليها في المقامة في بداياته الأولى .

من هنا يتضح لنا أن الحديث عن بغداد كان كالانشودة في مزمار الفنان لا بد وأن تنطلق شجبة حافلة ، غير أن الكازروني وإن كتب عن بغداد فانه في هذه المرة لا يكتب عن بغداد الحافلة بل يكتب عن بغداد التي جثت على ركبتيها بعد أن خربها التتار فدالت بذلك دولتها .

## الكازروني . من هو ؟

لم ينل الكازروني حظا وافرا في كتب التراجم والاعخبار فاذا ذكر خبره ذكر مختصرا دون الإشارة الى ما كان عليه من علم وفضل . ورد في طبقات الشافعية<sup>٩٣</sup> أنه ظهير الدين أبو

٩٢ - قامت بنشرها وزارة الارشاد العراقية بمناسبة احتفالات بغداد والكفدي وقد عني بتحقيقها الاستاذ كوركيس عواد وميخائيل عواد .

٩٣ - طبقات الشافعية للسبكي ٢٤٢/٦ .

الحسن علي بن محمد محمود بن الكازروني كانت وفاته سنة ٧٠٠ هـ ورجح المحققان أنه ولد سنة ٦١١ هـ ، درس في أول أمره الفقه والحديث على يد الأمير أبي محمد الحسن بن علي بن المرتضى ثم أبي عبد الله محمد بن سعيد المعروف بابن الديبشي الواسطي وغيرهما وقد ذكر السبكي أن له شعرا حسنا وقد روى له ابن حجر العسقلاني هذين البيتين :

زارني في الظلام أهيف كالبدر بوجهه يلوح منه النور  
قلت أهلا لو كنت زرت نهارا قال مهلا في الليل تبدو البدور

ولقد جمع الكازروني الى صفاته علما واسعا بالفقه والتاريخ وجودة الخط وقد تتلمذ عليه ابن القوطي ويروي ابن القوطي انه خص استاذته بترجمة في كتاب « تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب » . ويبدو أن هذه الترجمة فقدت ضمن ما ضاع من اجزاء الكتاب ونلاحظ أن صاحب الحوادث الجامعة نظر كثيرا الى تاريخ الكازروني وقد فعل كذلك الذهبي .

### المقامة البغدادية للكازروني :

يبدأ الكازروني مقامته بالاغتراب .

يقول في مقدمتها<sup>٩٤</sup> :

« حدثنا قاضي تبريز وهو من ثقات المحدثين وسادات المحدثين قال كنت لا أريم عن بلدي المألوف ولو رغبت بالالوف وكنت ضنينا ان أفارق بلدة بتربتها نيطت على التائم الا اني كنت اسمع من جواب الأقطار وطراق البلاد والامصار أن دار السلام هي كعبة الاسلام وحرم الامام ومعدن الكرام ودار الخلافة ومحل الأمن من الخلافة وبها مقر الملك وسريه وامام العصر وأميره خليفة الله وابن عم نبيه الأواه تدع عن الملوك بالطاعة لسلطانها وتداكك على ابوابه لتفصيل أركانها والعدل بها ممدود الرواق والعلم مديد الاطناب في الافاق والدين منشور اللواء والاسلام محروس الجناب بالخلفاء وقطانها اعذب الناس اخلاقا وأكثرهم حياء واطرافا واثقب العالم بصيرة واعد لهم سيرة » .

بعد هذه المقدمة يمضي الكازروني في وصف اخلاق البغداديين فيخبر عما تميزوا به من

جنو على الصاحب والرفيق وما اتصف به زهادهم من العلم والشهرة بل وما اتصف به سوقتهم من روح الفكاهة والذكاء وحسن الصحبة ؛ ثم يحدث بغد ذلك عن طبيعة بغداد وما تحتويه من أرض طيبة وماء عذب وتخفص في العيش . يقول بعد ذلك<sup>٩٥</sup> :

« فخطر ببالي في بعض الليالي أن البس سربالي البالي وافارق اشبالي واجعل على الله اتكالي فرأيت في المنام قائلا اسمع ندائه ولا التحق مرأه ويملاً سمعي صوته وان كنت لا أراه يقول : يا عبد الله فاذا عزمت فتوكل » .

لقد تخلص بهذا الحلم الى غرضه الأصلي والذي سيذكره فيما بعد تماماً كما يفعل الشعراء حين يتخلصون من مواقف الغزل والمناجاة الى موضوع قصيدتهم الاساسي ؛ وهذا بالتأكيد أثر من آثار الصياغة الشعرية على كتاب النثر .

لقد بدأ الكازروني مقامته بالاطراء على بغداد حتى لكأنه يصف امرأة حسناء جمعت كل صفات الحسن والجمال ثم اذا به يتخلص من هذا الموقف بحلمه هذا الذي يصور بعده كيف خرج اولاده لوداعه ساعة الرحيل والدموع تملأ مآقيهم مثيرة بذلك الشجن والحزن على عادة الشعراء القدماء الذين يبدأون قصائدهم بالنسيب ليخلصوا منه لوصف الرحلة . وعلى الرغم من أن الكازروني لم يفض في وصف رحلته الى بغداد فانه اشار الى ما ستكون عليه من مشقة وتعب وذلك في قوله :

« وانا اعد للرحلة زادي واملا بالماء لبعد المسافة مزادي »

### وصف بغداد في الجزء الأخير من المقامة :

لقد كان الغرض الاساسي من مقامته وصف بغداد ولكن بغداد التي وصفها في آخر المقامة ليست بغداد التي وصفها في أولها بل هي نقيض ذلك تماماً ؛ انها بغداد التي خرجها التناثر .

يقول<sup>٩٦</sup> :

« فلما اقتعدت راحلتي وامضيتها في قطع مسافتي وافيتها بلدة خالية وامة جالية ودمنة حائلة ومحنة جائلة وقصورا خاوية وعراضا باكية قد رحل عنها سكانها وبان عنها قطانها وتزقوا في البلاد ونزلوا بكل واد وقصورها المشيدة مهدومة ونعماؤها مسلوقة معدومة موحشة لفقد قطانها باكية بلسان الحال على سكانها عظام العظام بالية تسفى عليها الرياح السافية فهل ترى لهم من باقية فوقفت ابكيها وانذب ربوعها ومن كان فيها :

وانسب اطلالها تارة وابكى على فرقة الطاعنين  
فلو ذهبت مقلّة بالبكاء لفرط الغرام لكنا عمينا

لقد كان من الممكن بعد هذه الرحلة الطويلة أن يقوم الراوي باكمال وصف مشاهد بغداد بنفسه بيد أنه اكمل الاصول الفن المقامي كان لا بد له ان يبحث عن بطل يشاركه احداثها وقد وجد هذا البطل بطريق الصدفة يقول<sup>١٧</sup> :

« وهناك شخص قد بصر بحالي وهو يذرى دمعه لسباع ارتجالي فقلت له ما جلاؤك فقد اعجبني حالك فقال اليك عنى واذهب الى سبيلك ودعنى فاني اتمتع بالبكاء وأسبح الدمع على هذه الأصداء واقيم ماتم العزاء فلو رأيت من هذه البلدة ما رأيت لأذريت معي الدمع ولا سمع بكأوك الجمع فقلت حدثني كأنني اشاهد وصف لي ما كان بها من المشاهد فقال يتصدع قلبك ويظير لسباع ذلك ليك واذا شئت فاتبعنى وحدث نفسك ولا تروعننى » :

وهكذا فقد شرع بطلنا الجديد - بعد ان تنازل له الراوي - بالتطواف يتبعه صاحب ليوضح له كل ركن من أركان المدينة فاراه حرم الخلافة مهانا بعد ان كان أمانا وطاف به ببعض القصور وأراه ما كانت تزخر به من العز ومن الخدم والحشم ثم أراه دار البطل التي كانت اذا دخل وقت الصلاة ضربت النوبة فيها لتسمع في جميع الأرجاء :

وحين ينتهى الطواف لا يبدو بطلنا سائلا كأبى الفتح الاسكندراني بل يعرض هو على الراوي شيئا من ماله . قال الراوي<sup>١٨</sup> :

« ثم هروا قدامى وأنا أنقل خلفه اقدمى حتى خرج من الدار وقال اما وقد وقفت على الآثار فقلت بالذي حكم بما نحن فيه اجعلني ممن تصطفيه انست بصحبتك نهاري

وخففت فكاهتك تعنى وأفكاري فقال سمعك وطاعة فقد وجب حقك في هذه الساعة فمن صنع قصده الينا وجب حقه علينا وسأنكفى بك الى داري واسهمك درهمي وديناري فيشكرت له عن صالح ما نواه وقطعت أملى عمن سواه فلما صرت معه الى داره ملئت بوجهي اليه لاستماع أخباره فقلت غرضي حيث قد فاتني العيان ان أعرف ما كانت عليه بغداد » .

نلاحظ أن الراوي قد اشار في مقدمة مقامته الى شيء من هذا ثم يعود مرة أخرى ليحدثه البطل عما كان عليه الديوان من نظام وما كان يجد فيه الزائر من القرى والعطايا ثم يحدثه عن منصب قاضي القضاة وما يقوم به من جهد في سبيل مصالح المسلمين وتشييد قواعد الدين ثم يحدثه عن صاحب المخزن وصاحب الباب وكيف يقومان بالتنفيذ الاداري نيابة عن السلطان فاذا فرغ من هذا حدثه عن بهجة الناس وأفراحهم في مواسم الحج والصيام برسم صور جميلة لمظاهر البهجة ؛ وكل ما هدف اليه الراوي من هذا الوصف ان يخلص الى موعظته التي اخرها الى آخر مقامته ؛ فقد دالت تلك الدولة العظيمة بفعل التناثر واما سبب ذلك كما يقول الراوي<sup>١٩</sup> :

انهم قد انتهكوا المحارم وارتكبوا المائم وأصروا على الفجور وسفك الخمر ولا جرم ان العرش اهتز غضبا وسعرت جهنم خطبا وازدادت لها فأخذهم الله تعالى « أخذ عزيز مقتدر » ولقد تركناها اية فهل من مذكر . فإين الملك الباذخ والشرف الشامخ ذهبت والله الشهوات وبقيت التبعات

### نظرة شاملة في المقامة :

تشابه هذه المقامة الى حد كبير مع القصيدة الجاهلية في اسلوب ديباجتها وفي طريقة العرض :

حقا لقد اشتملت على العناصر الرئيسية في الفن المقامي وهي الشخصيات والهدف واستخدام الصنعة اللغوية ؛ ولكن ثمة تصرفا واضحا في استخدام هذه العناصر فقد جعل المؤلف الراوي محورا تدور حوله الأحداث أما الشخصية الأخرى والمفروض فيها ان تكون شخصية البطل فانها تبدو كالظل

٩٧ - المقامة ص ١٦ .

٩٨ - نفسه ص ١٨ .

٩٩ - المقامة ص ٢٨ .

كذلك فانه على الرغم من ان غاية المقامة هي الوعظ فان المؤلف لم يوجه وعظه مباشرة بل قدمه من خلال المقابلة التي تمت بين واقع بغداد بعد ان خربها التتار وواقعها القديم ؛ فقد عزا انهيارها الى تنكبها عن طريق الحق والصواب .

أما الكدية فليس لها وجود في المقامة فقد ظهر البطل المقابل لشخصية أبى الفتح الاسكندري سمحا كريما ونلحظ الى جانب ذلك ميلا واضحا عند المؤلف في تبسيط اسلوبه وعدم الجنوح نحو التعقيد اللغوي وربما كان السبب في ذلك هو تركيزه على المضمون أكثر من تركيزه على الصنعة اللغوية .

## ١٠ - مقامات الصفدي

ذكر المؤلف في خطبتها انه اطلع على مقامات ابن العطار وعددها خمسون مقامة ثم اقتفى اثرها ؛ وليس بين ايدينا تلك المقامات المذكورة حتى نرى من خلالها اثر ابن العطار في مقامات الصفدي . كذلك فقد ذكر المؤلف ان عدد مقاماته خمس وخمسون كتب منها أول الأمر ثلاثين مقامة ثم اتبعها بخمس وعشرين ولكن هذا العدد لا يطابق العدد الذي بين ايدينا وهو ثلاثون مقامة . ومقامات الصفدي لا تختلف كثيرا عن مقامات الحريري من حيث اسلوبها وأغراضها . ومن هنا ليست بنا حاجة الى استعراض المقامات بأسرها ونكتفي بأخذ صورة مجملة عن اسلوب هذه المقامات وأغراضها .

### المقامات :

ينسب المؤلف رواية هذه المقامات لثامر بن زمام واما بطلها فهو ابو فيد اللجوجي . ونرى الراوي يمهّد لموضوع مقامته اما بالرحلة واما بخلق مناسبة يظهر فيها اللجوجي لتدور حوادث المقامة ؛ وذلك على عادة من سبقه من المقامين ؛ فهو في المقامة البغدادية على سبيل المثال يقول : « عاشرت الغربا وياشرت الأدبا وتمزقت في البلاد وتفرقت في كل ناد ودخلت الخانات ونزلت الخانات اقتفى آثار الأجواد واكتفى بجود من جاد وأجاد واكرف عرف الاخبار وارشف عرف الأحرار فما زلت دايرا على قدم التوكل والاستلام الى ان وصلت الى دار السلام فطفت محلاتها ودروبها وشففت محاولاتها وشعوبها تارة اتفرج في أسواقها السنية وتارة اتدزج في أروقتها . . . وتارة على شاطئ الشط المجبور وتارة عند الجسر المكسور فما تركت فيها شارعا الا عبرته ولا مشرعا الا خبرته ولا مجالس الا دخلتها ولا مدارس الا شاهدتها ولا مسجدا الا تنقلت فيه ولا جامعا الا صليت فيه . . . فبينما انا في بعض الأيام ماشيا اذ صادفت حلقة مجتمعة من ساير الاجناس وبينهم شيخ وشاب » .

هكذا يفضي الى موضوع مقامته .

انه دائم الورد الى مجلس من مجالس العلم والدرس ؛ فماذا يدور في هذه المجالس ؟

١٠٠ - مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة فرع الخطوط عن نسخة الجامعة العربية تحت رقم ١٥٤٨٣ ومؤلفها هو الحسن ابن أبي محمد عبد الله الملقب بجلال الدين .

تدور فيها اصناف من العلوم والمعارف يتضح فيها ميل الصفدي الى الناحية التعليمية بشكل أوضح مما ظهر عند المقامين السابقين فهو في مقامته التعزية مثلاً يظهر الراوي جالساً في مجلس من مجالس العرب ؛ عندئذ يأتي الشيخ اللجوجي متوكئاً على عصا يصحبه ولده . فيكرمهما القوم حتى اذا أتى الليل خاطبهم الشيخ بقوله <sup>١٠١</sup> :

« يا ذوي الافهام والعقول والاحكام . . عرفوني كم عدد سور الكتاب العزيز وعرفوني بالمكيات والمدنيات . . وعدد آياته العظيمة وسجداته الكهيمه <sup>١٠٢</sup> ووضع كلماته وشرح آياته ثم عدد حروفه وعدد صنوفه وما في آياته من الوعد والوعيد والامر والنهي بالتهديد واخباره واثاره وقصصه وأمثاله وحرامه وحلاله وتسيحه وتحليله . . وهلمجراً » .

فاذا ظهر عجزهم عن مجاراة طلب من غلامه أن يجيب على اسئلته فيسأله الغلام ان كان يريد الاجابة شعراً أم ثراً فيؤثر اللجوجي الشعر فينشده الغلام قصيدة ( دالية ) فيها الرد على تساؤلاته .

ويكون ذلك مثاراً لاجباب الحاضرين الذين يرفدونه بالعطاء فاذا انصرف تبعه الزاوي ليعرف أمره فيتكشف عن أبي فيد اللجوجي .

### أماكن الدرس وطرق التدريس :

ولا يقتصر الصفدي في مقاماته التعليمية هذه على تقديم أنماط من المعرفة الدينية أو الدنيوية بل ان مقاماته يمكن أن تعتبر مصدراً في دراسة أماكن الدرس وطرق التدريس في عصره فهو في المقامة الدمشقية يقول <sup>١٠٣</sup> :

« حللنا بجامع بني أمية فوجدناه عالي البناء عالي الاركان ، حسن الهندسة والترتيب مستحسن القدسة والتهذيب . وعليه هبة ووقار وأبهة وأنوار وفيه صلوات قائمة ودعوات مستجابة دائمة وتلاوة القرآن مدرارا والأحاديث النبوية ليلاً ونهاراً وأهل العلوم مشغولون بعلومهم والطلبة مغبوطون بتعليمهم وكل حلقة بينهم صدر يوضح لهم من صدره ويشرح

لهم من فهمه وخيره ويذكي شرهم بنهيه وأمره وينكي صدورهم بقدر زناد نظمته ونثره » .

هذه صورة حية لموضع من مواضع الدرس تنبض بالحركة والنشاط مقرها جامع دمشق . فكيف كانت طريقة التدريس ؟

نتلمس ذلك في المقامة الحمصية نسبة الى ( حمص الشام ) وفيها نجد مجلساً من مجالس الدرس يتصدره الفقيه وحوله صبياناه فينهض من بينهم شاب فيقول <sup>١٠٤</sup> :

« أيها الفقيه الامام والنبية العلام والمعلم الحاذق والمتكلم الفائق اسمع هذه الابيات وما فيها من المعنويات وهي على حروف المعجم وكل بيت منها على حرف يترجم وكل كلمة من البيت البديع الوصف لا تخلو من ترصيع الحرف فقال الفقيه انشدنا اياها وانشدنا معناها فقال على حرف الألف وهو بالتقصير معترف . . الخ » .

ثم يسترسل في انشاد مرصعاته التي جمع فيها كثيراً من الحكم والمواعظ فهو يقول من حرف الظاء على سبيل المثال <sup>١٠٥</sup> :

« ظواهر ظلمي ظاهر للحظ ظله      ظليل وحظي مظلم للظاني » .

وعلى حرف القاف :

« قتلت وقلبي بالوقيد محرق      لقوة شوقي والقليل لقائي » .

فيلتفت الفقيه الى صبياناه ويسأل عن طالب بعينه الذكي محمد بن الذكي فينهض اليه فيسأله المعلم أن يجيب الفتى على حرف الألف بخمسة أبيات لا تختلف ولتكن على هذا الوصف وكل كلمة لا تخلو من ترصيع الحرف فينشده الفتى أبياتاً منها :

أقول لفنسان اطال شقائي	واضني فؤادي والحشا بعنائي
امير بحياه اذا بدا واسفر	فالدنيا اتت بضياي
اذا ماس ازرى بالغصون تمائلا	واخجل اقبارا . بسنائي

١٠١ - المقامات ص ٢٣

١٠٢ - كذا في الأصل ويرجح أنها الكريمة وقد وقع فيها تصحيف .

١٠٣ - المقامات ص ٤

١٠٤ - المقامات ص ٢٣

١٠٥ - نفسه ص ٢٨

وهكذا ينادي المعلم طالبا طالبا كي يجيب على حروف المعجم في هذا الشكل الصناعي .  
وهذه ولا شك طريقة في التعليم نعرفها بطريقة ( المجاورة ) أو ( المشاطرة ) أو  
( المجارة ) يبدأ فيها الحديث على نحو ما ثم يتجاوب الطلاب كل بما يقدر عليه من  
الحفظ .

ولعلنا ندرك من هذه الطريقة أن الميل الى الترصيع والصنعة كان يقصد لاغراض علمية  
اذ انه يسهل الحفظ من جهة ويجعل مادة التعلم أشبه بالأحاجي ( الفوازي ) التي تلاقي  
هوى في نفوس العامة .

وهو يتبع طريقة أخرى من طرق التعليم في مقامته الطيور و مادة هذه المقامة كما يبدو  
من اسمها عن الطيور ولكن المؤلف لا يقتصر على الحديث النظري عن الطيور ، بل  
يدعم حديثه برسوم توضيحية متقنة للطيور التي تناولها بالحديث .

### البطل :

لا يختلف البطل في أحواله العامة عن أبطال المقامات السابقين فهو حاضر البديهة قوي  
الحجة شديد الحال والمكر ؛ فقد وصفه الراوي في إحدى مقاماته بقوله ١٠٦ :  
« فرأيت شخصا شين الحال كثير المحال عليه أثر سفر الطريق وبيده عكازة وإبريق وهو  
يتكلم بلسان كالصقيل وجنان كالمنشليل » .

ونجده في كثير من الاحيان مصطحبا ابنه الذي لا يقل براعة عنه وفلسفة هذا البطل في  
الاحتيال لا تختلف عن فلسفة أبي الفتح الاسكندري أو أبي زيد السروجي فهو يقول لثامر  
ابن زمام في احد مواقفه :

اجهد بنفس قوية من قبل ما تأتي المنية  
واكسب من الناس شيئا تحوزه في الجنة  
ولا تكن متواني واعمل عليه بنية  
وخذ من الخافي تعلا وثق برب البرية

وان تجشمت أمرا مهولا فاصبر هنية  
فانك بالصبر تلقى كل الأمور الهنية  
فقد نصبت شراكي لصيد كل عطية  
في الوعظ يوما تراني وفي الأمور الدنية  
امارس الأمر حتى احصل كل قضية  
وتارة انا مفتي في مذهب الشفعوية  
وتارة حتفيا مع مذهب الخنبلية

وعلى الرغم من أن هذه الفلسفة تتوافق مع فلسفة الاسكندري العامة فان الصفدي لم  
يظهر هذا الجانب على النحو الذي أظهره به بديع الزمان والحريري لان الجانب العلمي  
الذي رمى اليه الصفدي قد طغى على كل ما عداه حتى انه طغى على شخصية البطل ذاته  
ونستطيع أن نقول على وجه الاجمال ان بطل هذه المقامات كان أكثر ابطال المقامات علما  
ومعرفة لا سيما في قضايا الدين واللغة والعلم بمفهومه الاصطلاحي .

### خاتمة :

نستطيع أن نجمل القول في هذه المقامات بما يلي :

- ١ - لقد ركز الصفدي في هذه المقامات على الناحية التعليمية سواء كان ذلك من حيث  
المعلومات الكثيرة التي قدمها في مجال الدين والفقه والعلوم أو في وصفه لاماكن  
الدرس وحلقاته أو في طرق التدريس التي كانت متبعة في عصره .
- ٢ - لقد اتبعت المقامات الديباجة المقامية المعروفة فلها راو وبطل وان جنحت الى التطويل  
بشكل ممل في كثير من الاحيان وقد لاحظنا عند قراءتنا لهذه المقامات انها حافلة باللغة  
العامية والاختطاء الاملائية .
- ٣ - لم يختلف البطل في فلسفته العامة عن ابطال المقامات السابقين ولكن شخصيته  
العلمية كانت غالبية على ما عدا ذلك من سلوكه وتصرفاته .



## ١١ - مقامات ابن المعظم

مؤلف هذه المقامات هو العلامة بدر الدين أبو المحامد أحمد بن المعظم بن المختار الرازي كان موجودا في سنة ٧٠٠ هـ .

ذكر أنه ألف مقاماته معارضة لمقامات الحريري لأنه وجد الافتتان بها أي مقامات الحريري قد جاوز حد المعقول مما لا يجوز مع وجود القرآن الكريم بل إن بعضهم بلغ بها حد الإعجاز الذي هو خاصة يتفرد بها القرآن الكريم فكان ذلك مدعاة لانكار الغلو وأدى بالتالي إلى نظم هذه المقامات في معارضة الأولى ولكن الغريب أنه اعترف في آخر الأمر أنه قصر عن شأو الحريري .

يقول ١٠٧ :

« وبعد فقد جرى ببعض الاندية ذكر المقامات التي أنشأها الرئيس أبو محمد الحريري رحمه الله فبالغوا في وصفها واطرائها ومدحها وثنائها حتى قال بعضهم لو اجتمع على الناس أن يأتوا بمثلها لا يأتون بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، فانكرب عليه هذا الغلو غير على القرآن الذي يستحق العلو فقال لي هذا المبالغ فات انت بعشر مقامات مثلها مفرعات أو عشر حكايات منها مخترعات وأمهلني مليا فبحث بما سألت شيئا فريا في مدة يسيرة وأزمنة قصيرة هذا وإن كان لا يبلغ سوقه شأو ملك ولا يجري كوكب جرى فلك ولكن من قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله وليس ما لا يدرك كله يترك كله ولا بد مع هذا من ذبا والديوان تلو الثريا » .

فهو إذن يعترف بقصوره عن شأو الحريري .

فأين المعارضة إذن ؟

لقد كان جديرا به أن يأتي بمقامات تفوق في نظمها مقامات الحريري حتى يثبت أن الأولى لا تستحق درجتها من الجلال أو ليرتك المجال لغيره .

١٠٧ - المقامات الاثنتا عشرة لابن المعظم تحت رقم ٢٠٨٨ بدار الكتب .

## المقامات

لم تتفقد هذه المقامات بالعدد الذي طلب إليه الكتابة فيه وهو العشرة كما لم يبلغ بها عدد مقامات الحريري وهو الخمسين بل كتب اثنتي عشرة مقامة وهو يعول على هذا العدد أهمية خاصة يقول ١٠٨ :

« قال أحمد بن محمد هذا آخر المقامات وهي اثنتا عشرة مقامة وإنما اقتضت على هذا العدد لأنه عدد معتبر عند الحساب وهو مذكور في مواضع من الكتاب قال الله تعالى إن عدد الشهور عند الله اثنا عشر شهرا - الآية - وقال الله تعالى وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال وقطعناهم اثنتي عشر أسباطا » إلى آخر كلامه .

\*\*\*

لم تتفقد المقامات الاثنتا عشرة بالعناصر الفنية في المقامات الهمدانية فليس لها راو واحد بل إن الرواي فيها شخصيات متعددة وتسمى المقامة في العادة باسمه ، فمثلا :

يقول المؤلف في المقامة الأولى « حكى القعقاع بن زنباع » وتسمى المقامة القعقاعية .

وفي الثانية « حكى الجحجاح بن جهجاه » وتسمى المقامة الجحجاجة وهلم جرا في سلف المقامات . واسماؤها على التوالي « الدجلانية والصلصالية والطرماحية والضمضية والبرقانية والدغفلية والمجاشعية والعرعارية ما عدا المقامة الثانية عشرة وتسمى اللبنانية نسبة للمكان الذي تدور فيه أحداثها » .

كذلك فليس لهذه المقامات بطل واحد يمكن أن نستقريء ملامحه وخصائصه كما فعلنا مع أبي الفتح الأسكندري ؛ فقد ركز المؤلف فيها على ( الحادثة ) وقام هو في بعض الأحيان بالبطولة ، والمقامة الوحيدة التي نجد فيها بطلا متميزا هي المقامة ( اللبنانية ) وبطلها ( برطوم بن معروز ) .

ومع ذلك فإن ابن المعظم قد جهد في أن يجمع في هذا العدد القليل من المقامات معظم العناصر الموضوعية في مقامات الحريري غير أن روح التحدي التي غلبت عليه افسدت

١٠٨ - المقامات ص ٢٠



طابع مقاماته وجعلتها خالية من الماء والروح .

ففي المقامة الأولى على سبيل المثال مناظرة بين الطويل والقصير دل فيها الطويل على القصير بطوله قائلا ١٠٩ :

« يا قصير الخطا كثير الخطا انت أقصر من إيهام القطا وأنا أصدق فيك من القطا اليس يمدح الطويل بطول النجاد وطول العماد كما يمدح السخي بوري الزناد وكثرة الرماد اليس الطويل ذو الجهارة والبهاء والقصير في الحقارة كالهباء » .

فرد عليه القصير ١١٠ :

« يا خيط الباطل وسم العاقل انت أقل نفعاً من لات ومناة وإن كنت أطول من ظل الفتاة اليس يوصف ليل الفراق بالطول كما يوصف يوم الوصال بالقصر ؟ والطويل يلزم الهوج والخرق والعوج والحمق كما أن القصر يقارن الكيس والدها والحدق والذكا » .

ويكون ذلك منفذا لمباراة لغوية تجري على سبيل التحدي بين الطويل والقصير يطلب فيها القصير من الطويل ذكر أسماء الطويل والقصير بلا توقف وتكون إجابة السؤال على لسان القصير الذي يذكر من هذه الأسماء خمسة ومائة فيقر الحاضرون بأن القصير جلد أنف الطويل وأن الطويل لا يغني عنه طوله كما أن القصير لا يزري به ذبوله ١١١ .

وكما نرى فإن المقامة لم تهدف لغير المقايسة اللغوية فقد اجهد فيها الكاتب نفسه بحثاً في القواميس عن أسماء الطويل والقصير ؛ حقاً لقد اهتم الحريري بهذه الناحية في مقاماته ولكن اهتمامه لم يكن على حساب البناء الفني والموضوعي الذي افتقر إليه ابن المعظم .

كذلك فلا نجد اختلافاً في المنحى في مقامته الثانية ( الجحاحية ) وموضوعها بيان أن العالم العامل هو الخليفة والسلطان وهو ولي الأمر وبالأمر أولى ؛ وفي مقامته الثالثة وتدعى الدجلاجية وفيها تحتال امرأة عجوز على الراوي اللجلج فتزوجه - في الظلام - من امرأة قبيحة بعد أن زينتها له بالفاظ فتشن المؤلف عنها طويلاً في بطون القواميس يقول ١١٢ :

١٠٩ - المقامات ص ٤ .

١١٠ - نفسه ص ٦ .

١١١ - المقامات ص ١٦ .

« حكى اللجلج بن لاج قال بينا أنا جالس بالموصل في رحلي أفكر في أمير فحلي إذ دخلت على جلنقة جلغريز لطلط غيضمور فرشاح درديس شهيرة عتريس ملوقة دلقسم طرطبة هردية فلسمت على وجلست لدى ثم قالت هل أدلك على خور ممكورة خينداه هذكورة مرمارة مرمورة حفج هركولة بهكنة » .

ويعضي الأمر بالراوي حتى يخلص من زوجته بالطلاق والمقامة كسالفتيها لا تخدم سوى الغاية اللغوية لأن مضمونها ضعيف للغاية .

وأما المقامة الرابعة فيتوجه فيها الراوي بحديث إلى أحد الفقهاء وجده حزينا ١١٣ فأوسع بمقايساته اللغوية الوعظية ( أما والله إن العالم العامل ملك سريره وبصائره نصيره وخزائنه رزائنه وجنده جده وجده وخدمه قدمه ) .

وتسير الخامسة الطرماحية على نفس النهج إذ احتكم فيها خصمان إلى القاضي فقال أحدهما ١١٤ :

« يا شديد الكفر والاحقاد ويا ظالم وياقواد إذ انت الذي تأكل الميتة والدم وتشهد على ما ترى وتعلم وتحب الفتنة وتبغض الحق وتهريق دم المسلمين وتلصق جهارا في الغلوات ... » .

فلا يرى القاضي في ذلك حرجاً بل يقول للآخر ١١٥ :

« اعلم أن كل ما ذكره لك مدح وليس بقبح وتزكية وليس بجرح أما ما رماك به من الكفر فالكفر في اللغة هو الستر يقال للبحر كافر وللليل كافر ... وأما ما رماك به من الاحقاد فالاحقاد في اللغة إنما هو الميل ومنه اللحد فكأنه مدحك بميلك إلى الحق ... وقوله ياقواد ياقواد والقواد القائد الرئيس المتقدم الذي يقود عسكراً ... وقوله تهريق دم المسلمين أراد به العضد والحجامة وقوله تلصق جهارا أراد أنك تطين حوضك يقال لاط الحوض إذا طينه » .

وكما نرى فإن المقامة أيضاً بحث في مفردات اللغة وإن اتسمت بشيء من الظرف غير المستحب .

١١٢ - المقامات ص ٢٠ .

١١٣ - نفسه ص ٢٣ .

١١٤ - نفسه ص ٢٣ .

الحريري لما غلب فيها من الصنعة والتكلف

كذلك فان اغراق الكاتب في حشد المفردات وايراد المقاييس اللغوية جعل من العسير على القارئ ان يميز لهذا الكاتب شخصية أسلوبية معينة فقد كان قصاراه مجازاة أسلوب الحريري ولكنه قصر عن فهم مراميه وظن أن الاغراق في الوعورة وحده كفيلا بأن يلحقه بمذهب الحريري .

ولا تختلف باقي المقامات في هدفها اللغوي ؛ ففي المقامة الثامنة نجد مناظرة بين سمي الشمس وسمي القمر كل منهما يثبت فضل سمي ويغيب سمي الآخر .

ولا يفوت ابن المعظم في هذا الفيض الزاخر من التلاعب اللغوي أن يدخل بعض الاحاجي والألغاز كما في المقامة التاسعة وقد صاغها في قالب الشعر .

وعلى الرغم من أن ابن المعظم لم يتخذ لنفسه بطلا يسبق عليه صفات المكر والخداع والحيلة كما فعل الحريري ومن قبله بديع الزمان فاننا نجده في المقامة الأخيرة يخصص بطلا بعينه في موقف من مواقف التوبة ؛ يقول في المقامة اللبنانية<sup>١١٥</sup> :

« حكى صمصع بن نواس قال بينا أنا اطوف في نواحي لبنان اذ سمعت في غيرانها انينا ومن جيرانها حنيناً فدخلت بعض تلك المغارات اثر تلك الاصوات قرأت فيها صاحبنا فرطوس بن معرور قائماً وراكعاً وساجداً وخاضعاً وقائماً وخاشعاً وعهدي به من قبل منهمكا في المناهي منسلكا في سلك الملاهي وقد صار منوعاً عن المحارم متبرعاً بالمكارم متمسكاً بالورع والتقوى متمسكاً بنهى النفس عن الهوى » .

وسبب توبته أنه مر ذات يوم بمسجد بني قضاة فسمع وعظاً رجعت فيه نفسه الى طريق الخير والبر .

ولا نجد سبباً لمثل هذه التوبة في مقامات ابن المعظم سوى تقليده للحريري الذي جعل بطله أبا زيد السروجي يتوب في آخر مقاماته وذلك حتى تتجسد في المقامات قيمة أخلاقية لأن ابعاد شخصية البطل المقامي عند الحريري لا توافق المثل الانسانية العليا ولا تناسب طبيعة المجتمع الاسلامي الذي يجهد الكتاب في التوافق مع مبادئه .

ولم يكن ابن المعظم بحاجة لمثل هذه التوبة لانه لم يخصص بطلا معيناً ارتسمت عليه سمات أبي زيد السروجي أو أبي الفتح الاسكندري .

### التقويم :

نستطيع ان نجمل القول بأنه على الرغم من أن مقامات ابن المعظم شاركت مقامات الحريري في بعض أهدافها كالاحتيال والوعظ والتوبة فانها قصرت عن شأو مقامات

بين أيدينا من مقامات ابن الوردى أربع مقامات عالجت مواضيع مختلفة وهي المقامة الصوفية والمقامة الانطاكية والمقامة المنجية والمقامة المشهدية ؛ وجميع هذه المقامات تحقق رأينا الذي ذكرناه في موضع سابق من هذا البحث وهو أن الكتاب قد وجدوا في الشكل المقامى مجالا يسدون به الفراغ الناجم عن عدم وجود فن المقالة في الأدب العربي القديم . اذ الملاحظ أن ابن الوردى لم يكن يهدف في مقاماته كتابة قصة أو تصوير نموذج انساني بل كان يريد أن يعبر عن مجموعة من الأفكار لا يجد لها الكاتب في العصر الحديث انسب من فن المقالة الأدبية مجالا ؛ والذي دعاه أن يكتب هذه الأفكار في الشكل المقامى عدم تميز فن المقالة في الأدب القديم ، مما جعل بعض الكتاب يلجأون الى هذا الاطار المقامى للتعبير عن آرائهم بعد تطويعه للغاية التي يريدونها .

### المقامة الصوفية :

يحتفظ ابن الوردى في هذه المقامة وفي سائر مقاماته بشخصية الراوي ويرمز اليه بانسان من معرة النعمان ؛ وتبدأ المقامة بالرحلة حيث يتجه الراوي فيها الى القدس الشريف . وفي الطريق يجد عينا كعين الحسناء تجري على صخر وبعد أن يتوضأ منها يطلب من الله أن يعوضه عن تعب بصحبة من يذله على الطريق فيجيب الله دعاءه فاذا بعشرة رجال بينهم شيخ كبير يحيطون به كما تحيط الهالة بالبدر .

قال الراوي<sup>١١٧</sup> :

« خاضوا في بحث يسرونه منى ومناظرة يخفونها عنى بلفظ ألطف من النسيم ومعنى مزاجه من تنسيم وأطالوا في الجدال وأنا لا اعلم حقيقة الحال فلحظهم الشيخ شزراً ونظر اليهم تارة والى اخرى وقال اما أن تكفوا حثكم واما أن تطلعوا أخاكم الآخر على أول

بحثكم فتنبهوا الى وأقبلوا على وقالوا أيها الأخ ان بحثنا الدقيق في طريق هي السر المكتوم وغوصنا في منهاج هو مفتاح العلوم . . . قلت قد وعيت على رمزكم وانتهيت الى كنزكم نريدوني ايضاحاً زادكم الله اصلاحاً قالوا نحن أيتها العصابة لنا في التصوف رغبة وجدالنا معاشر الرفقة في لفظة التصوف مم هي مشتقة » .

هكذا افتعل المؤلف هذا المشهد المقامى ليخلص الى تفسير الكلمة التي تصدى الشيخ للاجابة عن أصلها وفصلها فأسفر عن علم واسع باصل التصوف ومنهجه وغدا ذلك مناسبة كي يقبل الراوي عليه يسأله عن صوفية الوقت وبعض مظاهرهم وطقوسهم فيجيب باجابات شافية عن مدلولاتها ثم يخلص الى قوله<sup>١١٨</sup> :

« فان المتصوفة اليوم أصحاب أكل وشرب ونوم يروون الأقوال ولا يتبعون الأفعال وافقوهم ملبسا وخالفوهم أنفساً يدعون ما لبسوا من رجاله ويخيرون الشخص بين عرضه وماله يحبون الجاه والشهرة ويؤملون برد النعيم على فترة » .

وهو كما نرى رأي شبيه برأي ابن الجوزي الذي مررنا به من قبل حين عقد مقارنته بين صوفية الزمن الحاضر والزمن القديم .

وكما يبدو فإن المؤلف أراد من مقامته التعريف بمذهب التصوف وأصوله ثم تمييز التصوف الحقيقي عن التصوف الزائف . والموضوع بأسره يناسب فن المقالة كما ذكرنا .

### المقامة الانطاكية :

اما المقامة الانطاكية فيبدأها هذا الانسان من معرة النعمان بالرحلة الى أنطاكية فيجدها مدينة رائعة يخلص فيها الى مجلس واليها فيجده في غاية الضيق ؛ عندئذ يسأله عن حاله فيجيب<sup>١١٩</sup> :

« جمعت هذه المدينة بين عرب وروم وأنا معهم في الحى القيوم لا أطيق فيهم قراراً لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ومن يطيق الجمع بين الضدين أم من يقدر على موالاة دين وكيف يظفر ساكن انطاكية بنيل ارب وقد حنيت أضلع العجم على بغض العرب كم

١١٦ - صاحب هذه المقامات هو الشيخ الامام العلامة زين الدين أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر بن الوردى توفي سنة ٧٤٩ هـ وهي مطبوعة مع لامية العرب للشترى ط الحواشي .

١١٧ - المرجع السابق ص ١٣٣ .

١١٨ - نفسه ص ١٣٧ .

١١٩ - نفسه ص ١٣٨ .

أجد ويلعبون وهم من بعد غلبهم سيغلبون » .

هكذا تمضي المقامة لتعبر عن هذه الحالة النفسية التي يعيش فيها الراوي من الصراع الدائر في ولايته فإذا سأله الراوي عن سبب بقائه فيها أبان أنه مكره بسبب الرسوم الكريم الذي غمره بالعطا وإذا خالفه سطا ؛ ولذلك فهو ينتظر ساعة الخلاص .

### المقامة المنهجية :

كذلك ففي هذه المقامة يسافر الراوي الى ( منبج ) فيجدها دارسة واجدة ترقب في حسرة فيرجع أيامها القديمة وقد حسد فيها الغراب على النوح وسواد الثياب فقصد فيها مدرسة ( النورية ) فإذا مدرستها هو القاضي الذي وقع من الراوي موضع الاحتقار لجداته سنة فأراد تحجيلة .

قال الراوي :

« قلت في لجأتي نحن عشرة ذرو نسب وأولو علم وأدب وقد أشد كل منهم بيتي شعر سامها فضل شعر وأقام وزنها وقال انما وانما وانا رسول أصحابي اليك لتتصف بيئا وقد دلت عليك » .

والمقامة بعد ذلك سرد للآيات ثم تعليق من القاضي تدل على ملكة نقدية وذوق فمثلا روى الراوي لنفسه قوله :

زائرة زارت بلا موعد افندي بمنا امليكه منبرها  
فقلت ما ذا وقته فارجعي وعلاؤديني ليلته غيرها

فقال القاضي

« هذا منوع الأدب بالأدب والدليل على ضعف الطلب اثره ترك متفضلة وترجع خجلة » .

وينتهي الأمر باعجاب الراوي ثم باعتذاره عن تسرعه بالاحتقار ، والواضح أن غاية هذه المقامة هو النقد القائم على الذوق . وفيها قيمة أخلاقية أخرى وهي عدم التسرع في

اصدار الأحكام على الآخرين دون اختبار كنههم فلكم قاسي الاسكندري والبيروني من مثل هذا التسرع فيما قبل .

### المقامة المشهدية :

اما المقامة المشهدية فيبدوها الراوي بقوله :

« لما انست النفس شهر نيسان الذي هو لمنطق الطير فصل ولعين كل حيوان انسان وقد جلبت البسطة من السندس بسطا وكللت الاغصان من زهر الزهر سمطا ورضيت الرياض عن سحب أذيال السحاب عليها ونظرت العيون بنظرها اليها حنت النفوس الى معاودة العوائد وحثت على مشاهدة المشاهد وارتقيت فرح المفرح ومألفها ولوت عنقها عمن عنفها وطلبت مركزها من دائرة الديور ورأت تقاعدها عن مقاعدها بتلك القصور من القصور » .

وفي طريق الرحلة يقابله أمير فيعنفه على هذه الرحلة ويقول له « لقد افتي المفتون ان مشاهد المشاهد مفتون وها أنا قد جردت من دار العدل المعمورة لاغيب جاضري المشاهد وأزري على كل زائر الديورة » .

فقال له الراوي وهل لهذا التحريم دليل فقال ان له أدلة « تدع اعزة حاضريها أدلة ؛ منها شد رحالهم الى غير المساجد الثلاثة ومشاركتهم أهل الكتاب في الأعياد والخبائة وتشبههم بالمجوس في اضرار النار واضاعة المال المنهي عنها في الاخبار واختلاط النساء بالرجال . . . . » الى غير ذلك ثم امره بأن يترك هذه البدعة ويرجع الى أهله فانتهي برعظة ، والمقامة في حقيقتها مدح لأمير المعرفة الذي ابطل كثيرا من البدع .

### تعليق :

كما لاحظنا فان هذه المقامات تنوعت في أغراضها ولكنها مع ذلك لم تركز على الناحية القصصية لان المؤلف كان مستغرقا بالتعبير عن مضمون القضايا التي عالجها في مقاماته . وعلى الرغم من احتفاظه بشخصية الراوي فلا نجد في هذه المقامة بطلا يحتفظ بالمقومات الأساسية لبطل المقامة ، اما عنصر الكدية أو الحيلة فلا وجود له ؛ وكما قلنا فان هذه

المقامات تشبه الى حد كبير المقالات الأدبية التي تجنح لمعالجة مسائل فكرية أو قضايا عامة وقد اثر هذا المنحى في الاسلوب الذي كتبت به هذه المقامات حيث مال ابن الوردي الى الاسترسال وعدم التوقف امام الصنعة اللفظية المعقدة في مقاماته .

### ١٣ - مقامة القلقشندي ١٢٢

كتب القلقشندي فصلا عرف فيه المقامة ثم اتبع تعريفه بمقامة له وأخرى لابن الفاسم الخوارزمي ؛ ويهمننا في أول الأمر أن نتعرف على تعريف القلقشندي لهذا الفن لأن ذلك يدلنا على صورة من المفهوم الذي آلت اليه المقامة في القرن الثامن يقول ١٢٢ :

« هي جمع مقامة بفتح الميم وهي في أصل اللغة اسم للمجلس والجماعة من الناس وسميت الأخدوثة من الكلام مقامة لأنها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها » .

فالمقامة اذا بحسب تعريفه هي الحديث أو بلغة العصر هي المقال الأدبي ؛ ولا يمنع بالطبع ان يكون هذا المقال قصة .

أما هذه المقامة التي بين أيدينا فقد كتبها حين استقر به الأمر في ديوان الانشاء بالأبواب الشريفة وقد اشتملت على جملة حجة من صناعة الانشاء وقد وجه فيها الحديث لتقريب المقر البدرى بن المقر العلائي بن المقر المحيوى بن فضل الله صاحب ديوان الانشاء في مصر في ذلك العهد .

يقول ١٢٣ :

« جعلت مبناها على انه لا بد للإنسان من حرفة يتعلق بها ومعيشة يتمسك بسببها وان الكتابة هي الحرفة التي لا يليق بطالب العلم سواها ولا يجوز له العدول عنها الى ما عداها مع الجتوح فيها الى تفضيل كتابة الانشاء وترجيحها وتقديمها على كتابة الديونة وترشيحها وقد اشتملت على بيان ما يحتاج اليه كاتب الانشاء من المواد وما ينبغي أن يسلكه من الجواد مع التنبيه على جملة من المصطلح بينت مقاصده ومهدت قواعده » .

### المقامة :

على الرغم من أن هذه المقامة تجنح الى الكتابة ( المقالة ) بحسب الاصطلاح الحديث فقد رأينا القلقشندي يجعل لها راويا هو ناثر بن نظام ويجعل لها بطلا هو الذي يقوم بتبصير

١٢٢ - كتبها سنة احدى وتسعين وسبع مائة . صبح الأعشى ١١١ / ١٤ .

١٢٣ - نفسه ص ١١٠ .

١٢٤ - نفسه ص ١١١ .

الراوي بالقواعد السابقة الذكر حفاظا منه على الدباجة المقامية .

وفي مقدمة المقامة يوضح الراوي كيف أنه صرف جهده الى غاية العلم قانعا بادننى العيش يقيد نوادره ويؤثر من الفنون الطفها مما تألفه النفس ، ولا ينفرد منه الطبع ينتقى من الكتب امتعها تصنيفا وتحريرا وقد استغنى بها عن كل خل ورفيق ولكن هذه الحالة لم تدم معه اذ اقعده قيد الاكتساب عن طلب العلم وتعارض فيه حكم العقل بين الكسب وطلب العلم فوجد الحالين متساويين عنده في الترجيح ولا يقوم أحدهما الا بصاحبه فازدادت حيرته ورأى أن يجد عملا لا يتعارض مع العلم ؛ وبينما هو على هذه الحال القلقة اذا به يسمع صوتا ينشد<sup>١٢٥</sup> :

ان كنت تقصدني بظلمك عامدا	فحرمتم نفع صدائقة الكتاب
السائقين الى الصديق ثرى الغنى	والناعشين لعثرة الأصحاب
والناهمضين بكل عبء مثقل	والناطقين بفصل كل خطاب
والعاطفين على الصديق بفضلهم	والطيبين روائح الاثواب
ولئن جحدتهم الثناء فطالما	جحد العبيد تفضل الأرباب

فأعجبه هذا الوصف الذي رآه من صفات الملوك ؛ فلم يك يظن ان للكتابة مثل هذا الخطر الجسيم ، فلما سمع الرجل هذا الخاطر منه أعرض مغضبا ثم قال له « انما لمن أعظم الصنائع قدرا » ثم أخبره ما كان من ذكر فضلها في القرآن الكريم الى أن يقول<sup>١٢٦</sup> :

« فالكتابة قانون السياسة ورتبتها غاية رتب الرياسة عندها تقف الاناقة واليها تنتهي مناصب الدنيا فينشده مترنما :

قوم اذا أخذوا الاقلام من غضب ثم استمسكوا بها ماء المنيات  
نالوا بها من أعاديهم وان بعدوا ما لم ينالوا بحسد المشريفات  
فيعلم الراوي أنه يريد كتابة الانشاء ؛ فيخبره أن قوما يفضلون كتابة الأموال مستشهدين  
بفقرة من أبي القاسم الحريري في احدى مقاماته يشيد فيها بصناعة الحساب فيعارضها  
البطل بمثلها ويبين بطلان حجته فيقتنع الراوي ويسأله عما يحتاج كاتب الانشاء الى ممارسته

فيقول البطل<sup>١٢٧</sup> :

« اعلم ان كاتب الانشاء لا تظهر فصاحته وتبين بلاغته وتقوى براعته وتحل براعته الا بعد تحصيل جملة من العلوم ومعرفة الاصطلاح والاحاطة بالرسوم ثم أهم ما يبدأ بتحصيله ويعتمد عليه في جملة الأمر وتفصيله حفظ كتاب الله العزيز . . . . . مع العلم بتفسيره . . . . . وما يتعلق بذلك من مهمات الدين وقواعد الاسلام وما اشتمل عليه كلام النبوة من الألفاظ البديعة . . . . . والمعاني الدقيقة . . . . . والعلم بالاحكام السلطانية وفروعها . . . . . والتوغل في اشعار العرب والمولدين وأهل الصناعة من المحدثين . . . . . الخ » .

ثم يحدث بعد ذلك عما تكمل به الصناعة كعلم الكلام واصول الفقه وسائر الأحكام وحسن الخط ومجمل قوله الا يتناول هذه الصناعة الا من يثقف نفسه ثقافة عالية .

وفي آخر المقامة يخلص الراوي الى سؤال يكون مدخلا للمدح والثناء وهو قوله<sup>١٢٨</sup> :

« قلت فهل هذه الرتبة الرئيسة والمنقبة النفيسة سمط يعمها أو سلك يضمها فقال سبحانه الله ان بيتها لاشهر من قفا نيك وأظهر للعيان من شائحات جبال النبك . . . . . ان ذلك لقاصر على آل فضل على « آل فضل الله » حقا ومنحصر في المقر البدرى صدقا فهو قطبها الذي تدور عليه وابن بجدة التي ترجع في علومها ورسومها وسائر أمورها اليه » .

وهكذا فان هذه المقامة وان هدفت في آخر أمرها الى غرض شخصي وهو المدح فان القارئ لها لا يكاد يخطيء الهدف من ورائها وهو بيان أصول كتابة الانشاء ويبدولنا من خلالها الالتقاء واضحا بين أدب المقامة وأدب المقالة .

١٢٧ - نفسه ص ١١٨ .

١٢٨ - نفسه ص ١٢٤ .

١٢٥ - نفسه ص ١١٣ .

١٢٦ - نفسه ص ١١٥ .

## ١٤ - مقامات القواس ١٢٩

كتب هذه المقامات شمس الدين محمد القواس الحلبي للجناب العالي شهاب الدين احمد ابن المرحوم الجمالي اتوش الناصري كان موجودا في عام ٨٨٦ هـ . اما عددها فتسع مقامات اسمها على أسماء البلدان وهي المقامة المكية والدمياطية والصفدية والدمشقية والطرابلسية والحموية والمعنوية والحلبية والقاهرة .

يقول القواس في سبب تأليفها :

« فعزمت على تأليف ما سمحت به القرينة واستخرت الله في ذلك وأسأله الستر يوم الفضيحة فاقمت مقامات تسع تسر بها الالباب وجعلتها فصولا وابواب ووشحتها بادعية سامية المقدار وسميتها رياض الازهار ونسيم الاسحار ورصعتها بكمال الفنون من شعر معرب وزجل ملحون ونوعته بهزل ولكن بماء الجذ معجون » .

انه نفس المنطلق الذي انطلق منه معظم المقامين فلننظر في بعضها لنرى كيف عالج موضوعاتها .

### المقامات :

١ - المقامة الاولى ذات هدف وعظي فقد اسند المؤلف روايتها لاحد العارفين خرج الى الحج من بلاد اليمن مع بعض الركاب فنفتت راحلته فوجد العون لدى رقاء الرحلة الذين اعانوه حتى دخل مكة وقضى فيها ليلته الاولى وفي الصباح بعد اداء الفريضة نظر فوجد الناس مسرعين الى المقام فلما سأل عن امرهم اخبروه انها ساعة وعظ وطاعة جفط فاسرع معهم الى موقف الواعظ فاذا بالواعظ ينادي بترك الشهوات والانشغال بالاعمال الصالحات وسلك سبيل التواضع وقد كان الواعظ يحلى كلامه بالشعر فقد انشد والدمع ينهمر من عينيه ١٢٠ :

من الحمى فشرت  
عهدا مضى بطيبة

طابت نسيات سرت  
قد هيجت وذكرت

١٢٩ - مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٢٣٥٩ .

١٣٠ - مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٢٣٥٩ ص ٣ .

فهمت لكن غيرت عن الغرام عبرتي  
فذهب ذيك الهوى . ذكرت عهدا يا اخي . مضى بسلع واللوى  
فما احيله نسمة هبت من احبابي على  
يقول الراوي ١٣١ :

« ففارقته وغدت الى الركاب راجع وانا اعرض على فراقه الا صابح حتى تجافت جنوبي  
عن المضاجع وتركته على العبادة مجتهد واورثنى بفراقه نارا تنقد » ١٣٢ :

٢ - واما المقامة الثانية فهي ذات هدف ادبي بلاغي ؛ وفيها شيء من الحيلة فقد اتفق الراوي وهو احد الشعراء مع رفيق له ان يرثي حاكم دمياط وحين يصلان يمدحه الأول ثم ينهض الآخر ويتهم رفيقه بالسرقة ثم ينشد قصيدة مماثلة في مدح هذا الحاكم حتى ينالا من عطائه ما يستحقانه .

فلما فرغ الراوي من انشاد قصيدته برز صاحبه وادعى عليه السرقة فصار الامر سجالا بين الشاعرين وعند ذلك امر الحاكم باحضار القاضي ابن الورد بن السوسان ليحكم ويميز بينهما ؛ فكان الحكم لكليهما بالفضل وكان ذلك سببا في ردهما وعطائهما .

٣ - واما المقامة الثالثة الصفدية فهي مقامة طويلة التزم المؤلف في جزئها الاول بالديباجة المقامية ولكنه اسرف في آخرها بالزيادة وذلك بعد الموضع الذي كان من المقرر ان تنتهي فيه ؛ وقد اخل ذلك ولا ريب بينائها المقامي ، والمقامة يقوم بروايتها احد السواح ذكر انه كان في ثلة من رفاقه يعكفون على الشراب حين طرق عليهم الباب طارق يصطحب غلامه فادنوه فاظهر الرجل من علمه وفضله صنوفا من البلاغة والمواعظ وكان غلامه على شاكلته فوقع الجمع في هواه ورأوا ان يأخذوه من الشيخ طيبة او اغتصابا بيد ان الشيخ كان اشد مكرا منهم فقد اسكرهم جميعا حتى ناموا وفي الصباح وجدوه قد رحل مع غلامه وقد ترك لهم قصاصة كتب عليها ١٣٣ :

حفرتم قليلا مضمرا لوقوعنا وقعتم سريعا في قليب حفرتم

١٣١ - نفسه ص ٧ .

١٣٢ - الاخطاء اللغوية والنحوية في سبيل اقامة السجع .

١٣٣ - مخطوطة دار الكتب تحت رقم ٢٣٥٩ ص ١٩ .



سللتهم سيوف الغدير بغيا لقتلنا قتلتم جميعا بالذي قد سللتهم  
ضمرتهم لنا سوءا فجاء بضده وثلثتم به اضعاف ما قد ضمرتهم  
لقد كان من المفروض ان تنتهي المقامة عند هذا الحد ولكن المؤلف لم يرد لها ذلك فقد  
انشأ في نفس الجماعة رغبة في تتبع هذا الشيخ لمعرفة المزيد من أمره والاقرار له بالفضل ؛  
وحين وجدوه الفوه في قصر منيف وقد بالغ في اكرامهم حيث قدم لهم الخمر وسامرهم  
بالنساء والغناء يقول الراوي<sup>١٣٦</sup> :

« فلم نزل نمرح بين منائي ومثالي الى أن برقت الشمس في اليوم الثالث فعند ذلك طلبنا  
الدستور على المسير والانطلاق الى المصير فاقبل بوجه قلق وطرف بصير وصار يعتذر من  
التقصير فشكرناه على حلمه وحكمه وحمدناه على ما اولانا من نعمه وكرمه وقلنا له اوصنا  
بالذي تختاره لنا فقال احذركم من اهانة الكريم واکرام اللئيم وممازحة الاحمق العديم  
والخاصمة مع الفاجر الزنيم ولا تتخذوا النهوم صديقا جهم<sup>١٣٧</sup> واکرموا النزيل بالعطاء  
الجزيل . »

ولعلنا نلتبس العذر للكاتب في اضافته هذا الجزء الطويل من المقامة واسرافه في وصف  
مجلس الانس فالمؤلف لم يهدف فقط الى مجرد تقليد نموذج البطل المقامي وابانة اساليب  
مكره وحيله بل هو رمى أيضا الى اظهار قيمة اخلاقية بعينها تلك القيمة التي برزت في  
المقابلة بين موقف الجماعة حين اخلوا باداب الكرم واطهروا طمعهم في الغلام وبين موقف  
الشيخ الذي رعى حرمة الضيافة معهم ؛ فهذا الشيخ ذكي ؛ ويجيد اسلوب الحيلة ولكنه  
يختلف عن بطل الحريري في انه يتمسك بقيمه الاخلاقية .

٤ - اما المقامة الرابعة الدمشقية فلا تختلف كثيرا عن المقامة المكية اذ ان غايتها وعظية  
وتدور وقائعها في دمشق .

٥ - وفي المقامة الخامسة يتخذ الراوي لنفسه سكنا في طرابلس وفي هذه المدينة يقع في  
هوى فتى رائع الجمال ويشقى من اجله لعدم تمكنه من الوصال ولما استراخ الى عقله نخطر  
له ان يصبح واعظا فنزع حلل الخلاعة ولبس اطار البراعة وذهب الى احد الجوامع فصلى  
بالناس ثم قام فيهم واعظا فحرك ببلاغته ما كان خافيا في وجدانهم .

١٣٤ - مخطوطة دار الكتب تحت رقم ٢٣٥٩ ص ٢٤ .

١٣٥ - خط نحوي والصحيح « حيا » .

يقول<sup>١٣٦</sup> :

« فعند ذلك وثب الى رجل جليل القدر رحيب الصدر عليه حبل السعادة وتاج السيادة  
واقبل على بقلب سليم وناداني بصوت رخيم والله لقد حصل بك التشنيف ، فخص منزلي  
بالشريف » .

وحين لبي دعوته كانت الصدفة عجيبة فقد كان الرجل والد الغلام الذي فتن الراوي به  
وقد عهد به اليه لتعليمه ولكن سرعان ما فشى امر الراوي مع الغلام وخطر الوالد .

يقول<sup>١٣٧</sup> :

« فلما ظهر الليامة وعرف أبوه بالعلامة واقام في مذمتي قيامه تحرك من والده ساكن وتغير  
ظاهره وتكدر الباطن ثم امر من كان بين يديه باحضار ولده اليه » .

ولكن الراوي لا يرعى فقد احتال لرؤية الغلام المليح مرة أخرى بتغيير هيئته واطالة  
لحيته وحين اجتمع معه زين له ما جرى بينه وبين شيخه فقال المليح لاحد غلمانه<sup>١٣٨</sup> :

« صدق الحكيم الملسان المدوح بالعرفان الممنوح بالمعاني والبيان ان الذي نقل الزور  
والهتان هو عكسون الشيطان يحدث بالبين والزور حتى طرد شيخى الصالح بقلب  
مكسور وانا اقسم بصبري على الجفا وما بقلبي من الصفا وبعهد من الوفا الا جبرت ما  
كسر من قلبه واجنح بالغاية الى قربه » .

وبينا الراوي يسحر المليح بحديثه يقبل عكسون المارد ويكشف النقاب عن هويته  
فيرجع الراوي بالحسرة ويلعن الدهر الذي ابتلاه بعداوة هذا المارد فيظل على حال من  
الؤس حتى تعود الحياة الى مجاريها مع الغلام ؛ والمقامة كما ترى تضرب باسباب في  
الخلاعة والمجون وقد أفاض المؤلف في احداثها ولكنها مع ذلك ربما قدمت لنا صورة من  
داء اجتماعي عم الحياة العربية منذ العصر العباسي وهو داء الافتتان بالغلمان .

٦ - اما المقامة السادسة وان تعددت احداثها فان غايتها هي الوعظ ولا يرى القارىء فيها  
علاقة مباشرة بين الوعظ والاحداث التي تدور عليها .

١٣٦ - مخطوط دار الكتب تحت رقم ٢٣٥٩ ص ٣٦ .

١٣٧ - نفسه ص ٣٩ .

١٣٨ - نفسه ص ٤٠ .



وهكذا تدور سائر المقامات في فلك شبيه بهذا .

### تعليق :

كما رأينا فان مقامات القواس لم تلتزم قالباً فنياً محدداً فهي مقامات تعتمد على عنصر السرد والحكاية ، وفي ذلك فان الراوي يفيض في الاسترسال من موقف الى موقف مرصداً حديثه بالشعر والزجل والتوشيح ؛ ولا تقتصر المقامة على غاية واحدة فهي قد تشتمل على جميع الاهداف التي أشار اليها في منهج تأليفه ؛ وقد أدى به ذلك الى تفكك في بنائه الفني .

كذلك فان القواس لم يلتزم في هذه المقامات ببطل واحد ، فالبطولة عنده جماعية وان ظهر الراوي في معظم الحالات في دور البطل .

## ١٥ - مقامات جلال الدين السيوطي

وفي هذا القرن العاشر نتعرف على مقامات عالم من أكبر وأشهر العلماء في مصر آنذاك ذلكم هو جلال الدين السيوطي الذي يقال انه ينتمي الى اسرة فارسية استوطنت بلدة اسبوط في مصر .

وقد وجدنا له في مجموعة مطبوعة<sup>١٢١</sup> عدداً من المقامات هي المقامة الوردية والمقامية المسكية والمقامة التفاحية والمقامة الزمردية في الخضروات والمقامة الياقوتية ثم المقامة الفستقية في انواع البقول .

وجميع هذه المقامات الوان من المحاورات والمفاضلات والمناظرات بين ألوان الورد المختلفة او الوان الفاكهة او انواع الخضروات والاحجار الكريمة كل يعرض هيئته ومزيتته يفاضل بها الاصناف الاخر . غير ان المتمعن في هذه المناظرات سرعان ما يدرك ان ما تحدث عنه السيوطي في المقامات مجرد رموز اراد بها دلالات اوسع في الحياة الاجتماعية او الواقعية وهي تعكس في ذات الوقت جانباً من الضغط الفكري الذي عاناه المفكرون في العهد المملوكي حتى لم يعد امامهم غير استخدام لغة الرموز . ولما كان هذا اللون من المقامات يتشابه في ديباجته وغايته فليست بنا حاجة لاستعراض كل ما كتب السيوطي فيه ونكتفي بمقامة واحدة نستعرضها وسنلقي من خلالها ظلالاً على غيرها من المقامات .

### المقامات الوردية :

يبدأ الكاتب مقامته بهذه المقدمة<sup>١٢٢</sup> :

« حدثنا الريان عن ابي الريحان عن ابي الورد ابان عن بلبل الاغصان عن ناظر الانسان عن كوكب البستان عن وابل الهتان قال مررت يوماً على حديقة خضرة نظرة أنيقة طلولها ورقيقة واغصانها ورقيقة وكوكبها ابدى طريقة ذات الوان وافشان وأكمام ، واذا بها ازرار الازهار مجتمعة وانوار الانوار ملتزمة وعلى منابر الاغصان اكابر الازهار والصبا تضرب على

١٢١ - مقامات السيوطي رقم خصري ١٦٠١ عمري ٣٤٢٩٩ .

١٢٢ - نفسه ص ٢ .

رؤ وسها من الأوراق الخضير بالمزاهر فقلت لبعض من تعبر الا تحدثوني ما الخبر فقال ان  
عساكر الرياحين قد حضرت وازاهر البساتين قد نظرت لما نصرت وانتفتحت على عقد مجلس  
حافل لاختيار من هو بالملك احق وكافل وما اكابر الازهار قد سعدت المناير ليدي كل  
حجته للناظر ويناظر من بين اهل المناظر في انه احق ان يلحظ بالنواظر من بين سائر  
الرياحين واولى بان يتأمر منها على البوادي والخواضر فجلبت لاحضر فصل الخطاب  
واسمع ما يلقي به كل من الحديث المستطاب

وتبدأ بعدئذ المناظرة فيكون الورد اول المتحدثين فيها يقول :

« أنا الورد ملك الرياحين والوارد منعشا للارواح ومتاعا لها الى حين ونديم الخلفاء  
والسلاطين والمرفوع ابدًا على الاسرة لا اجلس على ترب ولا طين والظاهر لوني احمر على  
ازاهر البساتين واشرف من كل ريحان فخرا بانني خلقت من عرق المصطفى وجبريل  
والبراق ليلة الاسراء والمظفر بقوة الشوكة والنبور على من نأى لاني صاحب  
الدولة والعزير عند الناس والمورود بين الجلاس للاناس والعاذل في المزاج والصالح في  
العلاج »

ان القاريء لهذه الفقرة لا يستطيع أن يقف بمدلولها عند الأوصاف الحسية التي ذكرها  
الورد عن نفسه بل لا بد له أن يتجاوز بها هذا المدلول المحدود ؛ فربما ذهب تصويره الى  
انها تعبر عن طبقة شاملة من الناس ترى انها احق بالفضل لانها تمايزت بالحسب والنسب  
وعلو الشأن والمظهر .

وعلى هذا النحو تستمر المناظرة<sup>١٤٢</sup>

« فقام النرجس على ساق ورمى الورد منه بالاحداق وقال لقد تجاوزت الحد يا ورد  
وزعمت انك جمع في فرد ان اعتقدت ان لك بحمرتك فخرة فانها منك فجرة قال النبي صلى  
الله عليه وسلم : الشيطان يحب الجمرة فايكم والجمرة وكل ثوب ذي شهرة وان قلت انك  
نافع في العلاج فكفم لك في منهاج الطب من هاج الست الضار للمزكوم المتعطش المحرور  
الدماغ من الشموم المضعف للباه النائم بلا انتباه . . ولكن انا القائم لله في الدياجي على

١٤١ - مقامات السيوطي رقم خصوصي ١٦٠١ عمومي ٣٤٢٩٩ ص ٣

١٤٢ - مقامات السيوطي رقم خصوصي ١٦٠١ عمومي ٣٤٢٩٩ ص ٤

ساقى الساهر طول الليل في عبادة ربي . . وانا مع ذلك المعد للحروب المدعو عند تراحم  
الكروب ألا ترى وسطي لا يزال مشدودا وسيفي لا يزال مجرودا وانا فريد الزمان في  
الحاسن والاحسان ولهذا قال في كسرى انوشروان النرجس ياقوت اصفر بين دار ابيض  
على زمرد اخضر »

فيتعرض له الياسمين بمثل ما تعرض للورد ثم يزين نفسه على طريقته وهكذا الامر مع  
البان والنسرين الذي انتصر للياسمين على البان ثم مع البنفسج وغيره من أنواع الورد  
والرياحين ؛ وفي آخر الأمر وبعد أن ابدى كل ما لديه اتفق رأي الناظرين ان يجعلوا بينهم  
حكما عدلا فقصدوا رجلا علما بالاصول والفروع عارفا بالانساب مميزا لها .  
يقول الراوي :

« فلما مثلوا بين يديه ووقعت اعينهم عليه قالوا يا فريد الأرض يا عالم البسيطة ما بين  
طوها والعرض انا خصام بعضنا على بعض فانظر في حالنا لتكون لك ذخيرة يوم العرض  
واحكم بيننا بالحق . .

فقال ايها الازهار اني لست كالكذي تحاكم اليه العنب والرطب ولا الذي تقاضي اليه  
الشمس والتوت ولا التين والعنب اني لا اقبل الرشا ولا اطوى على الغل الحشا ولا اميل  
مع صاحب رشوة ولا استحل من مال المسلمين حسوة انما احكم بما يثبت في السنة ولا  
اسلك الا طريقا موثلا للجنة فقصوا علي الخبر لاعرف من فجر منكم وبر فلما قص عليه  
كل قوله وابدى هيته وهوله قال ليس احد منكم عندي مستحقا للملك ولا صالحا للانخراط  
في هذا السلك ولكن الملك الاكبر والسيد الابر وصاحب المنبر ذو النشر الاعطر والقدر  
الاخطر السيد الابد الصالح الجيد من شاع فضله وانتشر وكان احب الرياحين الى سيد  
البشر واشتمل على ما في الرياحين من الحسنى وزيادة »

وعلى الرغم من ان المقامة تبلغ ذروتها عند هذه النقطة وتؤدي مدلولها الرمزي على انها  
نقد مباشر لتلك الانماط المتصارعة من البشر في الحياة الاجتماعية كل ينسب الفضل لنفسه  
فان السيوطي قد جمع التطوير الدرامي في اقصى مداه لكي تنفرج العقدة في اخر الامر عن  
نصل الفاعلية على غيرها وقد اثبت ذلك بغدد من الاحداث النبوية فما كان من أنواع الورد  
الا ان اقبلت عليها مهتة وعملت على نشر فضلها . فكأنه اراد بذلك أن يقول ان الفضل  
ليس لكل من يحاول أن يعلن عن نفسه بل قد يكون الفضل خبيثا لا يتبينه الا اولو الابصار  
من مثل هذا الحكم العادل .

كذلك فان الناس في حياتهم يكثر من الرياء والزيف كل يعلن عن نفسه في الوقت الذي ينزوي فيه أهل الفضل الحقيقيون لا يتعرف عليهم إلا من اتاهم الله من فضله .  
والمهم فان المخلص اخلاقي وتسير سائر مقامات المفاضلة عند السيوطي على هذا النمط وقد عالجها بأسلوب مماثل او متشابه وهدفه من وراء ذلك كله كشف الزيف واعطاء كل ذي حق حقه وتقويمه بميزان الذهب الحساس .

## ٢ - لون آخر من مقامات السيوطي :

اما في طبعة الجوائب في القسطنطينية سنة ١٢٩٨. فرى لونا آخر من المقامات السيوطية كتبت على شكل مقالات نقدية دقيقة وعميقة في ذات الوقت توضح الادران التي حلت بالمجتمع المصري خلال العصر المملوكي وفيها وصف دقيق للسلوك البشري . وهذه المقامات تؤكد رأينا الذي ذكرناه في أكثر من موضع وهو ان بعض كتاب المقامات رأوا في المقامة حلا لأزمة الشكل الادبي في باب المقالة فهم لم يعرفوا المقالة بمفهومها الذي اتضح عند المتأخرين ولذلك فقد كتبوا كثيرا من المقالات على انها مقامات والمقصود بالمقامات في مثل هذه الحال انها احاديث ادبية وليست مقامات فنية بحسب الاصطلاح .

ومن مقامات السيوطي في هذا اللون مقامة الحمى<sup>١٤٣</sup> وفي رأيه أن الله انزل الحمى في اول الامر ليذل بها الاسد ثم جعلها سجنا في الارض لتصلح من بدن المؤمن ما فسد وقد اجهل خلال ذلك شيئا من فضلها منه هذا الحديث « اتاني جبريل بالحمى والطاعون فامسكت الحمى بالمدينة وارسلت الطاعون بالشام » .

## المقامة النيلية :

اما في المقامة النيلية<sup>١٤٤</sup> فيحكى شح النيل في سنة من السنوات بعد أن اعطى عطاء وفيرا فغدت الروضة من اثر ذلك الشح موطنا للحلفاء وقد تبع ذلك قحط وزيادة في الاسعار فتذكر الناس ما كان من أمر الامامين حين اوصى مالك الشافعي « اذا سكن مصر بادخار قوت عامين » ويقدم السيوطي وصفا دقيقا لهذه الحال فقد كان قلمه بارعا وناضيا بالحياة

فلم يكن كالمصور الدقيق فحسب بل جمع الى ذلك ملكة المتخيل الفنان قال<sup>١٤٥</sup> :

« وصار الناس في امر مريع وقالوا قد شرقت البلاد وغربت العباد وشرقت الصدور حين شرقت واطلمت الابصار والبصائر وما اشرقت وتوهج في قلوب الناس الحريق وكبروا ولا ينكر التكبير ايام التشريق والقي في نفوس الرعب والرعب واشربوا في قلوبهم من الحب والحب وخلا البر من البر وصار اعز من الدر ووزنه السوزان وخزنته الحزان وتوقدت الاحزان وقالوا هذه ايام التشريق لكن بغير عيد وهذا السعر هو الطالع لكنه غير سعيد وجمعت الانفس بعد ان كانت شبعى واصبح كل في شراء القوت كأنه حية تسعى وبذلوا فيه الذهب والمرجان وتذكرك عليهم من الزهجة كأنهم جان وباع من لم يجد نقده لشرائه اعز ما عنده وقال المقرئ ما هذا التفسير بعد اليسير ؟ وما لنا عدنا نروي عن قل بن قل بعد ما كنا نروي عن ابن كثير ؟ ما هذا الا امر مهم وخطب ملم ولا عاصم اليوم من امر الله الا من رحم وقال المحدث هذا خبر معضل عوقب به من ضل » .

وهكذا استطاع ان يستجمع بهذا الوصف الدقيق صورة الجزع الذي الم بالناس من جراء القحط ولكنه لم ينس في خضم هذه الصورة المليئة بالماساة ان يلتقط تلك الصور الكاريكاتورية الضاحكة التي تمر في مثل هذه الاحوال ؛ يقول<sup>١٤٦</sup> :

« اصبح كل يفسر بعض الظواهر حسب علمه قال الاصولي قد ضاق النطاق وجاء تكليف مالا يطاق وقال الجدلي هذا البيع في الصورة مصابرة وفي المعنى مصادرة وقال الصوفي لو اتقيتم الله لانزاح عنكم الضير ولو انكم تتوكلون على الله حتى توكله لرزقكم كما يرزق الطير ولاصبح النحوي يلتقط الحب كأنه ابن عصفور ويقول السعر مهدور المال مقصور وانا وكتبي للبيع جار ومجور قد كسر باب الانافة ورفع باب الاضافة لقد لقينا امرا مرا وضرب زيدا عمرا وقال التصريفي قد ساءت الاحوال واختلت ونقصت الأفعال واعتلت وزاد الغم وفك المدغم ووقعنا في تعسير وصار جمعنا تكسير<sup>١٤٧</sup> وقال اللغوي رب عجلة تهب ريثا ورب غيث لم يكن غيثا » .

انها بالفعل يد فنان بارع اتقن تصويره ورسمه ؛ جمع الظرف الى جانب الدقة ،

١٤٥ - نفسه ص ٥٩ .

١٤٦ - مقامات السيوطي ط الجوائب ص ٦١ .

١٤٧ - خطأ نحوي والصحيح تكسيراً .

١٤٣ - مقامات السيوطي ط الجوائب ص ٢٥ .

١٤٤ - مقامات السيوطي ط الجوائب ص ٥٩ .

والفكاهة الى جانب الجد ، فاذا عاد النيل مرة اخرى الى حاله الطبيعية<sup>١٤٨</sup> :

« قال الصوفي من انقطع الى الله اواه ومن توكل على الله كان حسبه وكفاه وضم النحوي كنبه وقال استوى الماء والخشبة قد زال الغم والههم وصار البر الكرقز بدرهم وسئل اشعرا تريد ام برا فقال كليهما وعمرا وقال التصريفى قد زال الرك وطاح الشك وقوي الفك وزاد المد وخف الشد وحسن الرد » .

وهكذا فان السيوطي لا يتخلى عن غاياته الاخلاقية فالناس اذا أصابتهم مصيبة جزعوا وفزعوا ونسوا انهم كانوا على حال طيبة في يوم من الايام واذا انفرجت الكربة عنهم نسوا ان الزمان قد يضييهم من حيث لا يعلمون فهم ابناء اللحظة وفي خضم ذلك تسير الحياة .

### مقامات اخرى :

والى بجانب هذه المقامة في هذا اللون فله بعض المقامات الاخر تسير على نفس النمط المقالى الرصفي كمقامته في روضة مصر ومقامته الطاعونية والمقامة الولدية في التعزية عن الاولاد والمقامة السندسية .

### ٣ - مقامة الكاوي على تاريخ السخاوي<sup>١٤٩</sup>

هذه مقامة اخرى وجدها مخطوطة في دار الكتب تحت الرقم المشار اليه في اسفل الصفحة وهي لون آخر يقوم على النقد نال فيها السيوطي من السخاوي وتاريخه وقد خلص في اخرها الى قوله :

« فالواجب على كل مسلم ان يطرح تاريخ هذا الرجل طرحا ويضرب عنه صفحا ولا يصغي اليه قدحا ولا جرحا ويمسح اثره ما استطاع مسحاً ويتركه ومن ترجم له الى أن يردوا القيامة معه مخاصمين وينصفهم الحق سبحانه منه لانه الحكم العدل الذي ينصف المظلومين فيصبح هو وأهل طريقته على ما سطره في اعراض الناس نادمين وبين لهم ان ظنوا انهم ماجورين<sup>١٥٠</sup> انهم اذا من الاثمين وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » .

١٤٨ - نفسه ص ٦٢ .

١٤٩ - مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ١٥١٠ خصري ٣١٩٩٠ عومي .

١٥٠ - خطأ نحوي والصحيح ماجورون .

### ٤ - مقامة رشف الزلال من السحر الحلال :

كذلك هذه المقامة تمثل نمطا آخر من مقامات السيوطي .

وموضوعها يدور حول عشرين عالماً تزوج كل منهم ثم وصف ليلته التي قضاهم مع عروسه وعلى الرغم مما في هذه المقامة من اقتداع نحجم عن ذكره فان السيوطي لم يتخل فيها عن الهدف الاخلاقي الذي جبلت عليه مقاماته اذ يقال انه لما رأى الناس اكثروا من اللواط كتب لهم هذه المقامات مرغبة في النساء حتى ان كل من قرأها تآقت نفسه للزواج ونفر عن اللواط والزنا .

### خلاصة :

وهكذا مما تقدم يتضح لنا ان السيوطي كتب انماطاً مختلفة من المقامات بعضها اخذ طابع المناظرة وبعضها اخذ طابع المقالة أو النقد أو القصة الصريحة كما في مقامة رشف الزلال . وتلتقي سائر المقامات السيوطية في غاية رئيسية هدفها اخلاقي بحث .

## ١٦ - مقامات احمد بن محمد بن عمر

المشهور بشهاب الدين الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ

يقول المؤلف في بيان حاله<sup>١٥١</sup> انه كان يعيش بعد سن التمييز في حال رغبة مع والده يتغذى بعلمى الظاهر والباطن . وقد قرأ في سن مبكرة كتاب سيبويه وأتم قراءة البغاني وعلوم الأدب الاثنى عشرة كما قرأ كتب المذهبين وكان على مذهب أبي حنيفة . أما اساتذته فهم شيخ الاسلام ابن شيخ الاسلام الرملي الذي قرأ عليه مسلماً وأجازته فيه بجميع « مروياته » . وقد قرأ علوماً مختلفة على علي بن غانم المقدسي الحنفي وإبراهيم العلقمي والشامي والعناياتي . وقد ارتحل إلى الحرمين الشريفين وقرأ هنالك على الشيخ ابن جاد الله وعلى حفيد العصام ثم ارتحل إلى القسطنطينية وكان فيها ابن عبد الغني ومصطفى بن عربي والخبر داؤد وغيرهم . وقد عاد مرة أخرى إلى القسطنطينية حين ولي القضاء في مصر فوجد الأمراء قد عاثوا فيها فساداً وقتلوا العلماء فلما نصحهم عزل من منصبه وأمر بالخروج منها ومن مؤلفاته الكثيرة ( الرسائل الأربعون ) وحاشية تفسير القاضي وحاشية شرح الفرائض وحديقة السحر وكتاب السوانح والرحلة وله أيضاً ديوان شعر . أما مقاماته التي نحن بصددتها فمتضمنة في كتاب ريجانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا .

### مقاماته :

١ - المقامة الاولى في هذه المجموعة تسمى بالمقامة الرومية . ذكر انه خص بها الروم للذكر عليها أهلها وتبدأ المقامة كغيرها بالرحلة وقد رواها عن النعمان بن ماء السماء عن شقيق يقول<sup>١٥٢</sup> :

« أنبأنا النعمان بن ماء السماء عن شقيق وقد نظمني وإياه سلك المحجة بوادي العقيق قال خرجت مخبطاً ورق الكرم وقد صوح ربيع الامال والهمم حتى عز الحطيم ورعى الهشيم فطوحتني الطوائح بارجوحة الاماني وهزرتني الاشعبية إلى ماجد « يار » الزمن الجاني » ثم يتخذ من ذلك سبيلاً إلى شد الرحال إلى القسطنطينية<sup>١٥٣</sup> ( فإذا هي جنة ملئت بالخور

١٥١ - ريجانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا ص ٣٦١ .

١٥٢ - نفسه ص ٣٦٨ .

١٥٣ - ريجانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا ص ٣٦٩ .

والولدان وحفت بالشهوات اذ حفت بالمكارة الجنان من كل شادن سرق التفانة الغزال وتسللت لتري لطفه الصبا والشال ) .

ويكون وقوفه بالقسطنطينية مجالا كي يتذكر فيه ما كانت عليه هذه المدينة من العلم والقوة ثم ما آلت اليه من الجهل والظلام فكتابها كانوا<sup>١٥٤</sup> :

« ملائكة من الكرام الكاتبين غايتهم المداد وعبر نشرهم يفوح على جهر الذكاء الوقاد واذا راشوا بالبنان سهام البراعة اصابت قراطيس البلاغة والبراعة واذا افتخرت الرماح السميرية انتسبت إلى أقلامهم السمر فكانت خطية » .

ثم يسترسل بعد ذلك في وصف فرسانهم ومعاهدهم وينعي ما آلت اليه من جهل وظلام .

يقول في وصف اطفالها :

فان زماننا من قوم لوط له ولع بتقديم الصغار  
وأما الشباب فهم<sup>١٥٥</sup> :

« بلا فضل فضول جفأة اجلاف بنو غلات واخفاف » .

وأما الشيوخ فهم :

« في الطراز الآخر من السفل كم فيهم من نادرة المربخ وزحل » .

وكما نرى فان المقامة تشبه إلى حد كبير تلك المقالات المقامية التي كان يكتبها السيوطي والتي تحمل في داخلها طابع النقد والثورة . فهي عبارة عن رحلة انتقادية في مدينة القسطنطينية تلك التي تبدل حالها في العهد العثماني فاضحت عاصمة للجهل بقتل فيها العلماء .

٢ - وأما المقامة الثانية فتسمى مقامة ( الغربية<sup>١٥٦</sup> ) ذكر انه أراد أن يقدم بها نموذجاً لمقامات سجلت على غرار مقامات الحريري وقد نسب روايتها إلى الربيع بن ريان عن شقيق بن

١٥٤ - نفسه ص ٣٦٩ .

١٥٥ - نفسه ص ٣٧١ .

١٥٦ - ريجانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا ص ٣٨٢ .

النعمان . وتبدأ المقامة بفكرة الغربة ثم تطرحه النوى عند النضر بن كنانة سيد قومه فيسأله عن سر رحلته فيجيب<sup>١٥٧</sup> :

« فلما صحا القلب وأقصر باطله ( وعرى افراس الصبا ورواحله ) وقوض بنيان المكارم وقعق منه العمد والدعائم قلت لم يقل الله أن ارضي واسعة إلا لنسير في مناكبها إلى حرم الدين والدعة وفي المثل إذا ضربتم في الارض اميالا وجدتم بلالا » .

فدعا النضر بالدواة والقلم واجزل له بوافر النعم وهكذا يتضح غرض المقامة الذي بنيت عليه وهو المدح . فهنا يستخدم البطل ذكاهه ، لا للاختيال بل للمدح فطالما كانت الغاية واحدة وهي نيل العطاء فان طريق المدح أكثر عفة من طريق الاختيال .

٣ - اما مقامته الثالثة فتدعى بالمقامة الساسانية<sup>١٥٨</sup> وينسب روايتها لمالك بن دينار عن مسافر بن يسار . يبدوها بالرحلة احتذاء بقوله تعالى « سيروا في الأرض » فالرحلة دليل على الجد ، وفي المثل من جد وجد . واما المقامة فهي مناقضة للمقامة السابقة . فبينما احل في مقامته السابقة على جواد هو النضر بن كنانة فقد احل في هذه المرة على بخيل في كورة خراسان يسير على مذهب سهل بن هارون . لقد فاجأ البخيل بقوله<sup>١٥٩</sup> :

قال الحكيم في قديم المهد	سواء السلطان ثم المكدي
كلاهما يطلب اموال الوري	لكن ذا بفهره والجند
وذا بالطواف الدعاء اضارعا	لما يرجيه بمخض الزبد

وحتى يسد باب الرجاء في وجهه فقد امر له بقليل من الطعام فلم ينل منه سوى ذلك .

اما علاقة المقامة باسمها فيبدو حين يسأل البخيل البطل من اين فيقول من مصر ثم يحكي له ما اصاب الى حاله وحال أهل مصر من الضنك والشقاء في هذا العهد العثماني ومن خلال ما يقدمه يعطف على ذكر أهل ساسان فيها فيقول<sup>١٦٠</sup> :

« ولنعطف على هذا النسق لبيان من بقي منهم » طبق على طبق « من اصناف لا تعد

واجناس لا ترسم ولا تحد كرعاع بن درزة بن ساسان كلاب سلوقية تصيد منح كل جعد البنان من كل سائل بالالحاح بالتحف أو دار بمزمار ودف او تغني بانكر الاصوات فنهق اذ رأى شيطاناً يدعى الكرامات . واقلهم ديناً وحزماً حمر مستنفرة يقرأون القرآن في بقاع مستفجرة بين رهط لا يتدبرون ولا يستمعون ولا يمثلون قول الله تعالى : « واذا قرء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون » .

الى ان يقول :

« وقد فقد العلم لولا نفحة من نعر بقايا فتح الله بهم خزائن كنوز هي خبايا في الروايا من كل نقي العرض ابيض السجيا اذا تدنست الاعراض فاعراضهم من العار عرايا » .

وكما نرى فاننا نستطيع أن نستخرج من هذا الوصف لوحة شعبية رائعة مما آل اليه الحال في مصر في العصر العثماني بل ونستطيع أن نستشف كذلك روح الثورة التي اعتملت في داخل نفسية الشهابي وهي شبيهة بروح الثورة والنقد التي اعتملت في نفسية السيوطي في العصر المملوكي من قبل وهذه الظاهرة تؤكد لنا ان الرفض والثورة على النظم الاجتماعية البالية كانت محركاً أساسياً في كتابة الفن المقامي منذ عهد بديع الزمان . ذلك أن الكتاب قد جعلوا من فهم المقامي نافذة يطلون منها على اسباب الوهن والضعف في البنية الاجتماعية .

٤ - اما المقامة الرابعة فهي مقامة معارضة لمقامة الوطواط وينسب<sup>١٦١</sup> روايتها لمبارك بن سعد العشيرة وستجاوزها لانها لا تحوي شيئاً مهما يضيف الى ما قلناه كما ان النص المعارض ليس بين ايدينا .

٥ - كذلك فان المقامة الخامسة المغربية تسير على نفس النمط فهي مقامة معارضة لمقامة أخرى تسمى المغربية رواها مؤنس عن زعيم تونس وهي مقامة مختلة البناء لا يكاد الانسان يدرك من مضمونها شيئاً وأغلب الظن أنه كتبها لصلة ما في نفسه تربط بينها وبين المقامة المغربية للحريري .

تعليق : لقد نظرنا في خمس مقامات من مقامات الشهابي هي التي وجدناها في ريجانة الألبا ، وربما كان له عدد آخر من المقامات نسجها على غرار مقامته الثانية ولكننا لم نعثر

١٥٧ - نفسه ص ٣٨٤ .

١٥٨ - ريجانة الألبا وزهرة الحياة والدنيا ص ٣٩٩ .

١٥٩ - نفسه ص ٣٩٠ .

١٦٠ - نفسه ص ٣٩١ .

عليها وقد ذكر الدكتور رشدي مقامة أخرى في ذم قاض جائر ولكن نصها ليس بين أيدينا .

وبصفة عامة فإن مقامات الخفاجي تمنح إلى السهولة في البناء وتميل إلى التكلف ويتجلى ذلك في المقامات الثلاث الأول أما المقامة الرابعة والخامسة فلأنها كتبتا من أجل المعارضة فإن ذلك يجوز لنا التغاضي عن اختلالهما . وكما لمسا فإن الخفاجي يشترك مع أصحاب الثورة من كتاب المقامات الذين لم يستطيعوا أن يفضوا الطرف عن المفاصد الاجتماعية فأظهروها في مقاماتهم وقد لحق به من جراء ذلك أذى شديد فقد أخرج من وظيفته كقاض على ولاية مصر .

## ١٧ - الملامة الأرجوانية في المقامة الرضوانية ١٦٢

للداعي مصطفى اسعد اللقيمي الحسني ١٦٣

هذه مقامة أخرى كتبت في غرض المدح طلبا للمعطاء ، بيدؤها مؤلفها على عادة المقامين .  
وكتاب القصيد بالرحلة أو الغربة ، والرحلة في هذه المرة تكون إلى مصر .  
يقول المؤلف ١٦٤ :

« حكى البديع بشير بن سعد قال حدثني الربيع مجبر بن رشيد قال هاجتني دواعي  
الاشواق العذرية وعاجت بي لواعج الأتواق القهرية لورود هي مصر المغربة البديعة ذات  
المشاهد الحسنة والمعاهد الرقيقة لا شرح بمتم حديثها الحسن صدرى وأروح بحواشي نيلها  
الجاري روي وسرى واقتبس نور مصباح الطرف من ظرفاتها واقتطف نور ادواح الظرف  
من لطفاتها واستجلى عرايس بدائع العلوم على منصات الفكر محلاة بالمشور والمنظوم » .

فاذا حط البطل رحاله في مصر وجدها مدينة زينت بالأزهار ذات رياض وحسن فجعل  
يطوف في شوارعها يستجلي بهاء قصورها وقوة شكيمه عساكرها فتيقن أن الأمن فيها غالب  
وأنها مدينة تجلب السرور لقاطنها بيد أن سعادته لم تدم فيها طويلا .

يقول ١٦٥ : « فبينما نحن على هذه الحالة التي وصفت وموارد مشارعنا الحالية راقنا  
نظر الدهر إلى نظرة عابث ورماني من كنانته بأعظم حادث نصبت به حياض معاشي  
وذبلت منه رياض انتعاشي حرمت به مفروض حق الواجب وصار حظي منع المنع وليس  
ثم حاجب فقيدت عن التصرف في وفقى المطلق وأصبح باب الوصول دوني مغلق » .

ولكنه لم يبق طويلا على هذه الحال فقد هتف به هاتف يسأله إلى متى يجيد عن معالم  
التدبير في بلد يقبل أميرها عشرة المحتاجين ؟ ويكون في هذا الأشعار مخلص للمدح الذي  
أنشأ من أجله مقامته على سنة الشعراء إذ بدأها بالرحلة وأبان فيها ما يلاقيه القاصد من

١٦٢ - هذه المقامة مخطوطة بمكتبة الجامع الأزهر تحت رقم ٧١٢٩ عمومي ، ٦٢٤ خصوصي كتبت سنة ١١٦٢ هـ .

١٦٣ - تولى سنة ١١٧٨ هـ .

١٦٤ - نفسه ص ١ .

١٦٥ - نفسه ص ٣ .



عناء في سبيل لقاء الممدوح .

أما الممدوح فهو<sup>١٦٦</sup> :

أمير به عين المعالي قريرة	وكوكبه الزاهي يتيه على البدر
فلذ بحماه تلقى عزا فأنه	غدا كعبة الآمال والأمن في مصر
له همة تعلو على كل همة	وهمة الصغرى أجل من الدهر

ولا تختلف طريقة المدح في هذه المقامة عن المدح الذي نقابله في فن الشعر فلا بد من وصف الممدوح بالحكمة والعقل والشجاعة والكرم ذلك<sup>١٦٧</sup> ان الأمير :

« في الكرم اسمع من حاتم ومنتهى من تنسب إليه مآثر المكارم ففضل عطاياه انسى هبات الفضل وجعفر . . وفي الشجاعة اقدم من عنثرة المشهور واثبت من قسورة الأسد الهصور اذكى من اياس في نباهته وابلق من المأمون في فصاحته وله في حسن التدبير كمال انتظام وجمال اتساق وهو في حلبة السبق يوم الرهان حايض قصب النسباق . انه أمير الندى وفريد الألوان حضرة الكتخدار رضوان » . فاذا أبان الهاتف كعبة الخلاص جليلة ارحمها البطل ليتزوج وصوله بوصف القصر وما فيه من الحقائق الحسان وما يعمر به مجلس الأمير من الألباء أرياب الأدب وعند هذا المجلس يقدم قصيدته التي ينال بها الجائزة وحتى لا يكون في هذا الموقف ذلة وانكسار فقد أورد المؤلف على لسان الراوي<sup>١٦٨</sup> :

« ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اعرض عليه من سبي هوازن كان ممن عرض بنت حاتم الطائي فقالت يا رسول الله انا بنت من كان يحمل الكل ويكسب المعدوم ويعين على نوايب الزمان انا بنت حاتم الطائي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه فمن عليها صلى الله عليه وسلم ورد لها مالها وقال ارحموا عزيز قوم ذل وغني قوم افتقر » .

التعليق :

وكما رأينا فليس في هذه المقامة جديد نضيفه الى ما قلناه فقد كتبها صاحبها من أجل المدح

١٦٦ - نفسه ص ٤ .

١٦٧ - نفسه ص ٤ .

١٦٨ - نفسه ص ١١ .

وهو غرض أفرد له بديع الزمان بعض مقاماته وقد ربطنا بين هذا الأسلوب وأسلوب المدح في القصائد الشعرية ، وبما ساعد على استخدام المدح في فن المقامة تشابه أسلوب الرحلة في المقامات مع أسلوب الرحلة في الديباجة الشعرية ؛ انها معاناة تنفذ منها الأديب الى غرض مقامته أو قصيدته وقد يكون هذا الغرض المدح .



## ١٨ - مقامة السويدي ١٦٩

مؤلف هذه المقامة هو شهاب الدين أحمد بن أبي البركات السويدي كتبها في سنة ١١٧٩ هـ . وهي مقامة ذات موضوع شائق ولكن الموضوع فيها لم يقصد لذاته بل يتخذ الكاتب وسيلة يخلص منها لدح عثمان افندي ابن علي افندي العمري .

فالمقامة التي يقوم الراوي فيها بدور البطولة تبدأ بالاخبار عن هم ألم به وهذا في مذهب الشعراء والمقاميين مدعاة للغربة والسفر من أجل الترويح والخلاص ولكن الراوي لا يذهب بعيدا بل يتنحى الى بستان في الجانب الغربي من مدينة بغداد . يلتقي فيه بعجوز تسأله عن اسمه ورسمه ثم تسأله ان كان يجيد المداومة والمكاملة فيخبرها بان تلك صنعة التي جبل عليها ، عندئذ تجبره العجوز بانها تراعي حسنا في داخل البستان وقد طلب اليها أن تحضر لمن أديباً يؤانس المجلس على أن يكون من الشبان عندئذ يلبي الراوي دعوتها ، وما ان يدخل البستان حتى يبهره ما في داخله ، فتفتق قريحته عن وصف في غاية الجمال والرشاقة .

يقول ١٧٠ :

« فالشحرور خطيب على منابر الافنان يعطف ذوات الجناح ويحث على الاشجان والمندليب مؤذن على العذبات يتادي حي على الصبايات والبلبل يصدح بالألحان والنغم ويلبل باللبال حال أولى السقم » .

وتكون تلك بداية لسلسلة من الأوصاف يشمل بها كل ما وقعت عليه عيناه في هذا البستان هادفاً بذلك الى شد الأنظار والقلوب اليه وذلك قبل ان ينفذ الى غايته الرئيسة فهو ينتقل من وصف الطيور الى وصف الأوراد والزهور كالآس والياسمين والتسريب والريحان والبان والأقحوان والجلنار فاذا فرغ من ذلك عطف على وصف الفاكهة .

يقول في وصف الشمس ١٧١ :

« وفيها شمش كأنه يقذف الجاني بتجوم أو بنادق صيغت من الذهب المرجوم :

١٦٩ - ضمن مجموعة مقامات الحنفي وابن نايقا ص ٢٨٦ .

١٧٠ - نفسه ص ٢٨٧ .

١٧١ - نفسه ص ٢٩٢ .

بدا شمش الأشجار يذكر شهابه  
على حسن اغصان من الدوح سعد  
حكى وحكت أغصانها في اخضرارها  
جلجل تيسر في قباب زبرجد »

ومثل هذا في وصف التفاح والرمان والكرم وغيرها من أصناف الفواكه ، ومن ثم ينتقل الى وصف البركة بحيث يعطي في النهاية صورة شاملة للحديقة لا نشك في انه تمثل من خلالها صورة الجنة كما وردت في القرآن الكريم .

يقول :

« فمشيت تلك العجوز أمامي وأسرعت مهرولة قدامي حتى انتهينا الى بركة فيها شازوران كأنه عين عاشق اجرت الدموع لفراق الحسان والماء لصفاء ظاهره وخافيه يخيل الى الناظر انه جالس فيه وعلى جنبها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة وغارق مصفوفة وزرايبي بالحسن موصوفة قد ضمخت أرضها بالمسك والكافور ونثر على منظوم زهرها المنثور » .

وهنا تستوقفه العجوز لتحضر له الحسان فيظن بها السوء وتعتريه الوسوس بل ويلوم نفسه ان اسلمت قيادها لهذه العجوز الماكرة ، ولكن العجوز لا تخيب رجاءه فتقدم بالفتيات وعندئذ يفضي بنا الأمر الى قصة جديدة فقد استهوته إحدى الفتيات قال في وصفها ١٧٢ :

« فما اللؤلؤ والجمال لدى انتساقه وما البرق الباني لدى افتراعه وابتسامه وغرة تغنى عن السراج والمصباح وتسخر بضوء القمر وخلق الصباح وشفة كأنها خاتم عقيق أو مرجان أو كأس ياقوت افعم رحيق رصع بجمان وجيد كأنه جيد غزال وخال عن العطف خال قد حار بين الثلج واللظى فكأنه مجوسى اوقد للعبادة نار الغضا » .

لقد سلمت عليه الفتاة سلام العاشق المتوله فضمتها الى نفسها وضمها اليه ثم قبلها وسقط معها على السرير فاقبلت الجوارى بالطعام ودرن بالكؤوس حتى ليست نفسها حلة من السرور وزال كربه فاحتسى القهوة وأمر باعادة الأقداح .

١٧٢ - نفسه ص ٢٩٧ .

يقول :

سقتني في ليل شبيه بشعرها  
فامسيت في ليلين شعر وظلمة

وعلى هذا النحو قضى ليلته معها وكان الذي بينهما من الهوى عقيفا على الرغم من أنه  
بات معها في فراش واحد وحين أسفر الصبح لم يجد حوله شيئا مما كان فيه ليلة البارحة فقد  
رحلت الفتاة وتركت له رسالة قالت فيها<sup>١٧٣</sup> :

نحن بنات الكلل	نسطو بسهم المقل
فكم شجاع بطل	بات بقلب وجل
تجري الدما عيونه	دنتمي شجونه
لم يحده جنونه	منا سوى التذلل
سباه طرف أدعج	وحاجب مزجج
ومرسن مسرح	ومبسم كالعسل
ان الغرام دأبه	سوق العنا وجلبه
فكم محب قلبه	شواه بعد الأمل

فيجن جنونه ويقبل على العجوز يطلب العون فتخبره بمهر الفتاة . . ولكن من أين له  
بالمال وهو على حال من الفقر شديد .

هنا يظهر الهدف الأساسي للمقامة وهو المدح اذ تقول العجوز<sup>١٧٤</sup> ( ويحك انما مثلك  
هذا الدهول كالعيس يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول اما سمعت بقرب من صبي  
مفاخر حاتم سفسافا وعد مأثر عدى حشوا وزحافا ) . . الى آخر وصفها مشيرة بذلك الى  
عثمان أفندي نجل علي أفندي العمري فيكون هذا التذكير بمثابة مدخل للمدح اذ يغير  
الراوي البطل كالمدهول ويقول<sup>١٧٥</sup> :

« أفقت من السكر والجنون فكأنني مسحور رقي بنون والفلم وما يسطرون وقلت لها

خالة قد ذكرتني بكلامك هذا شيئا قد انساني تلك الترهات وشغلني عن تلك الخرافات  
هذا الذي ذكرت بعض صفاته ونثرت قليلا من سبط سماته قد تملك رقي بفضل العنيم  
واحسانه الذي هو على من حديث وقديم » .

ثم يخلص من ذلك الى نظم قصيدة جاء فيها :

يا سليل الكرام عذرا فذهني  
دم بغز ورفعة وعلاء

صار يشكو من الزمان كلالا  
وانتصار من الاله تعالى

تعليق :

وهكذا فيما نرى فان هذه المقامة تبدو وكأنها رحلة في احلام اليقظة يصل فيها الأديب  
باسلوبه الرشيق ليقدم صورة راسخة في عقله عن جنان الفراديس .

فاذا وصل الى نهايتها تكشف الحقيقة ؛ انه لا يريد الخوض في مغامرة من مغامرات أبي  
الفتح الاسكندري أو أبي زيد السروجي ولا يريد كذلك ان يقدم صورة من تلك النماذج  
الضاحكة بل يريد أن يخلص الى غاية المدح فهو كما أسلفنا يشدنا بذلك الوصف الخلاب  
حتى اذا ظننا ان تلك غاية ما يبتغيه الانسان من السعادة خرج الينا بغرض آخر ؛ فالرحلة  
الى المدح في نظره أفضل من تلك الترهات وهو بهذا يستخدم الشكل المقامي في غرض  
من اخص خصائص القصيدة الكلاسيكية وهو المدح فلقد وجد الكتاب في الديباجة  
المقامية مجالا يحققون فيه الأغراض الشعرية في الأساليب الثرية ، ولقد اضفت المقامة لونا  
من التشويق الكامن في عنصر القصة والذي كان يجهد الشاعر في تكييفه عن طريق وصفه  
للمرحلة والنسيب .

١٧٣ - نفسه ص ٣٠٤ .

١٧٤ - نفسه ص ٣٠٥ .

١٧٥ - نفسه ص ٣٠٨ .

## ١٩ - المقامة الزلالية البشارية<sup>١٧٦</sup>

### لشهاب الدين الكريدي

مؤلف هذه المقامة كما جاء في صدرها هو<sup>١٧٧</sup> « العالم الرئيس الصدر الفاضل الأديب الكاتب البارع المنشئ اللغوي أحد أعيان دار السلطنة ورؤ سائها المشهورين شهاب الدين أبي الكمال أحمد بن إبراهيم بن أحمد الرسمي الكريدي الحنفي المتوفى بالقسطنطينية في ثالث شوال سنة ١١٩٧ سبع وتسعين ومائة وألف سماها الزلالية البشارية » .

والمقامة تحكي قصة رحلة بحرية قام بها المؤلف مع صديقه بشار بن بسام فقد بلغ به الضيق ما بلغ فنزل مع صديقه الى ساحل البحر فاذا بشادن يدعوهما الى مركبه ويجهد في اكرامهما ويظهر الكثير من فصاحته وبلاغته ويكون هذا الشادن زلال بن بلال وكنيته أبو الحسن على الاجمال ، وقد سميت المقامة بالزلالية البشارية لانها تروي ما يدور بين زلال وبشار .

فقد شكها فيها زلال تبدل حاله بعد الغنى فاخبر انه كان من ارومة كريمة ينفق من ثروة أبيه على الأدباء والأخيار ولما توفي والده وذهب المال وقع في غرام الضبا فقباده المجنون والمخلاعة الى هذه الصناعة فيما ظل محتفظاً بميله لأصحاب البراعة والبراعة ؛ فيخفف عنه بشار الذي افتتن به بقوله<sup>١٧٨</sup> :

« يا قرة الابصار وخيرة الشمس والاقهار لا أظنك الا شريف النجار بمدلول اذا عذبت العيون طابت الأنهار فما دمت على هذه الشارة والشار والشار ويكفيك مقلب الليل والنهار ومسير الجوارى على البحار عن معاونة الموالي والأنصار .

ان البطالة والكسل	احلى مذاقنا من العسل
الناس في هوساتهم	والدب يرقص في الحبل
امما القناعة والعمل	يدنسي المطالب والأمل
ملك كسرى تغن عنه كسرة	وعن البحر احتراء بالوشل

١٧٦ - مخطوطة بمكتبة الجامع الأزهر تحت رقم ٤٠١١ خصوصي ، ٤٥٢٨٩ عمومي .

١٧٧ - نفسه ص ٧ .

١٧٨ - نفسه ص ٨ .

وفي هذا غزل صريح فكان بشار قد طلب اليه أن يكتفي بجماله ويركن الى البطالة والكسل ولكن زلالا اجاب :

اذا المرء لم تستأنف المجد نفسه فلا خير فيما اورثته جدوده  
وهكذا تمضي المقامة الى نهايتها وجلها مسامرة ومغازلة في هذا الفتى الطريف .

## ٢٠ - مقامة طيف الخيال

للشيرازي ١٧٩

هذه المقامة مناظرة بين العلم والمال ينتصر فيها الشيرازي للعلم ولا ينكر بعض فضائل المال وهي تعبر عن لحظة من لحظات التجلي عاشها الشيرازي بعد أن أخفق في مساعيه من أجل كسب المال وهو يذكر في مقدمة هذه المقامة : أن حاله تبدلت من الغنى إلى الفقر ومن اليسر إلى الضيق فكان ذلك سببا في رحلته من بلده وتجوابه في اصقاع الأرض بحثا عن الفرج .

يقول ١٨٠ :

« ولم أزل أمضي الرواحل واطوي المراحل والحجج اللجج والسواحل حتى دخلت بعد ترامي الكمد وتراخي الأمد البلاد الهندية لا أضحت أرضها ندية فحطت بها الرحال وألقيت عصا الترحال فصرت كلما أصبح وأمسي أرى يومي شرا من أمسي » .

لقد قصد مواطن سلاطينها فلم يظفر منهم بنائل ولم يجد لبضاعة الأدب سوقا عندهم فبارت بذلك بضاعته وكسدت تجارتها فأضحى متحسرا لسان حاله يقول :

« فلما لم انتفع بغير فضائلي التي هي نتيجة عمري ولم انتجد بדרך تصانيفي التي هي فذلكت دهرى ولم استنتج غير كمال النقص من مقدمتي فضلي وكما لي ولم أستفد مع براعتي التي كالشمس في رابعة النهار إلا هبوطي وزوالي صرت انحسر على جيد عاطل وحق باطل وذكر خامل ودمع هامل » .

هي إذا نفس المأساة التي حركت وجدان بديع الزمان وأخرجت لنا فنه المقامي .

إن الشيرازي ليعجب كيف يفوز الجهال والعوام والحمقى بالحظ فيما يظل أولو الفضل في ذل وفقر . ذلك ما دعاه كي يكتب مقامته لينتصر فيها للعلم لأن الأغنياء يرون أهل الفصاحة من قسم الجهاد .

١٧٩ - جاء في الورقة ١٣٢ من هذه المقامة أن الشيرازي من أقاصيص شيراز في القرن الثاني عشر والمقامة مخطوطة تحت رقم ٢٠٤٣ بدار الكتب .

١٨٠ - نفسه ص ٢ .

## منهج المقامة :

يقول الشيرازي ١٨١ :

« وشحذت مرهف طبعي الباتر ووشيت بنتائج الطروس والدفاتر وأخرجت في لجج الفكر كثيرا من الدرر واللالء إلى ساحل الخيال ونظمت منها بانامل الطرف في سمط اللطف حكاية شريفة لمسامرة أهل الكمال فانتظمت رسالة بديعة في صورة مناظرة بين العلم والمال وهيئة مشاجرة على ما ينطق لسان الحال وافتتحت منها بما يعرف منه دقائق خلق الإنسان وحقائق أفعال النفس وما لها من الآلات والأعوان وعقبته بما يتبين منه صفات العقل واتباعه وتحصيل العلم بسماوات الجهل ولوازمه وأشباعه وذيلته بقبايح الجهل والجهلاء والمال والأغنياء والعلم والعلماء ومدائح كل واحد منهما بما لا يزيد عليهما إلى غير ذلك من مقاصد انبجر الكلام إليها من توجيه الروايات وإنشاء المقامات وحل المشكلات » .

ولعلنا لأول مرة نلمح مثل هذا المنهج الجديد في كتابة المقامة فالمؤلف لا يصرح بان هدفه هو كتابة النكت البلاغية أو خلط الجدل بالهزل - شأن غيره من المقاميين فحسب بل يتجاوز ذلك بالتركيز على دقائق النفس الإنسانية وما يخالجها من انفعالات وهذا بالتأكيد منهج جديد في التعبير الأدبي لم يحفل به النقاد القدامى بل لم يعرفوه .

## المقامة :

يترك الشيرازي حوادث مقامته تدور في المنام وذلك حتى يلائم فيها بين الحقيقة والخيال ونراه يقوم براويتها ويسأل في أول الأمر الهدى أن يدلّه على الطريق إلى مدينة العلم وداره فيقول ١٨٢ :

« منزله السعد بيت الشرف وأعلى الغرف من قصر القلب كبيضة البلد في الأمصار وقبة الاسلام ودار السلام التي في جانب اليسار من الأرض المقدسة ؛ المبينة فيها مدينة الصدر التي هي أوسع مدائن الجسد وأعدل أقاليم الربع المسكون من العالم الأصغر بحسب الرصد والحاكم في تلك المدائن العامرة والمواطن الباهرة الزاهرة شريف مكة الوصال أمير مدينة الكمال عزيز مصر الجمال كسرى إيوان الجلال » .

١٨١ - المقامة ص ٥ .

١٨٢ - نفسه ص ١١ .

ثم يسترسل في وصف هذا الحاكم حتى ليبدو العالم كله مجتمعاً فيه ، فانسائه النجوم وحاجباه الهلال واجفائه السحاب وجباله العظم وقد اصطفى هذا الحاكم لنفسه وزيراً رشيداً هو العقل الذي<sup>١٨٣</sup> : « لا زالت ظلاله عند مفارق ممالك الناسوت وأنواره من مشارق ممالك الملكوت فخلع عليه أحسن الحلل وملكه زمام العقد والحل وصيره حاكماً على كل بلاده وأميراً مطاعاً في صلاح الملك وفساده » .

وحين يدلّه الهوى على مدينة العلم يجدها روضة زاهرة يجلس العلم فيها على سرير كأنه نور على نور حوله حراسه .

يقول الراوي<sup>١٨٤</sup> :

« ولما استقر بي الجلوس في ذلك المجلس المأنوس وازيل عني بفيضه اليأس والبؤس استمطرت غيث الفيض من رشحات سحابه واستسقيت زلال افضال من قطرات عبابه والتمست ان أكون من المنفيين بظله السامي والمتكسمين المسمين بأسمه النامي وقلت ان عروة محبتي الوثقى لم يتطرقها الانفصام وحبل مودتي المتين لم يعتور عليه الانفصال والانصرام » .

فما كان من العلم الا ان انتظمه في سلك طلبته وامده بعين عنايته « حتى انهي جواسيس الخواس انه قد ظهر سلطان يسمى بالجهل وعزم على تسخير ممالك النفس والعقل فجمع الأموال والذخائر وحاز النقود والجواهر وقاد الجنود والعساكر وملك المدن والجزائر واستذل القبائل والعشائر » .

ولقد تسلط الجهل على الخواس الظاهرة ثم ارسل الى العقل يدعوه بالدخول في طاعته وكان رسوله في ذلك المال وهنا تعقد المناظرة فيستوي العقل على سرير العز كالقلب يجلس العلم الى يمينه وفي قبالتها جلس المال الذي شرع ينذر ويهدر غير ان العقل يصرف النظر عنه لينبيري له العلم ويفحمه بحججه القوية ، يقول<sup>١٨٥</sup> :

« وانك لو صرفت بصيرتك القصيرة في فهم ما تلوته عليك وأعملت رويتك الروية في

دراية ما القيت عليك لعلمت ان طاعة العقل للجهل عين العصيان ولبش فسوق بعد الايمان وأنت الذي اغريت الجهل على الطغيان والخروج على طاعة الرحمن باغواء الشيطان ومساعدة الدهر الخوان وخالفت قوله تعالى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .

وهكذا يدور رحي المناظرة فيركز المال فيها على ان الأدب والخطابة والوعظ قد كسدت أسواقها وبار امرها فيقره العلم على ذلك ولكنه يضيف بان ذلك عند الجهال الذين لا يعرفون فضل أولى الفضل وهم كثر .

ويخلص الشيرازي في آخر الأمر لقوله<sup>١٨٦</sup> :

« وبالجملّة ندم الانصاف ولزم الاختلاف بين الفريقين في حكم الحكمين فمالّت طباع الأكثر الى اتباع الجهل طمعاً في نيل الشهوات الدنيوية العاجلة ومال قلب الأقل الى طاعة العقل وجاء لادراك الذات الاخرية الاجلة فقال العلم للعقل لقد رغب معظم قوى الناس وأكثر المشاعر والخواص وقلوب جمهور الملوك والسلاطين ورؤساء المدائن . . والأمرء والحكام والولاة ومن يجذو جذوهم من عمال الولايات الى اختيار طريق الجهل ولم يبق من جندك الا اهل الفضل » .

فرضي العقل بأجر الآخرة واستقر على سرير المملكة في الاعمال الاخرية وترك للجهل سرير السلطة في الأمور الدنيوية الزائلة .

### التقويم :

وهكذا جعل الشيرازي هذه المقامة متنفساً للتعبير عن أزمته الشخصية وهي مقامة لا نعرف لها نظيراً في الطول اذ انها استغرقت أكثر من أربعمئة صفحة . ليس ذلك فحسب بل اشتملت في داخلها على عدد آخر من المقامات في مواضيع لا تمت الى الموضوع الرئيسي بصلة فقد اشتملت على الوان من القصص والموضوعات المتنوعة بعضها عامر بالخلاعة ساقها المؤلف على لسان الجهل الذي أراد أن يدلّل في معرض المناظرة على قدرته في انشاء المقامات ولكنه مع ذلك لا يحفل بها لكسادها في سوق المنفعة .

وعلى العموم فان المقامة قد اشتملت على مادة وفيرة من الحجج والبراهين في الأدب

١٨٣ - نفسه ص ٨ .

١٨٤ - نفسه ص ١١ .

١٨٥ - نفسه ص ١٧ .

١٨٦ - نفسه ص ٢١٢ .

والعلم والفكر والحياة وتحتاج الى دراسة مستقلة ليس هذا مجالها .

ونحن بالطبع لن نبحث عن صورة المقامة الفنية المعروفة لأن هذه المقامة قد خرجت على الأصول السابقة ؛ فقد اطلال الراوي في تقديم مناظرته اظالة مفرطة ؛ ومع ذلك فان المقامة تؤكد رأينا الذي اشرنا اليه وهو ان الكتاب قد اتخذوا من الفن المقامي مواقف ينفثون من خلالها نظراتهم وتأملاتهم الذاتية في الكون والحياة والفكر .

## ٢١ - المقامة الدجيلية ١٨٧

لعصام الدين عثمان افندي العمري الموصلية ١٨٨

### المقامة :

ينسب الكاتب روايتها الى الوليد بن ذكاء عن جده الربيع بن ماء السماء قال دخل سمكة الجديل بعد أن بلغ به الاعياء مبلغا عظيما فقصد دار الحكومة فحال الجباب دونه ودون الدخول فوقف يستظل تحت أغصان الشجر وكانت تلك مناسبة يستروح فيها ويستجلى جمال الطبيعة العذراء قال ١٨٧ :

« هذا ما كنا نبغي فنزلت تحت الأشجار لعل اقتطف بعض الثمار وقد عدت المهجوع لما انا به من غائلة الجوع ولكن لطافة المحل ، انستني داعية الجوع المخل » .

وبينا هو على هذه الحال اقبل فتى رائق الهيئة اتخذ مجلسه على دكة عالية فتقاطر الناس صوبه كل بيده ورقة أدب يسأل عنها والفتى يجيب اجابات تحجل السحاب وتبهر الزمن ، فلما انفض الناس من حوله سأل الربيع عن اسمه ولقبه فقال ١٨٨ :

« يا اعز الاخوان اللقب عصام الدين والاسم عثمان ، أما الأصل والنسب والذات والحسب فانا من اكرم ارومة وأشرفهم جرشومة والطفهم نفس واذكاهم غرس ١٨٩ وانماهم ذات واسماهم سمات وافصحهم نطق واعدهم خلق اما الجدل فعمر بن الخطاب واما انا فعين الادب ونتيجة الاداب » .

ومن هذا التعريف نعلم أن المؤلف هو الذي يقوم ببطولة المقامة ولها غايتان الغاية الأولى هي التعليم الذي يخلص منه الى غاية المدح .

وقد تجلت غاية التعليم واضحة حين أراد الربيع أن يوقد نار الفتى ويورى زناده فسأله في بعض الألفاظ فأجاب في فصاحة شبيهة بفصاحة الاسكندري وأبي زيد السروجي ولم

١٨٧ - ضمن مجموعة مقامات الخفي وابن نافي ص ١٩٦ .

١٨٨ - توقي سنة ١١٨٤ هـ .

١٨٩ - نفسه ص ٢٠٠ .

١٩٠ - نفسه ص ٢٠٢ .

١٩١ - خطأ نحوي والصحيح غرسا .

يستغرب الراوي ذلك منه لانه من بيت لهم في المعالي نصيب فاتبع سؤاله عن لسان العرب وان كان يعرف له في سائر الألسن فضيلة ؟

فقال :<sup>١٩٢</sup>

« ويحك ادونه لسان ام سواء جنان اما سمعت الحديث الشريف النبوي انا عربي والقرآن لسان أهل الجنة اما يكفيه اختصاصه بالفصاحة واشتهار اهله بكرم الاخلاق والسماحة فجميع الامم فيه راغبون واليه منقلبون وله بالفضل مقرون وببلاغته معترفون . . فما سائر اللغات الا جسد بلا روح أو روح بلا جسد » .

فاذا فرغ من هذه القضية تحفه الراوي بسؤال آخر عن الروح فيخوض في مناقشات جدلية وفلسفية وكلامية تظهر مقدرة الفائقة في العلم بأراء السلف وغيرهم من العلماء ثم يسأله بعد ذلك عن العقل فيخوض معه في مسائل فقهية وجدلية .

وحين يسأله عن الفرق الاسلامية يقف وقفة طويلة يحدث فيها عن الجماعة وأهل البدعة والمتفرقة والتبذرة وسائر المذاهب حتى يوفيها حقها ثم يختم حديثه بقوله :<sup>١٩٣</sup>

« ولولا التطويل والملل لبينت لك معتقدات جميع الملل فاقنع بهذا الجواب ولا تنظر الى الاختصار والاسهاب فيد الزمان قد اوقعتني في هذا المكان فلا صاحب ولا أنيس ولا مخلص ولا جليس ولا كراس ولا كتاب ولا أديب ولا اداب فاذا طلبت قلما أو ورقة فاما قطعة أديم أو ذيل معلقة فالعذر اليك والاعتماد عليك فاقبل الاعتذار واقلني على هذا الاختصار » .

فاذا فرغ الراوي من سؤاله ايان البطل عن نزعة تشاؤمية فقد حكي للراوي شيئا مما كابده في حياته يقول :

انسي رأيت الصبر خير معول في النائبات لمن أراد معولا  
ورأيت اسباب القناعة أكدت بعري الغنى فجعلتها لي معقلا  
واذا غلا شيء علي تركته فيكون أرخص ما يكون اذا غلا  
ثم يخبره بعد ذلك كيف آلى على نفسه أن يغيث الملهوف ويصطنع المعروف حتى يأوى الى

١٩٢ - ضمن مجموعة مقامات الحنفي وابن نايف ص ٢٠٦ .

١٩٣ - ضمن مجموعة مقامات الحنفي وابن نايف ص ٢٦٩ .

رسمه على ألا يكون له مطلب في الحياة غير الكفاف المكسو بالعفاف في مدة العمر القليلة .  
وحين أراد الراوي ان يعرف شيئا عن سبب نزوله في الجديبل اعرض عن ذلك خوف المزايدة واللجاج وعندئذ اقبلت كوكبة من الفرسان فاقتلعتة فجزع الناس ، وآلى الراوي الا ان يختبر امره بنفسه فلما وصل اليه تعجب البطل كيف تجشم الراوي الخطر من أجله وهنا يدور بينهما حديث طويل يكشف فيه عن فلسفته التشاؤمية ثم يتبع حديثه الى الراوي بقوله :<sup>١٩٤</sup>

« فاذا علمت الحال واطلعت على مضمون هذا المقال وطلبت كنه حقيقة ما أوردته لك من الكلام فعليك ببغداد دار السلام فلي هناك اخوان شقيقان . . اغران أمجدان هما نكتة الزمان وشماتة الندمان » .

وهكذا يخلص الى غاية المدح ويمدوحاه هما النجيب الاكرم والأديب الاعظم ابو البركات السويدي وكذلك اخوه ابو البركات عبد الله محمود . فهما من نوع الرجال الذين اتصفوا بالادب والورع ونزعوا عن الدنيا واتصفوا بمكارم الاخلاق .  
يقول :<sup>١٩٥</sup>

« فهؤلاء الرجال الأماجد الاقيال اعرف بالامر وادري بالحال ، وهم أدباء الزمان وعيون الاعيان ، فامض اليهم وسلم لي عليهم واسألهم عن هذا القبال والقبيل وسبب النزول والرحيل واستخبرهم عن هذا الفساد وتنقل في البلاد وتشتي من دون العباد فهم اعرب بالكمد وأدري من كل احد وقد قلت في اثناء القصة أبياتاً تنبئك عن هذه القصة :

ليتني كنت في الانام جهولا قضايتي من الحجي والذكاء  
فمصايسي مصاب آل علي وجلادي جلاد اهل الغباء  
فاذا فاتني من الدهر يوم فاذكروني بصالح ودعاء  
ثم تنتهي المقامة بمشهد مثير في الفراق اذ الراوي متشبث بالبطل والبطل مصمم على

١٩٤ - ضمن مجموعة مقامات الحنفي وابن نايف ص ٢٧٨ .

١٩٥ - نفسه ص ٢٨١ .

الفراق وكلاهما يشد اشعارا رائعة تناسب موقفه . ويختم الراوي الحديث بقوله :  
« ومع ذلك فلم أر مثل هذا الامر امرا ولا أعظم من ذلك النازح قدرا ولا اجلد منى  
جلدا وصبرا حيث فارقت ولم تفارق الروح البدن » .

### التعليق :

وكما نرى فان المقامة تتجه بمضمونها الى حالة خاصة ، فالعنصر السائد فيها هو عنصر  
البطل ذلك العالم الجليل القدر ، الشريف النسب ، الهائم بعلمه وفضله في ارجاء  
المعمورة بعد أن قلب له الدهر ظهر المجن ؛ فلم يقف من الدهر موقف المتضرع بل خرج  
بفلسفته كل شيء آيل الى الزوال فلما اذا النكد ؟

وهذا البطل في رأينا هو أول بطل مقامي تتمثل فيه روح الحق ، والخير جليلة واضحة ؛  
فهو لا يخال بعلمه بل على العكس من ذلك هو مستعد لان يمنح دون أن ينتظر من الناس  
عطاء ويكفي دليلا على تقديره ذلك المشهد المؤثر الذي جزع فيه الناس حين أتى الجند  
واخذوا الرجل من بينهم وربما كانت تلك صورة حية لواقع الدعاة في ذلك العصر ؛ فهم  
ابدا مطاردون بعيون السلطة .

ولئن كان ثمة نقد يمكن أن يوجه لهذه المقامة فان بناءها الفني لم يحفل بذلك التماسك  
الذي حفلت به مقامات الهمداني لا سيما في تلك الفقرة المطولة والتي دار فيها النقاش حول  
الروح والعقل والفرق ، فقد أدخل الطول بالبناء المقامي الذي يعتمد على الحدث العابر  
والسريع في ذات الوقت .

### تعقيب على الفصل الأول من الباب الثاني :

#### أسلوب التعبير في المقامات المشرقية :

ذكرنا عند حديثنا عن أسلوب التعبير في المقامات الهمدانية ، أن الأسلوب في الاصطلاح  
الأدبي المعاصر لا يعني طريقة صوغ العبارات فحسب بل يشمل البناء الدرامي بأسره ،  
وقد تعرضنا لذلك بشيء من التفصيل أثناء حديثنا عن المقامات المشرقية ، ومع ذلك فقد  
شعرنا بحاجة الى التركيز على اظهار الأسلوب بحسب مفهومه الكلاسيكي ، لأن في ذلك

فائدة لدارس النثر بصفة عامة ؛ غير أن ثمة حقيقة لا بد من الاشارة اليها وهي أن  
الاختلاف والتفاوت في أساليب الكتاب المقاميين لا يدل على أسلوب الكتابة بصفة عامة في  
عصر المقامي بل يدل على مقدرة الكاتب الخاصة ؛ ذلك أن المقاميين في معظم أحوالهم لم  
يريدوا التعبير عن أسلوب عصرهم بقدر ما أرادوا تقليد النماذج العالية التي أوجدتها  
الحريري ومن قبله بديع الزمان .

وهذا يفسر لنا سر الاختلاف والتفاوت في أساليب هؤلاء المقاميين ، وعلى سبيل المثال  
نجد الفجوة عميقة في القرن الخامس بين أسلوب ابن نافيا وأسلوب بديع الزمان لأن ابن  
نافيا غاص في حشد الغريب بصورة أفرغت مقاماته من ذلك الرواء الذي وجدنا عليه  
مقامات الهمداني .

وأما في القرن السادس فنجد الحريري على الرغم من استخدامه للغريب فانه أقام توازنا  
حسنا بين مالجا اليه من وغورة وما أرادته من اتقان في الصياغة المقامية ؛ وهذه غاية قصر  
عنها الخفي في نفس القرن حيث حشد مقاماته بالغريب دون أن يقيم حسايا لمثل هذا  
التوازن .

أما بقية المقاميين في هذا القرن كالزنجشري والأسواني وابن الجوزي فقد اهتموا اهتماما  
كبيرا بصناعتهم اللفظية وفق مذهب اهل الطبع .

وكما رأينا تفاوتنا في أساليب كتاب المقامة في القرن السادس ، وجدنا مثل هذا التفاوت  
لدى كتاب المقامة في القرن السابع ، فبينما استخدم الشاب الظريف ملكته الشعرية  
وأضفى بها جمالا على مقامته جاءت مقامات ابن الصيقل الجزري وعرة لا يطيق الانسان  
قراءتها .

ونفس الشيء حدث في القرن الذي يليه وهو القرن الثامن ، فبينما نجد ابن الوردي يميل  
الى الترسل وعدم الاغراق في الصنعة اللفظية ، نجد ابن المعظم يحشد مقاماته بالغريب  
بصورة جعلت من العسير تمييز شخصية خاصة لهذا الكاتب ، بل لقد وجدنا مقامات  
الصفدي ملائمة بالأساليب الركيكة والعامية في ذات الوقت .

أما في القرن التاسع فلم نستطع أن نميز للقواس طريقة اسلوبية متميزة ؛ غير أن  
الظاهرة الجديرة بالانتباه هي أن كتاب المقامة منذ القرن التاسع وإلى القرن الثاني عشر قد  
أخذوا يميلون الى التسهيل في أساليبهم دون أن يخلوا برواء هذه الأساليب ، وقد ظهر ذلك



واضحاً في مقامات السيوطي والخفاجي والسويدي والكريدي .  
وبصفة عامة فإن القدرة الشخصية قد لعبت دورها في تجديد أسلوب الكاتب ؛ ولقد  
رأينا الخط المقامي يبلغ قمته عند الحريري ولكنه لم ينحدر بعد ذلك بل سار في خطوط  
معتدلة الا في حالات قليلة اشرنا اليها خلال هذا التعقيب .

## الفصل الثاني

### مقامات الأندلسيين والمغاربة

### تمهيد<sup>١</sup> :

كما نظر كتاب المغرب والاندلس في سائر الانماط الأدبية التي كانت سائدة في بلاد الشرق ، فلم يكن من الجائز أن تغفل عيونهم ذلك الفن المقامى الذي ملأ الحياة الأدبية في الشرق منذ عهد بديع الزمان ؛ فمنذ القرن الخامس بدأت طلائع المقامة تظهر في بلاد المغرب والاندلس على يد ابن شرف وابن شهيد وغيرهما ، ولكن المقامة في بلاد المغرب لم تكن في هذه المرة صورة طبق الأصل للمقامات الشرقية .

يقول الدكتور احسان عباس<sup>٢</sup> :

« من مجموع ما وصلنا من هذه المقامات يستطيع الدارس ان يتبين حقائق محددة عن طبيعة المقامات الاندلسية فقد انتفت من بعضها قصة الكندية والحيلة المقترنة بها وأصبحت صورة من رسالة يقدمها شخص بين يدي أمير يرجوه أو أمل يحجب تحقيقه كما أن كثيرا من المقامات الاندلسية أصبح وصفا للرحلة والتنقل في بلاد الاندلس ، وفي هذا ايضا شاركت الرسالة وكان بعضها يمثل الاتجاه النقدي أو مواقف المنافرة والمباخرة أو يؤدي بعض الموضوعات الشعرية كالغزل والمدح والهجاء » .

١ - هذه المقامات التي بين أيدينا تقع ما بين القرن الخامس الى القرن التاسع مروراً بعصر الطوائف والمرابطين فالموحدين فالعصر الغرناطي .

٢ - تاريخ الادب الاندلسي احسان عباس - عهد الطوائف والمرابطين ٣٠٨ .

ويقول كذلك :

« ولما اتسمت المقامة بالرسالة واصبحت تؤدي مهمتها فقدت العقدة وفقدت الشخصيتين الخياليتين فيها واصبحت على لسان صاحبها وإذا لم تكن قصة لرحلة فقدت العناصر الدرامية جملة وأكثر الذين كتبوا المقامات في الأندلس لم يراعوا أن تكون كتاباً جامعاً ، وإنما هم الواحد أن ينشئ مقامة واحدة أو اثنتين أو بعض مقامات الألسر قسطنطين فان اتباعه للحريري حتى في الناحية العددية جعله ينشئ خمسين مقامة » .

وهذا القول في معظمه يوافق الصورة التي وصلت بها المقامات الأندلسية البينا ولكن ثمة حقيقة يجب التركيز عليها وهي ان الموضوعات التي تطرقت لها المقامات الأندلسية ظهرت على نحو أو آخر في المقامات الشرقية غير ان ما يميز المقامات الشرقية على المقامات المغربية هو انها عرضت هذه المواضيع - في معظم حالاتها - في اطار الدعاية المقامية المعروفة الا في حالات قليلة كما ظهر في مقامات السيوطي والزنجشري .

ولا يعني مجرد المقامة الأندلسية من الحبكة البديعية في معظم حالاتها ايضا ان لبا قد وقع بينها وبين فن الرسالة كما ذكر الدكتور عباس . فقد ذكرنا في أكثر من موضع من هذا البحث ان الفن القامي غطى الفراغ الشاغر من عدم وجود فن القصة والمقالة بصورة واضحة في أدبنا العربي القديم ومن هنا فقد كان لا بد وان تبلور هذه الفنون على نحو أو آخر بالتحلل شيئا فشيئا من القيود الصارمة التي فرضتها الدعاية المقامية على الصياغة الفنية ؛ وما ادب الرحلات الذي ظهر في المقامات الأندلسية الا ضرب من المقالات الوصفية أو قصص المشاهدة التي تقوم على الحكاية غير ان ذلك أمر ستتطرق له حين دراستنا لهذه المقامات ؛ أما الآن فلنقدم بهذه الصورة المجمل للمقاميين الذين سنتحدث عنهم .

## مقامات الأندلسيين والمغاربة

نبدأ حديثنا بظهور المقامات المغربية في القرن الخامس على يد ابن شرف الذي وصلت لنا منه مقامتان الأولى طابعها نقدي ادبي وهي وصف للشعراء ومزاياتهم في الجاهلية والإسلام على غرار الوصف الذي وجدناه في المقامة القريضية للهمداني وأما الثانية فتعبر عن موقف لطيف وقع عندما رغب شيخ في مضيقه الوسيم . والمقامتان لا تقدمان منهجا متكاملًا لكاتب مقامي كما انه لا صلة بين الموضوعين اللذين عبر عنهما ابن شرف وقد وضح فيها عنصر التقليد ؛ أما مقامة ابن شهيد التي ندرسها بعد ذلك فيبدو انها جزء تبقى من مقامة طويلة وهي لا تقدم لنا ايضا ذلك الشكل الذي وجدناه عند بديع الزمان لانها مجرد مشاهدات وملاحظات عن رحلة قام بها الكاتب ؛ كذلك فقد كتب الاديب محمد بن مالك القرطبي مقامة بالغة الطول بغرض المدح ، وقد خاطب بها ابن الصادح ولم يذكر ابن بسام الاجزاء منها وغرض المدح قد لمسه من قبل في المقامات الشرقية عند الخنفي كما لمسه في مقامات القرن الثاني عشر وقد أورد ابن بسام كذلك جزءا من مقامة لابن المعلم ويرى الدكتور احسان عباس انها قيلت في مدح المعتضد وانها تشبه رسالة ابن زيدون الهزلية من حيث اعتمادها على سرد الامثال .

أما مقامة الفتح بن خاقان فهي عبارة عن رحلة البطل علي بن هشام من الشمال الى بلاد الأندلس ؛ وهناك شك في نسبتها للفتح بن خاقان اذ نسبها بعضهم لابي عبد الله بن ابي الخصال .

وأبو عبد الله هذا له مقامة أخرى قد عارض بها الحريري كما سنرى . أما أشهر المقاميين في القرن السادس فهو السرقسطي الذي كتب خمسين مقامة أنشأها بقرطبة على غرار المقامات الجريبية وقد التزم فيها ما لا يلزم وما يؤخذ على هذه المقامات هو تقليدها للمقامات الشرقية بحيث لم تقدم لنا صورة من الحياة الأندلسية .

ومن مقاميين هذا القرن أيضا أبو عبد الله محمد بن محرز الوهراني وله ثلاث مقامات الأولى والثالثة في غرض التعليم وأما الثانية فذات هدف اخلاقي وهذه المقامات تنفر من التكلف والصنعة اللفظية وتلك ظاهرة واضحة في كثير من المقامات الأندلسية التي جنحت الى تسهيل الوعورة التي اتسمت بها مقامات المشرق .

أما المقامة الدوحة لابي عبد الله محمد بن عياض فلم يذكر منها صاحب المغرب سوى

مقدمتها ؛ كذلك فلم نعثري على مقامة علي بن جامع الاوسى غير ان صاحب الذيل والتكملة اشار اليها ومن اشارته ندرك ان موضوعها نقد للحياة الخلقية والاجتماعية لبعض الاعيان والاغنياء وهذا موضوع شاركت فيه المقامات المشرقية التي كانت تعبر عن نقمة الطبقة الدنيا والمتوسطة على طبقة الاغنياء .

وقد وجدنا كذلك اللسان الدين بن الخطيب ثلاث مقامات الاولى مقامة السياسة وموضوعها الوعظ هي شبيهة بمقامات الوعاظ لابن قتيبة اما المقامة الثانية فلم تلتزم شكلا فنيا خاصا لانها مجرد وصف للبلدان وتشاركها الثالثة في هذه الصفة غير ان المؤلف ادخل فيها عنصر الكدبة .

كذلك في القرن التاسع فان لدينا مقامة حضرة اليرتياح المغنية عن الراح لأبي حاتم العاملي المتوفى عام ٨١٥ هـ . وهي ذات مدلول رمزي يرويها أحد الشيوخ ويقوم ببطولتها جماعة من فصحاء العرب بين يدي الملك كتبها العاملي وهو يقضي عقوبة السجن في فاس فكانت سببا في اخراجه منه ذلك ان التقدير الذي لقيه ابطال المقامة من الملك كان جديرا به العاملي نفسه والمقامة اذا نخلت من القيمة الرمزية فليس في صياغتها ما يثير .

أما مقامة الفقيه ابي عمر الزجال ٨٤٤ هـ تسريح النصال فيغلب عليها الهزل أما في مقامة الوباء فيوجه حديثه الى حمراء الملك ويلومها لانها ابقت السلطان في مكان موبوء . تلك هي المقامات التي تعرضنا للحديث عنها وهناك بالطبع مقامات كثيرة لم تصل يدنا اليها ، إما لأنها ضاعت وأما لان الرغبة في الاختصار قد أوجبت علينا صرف النظر عنها ، وبما لم نتعرض له :

- ١ - مقامة لابي اسحق بن خفاجة بقيت منها أبيات في ديوانه .
- ٢ - مقامتان لمحارب بن محمد بن محارب الوادي . ٥٥٣ هـ .
- ٣ - سبع مقامات لابي الحسن المالقى . ٥٧١ هـ .
- ٤ - مقامة في أهل غرناطة لمحمد بن خلف الهمذاني . ٥٧٣ هـ .

- ٣ - من كتاب القرن الثامن الهجري .
- ٤ - رسائل اخوانية .
- ٥ - المغرب ١ : ٣٤٤ .
- ٦ - بغية الوعاة ٤٠ - ٤١ .

- ٥ - مقامات لابن القصير عبد الرحمن بن أحمد . ٥٧٦ هـ .
- ٦ - مقامة لابي بكر الكاتب يحيى بن محمد الاركشي .
- ٧ - مقامة لابي محمد عبد الله الأزدي . ٧٥٠ هـ .
- ٨ - المقامة النخلة لابي الحسن النباهي المالقى .

وعلى وجه العموم نستطيع ان نوجز القول بان الاندلس لم تقدم لنا مقاميا على غرار الحريري أو بديع الزمان ذي طبيعة منفردة فمعظم الذين كتبوا في هذا الفن تناولوه في مقامة أو مقامتين أشبه بالأحاديث الوصفية أو المشاهدات العابرة في أدب الرحلات وقد كانت الفرصة سانحة امام السرقسطي الذي أثبت مقدرة في كتابة هذا الفن غير ان التقليد والتكلف ابعده عن كتابة عمل أصيل ، ومع ذلك فربما ضاع كثير من هذا الفن في الاندلس أو تلف ولم يصل اليها غير اننا لا نتوقع أن يكون ما ضاع أو تلف مختلفا كثيرا عما وصل اليها .

أما في مصر  
فلا نجد في أواخر  
السرقسطي  
التي تسمى  
المدائح

- ٧ - ازهار الرياض ٣ : ١٥ .
- ٨ - مجلة المعهد المصري ١٦٨ - ١٩٥٤ .
- ٩ - نفسه ص ١٦٣ .

## مقامات ابن شرف

مؤلف هذه المقامات هو أبو عبد الله محمد بن شرف المتوفى سنة ٤٦٠ هـ يقول عنه ابن بسام في ذخيرته<sup>١١</sup> :

« كان أبو عبد الله بن شرف بالقيروان من فرسان هذا الشأن واحد من نظم قلائد الاداب وجمع اشبات الصواب وتلاعب بالمنظوم والموزون تلاعب الرياح باعطاف الغصون وبينه وبين أبي علي بن رشيقي ما ج بحر البراعة ودام ورجع نجم هذه الصناعة واستقام وذهب من المناقضة مذهبا تنازعاه سرا طويلا وخلدها ذكرا عمولا واحتملاه - ان لم يسمح الله - وزرا ثقيلا وكان أبو علي أوسعهما نفسا وأقربهما ملتصبا ولابن شرف اصالة مترعة وجلالة مقطعه ومثانة لفظه وسعة حفظه فتسمع بشعره ملائح من وعورة وجمعجة ولكن ما أبعد ما يرومه وأبدعه وسال سيل فتنة القيروان اللاعب باحرارها المعفى على اثارها فتزد على ملوك الطوائف بالاندلس بعد مقارعة احوال ومباشرة الخطوب وقد نبت شفرته وطفئت جمرته وقد قلت فيما تقدم انه انتحى منحى القسطل في شكوى الزمن والحديث عن الفتن كان معه تصدى الرياح بجناح وقابل الصباح بمصباح واستقر اخيراً عند المأمون بن ذي النون فخلع عليه آخر لبوسه ونثر بقية كيسه » .

فاذا تأملنا هذه الفقرة من حياة ابن شرف وجدنا تشابها كبيرا بين سيرته الذاتية وسيرة بديع الزمان فكلاهما محاصم عنيد . . فكما شجر الخصام بين بديع الزمان وأبي بكر الخوارزمي شجر الخصام بين ابن شرف وابن رشيقي غير ان كفة بديع الزمان في ملاقاته خصمه كانت أرجح من كفة ابن شرف ولكن ذلك لا يقلل من مكانة ابن شرف الذي كان يرغب كل الظروف مبدعا في اصالته قويا في حفظه .

كذلك فقد التقى مع بديع الزمان في كثرة مجاوله ، فكما لم يترك بديع الزمان ملكا في اقليم الدولة الشرقية لم يسترفده ، فان ابن شرف لم يترك ملكا من ملوك الطوائف في الاندلس لم ينل عطائه ؛ وقد كان ابن شرف كسابقه مستعدا لاراقة ماء الوجه في تحقيق مآربه ؛ غير ان ابن شرف تفوق على بديع الزمان في شدة الحذر .

١١٥ ١١٤ ١١٣

١٠ - الذخيرة - ابن بسام - القسم الرابع المجلد الأول ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ١٣٣ .

يقول ابن بسام<sup>١١</sup> :

« وكان لعباد همة في اصطحاب الاحرار واستجلاب ذوي الاخطار ينصب لذلك الحياثل ويعمل منه الحق والباطل حتى اذا عشوا الى سرجه واغتروا بزرجه سامهم رد قيس على أبيه واخذهم بالسعاية بين الفرقد واخيه فما اعياه منهم ركوب الصعاب وعضه التقلب بين المضايق والرحاب عزه في الخطاب واطاع به سلطان الارتياح ايمسكه على هون أم يدسه في التراب وقد ذكرت في اخبار ابن عبد البر الكاتب انه انسل من يد عباد السلال الطيف ونجا منه واسأله كيف . . . وكان ابن شرف هذا عمق فهم منحاه وصم عن رقاہ فلم يجتمع مع عباد في صعيد ولا اهدى له السلام الا من بعيد » .

وقد ذكر ابن بسام ان لابن شرف عدة تواليف منها ( اعلام الكلام ) وكتاب آخر يسمى ( ابيكار الافكار ) .

ومن جملة اخباره التي ذكرها ابن بسام قوله<sup>١٢</sup> :

« بلغني انه استنهض صاحبه ابن رشيقي مع منافرة كانت بينهما في أن يجتمع العدوان بالطريق ويجوزا معا الى الاندلس فأنشده ابن رشيقي :

ما يبغضني في أرض اندلس سماع مقتدر فيها ومعتضد  
القاب مملكة في غير موضعها كاهلر يحكى انتفاخا صورة الاسد  
فأنشد ابن شرف :

ان ترمك الغربية في معشر قد جبل الطبع على بغضهم  
فدارهم ما دمست في دارهم وارضهم ما دمست في أرضهم  
ثم تصرف في هذا المعنى وقال :

يا خائفا من معشر	لا يصطلي بنارهم
او ترم من احجارهم	وانت في اجحاوهم
فما بقيت جارهم	ففي هواهم جارهم

١١ - الذخيرة - ابن بسام - القسم الرابع المجلد الأول ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ١٣٣ .

١٢ - الذخيرة - القسم الرابع المجلد الأول ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ١٣٤ .

وأرضهم في أرضهم ودارهم في دارهم

وقد أورد ابن بسام كذلك في ذخيرته غررا من نثره غير أن ما يهمنا في هذه الدراسة هو مقاماته التي ذكر ابن بسام أنه عارض بها بديع الزمان وصب فيها على قلبه وقد أثبت منها مقامتين في ذخيرته فلننظر في حقيقة قوله .

### المقامة الأولى :

يبدأ ابن شرف مقامته بقوله<sup>١٤</sup> :

« جاريت أبا الريان في ذكر أهل النظام ومنازلهم في الجاهلية والاسلام فقال عدد الشعراء أكثر من الاحصاء وأشعارهم أبعد من شقة الاستقصاء قلت لا اعتنك بأكثر من المشهورين مثل الضليل والقتيل وليد وعبيد والنوايح والعشى والأسود بن يعفر ومن سواه من العمى وابن الصمة دريد والراعي عبيد . . . . ومن الطبقة المتأخرة في الزمان المتقدمة من الاحسان كابى فراس الحمدان والمتنبى بن عبدان وابن حذار المصري وابن الاحتفي الحنفي . . . الخ » .

من هذه المقدمة يتضح لنا خطأ ابن بسام اذ تصور ان ابن شرف أراد معارضة بديع الزمان في مقاماته أو الصب في قلبه : ذلك أن ابن شرف لم يتقيد بالقلب الذي وضعه بديع الزمان كما انه لم يحفل بالبناء الدرامي الذي ركز عليه البديع ؛ ولعل غاية ابن شرف لم تتجاوز الغرض الادبي بذكر الشعراء ، وأخبارهم في أسلوب تقريرى عليه مسحة نقد في حين ان بديع الزمان تجاوز هذه الغاية لانه استطاع من خلال نموذج الانسانى المشرذ ان يصب ثورته على النظام الاجتماعى في العصر العباسى كله في اطار درامى .

ولقد أراد ابن شرف في هذه المقامة أن يكتب حديثا أو مقالة أدبية وقد اطلق عليها اسم مقامة لان الاشكال الادبية في ذلك العهد لم تكن قد اكتملت كما أن كلمة مقامة في مدلولها اللغوي تعنى ( حديثا ) .

وإذا تأملنا المقامة بمزيد من التدقيق وجدنا أبا الريان فيها بطلا وراويا ولكنه ليس بالبطل الدرامي فدوره في الرواية لا يختلف عن دور الراوي في أي خبر من الاخبار المعروفة اذ لا

يتجاوز تقرير الافكار التي جهد ابن شرف في جمعها وعلى سبيل المثال فقد ورد على لسانه<sup>١٥</sup> :

« الضليل مؤسس الاساس وبنائه عليه الناس كانوا يقولون أسيلة الخد حتى قال (أسيلة مجرى الدمع) وكانوا يقولون تامة القامة وطويلة القامة وجيداء وتامة العنق حتى قال (بعيدة مهوى القرط) وكانوا يقولون في الفرس السابق يلحق الغزال والظليم وشبهه حتى قال (قيد الأوابد) ولم يكن قبله من فطن لهذه الاشارات والاستعارات » .

ومثال آخر لا يتعدى فيه ابن شرف ما هو معروف من صفات الشعراء المتداولة قوله<sup>١٦</sup> :

« وأما النابغة زياد فاشعاره الجياد لم تخرج عن نار جوانحه حتى تنهى نضجها ولا قطعت من منوال خواطره حتى تكاثف نسجها لم تهلهلها ميعة الشباب ولا وهاء الاسباب ولا لؤم الاكتساب فشعره وسائط سلوكك وتيجان ملوك » .

ويقول عن بشار<sup>١٧</sup> :

« وأما بشار بن برد فأول المحدثين وآخر المخضرمين ، وعن لحق الدولتين عاشق سمع وشاعر جمع ، شعره ينفق عند ربات الحجال وعند فحول الرجال فهو يلين حين يستعطف وينقوى حتى يستكشف وقد طال عمره وكثر شعره وطمى بحره (وسار) في البلاد ذكره » .

وهكذا تتوالى أوصاف الشعراء لديه دون مراعاة للتسلسل الزمني أو المكاني ولا يقوم في داخل المقامة أي لون من ألوان الصراع الفني أو الدرامي كما أسلفنا فلم يكن ذلك شأنه لانه ركز على كتابة حديث ادبي فيه طابع النقد يذكر فيه صفات هؤلاء الشعراء وفي نهاية المقامة نراه يقدم الشكر لابي الريان في صورة طبيعية لا تشبه تلك النهايات الدرامية التي يفاجئ فيها أبو الفتح الاسكندري الناس في موقف عجيب من مواقف حيله فلا يتعرف عليه أحد سوى الراوي عيسى بن هشام . يقول ابن شرف في ختام مقامته :

« هذا ما عندي في المتقدمين والمتأخرين على احتقار المعاصرين واستصغار المجاورين »

١٤ - الذخيرة ص ١٥٥ .

١٥ - الذخيرة ص ١٥٧ .

١٦ - نفسه ص ١٦٠ .

فحاشى الله من الاتصاف بقلة الانصاف للبعيد والقريب والعيد والحبيب قلت يا ابا الريان وقت مرور الحدثان فلقد سبكت فهما وحشيت عليهما .

ومع ذلك فنحن لا نزعج أن مقامات بديع الزمان قد خلت تماما من الصيغ الشبيهة بمقامة ابن شرف لانه اتبع مثل هذا الأسلوب في بعض مقاماته التعليمية مثل المقامة القريضية وهي نقد ومفاضلة بين الشعراء بيد أن بديع الزمان لم يطل فيها كما أطل ابن شرف بل انه ايضا لم يخل بالبناء الدرامي المتناسك الذي صب فيه مقاماته .

### المقامة الثانية :

اما المقامة الثانية فتختلف عن سابقتها وذلك من حيث الهدف والبناء فهي تتجاوز الصياغات التقريرية المعهودة في الاخبار الأدبية بما تحمله في داخلها من عناصر التشويق وطرافة الحادثة الأدبية .

لقد نسب ابن شرف روايتها للرجلاني اذ وقعت الحادثة في جرجان في منزل فتى جمع بين المال والجمال حتى غدت داره مأوى للأدباء والغرباء ، وفي بعض الليالي يطرق بابه فقير ضرير فيحسن اكرامه ، ثم يستدعيه الى ابوانه فاذا بنا أمام رجل لا يختلف كثيرا عن أبي الفتح الاسكندري .

يقول الراوي في وصفه ١٧ :

« فدخل علينا رجل وافر السبال قد عمه البياض بالكمال مطموس العينين مسترخى الحاجبين قد صلعت هامته وقصرت مسافة خطاه وثقل جسمه على عصاه فسلم بصوت ضئيل ودعا بلسان ثقيل واقبل يذكر شبايه ويتذكر احبابه وينوح على سالف زمانه ويندب ثقات اخوانه فرق له الفتى فادناه حتى اجلسه على عيانه وصبره وسلاه ثم سمرنا الى وقت النوم فرقد سائر القوم ونام الفتى في مكانه مراعاة لحق ضيفانه »

وما كاد الفتى يغط في نومه حتى تسلل اليه الشخص يريد الاعتداء عليه وحين كشفت فعلته لم يتحرج بل بررها في ثوب من البلاغة على طريقة الاسكندري يقول ١٨ :

١٧ - اللخيرة ص ١٦٦ .

١٨ - نفسه ص ١٦٦ .

« يا سيدي انا ضرورة وثم ضرورة وقد طالت الغربة واضطرتني العزبة فقال الفتى فما وجدت لضرورتك سواي ولا لعبتك حاشاي قال له فان أبيت ألا ان تمنع فدلني على ما اصنع قال له الفتى أرى لك أن تسرى قال ومن للصعلوك بالملوك قال فتزوج قال والمحوج كيف يتزوج قال الفتى فانك لو خضضت لكان أشبه مما اليه تعرضت قال الاعمى والله يا مولاي لا يسعه خفى فكيف كفى فصاح الفتى السلاح السلاح الا أيها النوام هبوا »

فأى وقاحة يمكن أن تبلغ بالانسان هذا المدى بل وأي فصاحة يمكن أن تجتمع في لسان رجل على هذا النحو ان لم يكن من شاكلة أبي الفتح الاسكندري .

وحتى تتخلي المقامة بطابع الظرف الذي هو ديدن المقامات الهمدانية فقد ختمها الجرجاني بقوله ١٩ :

« فقال الفتى اسمعت العجب العجيب ؟ قلت نعم وحفظت العتاب وجعلت أقول ما سالك الشيخ في عسير ولا حملك على خطر فهل قضيتة فأرحته قال فعسب الاعمى كلامي ردا وظنه جدا فقال فديتك ايها الناصر حين خذلني الاواصر واحتقدني المعاصر ثم تنهد وقال واهرماء بقينا حتى شقينا أه طاح اهل البذل والسياح وبقي اهل البخل والجحاح » .

وهكذا تمضي القصة في طرافتها يتحسر الشيخ في نهايتها على أيامه السالفة ثم يحمل عصاه ويطيح بها بمئة ويسرى ، والناس في منأى عنه حتى اذا طلع الصباح وجدوه قد فارق النفس النمرودية ومات الميتة الجاهلية .

### تعليق :

في الواقع لا تكفي هاتان المقامتان لبيان منهج متكامل لدى كاتب مقامي ونحن نرجح بان ابن شرف كتب غيرها غير ان مقاماته لم تصل اليها أما فيما يختص بهاتين المقامتين فنحن نرى أن المقامة الأولى افتقرت الى عنصرين هامين في كتابة المقامة .

أولا - العنصر الدرامي وهو الذي يمنح المقامة الفنية شكلها المتمايز ويجعلها قادرة على التعبير عن مضمونها بأسلوب درامي من خلال الشخصيات الفنية التي تقوم عليها أحداث المقامة .

١٩ - اللخيرة ص ١٦٦ .

ثانياً - الايجاز وهو عنصر هام في المقامة الحمداية التي تعتمد في معظم الاحيان على موقف واحد أو حادثة واحدة وهذا ما لم يحفل به ابن شرف لانه لم يكن يهدف الى التعبير عن موقف بعينه بل كان يهدف الى وضع سلسلة من الآراء حول عدد كبير من الشعراء في مختلف العصور .

اما المقامة الثانية فقد حوت بعض العناصر الفنية ، وقد ألحنا الى مشاركة بطلها الشيخ لابي الفتح الاسكندري في بعض خصاله واهمها البلاغة والظرف والخسة في بعض أحواله والفرق بينهما أنه فيما يستعمل ابو الفتح الاسكندري خسته لغرض الحيلة فان هذا البطل كان جادا ومؤايسا دفع حياته ثمنا لتصميمه ونذالته .

ومهما يكن من أمر فليس بين أيدينا من تراث ابن شرف المقامي ما يمكن ان نقارنه مقارنة وافية بتراث بديع الزمان الهمداني .

## مقامة ابي حفص عمر بن الشهيد

يقول ابن بسام :

« وابو حفص هذا في وقتنا كان فارس النظم والنثر واعجوبة القرآن والعصر ونهاية الخبر والخبر رقم برود الكلام ونظم عقود النثر والنظام وهو وان لم يزر لملك ولم تدر عليه رحي ملك فليس بمتأخر عن طبقات المحسنين ولا بسيكت حلقات الكتاب المجيدين » .

أما المقامة التي اثبتها فيبدو انها اجزاء قد بقيت من رسالة طويلة وجهها ابن الشهيد للفقيه ابن الحديد وهي لا تلتزم الشكل المقامي المعروف عند أهل الشرق بل هي في الواقع تسجيل للملاحظات ومشاهدات في نزهة طويلة على عادة أهل الاندلس الذين يبدو انهم قد فتنوا بهذا اللون من الأدب .

فالمقامة تبدأ بدعاية عن صنعة الكتابة قال فيها :

« ان صنعة الكتابة محنة من المحن ومهنة من المهن والسعيد من خدم الدولة اقباله والشقي من كانت رأسه له والعامل من اذا اخرجها من مثالبه لم يدخلها في مناقبه لا سيما وقد تناوها يد كثير من السوق وباعوها بيع الخلق فسلبوها تاج بهائها ورداء كبريائها وصيروها صناعة يكاد الكريم لا يعيرها لحظة » .

ثم يخلص الى فصل منها ليحكى جانباً من رحلته :

فقد مال الى منزل بدوى ذي هيئة وزى فلقه بالترحاب ومال به الى بيت أثار اعجابه فقال له الراوي :

« يا صاحب المنزل هئيت وهئيت لقد أوتيت وأوتيت . . . من أين للبدواة بهذا الرونق والطلاوة وكيف حتى اغرت على حانوت العطار ومتى نقل سوق البزالي هذه الدار ؟ » .

قرت بك الأعين وسرت الانفس هذا زى العروس فأين العروس » .

فضحك البدوى ملء فيه ثم قال :

٢٠ - الذخيرة ٢/١ ص ١٨ .

٢١ - نفسه ص ١٨٤ .

٢٢ - الذخيرة ص ١٨٧ .



يا اخي نحن على انا نتاج بدوى  
سادة ناس لنا في هذه الدنيا دوى  
عندنا ان جاء ضيف شمع جم وري

ثم أغرى صبيانه بديك هرم فامسكوا به استعدادا لذبحه ، ولكن الديك في وقت  
الظهيرة صفق بجناحيه بعد أن قضيت الصلاة وقال<sup>٢٤</sup> :

« أيها السادة الملوك فيكم الشباب متع بالشباب والأشيب نور شبابه مع الكواعب  
والأترا ب وقد صحبتكم مدة وسبحت الله تعالى على رؤوسكم مرارا عدة أوقفكم بالأسحار  
وأؤذن بالنهار والليل وقد أحسنت لدجاجكم سفادا وزيت لكم من الفراريج أعدادا  
فالآن حين بل في خدمتكم تاجي انعى الى دجاجي وتنحى الشفرة على اوداجي وحين  
ادركني الشيخ يمزق لحمي ويطيخ يا للكرام من ذل هذا المقام » .

ثم انهمرت دموعه تسفح من دمه وبدا الحزن على فمه وأغمى عليه فرقت له النفوس  
واقبلوا على صاحب الدار باللوم فزين صاحب الدار لحمه ولكن الديك اعترض بان لحمه  
لا يمكن أن يكون طيبا لان الهرم قد دب اليه فزكى قوله كل من حوله وعدوه حكما .

وأما في فصله الثاني فيمر ومن معه بقريه مسيحية يكرمهم قسها فينهر الراوي بجمال  
الغلمان والنساء فيها ؛ وبعد ارتحالهم يمرون بكنيسة مهذبة فيصفها الراوي بقصيدة ثم  
يخلصون من ذلك الى الصيد والطرْد ؛ وفي طريق عودتهم يلتقى بهم شاب فار من الحصن  
له رغبة في اعتناق الاسلام .

وهكذا فان المقامة لاتتخذ ذلك الشكل الذي وجدناه عند بديع الزمان لأنها مجرد  
مشاهدات وملاحظات ولئن لم تصل اليها كاملة فلا نعتقد أن الجزء المفقود منها يختلف  
كثيرا في تكوينه عن الجزء الذي وصل اليها .

## مقامة الاديب ابي محمد بن مالك القرطبي

هذه المقامة أيضا بالغة الطول كتبها ابن مالك القرطبي مخاطبا ابن صمادح وغايتها المدح  
طلبا للعطاء والوصل ولم يشتها ابن بسام كاملة بل اجتزا منها فصولا توضح الغاية منها  
ففي بدايتها نلمح تعبيرا بالفرحة لقيام دولة ابن صمادح  
يقول القرطبي<sup>٢٥</sup> :

« بشرى لنا ولدولته الغراء وهنيئا لنا ولحضرتة الزهراء فتح تفتحت له ازاهير النجاح  
وبشر تباشرت به تباشير الفلاح ورواء اشرق منه جبين الصباح وخبر تضرعت به لوائح  
الرياح يوم هز له الزمان ثنى عطفه وشمخ عزه بانفه »  
ثم ينتقل الى وصف معركة من معاركه يقول<sup>٢٦</sup> :

« لا تسمع الا همهمة وصهيل وقعقة وصليلا فخلت الأرض ثميل ميلا والجبال تكون  
كثينا مهيلا » .

ويصف في خضم ذلك الجيش وآلات الحرب المستخدمة ثم الخيل وما يتميز به ابن  
صمادح من الرأي والمضاء ولا يختلف أسلوبه في المدح عن الأسلوب المتبع في قصائد الشعر  
اذ يصف الممدوح بالبأس والشجاعة والاقدام ثم يعتذر عن عدم اشتراكه في المعركة وذلك  
لحاجة أهله وأطفاله الفقراء اليه يقول<sup>٢٧</sup> :

« ويا لهفى ألا تكون معونتي له باللسان دون اللسان اطاعن امامه دراكا وازاحم قدامه  
الاقران لكاكا ولولا افرح كزغب القطا يدبون في نائله عندي ديب الكرى فيستشفون  
علالتي ويستنزفون بلالتي لامتطيت من جدواه السابح اليعبوب وتقلدت من نداء الصارم  
الرسوب » .

ويتخذ من هذه الفقرة مجالا كي يظهر حاله ترقبا للفرج من الممدوح ؛ ويبدو ان هذه

٢٤ - الذخيرة ٢/١ ص ٢٤٧ .

٢٥ - نفسه ص ٢٤٨ .

٢٦ - نفسه ص ٢٥٦ .

٢٣ - نفسه ص ١٨٨ .

المقامة قد اشتملت على اغراض اخرى غير المدح قال ابن بسام<sup>٢٧</sup> :

« ومد ابن مالك في رسالته هذه اطناب الاطناب وشن الغارة فيها على عدة شعراء وكتاب من جاهليين ومخضرمين ومحدثين ومعاصرين ولو ذكرت من ابن اسلوب واختطف جميع ما وصف وانصرف الى كل احد كلامه شره ونظامه لحصل هو ساكتا وبقي باهتا » .

### مقامة ابن المعلم<sup>٢٨</sup>

لم يوردها ابن بسام كاملة بل أورد منها فصولا ؛ والمقامة تبدأ بتذكر الماضي ثم يستشير المؤلف صاحبها له فينصحه الا يفارق داره او يهجر موطنه ؛ اما اذا كانت الرحلة ضرورية فليختر احسن الرؤساء .

بيد أنه لم يستمع لنصيحة صاحبه فصدمته الايام وخيبت أمله وحين قدم اليه رسول مولاه سارع اليه واستنشد من شعره فأنشد شعرا في مدحه ثم رأى أن يسمعه المنشور بعد المنظوم فاسمعه سجعاً هو بين الشر والشعر .

وكان ذلك سببا في تقريبه .

ويرجح الدكتور احسان عباس انه قالها في مدح المعتضد ويرى انها تشبه رسالة ابن زيدون الهزلية ذلك انها تعتمد على سرد الامثال اعتمادا كبيرا .

## مقامة الفتح بن خاقان على ابي محمد البطلبوسى

بطل هذه المقامة هو علي بن هشام ، يرحل من الشام الى بلاد الاندلس رغبة في التعرف على أدبائها وحين يصل بلنسية يبدأ بوصف جمالها ثم يسأل عن حملة الادب فيها فيقال له :  
« فيها الشيخ السرى ابو محمد البطلبوسى علة العلل وشفاء الظمان من الغلل » .

فيذهب الى لقائه وفي الطريق يلتقى بفتى له لالاء ومعه رفيقه يدعى ابن الطويل وخليل له وبعد مناشدة الاشعار معهم يسأل عن البطلبوسى فيذمه أحدهم باقذع الصفات ثم يحدثه كل واحد منهم بمكررة له .

يقول البطل :

« فلما ولج سمعى ماوئج وانبلج من امر الشيخ ما انبلج بالغت في الطعن وامعنت في السباب واللعن واستخرت الله في الطعن وبممت حضرة بن معن » . - ابن صبادح -  
والمقامة كما نرى كتبت بقصد الهجاء غير ان الوزير ابا جعفر رد عليها برسالة اخرى تسمى رسالة الانتصار وذلك في نقضها .

وهناك في الواقع شك في نسبتها الى الفتح بن خاقان<sup>٢٩</sup> ذلك أن بعضهم اتهم أبا عبد الله ابن أبي الخصال بكتابتها ولكنه أنكر ذلك في رسالة كتبها الى ابي الحسن بن سراج .

٢٩ - تاريخ الادب الاندلسي احسان عباس - عصر الطوائف ص ٣١٥ .

## مقامة لابي عبد الله بن أبي الخصال عارض بها الحريري

اتخذ أبو الخصال الحارث بن همام وأبا زيد السروجي بطلين لمقامته وتحري حواذتها في الريف ، فقد كان الجو ماطرا والفلاحون يستشعرون السرور لنزول الغيث وامام بيت الحارث جلس الناس يتوسطهم شيخ يبهج الجمع بفصاحته ويدعوهم لعطائه وبعد انصراف الناس يتعرف الشيخ على الحارث بن همام فيطلب اليه الحارث أن يبيت الليلة معه درءا للصوص وفيها يبدو أن الحارث كان يزعم سرقة السروجي ولكن السروجي ليس ممن يقع فريسة لغيره فقد استيقظ الحارث في الصباح ليجد صاحبه قد غادر بعد أن ترك رقعة كتب عليها ثلاث قصائد فخف الحارث للسؤال عن صاحبه فوجده مرتفها عند أحد الخمارين لانه شرب ولم يدفع النقود فتقدم لفك رهته والاستئناس به .

يقول الدكتور عباس :

« وتختلف هذه المقامة عن مقامات الحريري في طولها وميل منشئها الى أن يجرب قلمه في وصف عدة مقامات فهناك منظر الريف وآخر في بيت الحارث ثم ثلاث قصائد متتابعة ثم تفتيش عن السروجي ، ثم وصف الحان وحوار طويل بين الحارث ورب الحان ثم اللقاء والحوار بين الحارث والسروجي ثم وصف اليوم الذي ختمت به تلك الاحداث » .

٣٠ - تاريخ الادب الاندلسي ص ٣١٧ .

## مقامات السرقسطى<sup>٢١</sup>

مؤلف هذه المقامات هو القاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطى الاندلسى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ . جاء في مقدمة المخطوطة<sup>٢٢</sup> :

« اما بعد حمد الله العلى والصلاة على المصطفى النبى فهذه خمسون مقامة انشأها أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطى بقرطبة من مدن الاندلس عند وقوفه على ما انشأه الرئيس ابو محمد الحريري بالبصرة اتعب فيها خاطره وأسهر ناظره ولزم في نظمها ، ونثرها ما لا يلزم فجاءت على غاية من الجودة والله أعلم » .

وقد ترك السرقسطى حكايتها للمندر بن همام رواية عن السائب ابن تمام وسار فيها على نفس النسق الذي سارت عليه مقامات الحريري فالسائب بن تمام هو الذي يقوم بالمغامرة ويلتقى في معظم الأحيان بالشيخ العبقري المحتال السدوسي الذي لا تختلف فلسفته عن فلسفة بطل الحريري يقول<sup>٢٣</sup> :

دعا بك الدهر لو تحب	يا حبذا السامع والمجيب
كم نصحب الدهر بالاماني	يفرك الطرف والنجيب
فخذ حديثا عن الليالى	فكل ابنائها عجيب
من خادع الدهر والبرايا	فذلك السيد النجيب
المجد فوز الفتى بحظ	فما تميم وما تحب
يا رب خدن تركت يوما	وحظه الوجد والوجيب
مجدلا في التراب يدعى	منه سميع فلا يجيب

كذلك فقد استخدم بطل السرقسطى نفس الاساليب التي كان يستعملها بطل الحريري في احتياله ، فهو يتخذ من كثرة العيال وتبدل الحال سببا يبرر به الاكداء من الناس .

يقول في المقامة الثالثة<sup>٢٤</sup> :

٢١ - نسخة مصورة بجامعة القاهرة فرع الخرطوم رقم ٨١٤ من ٢٢٦ .

٢٢ - نفسه ص ١ .

٢٣ - نفسه ص ٣ .

٢٤ - نسخة مصورة بجامعة القاهرة فرع الخرطوم رقم ٨١٤ من ٢٢٦ ، ص ٨ .

« أيها الناس انما انتم أنواع وأجناس منكم الجليل والحقير والسفيه والخليل والجهول والعليم والنيه والخال والعاقل والعامل والصحيح والسقيم والطاهر والمقيم واني فيكم لابن سبيل واخو حى وقيل ، ولكن ذوتنى عنهم الاقدار وتناءت بينى وبينهم الدار اهذى اليكم من خبري غريبا وانه منكم غافلا وأديبا كنت ابنا لبعض الاقيال اسحب فضل الأذيال وأهيم بذات الحال واشتمل ثوب الزهو والحال وارتع في روض الهوى والمجون واستهذى الصباية بين نجد والحجون حتى اذا اخترمت يد الحمام وصار أمرنا الى تمام رغب عني الولي والحميم وزهد في الوسيط والصميم وقام في الامر في قائم على حين نام منى نائم اخل بالعهود والدمع وغار من ذوي المراتب والحمم فاصارنى طريدا وغادرني سديدا اعتام الكرام وأسوف الحلال والحرام وربما سفت التراب ووردت الال والتراب واوى الى زغب الحواصل كالاسنة والمناهل يتطلعون الى تطلع الغريم ويستعطفونني استعطافى الكريم فما يظنون بي وقد جنتهم صفر الوطاب خاوى الاحتطاب » .

وعلى الرغم من أن السرقسطى قد أخذ عناصر شخصية بطله من شخصية ابي زيد السروجي فلم يكن الحريري هو مصدره الوحيد ذلك أن نماذج هذه الشخصية قد تكاثرت في واقع الحياة الاندلسية فقد بدأت افواج كبيرة من العجر وابناء ساسان تأخذ طريقها الى بلاد الاندلس مما جعل الحياة الاندلسية تتأثر الى حد كبير بما ادخله هؤلاء من أساليب الغناء والرقص والشعر ، وما هو السرقسطى يكشف عن هذه الظاهرة في مقامته الثانية عشرة .

يقول<sup>٢٥</sup> على لسان الراوي :

« فخرجت استهذى النواصم واستخبر المطى الرواسم واذا بركب قادم على مثل الخواف والقوادم ، وامامهم شيخ له منظر ورواء وتقام استواء فقلت من أين وضع الركب وعما جرت به الرياح النكب فقال نحن ركب العراق وانضاء البين والقراق جلاب الريط والمطارق وابناء العبيد الغطارف نحن ابناء فارس ذوو المناكب الخالصة والمغارس لنا المائر والسوابق ومنا المكائر والمسابق قد دانت لنا الامم . . . لنا المدائن والامصار كما منكم المهاجرون والانصار ومنا العلماء والحكماء كما منكم الاصلاء والحلماء اتانا الاسلام فقربناه القبول وتنسمنا منه الجنوب والقبول فاعتقلنا عراه وتنسمنا ذراه وروينا العلم

٢٥ - نسخة مصورة بجامعة القاهرة فرع الخرطوم رقم ٨١٤ ص ٣١ .

فمددنا اظنا به وافعمنا سحابه وذنا به .

انها صورة حقيقية للهجرات التي بدت تعد على بلاد الاندلس قوامها ابناء ساسان ولعل المنطق الذي استخدموه في تشخيص حالهم يشبه الى حد كبير ما ورد في قصيدتي ابي دلف والاحنف العكبري الساسانيين .

ومما يلاحظ في هذه المقامات الاكثار من ذكر البطل السدوسي في أماكن السكر والخمر وهو صاحب فلسفة خاصة في ذلك يقول<sup>٣٦</sup> :

انا السدوسي فاعلم	وكل دهرى عيد
ان فأتنى اللهو يوما	فأتنى مستعيد
مضى الشباب وولى	وعادنى منه عيد
ودون فعلى رب	يسدى السورى ويعيد
الوعد منه ضال	وفي يديه الوعيد
كل عليه قريب	وما عليه بعيد
وقد علمت يقين	ان السعيد سعيد

ويبدو واضحا ان السرقسطى اراد من مواقف السدوسي في حالة السكر والمجون ان يصور جانبا من الحياة الاندلسية كثرت فيه الحانات والبيوت ذات البيارق الخافقة والقيان وكل ما يمت الى حياة اللهو بصلة .

وبصفة عامة فنحن نلاحظ ان الجانب الفني يغلب على مقامات السرقسطى فلا يحسن فيها القارئ تلك المראה الاجتماعية التي لازمت مقامات بديع الزمان الهمداني ؛ فالكاتب في رأينا لا ينطلق من منطق الثورة الاجتماعية بل ينطلق من منطق الفسار الذي يريد ان يصور بعض الجوانب الفنية والثقافية في بيئته ؛ ومما يؤكد اتجاهه الفني ميله الى تصوير القصص الشعبي المتداول وهو قصص مشرقى كما في المقامة الثالثة والعشرين والتي صور فيها نموذجا من نماذج القصص الغرامية الذي شاع في العصر الاموى وعلى وجه التحديد قصة المجنون دون تسميتها .

يقول الراوى<sup>٣٧</sup> :

٣٦ - نسخة مصورة بجامعة القاهرة فرع الخرطوم رقم ٨١٤ ص ١٤ .

٣٧ - نسخة مصورة بجامعة القاهرة فرع الخرطوم رقم ٨١٤ ص ٥٥ .

« اكب على فتى كالكوكب المشبوب في خلق مألوف وخلق محبوب فانتنى الى خير جاره وفي اكرم تجاره وجعل يقبل راحتي ويكبر ساحتي ويقول لي يا عماه يا عماه من سبك ما اسماه يا عم سايب لا يريك منى رايب اما لك جار مصاقب وتلونى ( غير ظاهرة ) القدر مناقب اعرف قديمك وحديثك وانص خبرك وحديثك تركنتي وليدا لاناھضا ولا جليدا درجت ودبيت حتى ظهرت وشبيت وكان لي نفس تنزع وهم ينزع وعلاقة تحب بي وتضع وتحط منى وتضع وكنت علقت بابنة عمى وكانت وفقى وهمي وكان الحسن قد كساها جلابيه ورفع لها العز قبايه والقى عليها الظرف بروده ورواها النعيم سلسله وبروده فما زالت تمنعنى عنها الرسائل وتطمعنى فيها الوسائل وتقربها الى الامانى . . . وبحر الهوى يهب عبايه ، وتستحكم علقه وأسبابه الى أن سرى وتغلغل وخامر الجوانح وتوغل وسكن الضمير والخلد وسلب العزاء والجلد وفشا الحديث بها وظهر وغلب الامر وبهر وغلظ الحجاب وارتفع الايجاب واذكيت العيون ولويت الديون وتنبه الغيران واهتدى الجيران وكان وعدني بها العم وساعدني فيها الاخضر والاعم فجذبت حبال واثير بلبال واشعلت نار ورفع للقطيعة نار فمال بها الى بعض الغرباء » .

إنها تشبه القصص الغرامية الذي شاع في العصر الاموى ؛ وهي قصة المحب الذي يعشق ابنة عمه ثم لا تكون من نصيبه بل تكون من نصيب غيره من الاقارب او الابعاد .

ولا تقتصر المقامات اللزومية على تصوير المظاهر الاجتماعية أو النفسية لبطلها فحسب بل قد يخضعها المؤلف لنشر آرائه في النقد والادب كما في المقامة الثلاثين والتي أساءها مقامة الشعراء وهي تشبه الى حد كبير مقامة ابن شرف ، اذ انها مجموعة من الاسئلة حول مزايا الشعراء .

يقول السايب فيها موجهها حديثه الى السدوسي<sup>٣٨</sup> :

« قلت فالخزرجى حسان فقال حسن واحسان وبر وإيمان ويمن وامان أبو ثابت ما ابو ثابت ازرى بكل راس وثابت اكرم به من ظاهر ندس ايد بروح القدس طاوول ونافع ودافع عن الدين وكافح فهو بالحسنى فايزه وللرضا حايزه » .

٣٨ - نسخة مصورة بجامعة القاهرة فرع الخرطوم رقم ٨١٤ ص ٧١ .

وهكذا الى آخر المقامة وقد تعرض فيها الى شعراء الجاهلية ، والاسلام ولا يخفى علينا الغرض التعليمي الواضح في مثل هذه المقامة .

كذلك فانه يشير في مقامته الخمسين قضية اخرى وهي ايها اقدم النثر أم الشعر ؟ ثم ايها اوقع في النفس ونراه ينتصر فيها الى الشعر ، وفيها ايضا يخلص الى جانب آخر من فلسفة السدوسي قوله<sup>٣٩</sup> :

ما أكثر الجهل وما أشنعه وارحنا للعلم وما اضيعه  
ضيعنى العلم فضيعته واورثته في الناس من ضيعه

### نظرة في بعض عناصر الديباجة المقامية عند السرقسطى :

ما من شك في أن مقامات السرقسطى قد حافظت على الأصول الفنية للمقامة البدعية . فنحن نجد فيها الراوي والبطل ونجد فيها عنصر القصة والصناعة اللفظية كما نجد فيها التشابه الواضح بين الموضوعات التي طرقتها والموضوعات التي طرقتها المقاميون من قبل . وبالرغم من ذلك فهناك نواح لا بد من من الوقوف عندها قليلا :

( ١ ) لقد اعتدنا من راوى المقامة أن يمهّد لموضوع مقامته بالرحلة وقد فعل السرقسطى نفس الشيء ؛ فقد رأينا راويه السايب يتنقل في بلدان كثيرة ، غير أن ما يؤخذ عليه هو أنه تنقل في نفس البلدان التي سار فيها الرواة من المشاركة فقد سار من اسوان الى عدن الى مدينة السلام الى فلسطين وكان الواجب أن يتنقل في بعض البلاد الاندلسية حتى ينقل لنا صورا من حياتها ولكنه لم يفعل ذلك .

٢ - نلاحظ في بعض الأحيان أن السايب يخوض التجارب بنفسه مع البطل وله معه بعض المواقف المخرجة لا سيما حين يلقاه في أماكن السكر واللهو وقد نجد السرقسطى يهمل الراوية تماما في بعض المقامات كما في المقامة الحادية عشرة والتي يبدو ما يقوله :

« قال وردت سنجار وقد فارقت الوكن والوجار »  
واغلب الظن انه عطفها على المقامة السابقة لها .

( ٣ ) كذلك نجد السرقسطى في بعض الأحيان قاسيا على بطله ولا يقدمه في الصورة

الرحيمة التي قدم فيها بديع الزمان بطله ، فتراه في المقامة الثامنة يجعل بطله يطرق الباب ليلا على الراوي يعرض بضاعته فيقابل بازدراء لا حدود له ولدى انصرافه يقول الراوي<sup>٤٠</sup> :

« قال فشرب كاسه وفدانا وقد اعدانا من شره ما اعدانا ورأينا الانفصال عنه غنيمة والتجافي عما لديه ( غير ظاهرة ) منيمة وحمدنا الله على ما كان وشكونا اليه الثروة والامكان ومقتنا أنفسنا مقتا ولم نضرب لاجتماعنا وقتا » .

### الصناعة اللفظية في المقامات اللزومية :

لقد سار السرقسطى في مقاماته على مذهب الصناعة والتكلف بل اننا لنجد عنده ضربا من التقليد لم نجده عند من سبقه من المقامين ويكفى أنه أسمى مقاماته بالمقامات اللزومية ذلك أنه التزم فيها ما لا يلزم وهو مذهب وان كنا نقبله في الشعر فأننا نستغرب استخدامه في الكتابات الشعرية .

نجد في المقامة الثانية والثلاثين ( الحمزية ) يقيد السجعة في نهاية الجمل بحرف الحمزة وفي المقامة الثالثة والثلاثين يتخذ من حرف الباء قيدا لنهاية الجمل كما في قوله :

« أقمت في حلب بين در من العيش وحلب أخوض في جد ولعب وأروض كل شامس ومستصعب » .

وهكذا يسير في المقامة الجيمية التي ينتهي فيها بحرف الجيم والمقامة الدالية التي ينتهي فيها بحرف الدال والمقامة النونية التي ينتهي فيها بحرف النون وأما في المقامة السابعة والثلاثين فانه يسير على نهج الحروف الابجدية بحسب نظامها المغربي ؛ وكما نرى ، فان هذا عسف لم يلجئه اليه سوى الرغبة في التكلف .

### خاتمة :

ومجمل القول ان المقامات اللزومية حافظت على أسلوب المقامة الفنية مع بعض الغلو في استخدام الصناعة البدعية وتأخذ عليها تركيزها على تقليد الموضوعات التي تناولها المشاركة من قبل ، بحيث لم تقدم جديدا من حياة الكتاب والادباء في بلاد الأندلس .

## مقامة الوهراني

هو ركن الدين أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني المتوفى سنة ٥٧٥ هـ وكانت له مكاتبات واتصال بالملك الناصر صلاح الدين الأيوبي وأيضاً بالكاتب القاضي الفاضل .

أما مقاماته الثلاث فقد نشرت حديثاً مع مجموعة مقاماته ورسائله<sup>٤١</sup>.

### ١ - المقامة الأولى البغدادية :

ينسب الوهراني الرواية في هذه المقامة الى نفسه ويبدو هاهنا بالرحلة ؛ ولكن رحلته ليست بغرض التعرف على المدن والمواقع كما هو الشأن مع لسان الدين بن الخطيب - الآتي ذكر مقاماته - بل بغرض البحث عن الرزق والتكدي في ساحات الملوك والأمراء<sup>٤٢</sup>.

قال الوهراني :

« لما تعذرت مآربي واضطربت مغاربي ألفت حيلي على غاربي وجعلت مذهبات الشعر بضاعتي ومن اخلاف الأدب رضاعتي فيما مررت بأمير الاحللت ساحته واستنفرت راحته ولا وزير الا قرعت بابه وطلبت ثوابه ولا بقاض الا أخذت سبيبه وأفرغت جيبي فتقلبتي بي الأعصار وتقاذفت بي الأمصار حتى قربت من العراق ، وسئمت من الفراق فقصدت مدينة السلام » .

وفي بغداد قرّ به القرار فوجدها مدينة ذات بهاء وحسن تأقت نفسه فيها الى معاشرة الفضلاء وعحادثة العقلاء فبدله أحد الموالى الى دكان الشيخ ابي المعالي .

يقول<sup>٤٣</sup> :

« هو بستان الأدب وديوان العرب يرجع الى رأي مصيب ويضرب في كل علم بتصيب فقصدت قصده حتى جلست عنده فحين نظر الى ورأى أثر السفر علي بدأنى بالسلام وبسطني بالكلام وقال من أي البلاد خرجت وعن أيها درجت فقلت من المغرب الأقصى

٤١ - راجع مقامات الوهراني ورسائله - الناشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر .

٤٢ - نفسه ص ١ .

٤٣ - مقامات الوهراني ورسائله ص ٢ .

والأمد الذي لا يحصى . . . . قال كيف معرفتك بدهرك ومن تركته وراء ظهره فقلت أما البلاد فقد دستها وجستها وأما الملوك فقد لقيت كبارها وحفظت أخبارها وقد كتبت في ذلك مجلدا وتركت ذكرهم فيه مجلدا فأبى الدول تجهل وعن أيها تسأل فقال أول ما أسألك عن دولة الملثمين » .

هكذا تتضح إحدى الغايات في هذه المقامة فقد تقمص الراوي دور البطل في مقامات الهمداني وشرع يكشف عن واسع علمه ومعرفته مجيباً على أسئلة الشيخ .

لقد تحدث عن دولة الملثمين ثم عن عبد المؤمن بن علي بن غلوف مؤسس دولة الموحدين في المغرب وإفريقيا وما كان من أمر تسلطه هو وأولاده على الخلائق وأتبع ذلك بالحديث عن كافري صقلية مريداً بذلك ملوك صقلية ومنهم روجر الذي ألف له الشريف الإدريسي كتاب نزهة المشتاق ؛ ثم تحدث عن الدولة المصرية والخلافة العلوية يريد الدولة الفاطمية .

فقد سأله الشيخ « فما تقول في الدولة المصرية والخلفاء العلوية فقلت عجوز محتالة وطفلة محتالة وكاعب فتانة وغادة مجانة .

تفانسي الرجال على حبها فما يحصلون على طائل رباها السلطان في الحجور بين الفسق والفجور حتى اذا هرمت سعودها وذوى عودها رميت بالرواعد فأبى الله بنيانهم من القواعد .

وان الجرح ينغر بعد حين اذا كان البناء على فساد قال كيف أخذت من أربابها واستنزعت من أيدي أصحابها فقلت له اعلم أنه لما أحان الله حينهم وأشهر شينهم وألقى بأسهم بينهم فضرب زيد عمراً وقتل خالد بكراً وكسر قراب السيف وأغمد في الشتاء والصيف . . . . فقصرت حبال الدولة عن ربطها وضعفت رجالها عن ضبطها فبقيت كالجارية الحسناء التي أبرزها الحجال وأسلمتها الرجال فتغابر عليها الجيران . . . . وسبق اليها رجال الفرنج فصيروها كرقعة الشطرنج يحوسون خلالها ويتقبضون ظلالها فانف من ذلك ذوو الأحلام وملوك الاسلام فانتدب لهم من بني شادي<sup>٤٤</sup>

٤٤ - نفسه ص ٤ .

٤٥ - نسبة الى شادي بن مروان والد نجم الدين أيوب .

الاسد المحصور والملك المنصور فرماها بهمته وقصدها برمته » .

وهكذا يتخذ من الحديث مناسبة يتوصل بها للحديث عن الدولة الأيوبية وما صارت اليه القاهرة من نعيم في عهد الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي اذ تبدلت تلك الصورة القائمة التي أشرنا اليها قبل قليل بنقيضها وأصبحت مصر عظيمة مرة أخرى بفضل هذه الدولة القوية ورجالها الأبطال .

وهكذا كانت اجابات الوهراني على الشيخ وافية وشاملة فبلغ به الاعجاب مبلغا عظيما فأنشد :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود  
وعند هذا الحد يتخلى الوهراني عن تقمص دور البطل ويترك المجال للشيخ ليقوم بدور المجيب فيسأله ان يخبره عن سيرة الامام علي بن أبي طالب لانه ذاهب الى جماعة يعتقدون أمانته حقا لازما ويتقربون الى الله بمحبته .

فيقول الشيخ ٤٦ :

« ما عسى أن أقول في ابن عم الرسول خليفة الله في بلاده ووصيه على أولاده ومسيح زمانه مهدي عصره وأوانه عزيمته أمضى من الحسام ويمينه أندى من الغمام ووجهه أبهى من البدر ليلة التمام . . . . »

ثم يفيض في مدحه فيشبهه في الخزم بالسفاح وفي الصولة بالمهدي وفي السياسة بالرشيد وبالأمين في البهاء وبالمأمون في العلم والحلم وبالمعتصم في الشهامة والصرامة .

فاذا فرغ من ذلك استدرجه الوهراني بالسؤال عن عضد الدين فلما علم من شأئله واعتاد المستنجد بالله عليه ما علم قال ٤٧ :

« ما نقول في حلول بابيه واستمطار سحابه فقال والله لو قصدت باب الوزير لامطرك من وبله الغزير ما يبلغك الى أوطانك ويزهذك في سلطانك ويبرى عنذك بمن لقيته من الأمراء . . . . . فقلت له اذا والله اشكره شكر الأرض للسماء . . . . . ولا سيما إن اخذ لي

٤٦ - مقامات الوهراني ورسائله ص ٧ .

٤٧ - نفسه ص ٨ .

من الخليفة خلفه سنية منيفة . . . . . انشرها على منارة الاسكندرية واطرحها على ساحل المربة واكتب بها الى الاقران في وهران وأطلق بشكره اللسان في تلمسان وأدعوه في مدينة فاس على عدد الأنفاس » .

وعند ذلك يبشره الشيخ ببلوغ الأمل فيمدحه الوهراني على حسن لقائه له وحسن اكرامه .

وكما رأينا فان هذه المقامة تتجه في غالبيتها نحو وجهة تعليمية ولكن المؤلف لم يقصد بها تعليم اللغة ذلك أنه لم يركز على الصنعة اللغوية على طريقة السابقين فهو وان التزم استخدام السجع فلم يبحث عن الغريب ولم يجلس لينتقى كلماته وعباراته بل اطلق نفسه على سجيته فجاءت عباراته سهلة منقادة ولقد شارك المقاميين في تحلية مدلولاته التاريخية بالشعر .

وكما رأينا فانه لم يجعل للبطل دورا خاصا وللراوي دورا آخر فقد قام هو في معظم المقامة بالدورين معا ، وقد تخلى للشيخ عن البطولة فترة قصيرة ثم غاد يستجمع زمام الموقف وقد اظهر رغبته واضحة في التكبس عن طريق المدح في أعتاب البلاط .

## ٢ - المقامة الثانية في شمس الخلافة ٤٨ :

أما مقامته الثانية فتتمتع بحظ غير قليل من الظرف وفيها دلالات ذات قيمة أخلاقية ولقد نسب روايتها الى عيسى بن حماد الصقلي اخبر فيها انه لما اختل في صقلية الاسلام وضعف الدين هاجر الى دمشق وهناك رأي معه في الحارة رجلا تياها شديد الاعجاب بنفسه فدفعه التطلع الى معرفة كنهه فاعترضه بالطريق وسلم عليه ثم قال له :

اجارتنا انا غريبان ها هنا وكل غريب للغريب نسيب

فادعى الرجل أن مولده منوشهر ومنشاه ما وراء النهر ولكن الشك دب في قلب الراوي فاستدل عليه برجل كان يأنس له فاخبره عن أصله وفصله وأنه من القسطنطينية ومن قبيلة رويلة وأما النحلة فمن حير الفحلة دخل الى دمشق وليس معه قوت يومه فساقه القضاء الى عجوز تعلم البنات الغزل فوقعت العجوز في غرامه ف عقدت عقدة النكاح عليه فلما رأت

٤٨ - مقامات الوهراني ورسائله ص ٩٧ .



أنه يبرد غليلها فتحت له العباب وفصلت له الثياب ثم أمرته أن يكون فقيها فكان .  
فتعجب الراوي من قصته وتساءل كيف أمكن لمثلها أن يصبح فقيها .

قال ٤٩ :

« انه لما اجتمعت العجوز على تعليمه ورده الى المدرسة وتسليمه تخوف من ذلك الأمر ويات ليلته على الجمر فلما أصبح قال لها يا هذه اعلمي اني كنت في بلدي اسكافا وأصبحت اليوم في مرحاضك كنافا فكيف لي بالمدارس وانا كالطلل الدراس ومن أين لي بالخير وأنا مثل حمار العزيز والله ما افرق بين الحروف وبين قرون الحروف فقالت أنا أعلمك العلم كله الا اقله وأعلمك فصلا في التدريس تغلب به محمد بن ادريس . »

وهكذا فقد شرعت في تعليمه حروف الهجاء ثم أوصته بوصايا تكشف عن قيم نقدية لا بد وان الوهراني قد أخذها من الحياة فقد قالت له ٥٠ :

« اذا حضرت فانفخ حضنك وبطنك وانفش بين الفقهاء ذنك وياكر المدرسة في الصباح وسابقهم الى الرواح وان غلبوك في العلم فلا يغلبوك في الصباح فقال لها اخاف والله أن اقتل باللوالك ولكن أوصيني فقالت خذ اللفظ باناملك من شفتيك وزاحم الفقهاء بمنكبيك وابصق في وجه الشيخ ولا جناح عليك . . . . اجسر على القوم فما هو الا بياض اليوم واعلم ان الفقه ليس هو شيئا غير النفاق والزعاق وتلويت وجه الخصم بالبصاق . »

فمن هذه الصورة يبدو البطل مغلوبا على أمره مرغما على تنفيذ أوامر هذه السيدة الماكرة ولكن ما ان تبدأ المناظرة حتى يبرز الوجه الوقاح والافك الصراح « فوقع الناس في البلاء وعلموا انه دلو من الدلاء وتحققوا ان الرجل كالسطل لا يصلح الا للاسطبل » .

وهكذا فلم يستطع تحقيق حلم السيدة فيه فعاد يعمل بالتجارة فازدهرت تجارته حتى سمى بشمس الخلافة قال الراوي ٥١ :

« ولما ارتفعت الهمة وامتنعت الذمة تغير على زوجته بعد ان كان يفديها بمهجته وصار يجري بينهما في المجالس بما يحفظ عنهما في المدارس ولقد رأيتهما يوما يشالفا وتشاففا

٤٩ - مقامات الوهراني ورسائله ص ٩٩ .

٥٠ - نفسه ص ١٠٠ .

٥١ - مقامات الوهراني ورسائله ص ١٠٢ .

ويخالفا وتخالفه » .

حقا فان المقامة لا تلتزم القالب المقامي المعروف التزاما كاملا ولكن عنصر القصة سائد فيها الى درجة كبيرة وهي تؤكد ان كتاب المقامات قد جهدوا في التماس الظواهر الاجتماعية الشاذة والتعبير عنها في هذه القوالب البلاغية الفنية ؛ فمن خلال شخصية الراوي والبطل يستطيع الكاتب المقامي أن يتتزع من الواقع صورا نابضة بالحياة ويقدمها في مثل هذا الاطار الجميل وهو وان تعمد الظرف والهزل فان غايته الأخلاقية لا تخفى على الناقد البصير .

٣ - أما مقامته الثالثة فلا تختلف في مبناها عن مقامته الأولى وتبدو غايتها تعليمية مخضة واعتمادها فيها على التعبيرات المركزة والشاملة في الجمل القصيرة .

قال الوهراني ٥٢ :

« دخلت مدينة صقلية في الأيام المتوالية فرأيتها محافل الأوصاف على طريق الانصاف فعشقتها شيطاني فاقمتها مقام اوطاني فحضرت يوما في بعض بساطينها مع طائفة من أهل دينها وفيهم ابو الوليد القرطبي سلطان الكلام يأمره فيوالفه وينهاه فلا يخالفه » .

وهكذا فقد سأل الناس عن القاضي ابن رجاء فقال :

« مصباح دجى وشيخ علم وحجى وهو بيت القضا وكلمته حكم وعدل ورضا » .

وعن الشيخ أبيه قال :

« كان رحمة الله عليه يتناغم على الخصمين فلا يوقفه الا سلسلة الكفين » .

وعن الفقيه ابن بقية قال :

« لن يتبقى من العلم بعد موته بقية وكأنه بدر ثم كسف وطور علم نسف » .

وعن الكاتب يوسف قال :

« الرجل والشهامة والتقدمة والزعامة » .

٥٢ - نفسه ص ٢١٩ .

وهلمجرا .....

والمقامة كما نرى في تقويم الرجال وذكر مكانتهم وقد يجتمع فيها الغرضان ، التعليم والمدح .

تعليق :

عرضنا الى ثلاث مقامات من مقامات الوهراني اختلفت أغراضها : الأولى والثالثة التفتنا في غرض التعليم ، وكان التعليم في الأولى مقصودا لاطهار البراعة والفضل طلبا للعطاء وإما في الثالثة فقد رجحنا أن يكون المدح سببا أساسيا في تقويم الرجال الذين تعرضت لهم المقامة ؛ وأما الثانية فذات هدف أخلاقي وهي تعبر عن وقفة فنان ينظر ببصيرة الناقد الى واقع الحياة الاجتماعية .

وهذه الأغراض جميعها مما تعرضت لها المقامات الهمدانية ولكن بالطبع فإن قلة المقامات التي بين أيدينا من مقامات الوهراني لا تمكننا من أن نقيم لها منهجا شبيها بالمنهج الذي أقمناه لبديع الزمان الهمداني وعلى وجه العموم فإن هذه المقامات قد اكتسبت شيئا من الحرية ؛ أنها تشتمل بالفعل على روعة وإبطال ولكنهم لا يسرون في الخط المعلوم للمقامات الهمدانية التي تحدد فيها دور البطل والراوي .

كذلك فنحن لا نجد في هذه المقامات اغراقا في الصنعة اللغوية أو البديعية على النحو الذي وجدناه عند الحريري فعلى الرغم من التزام الوهراني للسجع فإن القارئ يشعر بأنه ترك النفس على سجيته فجاء أسلوب مقامته أشبه في سهولته بالحديث الذي يتبادلونه الناس في حياتهم اليومية .

ونستطيع أن نجمل القول بأن المقامة قد غدت بالفعل وقفة يبرز فيها الكاتب من ذاته شيئا يحسه ويشعر به في واقع حياته ؛ هذا هو الدافع الذي يحركه أكثر من دافع تقليد الأقدمين في صنعتهم .

## المقامة الدوحية

لأبي عبد الله محمد بن عياض الليلي<sup>٥٣</sup>

ورد في المغرب جزء من هذه المقامة وهو المقدمة التي يبدأ بها الراوي عادة موضوع مقامته : يقول<sup>٥٤</sup> :

« قال ميزان الأشواق ومعيان المحبين والعشاق نبت بي معاهد الأحباب في ريعان الشباب لقينة أذكت نيرانها وجعلت أمسح الأرض نجدا ووهدا واستطعم الآمال صابا وشهدا كالقار لا يستقر بمنزل ولا وجد عن رحلة بمنزل أصعد من خصور القيعان الى روادف الرعان وانحدر من متون الهضاب الى بطون اليباب حتى عجمتني أنياب النوائب وتقاذفت بي صدور المشارق الى اعجاز المغارب وقد حللت من الاغتراب بين الذروة والغارب وكنت أكلف بالبلدة الحمراء واحن الى جوارها حنين الناقة الى حوارها الذي اشتهر من حسنها وطيبها وخصبها واختيالها في حلل شربها وعصبتها فهداني اليها حادي الاغتراب وتطاوحت بي اليها طوائع الاضطراب ولا أمل الا اعتلاق خل ظريف والاصغاء الى نبا طريف وانشد :

عربسد بالهجر والعتاب      نشوان من خمرة الشباب

هذه هي القطعة التي ذكرت له وقد ترجم له ابن سعيد في رايات المبرزين وترجم له ابن الأبار في التكملة وقد اشارت بعض المراجع الى مقامته وفيما يبدو فإن المقامة العياضية اشتمل موضوعها على الغزل فحسب .

٥٣ - المغرب ج ٢ ص ٣٤٤ .

٥٤ - نفسه ص ٣٤٤ .

## مقامة علي بن جامع الأوسي<sup>٥٥</sup>

لم أعثر على نص هذه المقامة ولكن مؤلف كتاب الذيل والتكملة أبا عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الانصاري الأوسي المراكشي روى أن مؤلفها هو علي بن جامع الأوسي وكان نحوياً أديباً وشاعراً « متفنناً على الرواية مكشوف البصر أقرىء القرآن ودرس العربية بمسجد القاضي ابن حسون في مالقة مدة ثم انتقل عنها إلى باغوث فأقام بها نحو ثلاثين سنة مكرماً مبروراً معاملاً بما يليق بأمثاله وكان سبب خروجه من مالقة أن مقامة صنعت في ثلب بعض أعيان مالقة فنسبت إليه فخاف على نفسه مما عسى أن ينجر إليه منهم بسببها ثم أنه أثر التحول إلى مالقة فشاركه في ذلك (بياض) وعاد إليها محترماً فتلقى بازيد مما أمل إجلالاً وتعظيماً وعكف بها على شأنه من الإلقاء والتدريس إلى أن توفي بها » .

ومهما يكن من أمر فإن هذه الفقرة توضح لنا أن بعض المقاميين قد استخدم في بلاد الأندلس الفن المقامي لأغراض شبيهة بتلك التي استخدمه فيها المشارقة ومنها نقد الحياة الاجتماعية والسياسية وخوف ابن جامع راجع إلى ما نال به الأغنياء من نقد في مقامته ؛ أما إنكاره لتأليفها فربما كان بسبب الخوف من أذاهم .

## مقامات لسان الدين بن الخطيب

( ٧١٣ هـ - ٧٧٦ هـ )

بين أيدينا ثلاث مقامات لسان الدين بن الخطيب المقامة الأولى هي مقامة السياسة ذكرها صاحب نفع الطيب<sup>٥٦</sup> والمقامة الثانية هي مقامة وصف البلدان اثبتها صاحب أزهار الرياض<sup>٥٧</sup> والثالثة هي مقامة معيار الاختيار في أحوال المعاهد والديار ذكرها ابن الخطيب في مشاهداته<sup>٥٨</sup> .

### ( ١ ) مقامة السياسة :

هذه المقامة تذكرنا مرة أخرى بمقامات البوعاظ لابن قتيبة ذلك أن موضوعها يقوم على النصيحة والارشاد فقد روى ابن الخطيب أن الرشيد بعد أن سهر ليلة وجهه ندماً له من أجل راحته والمأم النور بساحته لم يلامس الكرى جفته فأمر ندماءه أن يخرجوا إلى طرق بعينها فإذا رأوا طارق ليل فليؤمنوه ويحضروه إليه فكان أن أتوا « بشيخ طويل القامة ظاهر الاستقامة سبلته ممشطة وعلى انفه من القبع مطه وعليه ثوب مرقوع طير الحرق عليه وقوع ييلم بذكر مسموع » فأشار إليه الرشيد بالجلوس ثم سأله عن نفسه فكشف عن أصل فارسي أعجمي الجنس عربي الفصل أما فنه الذي يجيده فهو الحكمة .

قال الرشيد<sup>٥٩</sup> « فأخبرني ما عندك في هذا الأمر الذي بلينا بحمل أعبائه ومنينا بمراوضة أبنائه فقال هذا الأمر قلادة ثقيلة ومن خطة العجز مستطيلة ومقتصرة لسعة الذرع وربط السياسة المدنية بالشرع يفسده الحكم في غير محله ويكون ذريعة إلى حله ويصلحه مقابلة الشكل بشكله » .

فطلب منه الملك أن يفصل الأجمال فطلق يحدثه عن كيفية تدبير السياسة مع السرعة والوزراء والجند والعمال والولدان والخدم والحرم وفي آخر حديثه قال له<sup>٦٠</sup> :

٥٦ - نفع الطيب ١٣٤/٩ .

٥٧ - أزهار الرياض ٣٠/١ .

٥٨ - مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ٦٩ .

٥٩ - الفصح ١٣٦/٩ .

٦٠ - نفسه ص ١٤٥ .

٥٥ - الذيل والتكملة تحقيق الدكتور احسان عباس الشعر الخامس نشر دار الثقافة ص ٢٠٢ .

« واعلم بأن مواقع العلماء من ملكك مواقع المشاعل المتألقة والمصابيح المتعلقة وعلى قدر تعهدها تبدل الضياء وتجلو بتسورها صور الأشياء . . . واعلم ان بقاء الذكر مشروط بعمارة البلدان وتخليد الآثار الباقية في القاصي والدان فاحرص على ما يوضح في الدهر سبيلك ويحجز المزية على من قبلك وأن خير الملوك من ينطق بالحجة وهو قادر على البهر » .

فاستحسن الملك هذا الارشاد ثم اذا بالشيخ يستدعي عودا فيصلحه ثم يغني فينيم الجمع وفي الصباح يستيقظ الرشيد فلا يرى للشيخ أثرا فيحزن لفراقه ويأمر بتخليد حكمه .

وهكذا فان المقامة انما تكشف عن غاية وعظمية شبيهة بتلك التي رأيناها من قبل في مقامات ابن قتيبة .

## ٢ ( مقامة وصف البلدان :

واما هذه المقامة فلا تلتزم أي شكل فني مقامي ؛ فهي مجرد وصف لمدينة سبتة ومدلولها لا يعني أكثر من موقف القيام بغرض الوصف :

يقول المؤلف :

« قلت فمدينة سبتة ؟ قال تلك عروس المجلى وثنية الصباح الأجلى تبرجت تبرج العقيلة ونظرت وجهها من البحر في المرأة الصفيفة واختص ميزان حسناتها بالاعمال الثقيلة واذا قامت بيض أسوارها وكان جبل بليونش شامة أزهارها والمنارة منارة أنوارها فكيف لا ترغب النفوس في جوارها . . . الا انها فاغرة الأفواه للجنوب وللغيث المصبوب عرضة للرياح ذات الهبوب عديمة الحرث فقيرة من الحبوب ثغر تنبويه المضاجع بالجنوب وناهيك بحسنة تعد من الذنوب » .

## ٣ ( مقامة معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار :

تبدأ هذه المقامة بتعرف الراوي على البطل وهو شيخ له من العلم والتجارب حظ وفير

وقد جاب البلاد كلها شرقها وغربها قال له الراوي :

« انفض لي البلاد الاندلسية من أطرافها وميز بميزان الحق بين اعتدالها وانحرافها ثم اتلها بالبلاد المرينية نسقا واجل بنور بيانك غسقا وهات ما تقول في جبل الفتح » .

من هذا تتضح الغاية من المقامة وهي وصف للبلدان وقد استخدم البطل في ذلك وصفا دقيقا مركزا يعطي صورة شاملة للمدينة التي يتحدث عنها . فقد سأله عن مدينة اسطبونة فقال :

« ذهب رسمها وبقي اسمها وكانت فطنة النعم الغزيرة قبل حارث الجزيرة » .

وعن مريلة قال :

« بلد التاذين على السردين وعمل الدعاء والتأمين لمطعم الحوت السمين وحديقاتها مغرس العنب العديم القرين الى قبة أرين قلت ان مرساها غير أمين وعقارها غير ثمين ومعقلها تركته الأرض عن شمال ويمين » .

ويعد ان أفاض البطل الشيخ في ذكر معرفته بالبلدان كشف عن هدفه الأصيل وهو الكدية فاعطاه الراوي من ماله وفي الصباح لم يعثر له على أثر وقد حزن لفراقه .

٦١ - أزهار الرياض ١ / ٣٠ .

٦٢ - مشاهدات ابن الخطيب ص ٦٩ .

## مقامة حضرة الارتياح المغنية على الراح<sup>٦٤</sup>

للامام القاضي ابن أبي حاتم العاملي

( المتوفى عام ٨١٥ هـ )

نقف الآن امام نموذج آخر من أشكال المقامة الفنية يبدو لنا من خلاله أن المقامة قد تحررت كثيراً لدى الأدباء اللاحقين من قيد الأصول التي وضعها بديع الزمان الهمداني ؛ ومرد هذا التحرر راجع الى تصور الأدباء ان ما يجب أن تحافظ عليه المقامة هو الإحكام في الصنعة ولا مانع بعد ذلك في أن يتصرف الكتاب في عناصرها ؛ ولعل هذه المقامة التي بين أيدينا قد أفادت في تركيبها من رافدين :

أولاً : مقامات الزهاد لابن قتيبة ، ذلك أن حوادثها تدور في حضرة احد الملوك .

وثانياً : مقامات بديع الزمان الهمداني ، لان موضوعها لا يقتصر على الوعظ وحده بل يشمل الفصاحة والكذبة .

واما التصرف فيها فيأتي من جهة أن بطولتها يقتسمها أكثر من فرد ؛ وتتقيد بديباجة هندسية . لقد كتب العاملي هذه المقامة وهو يقضي عقوبة السجن في احد سجون فاس ، فقد سمع هنالك رجلاً من رفقاء السجن يروي الوانا من القصص على هذا النسق فألهمه ذلك فكرة مقامته التي نظمها على نسق القصص الشعبي المعاصر فكانت سبباً في خلاصه من نكبته .

### تحليل المقامة :

يبدأ العاملي مقامته وكأنه راو يتهياً لحكاية قصة شعبية<sup>٦٥</sup> :

« يحكى أن ملكاً اعرابي النجار اعجمي الجار ولي الملك ولم يكن من بيته وانتقل عن حيه في غير سبيل . فاحتل في جوار قوم أعاجم يحتاج سلطانهم الى راح وشيطانهم الى راجم ويفتقرون الى ترجان يفسر لهم الرواجب والبراجم فحمل من أعباء الخلافة ما لم

توسعه الضرورات خلافه وراح عرضة للتكليف وعرضاً لسهام القوي والضعيف قد نسخت آية السياسة أثره وطالبته عشرة عشرة<sup>٦٦</sup> .

اما هذا الملك فقد كان قبل أن يتولى امور العرش ويتقيد بقيوده يعيش حياة حرة ليس فيها تكليف ويقضي وقته ثملاً يتلاعب بالنساء ويستروح قلبه بالطبيعة العذراء ولم يكن أمثال هؤلاء الأعاجم الذين يحيطون به يعرفون طريقاً الى جواره ولكن الزمان حسده فابتلاه بهذا الموضع وهؤلاء الناس الذين يعيشون حوله . فغدا محتاجاً الى ترجان ؛ وكان ذلك سبب أن طلب ما في مملكته من العرب الفصحاء فحضروا بين يديه مستعدين لصيد دراهمه فابتلوه شيخهم بقوله<sup>٦٧</sup> :

نحن قوم من العرب	متهمي من لحم ارب
فرقتنا بلادنا	واجتمعنا على الطلب
إذا حذونا حروفنا	بحروف من الادب
ورجوننا بان يكو	ن لنا في الغنى سبب
ولدينا سرائر	كامنات فسل نجب

فإذا تأملنا هذه الأبيات وجدنا العاملي ينتزع فيها الفصاحة من بني ساسان ويرجعها الى العرب مرة أخرى فقد اعتدنا أن نسمع مثلها على لسان أبي الفتح الاسكندري أو أحد بني ساسان كما هو الشأن في قصيدة الاحنف العكبري ؛ وربما كان في ذلك نقد مباشر لبطانة العجم التي زحرت بهم قصور الملوك العرب في بلاد المغرب والاندلس والذين استأثروا بكل الخيرات في حين أودع الفصحاء النجباء أمثال العاملي في ظلمات السجون .

فماذا كان موقف الملك الرمزي من هذه البطانة من العرب ؟

قال : « لقد اذكرتم موارد لم يفارقتني العطش مذ فارقتها ولا وجدت نشاطاً من لدن فقدها ؛ فمن القوم ؟ هاتوا من التعريف ما هو رشاد الضال وفطر الصوم .

فقال الشيخ : أيها الملك علا كعبك وغلب عداك صحبتك نحن فئة العجب وليس منا إلا من نجب وعمل من الاستعداد لهذا المجلس بما وجب من عجيب امرنا انا اجتمعنا في ثلاث : العرب . الأدب . الطلب واقتربنا في ثلاث البلاد والحرف والنسب » .

٦٤ - طبعته هذه المقامة بالطبعة التونسية - بنهج سوق البلاط عدد ٥٧ تونس عام ١٣٣٦ هـ .

٦٥ - المقامة ص ٢ .

٦٦ - نفسه ص ٤ .

وهنا رغب الملك في سماع شيء من أقوال العرب وفصاحتهم فتقدم العرب منه كل واحد منهم مبتدئاً اسمه بحرف من حروف الهجاء ليخبر عن أمور تسعة : اسمه واسم أبيه ونسبه واسم جاريته واسم أبيها وقبيلها الذي تفخر به وحرفته وبلده ومثله الذي استنبطه حكمة أدب ثم يروي في النهاية أربعة من أبيات النسيب يصرح في آخرها بالحبيب .

هكذا قيد العامل ديباجة مقامته فقد أراد أن يثير إعجاب الملك بهذا العرض المتوالي من جماعة الأدباء حتى ينال كل منهم نصيبه من العطاء وحتى يحدد موقفاً أخلاقياً للملك تجاههم ؛ فقد خاطبهم الملك بقوله :

« ان وفيتم فما في وجوب حقكم مختلف ومن قصر فمحلنا بالسمح عرف فهات يا صاحب الألف :

وهكذا يتوالى الأدباء في حضرة الملك واحداً إثر واحد حتى يفرغوا من أداء مهمتهم فينالهم الملك بالعطاء فيقول الشيخ اثر ذلك :

يا أيها الملك الباهي بحياه انت الذي تعرف الاظعان مغناه

اما مقامك فهو الغيث ان قصدت دار امرىء بحروب الضيم دنياه

فعرف الملك أنهم يريدون الزيادة فقال والله ما استمطرتم جهاما ولا هزرتم كهاما » .

### التقويم :

نلاحظ في هذه المقامة تصرفاً في الديباجة على النحو الذي ذكرناه فقد قام الشيخ بدور الراوي في حين تقاسم البطولة عدد كبير من فصحاء العرب تقيدوا بنظام هندسي في اظهار بلاغتهم .

وهم جميعهم مكدون ؛ وعلى الرغم من هذا التصرف فان العامل لم يبلغ في صنعته ذلك المبلغ الذي وصله الهمداني في صناعة مقاماته ؛ فقد احدث التابع الهندسي في هذه المقامة رتابة مملّة فخلت بذلك من عنصر الظرف والتشويق الذي اختلفت به مقامات الهمداني ؛ وليس فيما تقيد به هؤلاء الا بطلان ما يثير إعجاب الملك ولكن العامل أراد أن يضع الإعجاب على لسان الملك حتى يخدم به الغاية الرمزية التي رمى اليها ؛ فتقدير الملك لهذه البطانة من العرب يستوجب بالضرورة تقدير الملك للعامل نفسه وهو قابع بين جدران السجن .

ولعل هذه القيمة وحدها هي التي تمنح المقامة قيمتها الفنية فالعامل لم يكتب عريضة استرحام للملك ولكنه من خلال هذا العمل الفني استطاع أن يعبر عن مراده .

ان مثل هذه النماذج في أدبنا القديم تحفزنا كي نقف مراراً امام ذلك الأدب نستكشف فيه المواطن التي تجاوزها اللغويون ولم يحفلوا بها فمثل هذه الدلالات الرمزية هي التي تمنح الاداب قيمتها المستمرة وهي التي تجعل دراسة الأدب القديم مفيدة ومجدية .

## مقامة الفقيه عمر تسريح النصال الى مقاتل الفصل : ٨٤٤هـ

صاحب هذه المقامة هو الفقيه أبو عمر الزجال يقول عنه المقرئ التلمساني<sup>٦٧</sup> :

« اما الفقيه عمر فهو أشهر من نار على علم وازجاله ومنظوماته ومقاماته عند العامة محفوظة وعند الخاصة مرفوضة الا القليل الذي يسمح في مثله لصاحب القلم كمقامته التي سماها بتسريح النصال الى مقاتل الفصل » .

ولعل السبب في رفض الخاصة لمقامات الزجال هو غلبة الهزل عليه ، ويبرر المقرئ نزعة الزجال الى الهزل بأن ذلك مما يقع لكثير من الأئمة على سبيل الأحماض ولم تكن للزجال غاية سوى اظهار البلاغة والاقتدار ومجازاة الحريري في مقاماته

ونراه يبدأ مقامته بمثل هذا التصريح<sup>٦٨</sup> الساهر :

« يا عماد السالكين ومحط رحال المستفيدين والمتبركين وثمال الضعفاء والمساكين والمتروكين ؛ في طريقك يتنافس المتنافسون وعلى اعطافك تزهى العبيات وتسروق الدلافس - لباس خشن - ويكتابك تحيا جوامد الافهام وعذبتك تشرد ذباب الأوهام » .

ثم يخلص من هذه المقدمة الى هذه القصيدة الهزلية :

تعال تجدد لها طريقة سامان	وعض عليها ما توالى الجديدان
وتصرف اليها من مشار عزائم	ونحلف عليها من مؤكد ايمان

الى أن يقول :

ويا بابسي الفصل شيخ طريقة	خلوب لألباب لعبوب بأذهان
إذا جاء في الشوب المجبر خلته	زنييرة قد مد منها جناحان
فما تأسن الأبدان آفة لسعها	وان ابلت في سابغات وابدان
سادعوك في حالات كيدي وكديتي	بشيخي سامسان وعمسي هامان

وقد ذكر له المقرئ مقامة أخرى في أمر الوباء<sup>٦٩</sup> وجه خطابه فيها الى حمراء الملك ومطلع المقامة هو :

٦٧ - أزهار الرياض ص ١١٦ .

٦٨ - نفسه ص ١١٧ .

٦٩ - نفسه ص ١٢٥ .

« الى حمراء الملك وقلعته ومقر العزة ومنعته ومطلع كل قمر نصري يحجل الأقيار بطلعته » .

والمقامة كلها احتجاج على ابقاء السلطان في مكان قد فشا فيه الوباء وتزيين له الرحلة الى ( مالقة ) .

الباب الثالث  
أثر المقامات في الآداب الأجنبية



الفصل الأول  
أثر الفن المقامي في الأدب الفارسي

## الفصل الأول

### أثر الفن المقامي في الأدب الفارسي

كان العصر العباسي هو عصر الاحتكاك الكبير بين الثقافة الفارسية والثقافة العربية ؛ ولا ريب أن مجال الدراسة واسع في تحقيق مدى أثر الثقافتين في بعضهما بعضا وفي رأينا أن الوقوف عند الزعم القائل بأن الفرس هم الذين كانت لهم اليد العليا في كل الظروف يحجب الحقيقة ويضيع جهود الكثيرين من العرب الذين استوطنوا بلاد فارس منذ زمن بعيد وأثروا في ثقافتها ودون أن يحقق أحد أصولهم الأولى ؛ ولعل روح التأثير المتبادل يعكسها القاضي حميد الدين البلخي الذي كتب أقدم مقامات فارسية وصلت إلينا بدافع الا بحرم الفرس من هذا الفن الرفيع الذي ابتدعه العرب وافتنوا في أساليب بلاغته فأراد أن يوجد في الأدب الفارسي فنا شبيها به ، وقد اعترف بأخذه عن الحريري وبديع الزمان اللذين ورد ذكرهما صراحة في المقامات الحميدية .

## مقامات حميدي

### المؤلف :

اسمه عمر وكنيته أبو بكر بن محمود الملقب - بحميد الدين - وقد شهر باسم حمودي البلخي ، توفي سنة ٥٥٩ هـ وكان قد تولى منصب قاضي قضاة بلخ وبقي في هذا المنصب زمنا كبيرا مما أتاح له أن ينال مكانة اجتماعية سامية جعلت بعض الشعراء يقصدونه من أجل المدح ؛ ومن أشهر الشعراء الذين مدحوه الأنوري الذي ربطت بينه وبين القاضي حميد الدين علاقة طيبة ؛ فقد حال القاضي حميد الدين بين الأنوري والخلائق لما أرادوا الفتك به وإخراجه من مدينة بلخ بسبب قصيدة هجا فيها تلك المدينة على الرغم من أن الأنوري ذكر صراحة أن ذلك الهجاء مدسوس عليه ، وكانت تلك المناسبة سببا في توثيق الأواصر بين الأنوري والقاضي حميد الدين وفتحنا لعدد من القصائد في مدحه .

أما القاضي حميد الدين فقد جمع إلى جانب تفقهه في الشرع والعلوم الدينية قدرة فائقة في فنون النثر والشعر على حد سواء وقد ذكر عوفي في كتاب لباب الالباب عددا من مؤلفاته منها :

- ١ - المقامات المشهورة بمقامات حميدي .
- ٢ - وسيلة العفاة إلى اكفى الكفاة .
- ٣ - حنين المستجير إلى حضرة المجير .
- ٤ - روضة الرضا في مدح أبي الرضا .
- ٥ - رسالة الاستغاثة إلى الأخوان الثلاثة .
- ٦ - مية الراجي في جوهر التاجي .

وله كتاب في أدب الرحلات بعنوان ( سفر ثامة مرو ) أو كتاب السفر إلى مرو وله إلى جانب ذلك صولات وجولات مع الشاعر الأنوري في فنون الشعر .

## المقامات :

ذكر الأستاذ فارس إبراهيمي<sup>١</sup> أن حميدي ألف مقاماته ستة خمسمائة وواحد وخمسين وقد نص في مقدمة كتابه بأنه لم يسبق إلى كتابة المقامات في الأدب الفارسي مما يجعلنا نؤكد بأن هذا الفن قد نشأ في بلاد العرب كما أشرنا وليس العكس كما يظن . ولفت أمر هذه المقامات انظار الأدباء الفرس منذ بداية تأليفها بل واكتسبت شهرة واسعة في تلك البلاد لا تقل عن شهرة المقامات الحيرية في بلاد العرب ، بل واعتبرت من خير ما أنتجه الأدب الفارسي ، ولا شك أن شخصية القاضي حميد الدين الأدبية قد لعبت دورا كبيرا في احكام صناعة هذه المقامات مما جعلها تحوز هذه الشهرة الفائقة .

يقول الأستاذ براون في وصف هذه المقامات<sup>٢</sup> :

« وبعض هذه المقامات ما هو في الحقيقة الا مناظرات كالمقامة المتعلقة بالشباب والشيب والمتعلقة بالسني والشيعي والمتعلقة بالطبيب والمنجم وبعضها يتحدث عن موضوعات مختلفة كالربيع والحب والحريف وبعضها عبارة عن الغزاز وأحاجي أو معميات كما أن بعضها يتناول موضوعات فقهية أو تأملات صوفية وهنالك مقامتان من النوع الوصفي وصف فيهما مدينة بلخ وسمرقند » .

وأما عدد هذه المقامات فهو أربع وعشرون مقامة ويقول بعضهم انه ثلاث وعشرون على اعتبار أن مقامة ( الحريف ) ليست له<sup>٣</sup> .

وقد أراد القاضي أن يتمم مقاماته خمسين مقامة كما فعل الحريري ولكنه لم يوفق إلى ذلك وقد أشار في نهاية كتابه إلى أن ظروفًا صعبة قد حالت بينه وبين اتمام العدد الذي كان يريد<sup>٤</sup> .

ونلاحظ أن القاضي لم يغفل في مقاماته شخصيتي الراوي والبطل ولكنه لم يتقيد بشخص مغيين فالراوي في كل مقامة هو أحد الاصدقاء المخلصين اما البطل فهو ذو طبيعة مستترة ويتغير بحسب المواقف .

١ - ص ١١٠ .

٢ - تاريخ الأدب الإيراني من الفردوسي إلى السعدي - براون ص ٤٤١ .

٣ - مقامات نوبسي ص ١١١ .

١ - مقامات نوبسي : در ادبيات فارس - الأستاذ فارس إبراهيمي ص ١٠٩ .

ولقد حافظ القاضي على فكرة الاغتراب في مقاماته ، فالراوي لا بد له من أن يغترب أما البطل فانه يكون في معظم حالاته في صورة شيخ مسن يتجه الى الناس بالوعظ أو الخطب أو الانشاد والنظم فيشغل الناس بأمره ولا نجد القاضي حميدي يهتم كثيرا بعنصر القصة لانه قد صرف ذهنه الى التعبيرات المثينة والتركيبات البلاغية ذات السبك والوزن والمحسنات البلاغية .

ولم تخل مقاماته من الجانب الفكاهي الذي ينطوي على غاية تعليمية ونقدية « أدبية واجتماعية » .

ونلاحظ أن القاضي كان يحل مقاماته ببعض الاشعار والتعبيرات العربية وفي ذلك حفر للقراء الفرس لتعلم اللغة العربية والاستمتاع بذخيرتها الفنية والفكرية .

وعلى الرغم من مجازاة القاضي للمقامات العربية فلا يكاد القارئ يخطئ نزعة القاضي الى الابتكار ومحاولته التفوق على ما أثر من المقامات العربية فهو وإن التزم أسلوب الصنعة فانه لم يبلغ بها ما بلغه الحريري من التكلف وحشد الغريب من اللغة بل جعل أسلوبها وسطا حتى يحافظ على الجمال الذي تحدته السلاسية في التعبير ، وبذلك فان مقاماته تقترب في صياغتها من مقامات بديع الزمان أما موضوع الكدية الذي اتسمت به المقامات العربية فقد عالجها القاضي حميد الدين ايضا ولكننا نلاحظ أن حوالي نصف مقاماته لا تتعرض الى هذا الموضوع وربما كان ذلك بسبب الغنى المادي والمعنوي للكاتب أو بسبب مركزه الذي منعه من تعقب مثل هذا السلوك على النحو الذي فعله الحريري وبديع الزمان .

وحتى في المقامات التي تعرضت للكدية ، لا نجد البطل فيها يبلغ ساجنة ابطال الحريري وبديع الزمان ووقاحتهم بل هو لا يسلك طريق النذالة والخداع وإنما كان ينتظر الآخرين حتى يمنحوه .

ومما يلاحظ في هذه المقامات عفة قلم الكاتب وعلو طبعه ذلك أن قلمه لم ينزل إطلاقا في الشتائم ولم يسمح لنفسه باستخدام الألفاظ الركيكة المبتذلة حتى في مقامة « مناظرة الزاني واللوطي » وفي مقامة ( محاسبة بين زوجين ) فقد استخدم قلمه بمهارة فائقة لم يخرج بها عن حدود المطاوعة والأدب .

وبصفة عامة فان مقامات حميدي امواج متلاطمة تدفع في نفس الانسان السرور والبهجة وتزيل عنه الملل والتعب ، وقد كان القاضي يحكم أساليب نقده غير المباشر للاوضاع

الاجتماعية أو العلمية والفكرية .

وهذه المقامات منذ بدأ تأليفها تداولتها أيدي الجمهور فكثر نسخها مما جعلها مجالا للتصرف في ما بينهم ، فقد كان بعض النساخ يضيفون اليها بعض الاسجاع والنكات البلاغية ولكن ذلك أيضا لم يستطع أن يحفي جمال الأسلوب الاصيل لهذه المقامات وقد طبع هذا الكتاب أول مرة في عهد ناصر الدين شاه القاجاري بتصحيح محمد حسين المتخلص باديب سنة ١٢٦٠ هـ ، وذلك في طبعة حجرية كما طبع مرة اخرى في طهران سنة ١٢٩٠ ، ثم طبع في العصر البهلوي بتصحيح اغاي شميم في تبريز وطبع مرة اخرى بتصحيح اغاي ابرقوثي من كلية الآداب في اصفهان .

## المقامات الفارسية

بعد

### مقامات حميدي

لا شك أن مجال الدراسة في هذه الفقرة واسع وطويل ويحتاج الى تخصص وتبحر عميقين ولا نشك في أن طلاب الدراسات المقارنة سيفردون له جزءا كبيرا من وقتهم وتخصصهم لتحقيقه في المستقبل ؛ ولعلنا نفتح المجال في هذا الباب بالنظر في تلك الدراسة القيمة التي قدمها الاستاذ فارس الى جامعة طهران لنيل درجة الدكتوراة تحت عنوان « المقامة في الأدب الفارسي » وقد امدنى بهذه الدراسة الاستاذ جعفر شهيدي رئيس قسم الدراسات العربية بكلية الآداب في جامعة طهران .

ففي مقدمة فصله عن أثر مقامات حميدي في الأدب الفارسي يبينه الاستاذ فارس الى أن أسلوب المقامة المتكلف يحتاج الى ذوق وذكاء خارقين ومن مقوماته أيضا التبحر في علوم اللغة والبلاغة ؛ ويرى أن المجال أمام كاتب المقامات العربية كان أوسع مما هو عليه الحال أمام كاتب المقامات الفارسية ذلك أن اللغة العربية تشتمل على مترادفات كثيرة ومن السهل على الكاتب وزن واشتقاق الكلمات على نحو لا يتوافر للكاتب بالفارسية .

٥ - مقامات نوبسي ص ١٢٢ .

٦ - مقامات نوبسي ص ٣٧٧ .

ويرى كذلك أن مما ساعد في اللغة العربية أن معظم المقاييس البلاغية كانت مدونة ، ولئن أفادت اللغة العربية من البلاغة الفارسية في هذا الباب فإنها تفوقت عليها من حيث ترتيب الأسس وتدوينها بحيث غدا الباحثون يجدونها في متناول الأيدي ، ومع أن الفرس لعبوا دورا كبيرا في الحفاظ على قواعد اللغة العربية فإنهم لم يبذلوا جهداً مماثلاً في تدوين قواعد لغتهم ؛ ومؤدى القول في ذلك أن المقامة الفارسية ما هي في واقعها الحقيقي سوى تقليد لأسلوب المقامة العربية ، غير أن هذا الفن لم يزدهر في اللغة الفارسية للصعوبات الأنفة الذكر وإن كان هذا لا يعني أنه لم تتأثر الكتابة الفارسية بأسلوب المقامة ؛ فقد ظهرت ملامح المقامة في عدد من الآثار الأدبية الفارسية حتى أن الدكتور فارس أبراهيمي عد كثيرا من ألوان الفن الأدبي الماثور في الأدب الفارسي ضربا من المقامة .

ومما يبدو أن هنالك كتباً عديدة ألقت تحت عنوان « مقامة » في الأدب الفارسي ولكن معظمها لم يكن يتبع ذلك الأسلوب الذي ظهر في مقامات حميدي بل لقد اطلق هذا الاسم على المواقف الصوفية بصفة عامة ، ومن أشهر الكتاب في هذا المجال الزمخشري والسهروردي ، وكتابتها ترتبط بالنواحي الصوفية والعرفانية .

والى جانب هذين الكاتبين الكبيرين نجد مقامات أخرى للشيخ عبد الله الانصاري والشيخ محمد رضا بن عبد الرحمن كلباس صاحب مقامات العارفين ، ومما يلفت النظر أن أكثر المقامات الصوفية الإيرانية مطبوعة وبين أيدينا وحتى السعدي فقد اطلق في كتابه « كلستان » كلمة مقامة على اقوال الصوفية .

ومما هو جدير بالذكر فإن الأدباء الإيرانيين لم يعمدوا الى تقليد المقامات المصرية في القرن السادس وما تلاه الا على سبيل التندر .

## ١ - كتاب الكلستان :

ويرى الاستاذ فارس ان كتاب الكلستان في مجمله ضرب من أدب المقامة بعد أن دخلت عليه النزعة الصوفية ولكن السعدي الشيرازي قد صبغ به بصبغة إيرانية فازاح عن هذا اللون من الأدب ما يعتوره من التكلف اللفظي والسخافة المعنوية في بعض الأحيان ، وقد بدأ الكتاب بعد هذه الخطوة في تقليد أسلوب السعدي الشيرازي ويرى الاستاذ فارس أنه لا غرابة في اطلاق اسم « مقامات السعدي الشيرازي » على كتاب الكلستان لأن هذا

الكتاب يتوافق مع الاصطلاح الصوفي الخاص بكلمة مقامة .

## ٢ - حكايات بهارستان الجامي :

مؤلف هذه الحكايات هو نور الدين عبد الرحمن بن محمد من كبار الشعراء والكتاب الفرس في القرن التاسع الهجري ونظرا لأنه ولد في مدينة جام التابعة لخراسان وأنه كان مريدا لشيخ الاسلام أحمد الجامي المتوفى سنة ٥٣٦ هـ فقد تخلص باسم الجامي وقد ولد الجامي في عام ٨١٧ هـ يقول في مقدمة ( بهارستان ) أنه اقتفى طريق الكلستان ولذا تراه يتحدث عنه باحترام زائد وقد ظهر من تأليفه أنه أراد أن يقدم كتابا للدرس والتحصيل أكثر سهولة في الفهم من الكلستان لابنه الصغير بيد أننا لا نستطيع ان نقول ان الجامي قد اقتفى بالفعل أسلوب الكلستان لأن مضمونه يختلف عن مضمونه فهو يمزج في كتابه بين الشعر والنثر على سبيل التفتن ، وقد أكثر من ذكر اللطائف والنوادر ؛ وبينما كان السعدي يورد الشعر لتكميل المعنى فإنه كان يقدم من الشعر ترجمة كاملة لما كتبه بالنثر .

## ٣ - مقامات مجد خوافي :

وهذا الكتاب أيضا مشهور ( ببخارستان ) من آثار القرن العاشر الهجري وقد صنف لمعارضة كتاب الكلستان وهو من بين الآثار العلمية الممتازة للنثر الفارسي وقد لاقى شهرة عريضة في بلاد الهند حتى غدت له نسخ خطية عديدة في تلك البلاد ، وفي هذا الكتاب حكايات عن آثار الأدباء الذين عاشوا في القرون المتأخرة ؛ ففي الباب الرابع حكاية اقتبست من الجامي المتوفى في نهاية القرن التاسع الهجري والمؤلف قد يأخذ الحكايات من الكتاب دون أن يتصرف في نصها .

## ٤ - تاريخ بخارستان :

مؤلف هذا الكتاب هو القاضي أحمد الغفاري الكاشاني ابن القاضي محمد الغفاري المتوفى سنة ٩٣٢ هـ قد توفي القاضي أحمد في عام ٩٧٥ هـ أما موضوع كتابه فيتركز في القصص والنوادر وبه وقائع تتصل بالتاريخ الاسلامي والایراني حتى عام ٩٠٨ هـ وفي إيران نسخ خطية عديدة من هذا الكتاب وحسبما يذكر المؤلف في خاتمته فإنه انتهى من تأليفه في عام ٩٥٩ هـ ويذكر في مقدمة كتابه أيضا ان قصصه ليست خالية من الأسانيد بل

هي منقولة من امهات الكتب ، كتاريخ الطبري ومروج الذهب وجامع الحكايات وجامع التواريخ ونزهة القلوب والمسالك والممالك وغيرها .

#### عبد الرازق دتيلي :

ولد سنة ١١٧٦هـ في اذربيجان وقد ألف كتابا باسم حقائق الجنان وموضوع الكتاب تاريخي شغل نفسه فيه بالصنعة البديعية على النحو الذي ظهر في كتابة المقامات كما انه مازج في طريقته بين الشعر والنثر وقد أورد الآيات والامثال والعبارات العربية والفارسية معا .

#### ٦ - مقامات قآني ( بير يشان )

مؤلفه هو ميرزا حبيب الله المتخلص بقآني وهو ابن ميرزا محمد علي الذي ولد حوالي سنة ١٢٢٢هـ وهو خير من قلد أسلوب السعدي الشيرازي ، وكتابه عبارة عن حكايات قصيرة وطويلة كتبها على طريقة فن المقامة حيث مازج فيها بين الشعر والنثر وكلها حصيلة طبعه ودوقه وافكاره كما فعل الحريري ، ولم يقتبس من الآخرين شيئا اللهم الا بضعة أبيات ؛ وقيل لم يقلد السعدي احد كما فعل القآني .

#### ٧ - مقامات اميري :

كاتب هذه المقامات هو أبو عيسى ميرزا صادق خان أديب الممالك فراهاني المتخلص بأميري ولد سنة ١٢٧٧هـ وبناء على ما تذكره دائرة المعارف الاسلامية فان هذه المقامات مذكورة ضمن المجموعة الخطية المشهورة التي ذكرها البروفسور براون وما يؤسف له فان نسخة هذا الكتاب مفقودة وعليه فلا يعرف ما اذا كان قد اقتضى فيها أثر مقامات حميدي أم تصرف في كتابة مقاماته ، وقد رجح الدكتور فارس ابراهيمي ان يكون أديب الممالك قد اقتضى في مقاماته أثر القاضي حميد الدين البلخي ، لأنه من خلال قراءته لديوانه اتضح له أن أديب الممالك وقف على العلوم والبلاغة العربية موقفا حسنا مما يؤهله لكتابة المقامة على طريقة القاضي حميد الدين التي هي تقليد للمقامات العربية .

#### ٨ - فاضل خان جاروسي :

وهو من الكتاب المشهورين في عهد القاجاريين وقد تبع عبد الرازق في أسلوبه وله كتاب في ترجمة الشعراء المداخين .

#### خلاصة :

مما تقدم نخلص الى انه لم يقع بين ايدينا في الأدب الفارسي كتاب على نمط مقامات حميدي ولكن الأسلوب المجرد للمقامات قد ظهر في عدة تواليف منذ عهد حميدي والى العصر الحديث ، فقد وجدنا كتبنا تعنى بالاصطلاح الصرفي لكلمة مقامة ككتاب الكلستان الذي اعقبته بعض الكتب المقلدة او المعارضة ، ووجدنا الى جانب الكلستان كتابا أخرى تعنى بجمع النوادر والقصص ، واستخدام البديع ، والصنعة اللفظية ، والمجازة بين الشعر والنثر على طريقة المقامات وكما اسلفنا فان الدراسة في هذا الباب تحتاج الى مزيد من التخصص وهذا امر ارجو أن يتوافر لطلبة الدراسات المقارنة على نحو اوسع .

الفصل الثاني  
أثر الفن المقامي في الأدب الأوربي

## أثر الفن المقامي في الأدب الأوروبي

يركز دارسو الآداب المقارنة على منهجين أساسيين في الدراسات الأدبية :

### المنهج الأول :

يتتبع النماذج الأدبية التي كسبت شهرة عالمية تتبعاً دقيقاً لمعرفة أثارها المباشرة في الأدب العالمي وذلك من حيث الفكرة الأساسية وأسلوب الصياغة ، وما طرأ عليها من تغيير وتحريف ؛ كأن يدرسوا مثلاً أسطورة أوديب وصياغة سوفكليس المسرحية لها ، ثم يقارنوا بين المعنى والصياغة المأساوية للأسطورة عند سوفكليس ، وما طرأ على ذلك من تغيير عند أندريه جيد أو توفيق الحكيم ، وكيف جرد الأخير مثلاً الأسطورة من المعتقدات الخرافية وربطها بواقع حياتنا الفكرية المعاصرة<sup>١</sup> .

### أما المنهج الثاني :

فلا يهتم بتتبع نموذج معين لمعرفة أثاره العالمية المباشرة بل يكتفي بالمقارنة بين النماذج المتشابهة في ألوان الفنون المتماثلة أو المختلفة وذلك وفق تصور منهجي لفكرة من الفكر كفكرة العبث ، يحاول الدارس أن يتتبع من خلالها الكيفية التي عبر بها فنانون العالم في موسيقاهم وأشعارهم وقصصهم عنها .

١ - قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر - عز الدين إسماعيل ص ٦١ .



ولا أرانا بحاجة للأخذ بالمنهج الثاني في هذا الفصل لأنه من باب التزيد أن نحاول الجمع أو المقارنة بين نموذج المقامة في الأدب العربي والنماذج الشبيهة به في الأدب العالمية ؛ فهذه مهمة أصحاب الدراسات الأدبية المقارنة المجردة أما نحن فلا نتجاوز حدود المنهج الأول أو هكذا ينبغي أن نفعل في مثل هذه الدراسة ؛ لأننا بصدد تقرير أمور علينا أن نتأكد من صحتها أولا قبل أن نأخذ بها ولعلنا ما كنا لنشرع في كتابة هذا الفصل لولا إشارات عابرة وردت في بعض كتب الأدب عن وجود علاقة ما بين فن المقامة وقصص الشطار في الأدب الإسباني ، وغيره من الأدب العالمية فقد ذكر الأستاذ ( بالنشيا ) في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي<sup>٢</sup> ، ما يأتي في معرض حديثه عن مقامات الحريري :

« وانه مما يستلفت الذهن ويدعو إلى الدهشة ذلك الشبه العظيم بين هذا الأثر الأدبي وذلك الطراز المعروف في أدبنا الإسباني باسم قصص الصعاليك ، وهو موضوع جدير بالدراسة » .

انه يشير إلى علاقة شبه بين فن المقامة وقصص الشطار ولكنه لا يذكر أي تأثير مباشر بين الفنين ؛ ولا يحقق ذلك حتى يقنعنا برأيه ؛ وقد تمس الدكتور محمد غنيمي هلال لهذا الرأي واعتمده كراي مسلم به من غير تحقيق أيضا ، فقد كتب :

« وقد أثرت المقامات العربية كذلك في الأدب الأوربي تأثيرا واسعا متنوع الدلالة فقد غدت هذه المقامات قصص الشطار Picaresque الأسبانية بنواحيها الفنية وعناصرها ذات الطابع الواقعي ثم انتقل التأثير من الأدب الإسباني إلى سواه من الأدب الأوربية فساعد على موت قصص الرعاة وعلى تقريب القصة من واقع الحياة ثم على ميلاد قصص العادات والتقاليد في معناها الحديث وهي التي تطورت فكانت هي قصص القضايا الاجتماعية فيما بعد » .

وهذا حديث تنقصه الدقة إذ لم يحدثنا الدكتور غنيمي هلال كيف غدت المقامة قصص الشطار بنواحيها الفنية وعناصرها ذات الطابع الواقعي . أما ما ذكره من تطور هذا الفن فلا يدخل في صلب القضية التي طرحها .

لقد اكتفى الدكتور غنيمي بتقرير ما ذكره الأستاذ بالنشيا من قبل وهو أنه على الرغم من وجود صلة بين المقامات وقصص الشطار فإن هذا الموضوع لم يخضع للبحث .

فما الذي يمنعه من بحثه ما دام موضوعه هو الأدب المقارن . الحقيقة هي أنه على الرغم مما في قصص الشطار من صيغ هجائية للمجتمع ومن فيه وإن البطل يسافر فيها من مكان إلى مكان وأنه يجيأ على هامش المجتمع ويظل ينتقل بين طبقاته ليكسب قوته كما يقر بذلك الدكتور هلال نفسه ، فإن العلاقة الفنية في أسلوب الصياغة تكاد تكون معدومة ؛ وهذا هو المهم لأن التنقل والهجاء والنقد من الصفات التي توافق الطبيعة البشرية بصفة عامة ولا يعتبر الشخص الذي يمارسها مقلدا .

لقد كان فن المقامة فنا عربيا خالصا لانه اعتمد في المقام الأول على البلاغة العربية وفق المقاييس التي حددها علماء البلاغة العرب ؛ ثم إن النموذج الفني للبطل كان أكثر تحديدا في سلوكه وتصرفاته فهو لا بد وأن يكون بارعا ومكديا ومجيذا لأسلوب الحيلة بل ومضيعا في مجتمعه أيضا ولا يستطيع المؤلف أن يخرج عن هذا القلب الموضوع لهذا البطل خروجا كليا والا أصبح هذا البطل بطلا عاديا لقصة عادية كما في قصة ( حياة لاساريو دي نورمس ) التي استشهد بها الدكتور غنيمي هلال وهي من قصص الشطار .

« فقد كانت أمه خلية لعربي سائس اتهم بالسرقة فحوكم هو والأم فغدا هو شحاذا مع أعين مكر تركه ليصبح خادما عند قسيس كان يعيش على مال الصدقات وكان بخيلا جشعا فتركه ليعمل عند نبيل فقد ماله فاضطر أن يصبح متسولا لنفسه ولسيده فيفخر عليه النبيل بنسبه مع انه هو الذي يطعمه فيتركه بصحبة آخرين يهجرهم لانهم ليسوا صرحاء . بعد ذلك يعمل سقاء ثم دلالا ويتزوج امرأة لا يبالي ان كانت خالصة له أم خلية قسيس يباركها » .

انها قصة عادية ولا تستمد عناصرها من فن المقامة العربي ؛ ففن المقامة الكلاسيكي في معظم احواله يركز على حدث واحد وليس على سلسلة أحداث كما في فن القصة بل ويجب أن يكون هذا الحدث متكاملا في براعته الدرامية يكشف في النهاية عن حيلة اتبعها البطل في أسلوب ظريف .

١ - الأدب المقارن : د . غنيمي هلال ص ٢١٣ .

٢ - الأدب المقارن : د . غنيمي هلال ص ٢١٤ .

٢ - نشر مكتبة النهضة المصرية ترجمة حسين مؤنس ص ١٨٠ .

٣ - الأدب المقارن : د . غنيمي هلال ص ٢٢٣ .

## اذن من اين جاء التصور بوجود صلة ما بين أدب الشطار وفن المقامة ؟

لقد وصلت مقامات الحريري الى الأندلس منذ زمن مبكر جدا وكما ذكر الأستاذ بالثيا<sup>١</sup> فان ذبوع هذه المقامات لم يقتصر على أوساط المسلمين فحسب بل اقبل عليها النصراني واليهود وترجمها عدد الى لغاتهم في أوقات مختلفة فقد ترجمها ابن شلومو الحريري الى العبرية وكتب مثلها خمسين مقامة بالعبرية كما قلدها في القرن الرابع عشر الميلادي المطران نسيي عبيد يوشع تقليدا شعريا باللغة السريانية .

وعندما ظهرت في القرن السادس عشر والسابع عشر قصص الشطار في أوروبا ربط المؤرخون بين حياة التشرد والترعة النقدية عند الأبطال الشطار وبين قصص المقامات حتى أوهموا أن ذلك من أثرها .

وأكد هذا الاعتقاد لديهم أن قصص الشطار قد حوت نقدا مريرا للانظمة الاقطاعية التي كانت سائدة في القرون الوسطى ، يشبه ذلك النقد المرير الذي قدمه بديع الزمان للواقع الاقطاعي السيئ في العصر العباسي من خلال مقاماته ؛ ولكنهم لم يلاحظوا أن نموذج بديع الزمان كان يختلف من حيث الصياغة الفنية والتكلف البلاغي عن قصص الشطار ، وهذا هو المهم لان الالتقاء في مبدأ رفض الظلم والثورة على الاضطهاد بين الناس جميعا امر طبيعي ومشترك اما استخدام صياغة أسلوبية متشابهة لنموذج فني معين فلا يقع عضو الخاطر الا نادرا .

ومما يبعد ظننا بأن المقامات الحريرية قد اثرت في الأدب الأوربي على نحو آخر فانه من خلال دراستنا للمقامات الاندلسية وجدناها قد اتبعت أسلوبا مغايرا للصياغة الحريرية فيما عدا مقامات السرقسطي ، وقد كان الأولى أن تتأثر المقامات الاندلسية العربية أولا بمقامات المشاركة قبل أن يمتد أثرها إلى الأدب الأوربي .

١ - تاريخ الفكر الأندلسي : بالثيا ص ١٨١ .

## الباب الرابع

### فن المقامة في العصر الحديث

### فن المقامة في العصر الحديث :

لم تقع فجوة تفصل الفن المقامي في العصر الحديث عن الفن المقامي في العصور القديمة فمن خلال تتبعنا المتصل لهذا الفن عبر قرون طويلة لم نجد قرناً واحداً قد خلا منه . ومع ذلك فقد وجدنا في هذا العصر الى جانب الأنماط المقامية التي توارث أسلوب المقامة الكلاسيكية - كما تداد طبيعي لها - أنماطاً أخرى مختلفة تماماً سواء من حيث الشكل أو المضمون .

ولعل هذا التجديد جاء نتيجة لما قرناه سابقاً من أن الديباجة المقامية احتوت في داخلها على ألوان شتى من الفنون لم يشأ لها أن تظهر في العصور القديمة على نحو مستقل ؛ وبما أننا نعيش في عصر التخصص عصر الصحافة والقصة والمقالة فقد كان طبعاً أن يأخذ كل فن بحاله الطبيعي . وكان طبعاً أن تنتج المقامات الحديثة اتجاهات متشعبة كخطوة أولى نحو انفصال الفنون التي اشتملت عليها المقامة القديمة وظهورها كفنون مستقلة ؛ ونستطيع ان نقسم الاتجاهات المقامية الحديثة فيما يأتي :-

- أولاً المقامات التي التزمت بالمنحى الكلاسيكي .
- ثانياً المقامات التي جنت نحو أدب القصة .
- ثالثاً المقامات التي جنت نحو أدب المقالة بوجهها العام أو بصورتها القصصية .

## أولا : المقامات الكلاسيكية

ونعني بها المقامات التي سارت على النمط الذي وضعه بديع الزمان أو التزمت بتقليد نموذج قديم سبق عليه المقاميون من بعده والمقامات التي تتعرض لدراستها في هذه الفقرة هي :

- ( ١ ) مجمع البحرين للشيخ ناصيف اليازجي .
- ( ٢ ) مقامات البربر .
- ( ٣ ) مقامات أبي الحارث للشيخ محمد بن علي خميس البرواني .
- ( ٤ ) مقامات محمد افندي مبارك الجزائري .

### ( ١ ) مجمع البحرين للشيخ ناصيف اليازجي

عدد هذه المقامات ستون مقامة جمعها الشيخ ناصيف اليازجي في كتاب بعنوان ( مجمع البحرين ) وقد ذكر في آخرها :

« هذا ما علقته من الأحاديث الملفقة كما فتحت على القريحة الملفقة وأنا التمس بمن سلمت بصيرته وطابت سريره أن يغض الطرف عما يرى من الاختلال والاجحاف وأن ينظر إلي بعين الحلم والانصاف فاني قد تلقيت هذه الصناعة من باب التطفل والهجوم إذ لم أقف على استاذ قط في علم من العلوم وإنما تلقفت ما تلقفته بجهد المطالعة . . . فان أصبت فرمية من غير رام وإن إخطأت فلي معذرة عند الكرام » .

ولم نذكر هذا القول للدلالة على وهن أو ضعف في صناعة هذه المقامات بل لنؤكد أن الشيخ ناصيف اليازجي كان متواضعا غاية التواضع حين ذكر ما ذكره لأن مقاماته تعتبر بحق دائرة معارف لغوية وتعبيرية كبيرة وليس هنالك من ينكر أن هذه المقامات كانت معلما بارزا وهاما في حركة التشييط اللغوي والأدبي في منتصف القرن التاسع عشر .

حقا لقد سارت هذه المقامات على نهج كلاسيكي والتزمت أسلوب المقامات الحبرية على وجه خاص ولكن ذلك كان نهجا عاما في الآداب والفنون في حركة التشييط الأدبي الحديث : إذ أن أول ما عمد اليه الكتاب والمؤلفون في هذه الحركة هو تقليد أو كتابة نماذج شبيهة بالنماذج الكلاسيكية المأثورة . ولعل الكتاب لم يقصدوا في هذه المرحلة إلى التجديد والابتكار بقدر ما قصدوا شحذ الأقدام وتعويدها على الكتابة بأسلوب رصين . ولعل الشيخ ناصيف اليازجي نفسه كان مدركا لهذا التصور على نحو ما في قوله :

« انني قد تطفلت على مقام أهل الأدب من أئمة العرب بتلقيح احاديث تقتصر من شبه مقاماتهم على القلب وسبت وقائعها الى ميمون بن خزام وروايتها الى سهيل بن عباد وكلاهما هو ابن أب مجهول النسبة والبلاد وقد تحريت أن اجمع فيها ما استطعت من الفوائد والقواعد والغرائب والشوارد والأمثال والحكم والقصص التي يجري بها القلم وتسعى لها القدم الى غير ذلك من نواحي التراكيب ومحاسن الأساليب والأسماء التي لا يعثر عليها الا بعد جهد التنقيب والتعقيب - هذا مع اعترافي بأن ذلك ضرب من الفضول - غير أنني تطاولت عليه مع قصر الباع طمعا في طلاوة الجديد » .

ولا يهمننا ما يور به الشيخ ناصيف اليازجي نزعة الكلاسيكية وإنما يهمننا منهجه الذي أظهرته الفقه السابقة بشيء من الوضوح :

فمقاماته فلت مواضيع مختلفة متنوعة تماما كمقامات الحريري وهي تلزم الديباجة المقامية التزاما كاملا . فالمقامة عنده لها رايها هو سهيل بن عباد ولها بطل هو ميمون بن حرام . أما الراوي فهو رجل راحل أو مغترب وفي رحلة الاغتراب يصادف البطل أو يلتقي به في حدث من الأحداث . أما البطل فهو متسول بارع في الفصاحة والآداب مجيد لاساليب الكدء بمجوز حيلة على الناس ولكنه لا ينفك من حباثل سهيل بن عباد ذلك الخبير بتصرفاته والأعبيه المجيد لاكتشافه في آخر الأمر .

وعلى الرغم من أن الشيخ ناصيف اليازجي قد اجهد نفسه بالغوص في بحور اللغة بجمع التراكيب والنوادر وتحلية مقاماته بالشعر فقد أعاد معظم الموضوعات التي تناولها الحريري في مقاماته بل وعلى نفس النحو الذي سار عليه الحريري ، وعلى سبيل المثال في

المقامة ( اللغزية )<sup>٤</sup> نجد سهيل بن عباد وقد خرج يسري عن نفسه من هم ناصب فسقط على محفل حافل يتبارى فيه الناس بذكر الأسانيد فدخل في تلك اللحظة غلام وفي يده ورقة كتب عليها :

ما اسم ثلاثي به اجتمعت	كل المقاطع غير ذي جسم
مهما تقلبت الحروف به	يأتي بمعنى صادق الرسم
واذا نظرت اليه منتبها	فجميع ذاك تراه في الحلم

فيحار الناس في أمر هذه الأبيات التي ينبري شيخ محجب لحل غامضها<sup>٥</sup> :

قد فسر الكاتب في نظمه وقصر القسارى في فهمه  
لو فطنوا للحلم في قوله لعرفوا اللغز على رغمه  
فيعجب الناس به ويميلون الى الاستماع اليه فيلغز لهم مرة في الفلك بمثل قوله :

ما عدم في الحق لكن ترى منه وجودا حينما استقبلك  
ذلك لله باجماله فان قطعنا رأسه فهو لك  
ومرة في القمر :

ومولود بدون أب وأم بلا قوت يعيش ولا يموت  
له وجه وليس له لسان فيخبرنا ويلزمه السكوت

ومثل هذا في أهالة وقوس السحاب والغيم والماء والنار فيكون ذلك سببا الى عطائه ،  
ولقد رأينا من قبل احدى مقامات الحريري وقد اشتملت على هذا النحو من الألفاظ وهي  
المقامة الملطية

وأما في المقامة الساحلية فيدعي ميمون بن خزام أمام الأمير أن ابنه قد حرف أبياته بما  
ادخله الخيس فقد أرسل الى القاضي أبياتا قال فيها<sup>٦</sup> :

أرى القاضي أبا الحسن	إذا استقصيته	عدلا
وان جاءته مسألة	لطالب رفته	بذلا

٤ - مجمع البحرين ص ١٢٢ .

٥ - نفسه ص ١٢٢ .

٦ - مجمع البحرين ص ١٢٣ .

٧ - نفسه ص ١٢٧ .

ولكن الغلام غيرها لتقرأ كما يلي :

أرى القاضي أبا الحسن	إذا استقصيته ظلما
وان جاءته مسألة	لطالب رفته لوما
إمام لا نظير له	تراه بيننا صفا
قد اشتهرت خلائقه	فأصبح في السورى عدما

ولقد رأينا أبا زيد السروجي يقف موقفاً شبيها بهذا - من قبل - امام احد القضاة يدعي ان  
غلامه سرق شعره وحرفته .

وليس الأمر في الواقع مقصوراً على هاتين المقامتين اذ ان معظم مقامات اليازجي  
اشتملت على تقليد من هذا النوع - ولقد ذهب الحال باليازجي الى ان يفرض التوبة على  
بطله ميمون بن خزام في المقامة الستين المعروفة بالقدسية حيث وقف البطل في المسجد  
الأقصى يتأسف ويتندم على ما ارتكبه في حياته الماضية ويطلب من الناس أن يدعوه  
بالغفران تماماً كما فعل أبو زيد السروجي في مقامة التوبة ؛ وحين يحاول بعض الناس  
اعطاء شيئا من المال يردهم عن ذلك ويرفض ما أعطوه اياه . انه نفس المنهج الذي اتبعه  
الحريري ليعلم في نهاية مقاماته رفضه للمنهج الذي سار عليه أبو زيد السروجي والذي  
يتناقى مع قيم المجتمع العربي والإسلامي

خلاصة :

نخلص الى أن مقامات اليازجي كانت متينة في مبنائها انتهجت النهج الكلاسيكي وقد  
قصده صاحبها الى تقليد الحريري تقليدا صريحا في موضوعاته على الرغم من أنه انفرد في  
بعض الأحيان بتركيباته الخاصة .

## ( ٢ ) مقامات البربر

بين أيدينا من مقامات البربر مقامتان .

تبتدى الأولى بالرحلة على سنة المقامين القدماء ونلمح في مقدمتها شبيها بمقامة  
الكاذروني أو الشيرازي وذلك حين يصور المؤلف مشهد الفراق عن بلدته وقد وقف  
الأهل والأولاد والدموع في مآقيهم يتشبثون به ويطلبون منه الا يفارقهم .

٨ - من مواليد ديباط وكانت وفاته في سنة ١٨١١ ، مقامته الأولى نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٤٨٠ نيمور وهي  
منسوخة عن نسخة المدينة المنورة .

يقول :

« ثم أخذت في أهبة السفر من تلك السواحل والبقاع وطفت بالأهل والاصحاب طواف الوداع فارتفعت لذلك الأصوات وانهملت سحائب العبارات وتتابع التلهف والحسرات فمن قائل لا كان يوم الفراق ومن قائل متى يكون التلاق ومن صائح هذه حالنا وأنت فيما فكيف إذا غبت وتحكمت الأشواق » .

بيد أن حاجته إلى السفر كانت أقوى من تضرعاتهم فقد نهل من الأدب وفنونه وأخذت نفسه تتطلع إلى الطواف في مشارق الأرض ومغاربها بغية امتداح كل جواد معزوف بالمعروف مهتديا بالحديث الشريف ( اطلبوا الخير من حسان الوجوه ) ومنه أيضا ( اطلبوا الخير من رحماء أممي تعيشوا في أكنافهم ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فان اللعنة تنزل عليهم ) .

وكانت وجهته إلى دمشق غير أنه لا يلاقي فيها أول الأمر ما لاقاه الشيرازي في بلاد الهند من ضنك واعراض وجهل فقد كانت دمشق على عكس ذلك تماما إذ كان أهلها تستصغر عندهم علوم البحار اصحاب مروءة وفتوة واما تجارها فلم يرضوا فيها بغير صالح الأعمال زيا<sup>١١</sup> .

يقول :

« وأصبحت عند رشيدهم وأمينهم ومأمونهم كأي نواس ووردت على منهم التحف والالطاف حتى كأنني نزلت عند آل عباد وآل عبد مناف هذا مع احتفالهم بنظمي وتنويعهم باسمي وتعليقهم مزاجي ومبادرتهم إلى ما يجلب سروري وابتهاجي فعشت فيهم بين رياض وغدران حتى قيدني احسانهم عن الرجوع إلى الأوطان » .

وراشوا جناحي ثم بلسوه بالندی فلم استطع من جبههم طيرانا ولم أزل في أطيب عيش وأرغده وأيمن وقت وأسعده حتى كشفت لهم المنية أستارها وانشبت فيهم غاليها واظفارها وانحلت منهم اماكنهم فاصبحوا لا ترى الا مساكنهم كأن لم تغن بالأمس ولم يكن بها بدر ولا شمس » .

٩ - نفسه ص ٢ ب .

١٠ - نفسه ص ٣ ب .

هكذا تغير الزمان بهذه المدينة على نفس النحو الذي تغيرت به بغداد في مقامة الكازروني .

يقول :

« ثم تأملت الزمان فرأيت قد لبس بعدهم ثوب الوقاحة وركب مطية الفصاحة وذلك لمغيب من كان يذوب منه خجلا ويظل منهم وجلا . . »

بعد ذلك يصور حاله في صورة شبيهة بتلك الصورة التي حركت وجدان الشيرازي ودعته للرحلة من قبل .

يقول : « ولما رأيت تراكم الأهوال وتغير الأحوال وتقدم الجهال وتأخر ذوي الفضل والأفضال صرت ليبي جليسا وطبت بالعزلة نفسا . . هذا وقد جعلت صدري حبيسا وكتابي أنيسا » .

ويجعل من ذلك مدخلا إلى نقد الطباع والسلوك فيحدثنا عن النفس وكيف صار الناس بظاهرون في سلوكهم فاذا اتاهم الصديق هشوا لتخيته وهم في دخيلتهم يلعنونه ويتمنون سرعة فراقه .

لقد اتخذ الراوي من العزلة مهربا له ولكنه كان ينتهز الفرصة في كل أسبوع فيخرج لفضاء رحب وارف الظلال طيب الانهار يروح فيه عن نفسه . وفي ذات اسبوع بينا كان يستروح في رياض دمشق رأى بدويا يمتطي صهوة جواده كالسهم فيتم اللقاء فاذا البدوي هو البطل الذي سيتقاسم معه احداث مقامته اذ سرعان ما يكشف عن فصيح لغته وواسع علمه ومعرفته شأن أبطال المقامات .

لقد بدأ حديثه بالدفاع عن حياته البدوية فقال<sup>١٢</sup> :

« وما كل من سكن البادية جفا وما كل من سكن الحاضرة رقى طبعه وصفا فالدر لا تدره كثافة الصدف وملوحة البحر والشوك لا ينفعه شرب ماء المزن ولا مجاورة لطيف الزهر » .

فيسأله الراوي<sup>١٣</sup> :

١١ - نفسه ص ٤ .

١٢ - نفسه ص ١٠ .

١٣ - نفسه ص ١٠ .

« والله لقد جمعت بين الشرفين وحيوت كرم الطرفين وهما كرم النفس وكرم العرب  
فياحبذا الجمع بين النسب والأدب ولكن أخبرني أي العرب أرومتك وأي القبائل  
جرثومتك » .

فقال :

« دعنا من القبائل والشعوب فقد صرفتهم الصروف وشعبتهم شعوب واطرو عنا ذكر  
الرمم البالية وعليك بتذكر الهمم العالية » .

فيقول الراوي :

« عزمت عليك الا ما اجبتني عن سؤالي لانظر ما خطر في وهمي وخيالي فقد تفرست  
فيك همم الملوك الصيد ونخوة ضراغم البيد » .

فقال :

« ان صدقت فراستك فانا من ولد النعمان بن المنذر فابشر لصدق فراستك وبشر » .

عندئذ يتطرق الحديث الى النعمان بن المنذر وعما يصح للملوك من العذر وما لا  
يصح . . بعد ذلك يكشف البدوي انه خرج جريا وراء الكسب والمعاش يعد ان عصفت  
عواصف المنية برياض قومه فصيرتها عصفا وعند هذه النقطة يكشف الراوي انه انما  
يخاطب نفسه وكان البطل قد أصبح عقله الباطن .

فمأساة الراوي هي مأساة البطل وكلاهما يعيش في عصر الاحفاد الذين اصابوا مجد  
الآباء .

يقول البطل عن قومه انهم :<sup>١٥</sup>

« هدموا ما شاد آباؤهم من المجد وأبلوا ما نسجوه من حلل المدح والحمد فهم عار الآباء  
وأعق الأنباء . . هم والله مراحيض تلك البيوت جبلوا على المداينة والمكاسرة وأصبحوا  
زيوفا يكشفها محك التجريب والمعاشرة وغرقوا في بحر الغفلة واللهم واشتروا العار  
لأنفسهم وقومهم » .

١٤ - نفسه ص ١١ .

ويكون هذا الحديث مناسبة يقارن فيها بين ما كان عليه القدماء من مجد وما أصبح اليه  
المحدثون من خساسة بعد أن ركبهم الغرور فظنوا انهم تفوقوا على القدماء في الأدب  
والكرم والفضل .

فيقول له الراوي :<sup>١٥</sup>

« لقد ساجلتني في هجو قوم تجاوزوا الحدود وهدموا شرف الحدود وخاضوا في بحر  
الظلمات وسكروا من خمر الشهوات وصيرونا بينهم مثلة حتى حببوا الى الخلوة والعزلة  
فأصبحت ليبيتي جليسا وطبت بالوحدة نفسا » .

فهو بهذا يؤكد ما ذهبنا اليه من أنه جعل البطل صورة لعقله الباطن يتحدث بلسانه ،  
فحين سأل الراوي البطل عن سبب خروجه من العزلة قال ان ذلك بسبب الحصول على  
العيش . ولولاه لما اثر عذاب السفر والتنقل فاعتذر له الراوي بأن السؤال كان بغرض  
الاطمئنان والمباينة على الاخوة والصداقة فتتم بينهما ويكون ذلك بداية لمواضيع شتى  
تعرض لها المقامة فيما بعد .

لقد طلب الراوي من البطل البدوي أن يزوده ببعض حكمه فما كان من البطل الا أن تلا  
عليه بعض آيات من درره من مثل قوله :<sup>١٦</sup>

« احذر أن تتخذ صاحبا من السفلى وهو من يصحبك للأغراض والعلل فانه متى ما  
انقطعت علته تبعته خلته وإياك ووضع امانة الأسرار في خزائن صدور الأشرار فانهم انم  
من الزجاج على الشراب ومن المشيب على الخضاب » .  
ومثله في ذم الدنيا :

« وحسب الدنيا من الذم عند أهل الفطن ان اسمها مأخوذ من الدناءة وان كنيها ام دفر  
وام درن فالسعيد من غسل يديه وقلبه من عمرها » .

ومن رآه ان عزة الكمال اجتماع الفضل والمال فلا يجوز احتواؤهما معا لان الله تعالى هو  
المفرد بالكمال . وفي ذلك تذكير بأراء الشيرازي التي مرت بنا .  
يقول البطل :<sup>١٧</sup>

١٥ - نفسه ص ١٤ .

١٦ - نفسه ص ١٨ .

١٧ - نفسه ص ٢٢ .



« وذلك ان صاحب الفضل يملك من ذوي المعارف والعقول وصاحب المال يملك رقب كل سفيه جهول وقيل الحكمة ان الله تعالى لو أعطى العاقل لظن أنه لو فور عقله ولو حرم الجاهل لظن حرمانه »

عندئذ يجيبه الراوي بمثل رأي الشيرازي :

« قلت ولا يخفى فضل العلم على المال عند ذوي الكمال لانه كالفرق بين الماء والآل »

ويعقد على اثر ذلك مفاضلة بين العلم والمال يبين فيها فضل العلم على المال ثم يتبعها بآيات من الدعاء ويتفقان بعدئذ على ذم جليس السوء لانه بشس القرين حتى لو كان ذلك القرين زوجا ثم يتقلان بعد ذلك الى الحديث عن أجمل النساء فيسوق البطل أوصافا تدل على وفرة محفوظة من مفردات اللغة فيسائله الراوي ان كان جرب الحب فيقول :

« انني قد سلكت فجاجة ونخضت لحجة وامواجه وسكرت بطلاه واصطليت لظاه رركبت جموحه وشربت غبوقه وصبوحة وياشرت فيه الخطير وكابدت فيه السهر »

ثم يذكر ما يكون في الحب من ترقيق للطباع الجافية واظهار المزايا الخافية وتذكية الأذهان وتشجيع الجبان ولكنه يكشف في آخر الأمر أن الحب المقصود هو حب الذات الالهية الذي منه يستمد الانسان حب الصور البشرية فاذا فرغ من الاجابة مالا للحديث عن الألغاز والأحاجي فيظهر البدوي مرة أخرى مقدرة لغوية عجيبة .

فاذا كشف البدوي عن سبب قصده مدينة دمشق قال لانها ستكون موثلا وفسطاطا في آخر الزمن للمؤمنين ولعلها يعيشان في آخر الزمن حيث عم الفساد ثم يتخلص في آخر مقامته الى مدح درويش اغا الشهير بابن جعفر .

وكما نرى فان المقامة سياحة فكرية ولغوية تحدث فيها البطل والراوي عن فساد العصر وسيادة الأنذال فيه مع تأخر العلماء ، كما تحدثا في موضوعات عدة كالألغاز والأحاجي والحب ثم خلص كل منهما الى مدح الاغا بقصيدة اتفقت مع نظيرتها في الموضوع والروي .

ولعل الاختلاف الظاهر بين هذه المقامة ومقامات بديع الزمان يكمن في عدم اقتصارها على حدث واحد فقد تسلسلت من موضوع لآخر ولم تر فيها حدا فاصلا بين شخصية البطل والراوية فقد كان البطل صورة لعقل الراوي الباطن أما العناصر الأخرى اللغوية

والفنية فقد تمثلت في المقامة على نحو واضح .

والمقامة بصفة عامة تتفق في نظرتها التشاؤمية مع منطلق الشيرازي في نظره الى العالم .

## ٢ ( مقامة مفاخرة بين الماء والهواء ) :

اما المقامة الثانية فتبدأ بوصف دقيق للروض الذي يجول فيه المؤلف في رحلة من رحلات الخيال والفكر ليجد نفسه أمام محاورة يسأل الرياض عنها فيذله النسيم بأنها مفاخرة بين الماء والهواء أوجيها حب انفراد كل منهما عن صاحبه بالرياسة . ولقد عجب الراوي كيف يمكن أن ينشأ مثل هذا النزاع بين الماء والهواء وهما أعظم دعائم الجماد والنبات والحيوان والانسان .

هل ذلك من دسائس النفس الامارة أم سعى بينهما ذو نفاق بالفرقة فوقف كل منهما على منير الفخر ، قال الهواء :

« اما بعد فمن عرفني فقد اكتفى ومن جهلني فسأبدو له بعد الخفا وانا الهواء الذي أولف بين السحاب وانقل ريح الأحباب واهب تارة بالرحمة واخرى بالعذاب نصر الله بي محمدا وصحبه الأجداد وأهلك الله بي قوم عاد وانا الذي تم بي ملك سليمان واجرى الماء في خدمتي لكل مكان وسير بي الفلك في البحر كما تسير العيس في البطاح واطار بي في الجو كل ذات جناح » ثم التفت الى الماء وقال :

« وأما انت فحسبك عيبا قول بعض الأدباء فلان كالقابض على الماء وبالله قل لي اي فخر لمن يعز مفقودا ويهون موجودا ومن اذا طال مكثه ظهر خبئه واذا سكن متنه تحرك ننته ومن نبع من الصخور ومز مذاقه في البحور »

وبعد الفراغ نهض الماء فقال :

« انا اول مخلوق ولا فخر وانا لذة الدنيا والآخرة ويوم الحشر وانا الجوهر الشفاف المشبه بالسيف اذا سل من الغلاف وقد خلق الله مني جميع الجواهر حتى اللآلئ والأصداف أحصى الأرض بعد مماتها واخرج منها للعالم جميع أقواتها وأكسو عرائس الرياض انواع الحلل واثرت عليها لآلئ الوبل والظل حتى يضرب بحسنها المثل .

أما انت أيها الهواء فكم ذهبت فيك نصائح النصاح كما قال ابن هرمة وبعض القول



### ( ٣ ) مقامات أبي الحارث

للشيخ محمد بن علي خميس البرواني<sup>٢٥</sup>

يتضمن هذا الكتاب خمس مقامات هي :

#### أولاً : السنجارية :

وتبدأ بفكرة الاغتراب المعروفة . أما زاويها فهو هلال بن اياس يقول المؤلف في مطلعها :

« حدث هلال بن اياس قال سريت في بعض الليالي من أولى الفضل والمعالي ما فيهم الا من يشار اليه بالبنان ويلقى اليه بمقاليد البيان فطفقنا نظوي المراحل بين تلك الشواكل ونجتني لطائف السمر نحت ظل القمر والسماء اذ ذاك صاحبة الجوح حتى انتهينا الى الدو فمللنا من الارقال وملنا الى حظ الرحال على كتيب من الرمال تتجاذب اطراف الاخبار وتنمط حيا الاشعار ونجتلي الخرد والابكار من بطون الاسفار اذ طلع علينا قبيل الاسفار شخص عليه شملة من الإطمار » .

انه البطل الذي لا بد وان يقدم نفسه في حلي من البلاغة والفصاحة لأن تلك هي وسيلته في نيل العطاء ولفت الأنظار اليه .

لقد بدأ البطل حديثه بقوله :

« أيها الكرام المهاجم والغطاريف القمام ونجعة الرواد وقدوة الاجداد وملجأ الضارع للبوارخ والمخطبة من الطوائع أن الحق ابلج والباطل بلجج اما اسمي فحارث بن الأرقم وأما كنيتي فابو الهيثم ، وانني من سلالة سروات القبائل والكرام الأفاضل والصناديد الامائل وأسود المحافل واعز من كليب وائل لهم من المآثر في النجدة وبسط المكارم ما يزري بفتك الحارث بن ظالم وينسى جوده كعب بن مامة وحاتم وهم من جودة الرأي والحلم ما يربى على حلم معن وقيس بن عاصم ، وقد كنت والله ذا جاء وسطوة واسعة وثروة اجر ذيل الغنى وارقل في مطارف السنا واقرى الضيوف واحبو الالوف واضر وانقع واخفض

٢٥ - طبع مطبعة السعادة ١٣٦٩ هـ - ١٩٥١ م . ( ٢ ) نفسه ص ٥ .

يذهب في الرياح . . . ولعمري . . . لا تقوم جنتك بسعيرك وظلما اهلكك انما بسموئك وزمهريرك فكهم تواتر عنك حديث تشمئز منه النفس وتمجج الاذن وحسبك من العناد انك تجري بما لا تشتهي السفن وانت المولع برقص الجوارى كفعل العشاق وانت الذي تهيج التراب وتغري النار بالاحراق » .

وعندما طلب الماء أن يحكم له قال الراوي<sup>٢٦</sup> :

« ان كلا منكما ادلى الى الفضل بحجة وسلك من الدلائل العقلية والعقلية أوضح حجة غير ان تكافؤ الأدلة غادر منا الأفكار مضمحلة وقد عجزت عن ترجيح فضلكما الافكار كما عجز القاضي الافعى عن الحكم لأبناء نزار . . . وليس لهذه المعضلة والحادثة العظيمة المشكلة الا الكبار لا الهيج والرعا » .

ويتخذ من هذا القول مخلصا كي يعرف بممدوحه السيد عبد الرحمن افندي الذي ذكر أن أمثاله هم القادرون على حل مثل تلك المشكلات .

فاذا وقد المختصمان اليه قال<sup>٢٧</sup> :

« ان كلا منكما محق فيما يدعيه فما أشبهكما في الثناء بالفرقدين وفي الأرض بالعينين ففضلكما معجز لا يكاد يميز أحكما عن أخيه ميمز وقد نفع الله بكما العالم على تباين أنواعه وأشكاله وقد ورد أن الخلق عيال الله وان احبهم اليه أنفعهم لعياله فلا تشتغلا بالمفاخرة عن شكر هذه النعمة واعلم ان حب الفخار اهبط ابليس الى حضيض اللعنة . . . فلا تجعلاه لكما اماما » .

هكذا تبدو الغاية الاخلاقية من هذه المقامة التي تشبه مناظرة العلم والمال في مقامة الشيرازي وعلى الرغم من أن الممدوح قد أوضح الحقيقة فهو لم يخف في اخر الأمر ايثاره للماء ذلك أن الله تعالى قد خلق ادم من الماء وخلق ابليس من الهواء . . . بل وقد طالب الهواء بالاعتراف بفضل الماء فعدل الهواء عن هوجه واعوجاجه واقبل يعتذر للماء فاقبل الماء والهواء كل يؤذي حقوق صاحب المنزل بالدعاء ثم طلبا من الراوي أن يمدحه بقصيدة ففعل .

وليس في وسعنا ان نضيف شيئا لهذا النمط من المقامات الذي يقوم على المناظرة فقد مر شبيه له في مقامة الشيرازي ، ولكن المناظرة في هذه المرة تهدف الى الاقرار بالفضل لاولي الفضل وهو هدف أخلاقي كما يبدو واضحا .

٢٣ - نفسه ص ١٣ .

٢٤ - نفسه ص ١٩ .

وأرفع فما أجزل العطايا . حتى عضني الدهر بنابه .

وكما نرى فليس في هذا المشهد جديد فمعظم أبطال المقامات السابقين ظلوا يحتالون بمقابلة حالهم الذي هم فيه بوضع آخر زعموا أنهم كانوا عليه قبل أن يتبدل بهم الحال .

وبمتابعة هذه المقامة نجد تشابها كبيرا بين هذا البطل وبطل مقامات البربرير السابق فالأثنان يزعمان أنها كانا صاحبي ثراء تبدلت بهما الحال فأثرا الاغتراب . وكلاهما مشوق لبلدته التي هاجرها . لقد فارق بطل البربرير بلده الى دمشق والحسرات تملأ قلبه حزنا على فراقها وهكذا كان الحال مع بطل البروانسي الذي تحسر أيضاً على فراق لبلدته دمشق يقول<sup>٢٦</sup> :

دمشق بها وجدي وداري التي غدت مدى الدهر والايام جل أمانيا  
ترحلت عنها لا ملالا وانما نفتني العوادي ما يشيب النواصيا  
فيا ليتني ذقت المنية قبلما تنكبت عنها وارتكبت القيافيا  
ولا تختلف طريقة هذا البطل في الاحتيال عن طريقة الأبطال السابقين أيضاً فهو يستخدم الوعظ بغرض الكدية . لقد وقف في جمع من المصلين يعظهم بقوله<sup>٢٧</sup> :

« الحمد لله الذي فرض على عباده الزكوات وامرهم ببذل الصدقات ومواساة ذوي الفاقات واعد للذين يتفقون أموالهم بالليل والنهار جنات عدن تجري من تحتها الأنهار فاجزل لهم بذلك الحسنات ورفع في عليين لهم أعلى الدرجات فنالوا منه عظيم الثواب جنات عدن مفتحة لهم الأبواب . »

فهو كما ترى يركز وعظه على الناحية التي يطمح الى الافادة منها وهي « البذل والعطاء » ولقد ساءه في آخر الأمر أن الناس استغرقوا في تأمل وعظه بحيث لم يش أحد منهم لعظاته فابتدروهم بقوله :

« مالي اراني قد استمطرت جهاما وكدمت في غير مكمد وشكوت شكوى الجريح الى الغربان والرخم لعمرى سحاب نوء ماؤه حميم وبش محلا بت في صريم . »

فينبه الناس بذلك الى حاجته فيتسابقون الى عطائه . لقد رددوه ناقة وجنء ولكنهم مع ذلك لم يطيقوا فراقه فطلبوا اليه أن يرافقهم ويسير معهم في السفر<sup>٢٨</sup> يقول الراوي :

٢٦ - مطبعة السعادة ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م ص ١٥ .

٢٧ - نفسه ص ١٧ .

٢٨ - مطبعة السعادة ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م ص ٢٦ .

« أخذ الشيخ بطرفنا بنفثاته ويلقي الكلام على رسيلاته ويخلط مضحكاته بميكياته فألفينا جهذا لا يباري وباقعة لا يحاري وداهية لا يماري ونابغة فصحاء الأوائل والأواخر . »

فلما بلغوا سنجار اختفى منهم الشيخ فلم يعرفوا أغار أم مار . وكما نرى فان هذه المقامة التزمت بالدعاية الهمدانية شكلا ومضمونا لقد بدأها الراوي بالاغتراب ثم تسلسل الموقف حتى ظهر البطل الذي وجدناه على صورة الاسكندري فصيحاً وبارعاً يجيد اساليب الاحتيال والهروب في آخر المقامة .

ولقد أشار المؤلف الى أن موضوعات مقاماته لا تأتيه من محض الخيال بل ان لكل مقامة شواهد تدل عليها اثبت عليها حوادثها وقد اعتمدت المقامة السنجارية من وجهة نظره على قصة كليب بن ربيعة بن الجارث بن ظالم وفتكه بخالد بن جعفر بن كلاب ثم قصة كعب ابن مامة وحاتم وحلم معن بن زائدة وقيس بن عاصم ابي دلامة .

ولم نستطع أن نتيين - على وجه التخصيص - ما عناء المؤلف بهذا القول فليس في المقامة اضافة على الصياغة الهمدانية بحيث يمكن أن ننسبها لأي واقع آخر .

### ثانيا : المقامة الصحارية :

لا يختلف الراوي في هذه المقامة فهو نفس هلال بن اياس الذي خرج في جماعة من بني الحارث الى البيداء ، فساروا فيها حتى دخلوا صحار في رابعة النهار فأخذوا يجوسون في تلك الديار حتى وقفوا امام جمع من الناس يتوسطهم شيخ ذو لحية كثة وهيئة رثة يعظفتي قد بلغ الغاية من الجمال ، قال<sup>٢٩</sup> :

« اياك والحسد فانه داء الجسد فهذه وصيتي اليك والله خليفتي عليك وهو حسبي فيك وأولى بك من أيبك فوالذي دبر الأملاك والفلك ونفسي بيده لقد قمت فيك مقاما لم يقم لقمان في ولده . »

ثم التفت الى القوم وقال<sup>٣٠</sup> :

« ان هذا الفتى ولدي وخليفتي من بعدي طالما دأبت في تعليمه وتأديبه وثقيفه وتهذيبه حتى أصبح وقد راض من العلم صعبه وخاض يمه وعبابه ما قصر عنه الشعبي ومحمد بن السائب الكلبي وقد كنت وياه تغدو ايمن الغدوات بأبرك الروحات بعيش هنئ وزني ودي فما راعنا الا الأيام قد قلبت لنا ظهر المجن وشتت الغارة علينا بالمحن . »

٢٩ - نفسه ص ٤٢ .

٣٠ - نفسه ص ٤٤ .

عندئذ تنقاطر عليه الصلوات الى أن يكتشف الراوي أن الواعظ ما هو الا أبو الهيثم وابنه أبو اليقظان فيدعوها الى طعامه ، وعندما يفرغان منه يتظاهرا بالبطل بالنوم فلما يفيق الراوي من نومه يجد البطل قد رحل .  
والمقامة على هذا النحو لا تخرج في مضمونها على المقامة السنجارية ؛ انها مجرد حيلة بلاغية يستدر بها البطل ما عند الآخرين .

### ثالثا : المقامة العمالية :

تبدأ هذه المقامة بالرحلة . فقد خرج الراوي في رفقة من أصحابه بحثا عن نكتة أدب يستفيدها أو أبدا لفظي يصيدها فإذا به أمام خيمة مضروبة شبت النار بفنائها ومناد يقول<sup>٣١</sup> :  
« هلموا الى زعيم العرب حليف الجود والحسب يملأ الدلو الى عقد الكرب »  
فأخذ الناس يهرعون ومن كل حذب ينسلون فساق الحرص الجماعة الى استطلاع ما عتده فإذا بهم أمام رجل عليه حلية من لبد طويل النجاد يتوسط قومة وأخذانه يتبخر بين الصفوف وحوله ظلال وأشجار وقد صفت حوالية الهارق والوسائد وقد بنطت الموائد ونضدت عليها الجفان .

فجلس القوم الى طعامه فإذا بشيخ طويل رث الملابس يهجم عليهم هجوم الاسد ويحیی بتحية الاسلام<sup>٣٢</sup> ، ثم يعوج على موائد الطعام ليأخذ وجوه الرقاق ويفقا عيون الاطباق ويمش المشاش والعظام ويفتك بالشعراء .

فإذا انتهوا من الأكل داروا في حديث الأدب . فأنتهى الحديث بهم الى الجناس فطلب منهم الرجل ذكر بيتين في نوع من الجناس تكتمل به عدة الانواع فوقفوا حائرين واجمين . ولما ظهر عجزهم انبرى لهم الشيخ بقوله<sup>٣٣</sup> :

« يا قوم لقد غرکم مني هذا الهزال وراثته هذا السربال فتنبكبتن عن اسنيراد زندي واستنشاق فرندي فان المرء باصغريه لا يبرديه فما كل بيضاء شحمة ولا كل حمراء لحمه » .

ثم انشدهم مما شق عليهم فلما رأوا منه ذلك اشادوا ببلاغته ورفعوا قدره واتبعوا ذلك بعطايهم وبعد ان اكتملت لديه العطايا قام الى سبيل حاله . ولكنه لا ينسرب قبل أن يتعرف الراوي عليه .

٣١ - نفسه ص ٦٧ .

٣٢ - نفسه ص ٧٣ .

٣٣ - نفسه ص ٧٦ .

### رابعا : المقامة المكية :

أما المقامة الرابعة المكية فيشخص فيها هلال بن اياس من الشام الى مكة بلد الله الحرام فبينما هو مع رفاقه في زمرة الحجيج اذا بابي الهيثم في زمرة من تلاميذ وقد وقف من الحجاج موقف الواعظ<sup>٣٤</sup> :

« أيها حجاج البيت العتيق الناسلين اليه من كل فج عميق حقيق على ان لا أقول الا الحق وان لا أفوه الا بالصدق ، وقد قيل حق يضر خير من باطل يسر واعلموا ان الله لا يرضى بملفعة الاحرام ممن تلفع بالحرام ولا بطواف حول الكعبة ممن لم يربأ عن السفاسف كعبه » .

ثم نراه بعد ذلك ينتقل الى غايته التي لا تكاد تخلو منها مقامة من مقاماته يقول<sup>٣٥</sup> :  
« والبخل أحسن مذاهب الاخلاق فقدموا لانفسكم قبل تكثرون وينقلب عليكم وبالاما تكثرون » . فيتوافد الناس عليه يقبلون يديه وهو يذكرهم :

« ولما تقدموا لانفسكم من خير تجده عند الله » .  
فتقاطر عليه الصلوات وتكاثرت حوالية الهبات وهو يستقبلها بصالح الدعوات حتى امتلأت له الخزائن المحملة على الجمال وقد تمت للراوي بعد ذلك صحبة معه حتى انتهت أيام الحج فكان الوداع :

### خامسا : المقامة النادية :

وأما في المقامة النادية فيروي هلال بن اياس انه بينما كان ذات يوم في ناد من أندية الأدباء امتلأت ساحته بالأدباء والشعراء مر بهم رجل ومعه فتاة كغرة الهلال ظلا يتشاجران حتى بلغا قاضي المدينة فقالت الفتاة<sup>٣٦</sup> :

« أيدك الله واتاحك ما تهواه ان هذا الجحف اليلندد والعنقجج القعدد وانا صبية غر لا أعرف هرا من بر فرحلني عن أهلي بمنزل رجب الى بيت أضيق من مبعج الضب » .  
ثم حكى له ما كان من سوء العشرة معه .  
فرد الرجل غاضبا<sup>٣٧</sup> :

٣٤ - نفسه ص ٩٩ .

٣٥ - نفسه ص ١٠٧ .

٣٦ - نفسه ص ١١٧ .

٣٧ - نفسه ص ١٢٠ .

« فمن أنت حتى نطالبيني بالخورنق والسدير والدمقس والديناج والحرير وأبوك كما تعلمين أحق من أبي عيشان وافقر من العريان لا يملك شروى نقيز لا في العيز ولا في النفيز » .

ثم أخذنا يتساجلان الشتائم حتى ضاق القاضي ذرعا فوقف الرجل وانشد قصيدته البائية<sup>٣٨</sup> :

لعمرك ما البهتان والغدر شيمتي ولا المكر والتمويه قطولا والكذب  
ولكن دهرى قد عدتني صروقه ولا سبب منسي لديها ولا ذنب  
فلما أتم الرجل قصيدته بكى القاضي لحاله وقال تعسا لهذا الزمان الذي لم يبق فيه لأهل  
الأدب حرمة ولا شأن .

يقول الراوي<sup>٣٩</sup> :

« فانطفت عند ذلك من المرأة تلك الوقدة وانحلت تلك العقدة وهذأت من الشيخ  
ضلوعه وأفرخ بذلك روعه ونهضا وهما يتناوبان الشكر ويشتيان على القاضي بأطيب  
الذكر . فيتبع الراوي الرجل فاذا هو الشيخ أبو الهيثم » .

وليس في القصة جديد كما نرى لأنها تكررت عند الهمداني والحريري والحنفي وغيرهم  
ولا هدف لها سوى إبراز القدرة الكلامية واللفظية عند بطل المقامة أمام القاضي .

#### خاتمة وخلاصة :

في الواقع لا نرى في هذه المقامات شيئا جديدا يشد انتباهنا . فهي تقليد ظاهر لمقامات  
الحريري ولا نكاد نلمح فيها سمة من سمات الأسلوب أو المضمون في هذا العصر .  
فالبرواني لم يخرج على الديباجة الهمدانية سواء من ناحية الشكل أو المضمون كذلك فان  
بطله ما هو الا صورة شبيهة من صور أبي الفتح الاسكندري وأبي زيد السروجي يستخدم  
الحيلة والبراعة البلاغية في غرض الاكداء ولكنه بالطبع لم يصل الى مستوى الاسكندري  
في قدرته البلاغية أو البيانية .

٣٨ - نفسه ص ١٢٥ .

٣٩ - نفسه ص ١٢٩ .

#### ( ٤ ) مقامات محمد افندي مبارك الجزائري

نجد في هذا الكتيب مقامتين لابن المبارك الجزائري الأولى اسمها ( نضرة البهار في  
محاورة الليل والنهار ) والثانية تسمى ( المقامة اللغزية والمقالة الأدبية ) .

فأما المقامة الأولى فيذكر في مقدمتها ما يلي<sup>٤٠</sup> :

« هذه أول مقامة أنشأتها في فن الأدب بيد أنني أمنت النظر ثانيا في تحريرها وأعملت  
الفكر في توضيحها بطرائف الظرائف وتحيرها ثم عززتها بمقامات فائقة ومقالات رائعة  
رائقة منها أبهى مقامة في المفاخرة بين الغربية والاقامة ومنها غريب الانباء في مناظرة الأرض  
والسماء ومنها المقامة اللغزية والمقالة الأدبية وقد تخلصت في جميعها الى مدح السيد السعد  
السري العارف بالله تعالى الأمير عبد القادر الحسني الجزائري .

ولا يتضمن هذا الكتيب المقامتين الأوليين كذلك فلم نجد لهما أثرا وان كنا لا نعتقد بأنهما  
تحتلفان كثيرا من حيث صناعتها عن مقامة نضرة البهار .

يبدأ المؤلف هذه المقامة بقوله<sup>٤١</sup> :

« فاني نظرت ذات يوم في اختلاف الليل والنهار وما أودع الله في ساعاتها من دقائق  
الحكم والأسرار واصغيت لما يترجمه لسان الحال لاسند ذلك اليه دون انتحال فرويت عنه  
من حديثها بدائع وغرائب وقد قيل ان في الليل والنهار عجائب :

من لم يؤدبه والداه أدبه الليل والنهار  
وضعت تلك المعاني في مقامة رقيقة المباني ذات نثر فائق ونظم بديع رائع . . لطيفة  
تغني عن مقامات البديع ومقالة ظريفة تحتوي على بديع المحاسن ومحاسن البديع بل فكاهة  
أحلى من عيش الصبا ونفثة أرق من نفحة نسيم الصبا اخلصت في حسن تخلصها لمدح أمير  
المغرب وضمنتها معنى المرقص والمطرب فهي عنقاء مغرب » .

وبعد هذه المقدمة تبدأ المفاخرة بين الليل والنهار كل منهما يفخر بمحاسنه وأفضاله  
مستدلا عليها بشيء من أي الذكر الحكيم والاحاديث النبوية وهي مفاخرة تشبه الى حد  
كبير المفاخرة التي أقامها البربر بين الماء والهواء وكان البربر قد تخلص فيها أيضا الى غاية  
المدح .

٤٠ - طبع في كتيب بالطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٣١١ هـ .

٤١ - نفسه ص ٢ .

٤٢ - نفسه ص ٣ .

قال النهار يخاطب الليل في آخر المقامة<sup>٤٣</sup> :

« يا أيها الليل البهيم تالله أنك لفي ضلالك القديم كيف تدعي أنك مظلوم وتشتكي من جوري وانت الظلوم وهل اني قاتلتك ظلما قانت البادي وهل قابلتك الا بما واجهتني به في المبادي وها انا برهنت على فضلي بشهود عدول . . فاستقل من دعوى المجد والفخر فقد حصحص الحق ووضح الفجر فان أبيت سلوكك محجتي ولم تتضح لك أدلة حجتي فهلهم الى حضرة الأمير ولا يثبتك مثل خير » .

فيخبرها الأمير انها اخوان أبرزهما الله تعالى مثالا لعالم الغيب والشهادة وان لكل منهما مقاما عند ربه لا يتعداه وانها مشتركائ في بيت المجد والعز واما كونها ابنا ضررتين الظلمة والضياء فانها يجتمعان في مضمار الدهر .

وتكون تلك مناسبة يشيد المؤلف فيها بحكمة الأمير في قصيدته الرائية ولا أرانا بحاجة للوقوف كثيرا أمام هذه المقامة لاننا مررنا بنظيرات لها اشتركت معها اما في أسلوب المناظرة واما في غاية المدح وكفى أن المنما بما تضمنته من أفكار .

### المقامة اللغزية :

أما المقامة الثانية اللغزية فهي مقامة قصيرة تسير على نفس النهج الذي سارت عليه مقامات القدماء وذلك من حيث الصياغة والمضمون . فموضوعها هو الألفاظ والغرض منها هو اظهار براعة البطل اللغوية والأدبية .

يبدأها الراوي بقوله<sup>٤٤</sup> :

« حدثنا الفتح بن غانم قال ابيت من بعض السرايا باوفر المغانم فخرجت بصحبي على مدينة السلام فقابلتنا وجوهها بالبشاشة والسلام وكنا تألفنا في مجمع الموافقة وتحالفنا على دوام المرافقة فلم نغادر بها معنى خصيبا الا حللناه ولا معنى غريبا الا حللناه » .

وبينا الراوي واقرانه يتعاطون كؤوس المحاضرة على شاطئ دجلة في خيام قد نصبوها اذ أهل عليهم فتى عليه سيما الاشراف كان من سراة عبد مناف ويكون هذا الفتى بطل المقامة الذي يشترك معهم في المحاضرة ويفك الرموز التي تحفوه بها . وفي الختام يقول الراوي<sup>٤٥</sup> :

« فلما كبا جواد المسورة وخبا زناد المجاورة نظر الينا شزرا وقال لقد عظمتم نزرا اما ان هذا لقن معجب قد اشتمل على المرقص والمطرب ولكن ينبغي أن يكون في معنى زاهر ولفظيز هو بديع نوريته على لطيف الازاهر وان يخلو من التعقيد والاعراب ولا يخفى فيه عن اللبيب وجه الاعراب فاقترحنا عليه لغزا أدبيا على هذا الأسلوب » .

وكما نرى فان المقامة لا تخدم سوى الغاية اللغوية وحدها ونحن لا نجد في مقامتي الجزائري جديدا فقد خلطنا من الأصالة الفكرية والموضوعية اذ ان المؤلف ضرب فيهما بسيف التقليد والنظر في أساليب من سبقوه .

### خلاصة :

وهكذا فنحن لا نجد في هذا النوع من المقامات أي ضرب من التجديد بل هو نظر محض في مقامات الأقدمين وتقليدها سواء من حيث البناء الفني أو من حيث الصياغة اللفظية .

٤٣ - نفسه ص ١٧ .

٤٤ - نفسه ص ٢١ .

٤٥ - نفسه ص ٢١ .

## ثانيا : المقامات ذات النزعة القصصية

تمهيد :

تبين لنا من خلال رحلتنا الطويلة مع الفن المقامي ان المقامة في معظم حالاتها تقيدت بديباجة معروفة التزم فيها بشخصية البطل و الراوي اللذين تدور أفعالهما في اطار حدث من الأحداث . وتختلف الأحداث هذه بحسب الموقف حيث تنجح في بعض الأحيان نحو أدب القصة وفي أحيان أخرى نحو أدب المقالة وقد تكون مجرد حديث يخاطب به العقل على نحو ما يدور في لغة المجلس .

وذكرنا في أكثر من موضع في هذا البحث أن أدب المقام يقف متوسطاً الطريق بين أدب القصة وأدب المقالة فهو يحمل شيئاً من أدب القصة و شيئاً من أدب المقالة وذلك في عصور لم تتميز فيها الأشكال الأدبية على نحو واضح في الأدب العربي . وكان لزاماً بحسب المنطق الطبيعي للتطور أن تأتي أوقات يحدث فيها الانفصال وتمايز الأنواع لا سيما في هذا العصر المتميز بظاهرة التخصص في كل مجال من مجالات الحياة ، ولكن الأشكال الأدبية لا تنبع من الفراغ والسكون اذ لا بد وأن تظهر الحاجة الماسة اليها من جهة وأن تتوافر القدرة الفنية على انجازها من جهة أخرى . وذلك كله يحتاج الى شيء من التدرج لأن الظواهر الأدبية انما تكتمل على مراحل . وعليه فقد كان لا بد من أن تظهر أشكال أدبية تنطلق من قاعدة المقامة تستكشف الوانا جديدة من التعبير تتدرج بها نحو أدب القصة والمقالة وحديث عيسى بن هشام الذي بين أيدينا يمثل مرحلة من مراحل التدرج هذه نحو أدب القصة والرواية الفنية على وجه خاص .

### ١ - حديث عيسى بن هشام للمويلحي<sup>٤٦</sup>

لم يكن حديث عيسى بن هشام حديثاً واحداً بل هو تتالي متصل ينتقل بنا من مشهد الآخر في مظهر من مظاهر الحياة الحديثة في مصر ولقد رأى الكاف البصر تلك الحياة بعين الناقد ، فوجدها يحكمها الفساد والخلل ومرجع ذلك كله من وجهة نظره شيوع المدنية الغربية في مصر .

يقول<sup>٤٧</sup> مشيراً الى ظهور الخلل في الحياة :

٤٦ - نشر حديث عيسى بن هشام لأول مرة في صحيفة ( مصباح الشرق ) ما بين عام ١٨٩٨ - ١٩٠٠ .

٤٧ - حديث عيسى بن هشام - محمد المويلحي ص ٤٥٧ .

« السبب الصحيح في ذلك دخول المدنية الغربية بغتة في البلاد الشرقية وتقليد الشرقيين للغربيين في جميع احوال معاشهم كالعميان لا يستتيرون ببحث ولا يأخذون بقياس ولا يتصرفون بحسن نظر ولا يلتفتون الى ما هنالك من تنافر الطباع وتباين الأذواق واختلاف الأقاليم والعادات » .  
ومهما يكن فإن ما يهمنا من أمره هو الوسيلة التي عالج بها فكرته فهي التي تدخل به الى عالم الفن وهي التي نحفل بها في دراستنا لفن المقامة .

### وسيلة التعبير :

قلنا من قبل ان حديث عيسى بن هشام يعبر عن مرحلة من مراحل التدرج من أدب المقامة الى أدب القصة اما الذي يصله بأدب المقامة فأولاً : وجود الراوية الذي يقوم بحكاية الأحداث ، وقد أطلق عليه المؤلف اسم عيسى بن هشام وهو نفس الاسم الذي أطلقه بديع الزمان على راويه .

ثانياً : على الرغم من أن المويلحي لم يجعل أحاديثه في مظاهر الحياة الاجتماعية المصرية ذات طليعة متنافرة فيمكن أن نعتبر التنوع في التقاط المظاهر شيئاً بتعدد الأغراض والموضوعات في المقامات الهمدانية .

ثالثاً : محمد المويلحي الى تحلية حديثه بالسجع والصنعة اللفظية ولئن لم يبلغ في ذلك مبلغ الحريري فإمكاننا أن نعتبر صنعة مظهرها من مظاهر الشبه بين حديث عيسى بن هشام ومقامات كل من الهمداني والحريري .

اما التجديد الحقيقي في حديث عيسى بن هشام فيكمن في الشبه الكبير بينه وبين فن الرواية الحديثة فلأول مرة نجد كاتباً مقامياً يكتب كتاباً كاملاً يعبر من خلاله عن فكرة واحدة هي نقد المظاهر الدخيلة على واقع الحياة المصرية في العصر الحديث . لقد تعودنا من قبل أن نلمح شيئاً من النقد في الفن المقامي ولكن لم يمر بنا مقامى ركز على ظاهرة واحدة وتتبعها على هذا النحو التسلسل والقائم على التشويق القصصي .

حقاً لقد صور بديع الزمان كثيراً من الهنات في المجتمع العباسي ومع ذلك فقد كنا نحسن في كل مقامه من مقاماته اننا بازاء موقف جديد يقدم لنا ظاهرة جديدة من الظواهر التي كانت منتشرة في العصر العباسي .

أما بالنسبة لحديث عيسى بن هشام فإنه على الرغم من تعدد المشاهدات فان الظاهرة المعبر عنها واحدة وهي تقديم لوحة من الزيف الذي طرأ على الحياة من تغلغل أسباب المدنية الحديثة في أسلوب ساخر يستشف منه القارئ ما يرمى اليه المؤلف من الإنكار وعدم القبول .

## لمحة من الحديث :

اما الحديث فيبدأ بصحبة تتم بين عيسى بن هشام وأحد الباشوات مات منذ زمن بعيد ثم انشق عليه القبر فخرج ليرى أن الحياة قد تغيرت وأن المظاهر التي درج عليها قديما لم يعد لها وجود . وفي بداية الحديث يقع خلاف بين الباشا ومكاري يزعم أن الباشا استوقفه ليركب معه فينكر الباشا ذلك فيدب بينهم الشقاق فيطلب المكاري من الباشا الذهاب معه الى القسم وعندئذ يخاطب الباشا عيسى بن هشام بقوله :

« اني لاعجب من صبرك على هذا الفلاح السفيف الذي استرسل معنا في سفاهته ووقاحته فهل فاضربه بالنيابة عني حتى تريحه من معيشته وتريحنا منه .  
- فيقول عيسى بن هشام -

كيف يكون ذلك وأين القانون وأين الحكام .

« الباشا » مالي أراك قد شق الخوف قلبك وقطع الهلع أنفاسك اعتريك الخوف وانت معي . ان هذا لعجيب منك .

« المكاري » مستهينا - العفو . . العفو . . من أنت ومن غيرك ونحن في زمن الحرية لا فرق بين الصغير والكبير ولا تفاوت بين المكاري وبين الأمير » .

انها لهجة جديدة لا يعرف الباشا أنه سمعها من قبل . . عندئذ يحاول عيسى بن هشام ان يمنح المكاري شيئا من المال عسى أن ينصرف ولكن المكاري يصصر على أن يذهب بالباشا الى البوليس فيتم له ذلك ويدخل الباشا الى الحبس فيحاول ابن هشام ضمانته ولا يقبل منه ذلك الا بتصديق شيخ الحارة ؛ وشيخ الحارة رجل أعده البوليس خارج القسم يوقع الضمانات نظير شيء من المال ومنذ تلك اللحظة تبدأ الحوادث الغريبة تملأ عين الباشا في مجتمع لم يره من قبل . فهو لا يعرف البوليس ولكنه يعرف ( القواس ) وهو لم يره عند البوليس خيرا لأنه نظام مخايط بمظاهر غريبة منها ضرب أرباب القضايا دون سبب . وفي هذا النظام يقرض المعاون سيطرة عجيبة على من يقعون تحت سيطرته فاذا أتى المفتش غدا كالغفار المدعور والمفتش نفسه لا يحفل بالمسائل الهامة أو بمصير من يقع تحت رحمته ولكنه يكتب تقريرا مطولا عن المعاون لانه ليس طربوشا جعل زره من جهة اليمين وكيف يعلم المفتش بمشاكل السجناء اذا كان هو نفسه من الانجليز ولا يحسن لغة العرب .

وهكذا تتوالى المظاهر فيؤخذ الباشا الى النيابة التي لم يكن يعرفها من قبل فيخبر بأنها الجهة المكلفة باقامة الدعاوى الجنائية ضد المجرمين فيرى على رأسها رجلا ليس بأمير ولا عظيم ولكنه رجل عادي من أبناء الفلاحين درس القانون فاحتل مثل هذا المنصب الخطير .

وفي النيابة لا ينظر امره على وجه السرعة ذلك أن الرئيس مشغول بالحديث مع بعض رفاقه عن سهراتهم الخاصة دون التفات للجهاير المتزاخرة على بابه وبين ذلك ينتشر بعض سماسرة المحامين الذين يدعون بان مخدوميهم يديرون القضاء بيدهم وان الخير كل الخير في توكيل امثال هؤلاء المحامين في مثل هذه القضايا اذا اراد لها أصحابها النجاح . فيكون ذلك مناسبة كي يسأل الباشا عيسى بن هشام :

« قل لي بالله ما هو المحامي عندكم » .

فيقول - عيسى بن هشام - « هو وكيل الحكم والمخاصمة يتكلم مكانك بما تعجز عنه ويدافع عنك بما لم تعلمه ويشهد لك بما لم يخطر ببالك وصناعته هذه صناعة شريفة يمارسها كثير من الفضلاء اليوم بينما ولكن قد دخل في الصناعة جماعة ليسوا من أهلها فاتخذوا الخداع والاحتيال بضاعة للكسب مثل هذا المحامي وسمساره وهؤلاء بعينهم الذين يعينهم علاء الدين الكندي :

ما وكلاء الحكم ان خاصموا الا شياطين أولو باس قوم غدا شرهم فاضلا عنهم فباعسوه الى الناس »  
ويقدم لنا عيسى بن هشام من خلال هذه القضية صورة للمحاكم وما تنقيد به من روتين وكيف ان القضاة بضيقون من سماع كلام المحامين وكيف ان المحامين يسهبون في عرض قضاياهم حتى يشعروا بالمتهم بعظم جهودهم ثم يوضح كيف تضعي العدالة بين المحكمة الأهلية وبين لجان المراقبة ومحاكم الاستئناف . حقا فان الانسان قد يصل الى مبتغاه في آخر الأمر ولكن ذلك لن يتم الا لاولي العزم الذين يملكون حظا وافرا من الصبر والاحاح . ولم يكتف المؤلف بذكر المؤسسات الحكومية والرسمية ونقدها بل ظل يرسم صورة عجيبة من خلال رحلته مع الباشا تتضمن سائر المظاهر الاجتماعية في مصر انذاك فهو اذا تحدث عن الأعيان والتجار اخذنا في رحلة الى الدار التي يجتمعون فيها وهنالك نسمع



كثيرا من اللهو والخط . فبعضهم متبرم من التجارة يريد أن يستثمر أمواله في العمران . وبعضهم يرى أن سبب الكارثة في التجارة دخول الأجانب فيها مما جعلهم يستأثرون بالربح وهو يدعو أصحابه للمضاربة في سوق القطن بالبورصة . ويعترض آخر بأن البورصة كانت سببا في خراب كثير من البيوت . ثم ينتقل الحديث الى أولئك الذين يدعون الغنى وهم في الحقيقة لا يملكون شيئا . فيقال وما جدوى توريث الغنى اذا كان الأولاد سيبدونه ، وهكذا يسير الحديث على هذا النحو .

قال عيسى بن هشام<sup>٥١</sup> :

« واشتد بينهم الجدال والخصام فحملت العيون وعمست الوجوه وتحركت الضغائن وثارَت الاحقاد ورأينا كل واحد يضم لأخيه من الشر والأذى ما لا يضمه القرن لقرنه في ساحة الوعى فانصرفنا عنهم وتركناهم يموج بعضهم في بعض وكانهم في موقف الحشر ويوم العرض » .

واذا تحدث عن الأمراء وأبناء الأمراء<sup>٥٢</sup> ذكر ما كان من أمر هجرانهم السكن في الدور والقصور الفخمة التي ابتنوها لأنفسهم وأثروا عليها ( الكلوب ) وهو دار خصصت بعض غرفه للمنادمة وبعضها للمعاقرة وبعضها للمسامرة والبعض الآخر للمراهنة والمقامرة . ونجدهم في هذه الدار لا يحفلون بشيء سوى الحديث عن الثروة وبعض المؤامرات الدنيئة بعضهم ينحى على الآباء تهاونهم في ابتزاز ما عند المصريين مع انهم كانوا قادرين على ذلك وبعض يترفع عن ذكر المصريين بسوء لأن ذلك غير لائق في ذلك الجو الذي تقتضي فيه الحكمة مداينة المصريين .

قال عيسى بن هشام<sup>٥٣</sup> :

« فقاموا وقمنا على آثارهم نشاهد ما يجري من بقية أفعالهم فدخلوا الى غرفة المدام فتعاطوا من أقذاح الراح ما شاؤوا ولم يتعد حديث المنادمة بينهم حد المفاضلة أو المراهنة والمسابقة هذا يراهن صاحبه ان يشرب من الخمر رجاجة بأكملها وذلك يفاخر بقوة أعضائه . . . » .

٥١ - حديث عيسى بن هشام ص ٢٤١ .

٥٢ - نفسه ص ٢٥٩ .

٥٣ - حديث عيسى بن هشام ص ٢٧٠ .

وهكذا تتوالى المشاهد والصور في حديث عيسى بن هشام فاذا تحدث عن المراقص والملاهي أيضا ذكر ما يدور فيها من فسق وفجور واحتيال على المساكين الذين رمز اليهم بشخصية العبد الذي وقع فريسة لاحتيال الرافضة والقواد وصاحب الحان . واذا ذكر المسارح اثنى على فكرتها وقال انها في بلاد الغرب مدرسة يتعلم منها الشعب اما نحن فلم نر فيها ذلك ولقد فهمنا رسالتها فهما خاطئا فادخلنا فيها كل ما يعيب عمالائنا نحن فلم نر فيها ذلك . وخلاصة الأمر ان حديث عيسى بن هشام متعدد في مظاهره شائق الى الفن الأصيل بشيء . وخلاصة الأمر ان حديث عيسى بن هشام متعدد في مظاهره شائق في طريقة سرده يأخذ من فن القصة بأسباب كثيرة وهو بحق مرحلة تجاوزت الوسط في سلم التدرج بين فن المقامة وبين القصة وهذا ما يجعلنا نتفق مع الدكتور شكري عياد في قوله<sup>٥٤</sup> : « لقد بعج المويديحي المقامة التقليدية اتخذها منبرا لدعوة الإصلاح فملأها بالمناقشات ووسع افقها فلم يقتصر على شخصية نموذجية واحدة أو شخصيات قليلة بل رسم انماطا كثيرة من البشر وفك عقدها فلم تعد حيلة صغيرة من حيل المكدين تتكرر بصورة من الصور بين مقامة وأخرى بل حاول ان يجعلها فصلا من مقامة طويلة . . . ولكن المقامة قد تخلصت على يديه من الموضوع التقليدي والشخصية التقليدية كما تخلصت من التزام أسلوب مسجوع تتخلله أبيات من الشعر فأخذت موضوعها وشخصياتها من مجالات الحياة المختلفة وخرجت من السجع الى الأسلوب المرسل في كثير من الأحيان ولهذا نجد رائحة الرواية في كثير من فصول ( عيسى بن هشام ) كما نجد رائحة القصة القصيرة في بعض هذه الفصول » .

٥٤ - القصة القصيرة في مصر - شكري عياد ص ٧٩ .



## ٢ - المقامات الفكرية<sup>٥٥</sup>

عبد الله فكري باشا - ولد عام ١٢٥٠ هـ

### المقامة الأولى : مقامة في حسن الوفاء :

لقد عثر نجل المؤلف على هذه المقامة في العدد السابع من ( روضة المدارس ) في سنتها الأولى وعلى وجه التحديد فقد نشرت بتاريخ ١٥ ربيع الثاني سنة ١٢٨٧ هـ وهي تؤكد ما ذهبنا إليه سابقا من ان بعض كتاب المقامة المحدثين قد اخذوا بالفعل ينجحون بالمقامة نحو القصة القصيرة بمفهومها الحديث أو على وجه أدق فإن القصة القصيرة قد بدأت تفرض نفسها على الفن المقامي ذلك أن العصر لم يعد يقبل ذلك الشمول الذي استأثرت به المقامة ردحا طويلا من الزمن في عصور لم تتبلور فيها الأشكال الأدبية على نحو متخصص وواضح .

ومما نلاحظه فان هذه المقامة تقوم على واقعة رواها المؤلف في أسلوب قصصي تسلسلي ليخرج منها بقيمة اخلاقية ذات فائدة اجتماعية . وهذا هو منحنى القصة القصيرة في بداية نشأتها في الأدب الغربي اذ كان لا بد لكتاب القصة القصيرة من تسجيل الظواهر الاجتماعية في قصصهم ومعالجتها معالجة اخلاقية ولكن على الرغم من أن الفن المقامي قد اشترك مع فن القصة القصيرة في هذا المنحنى فان فن القصة تميز بعنصر الحرية في رواية الأحداث دون التقيد بالديباجة التي تقيد بها الفن المقامي . يبدأ المؤلف مقامته بقوله<sup>٥٦</sup> :

« حدثني صاحب مبارك ليس في فضله يشارك قال كان يبيع الأمصار فيما مضى من الأعصار رجل من التجار ذو شرف ونجار قد رزق سعة في الغنى وجنى ثمرات المني وكان حسن المعاملة كثير المجاملة سليم الفؤاد حلوا الوداد فطار صيته في الأقطار وصار في جميع الأمصار فأنفسح نطاق تجارته واتسعت دائرة ادارته وكثرت احبابه وأصحابه وغضت باخوانه وخلانته رحابه » .

انه هنا يحافظ على شخصية الراوي ولكنه لا يتقيد بتلك الرحلة التي كان لا بد للراوي

<sup>٥٥</sup> - انظر المقامات الفكرية ط. المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق سنة ١٣١٥ - ١٨٩٧ جمع ابن فكري باشا ص ٢٧٦ وما بعدها .

<sup>٥٦</sup> - المقامات الفكرية ص ٣٠٣ .

من أن يقوم بها حتى يصادف أحداث مقامته .

اما ما يلي من أحداث المقامة أو القصة فنلخصه فيما يأتي :

عاش هذا الرجل زمنا على هذه الحال الرغدة فلما احس بدنوميته دعا ولده الذي شب عن الطوق وأخبره بأن له كنزا يود أن يطلعه عليه فاذا أراد أن ينتفع به فليتصل بصاحب قد جربه وخبر تجربته .

ثم أنشد :

ان اخاك الحق من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك  
ومن اذا ريب الزمان صدعك شئت فيك شمله ليجمعك

فلما مات الرجل قام الولد مقام أبيه فالتف حوله الاقران وقصده الخلان ولكن خلانته في هذه المرة لم يكونوا كخلان أبيه بل كانوا من أصحاب السوء الذين سولوا له حياة المجون التي انغمس فيها واهمل تجارته فضاع كل شيء من بين يديه . . . لقد كسدت التجارة فباع زرعته وضرعه وتلفت أخيرا فلم يجد من هؤلاء الخلان واحدا يقف الى جانبه فقد تسللوا جميعا من حوله .

ولما بلغت الحاجة به مذاها طلب من أمه أن ترخص له بيع الدار التي يسكنونها فلم توافق بل طلبت إليه ان يقصد ذلك الصاحب الذي أخبره والده به عسى أن يجد عنده الكثر الذي يقله من عشرته .

ولما كان ذهابه إليه في ثياب رثة أخبره الخدم بأن الصاحب لا يرغب في رؤيته . . . هنا ضاقت الدنيا في عينيه فرجع الى أمه وأخبرها بما كان له مع الصاحب فسلته بحكايات تشد بها من عضده وتشجعه على مصيبة الدهر . . . وفي يوم من الأيام دخلت الدار عجوز تعودت أن تترك ذهبها عند الوالد . . . لقد قدمت العجوز للفتى بعض الحلى وطلبت منه أن يحتفظ لها بها حتى تعود من الحج .

فلما انصرفت أخذ الفتى الحلى وباعها وبدأ بتمنيتها تجارته فحقق بعض الربح ثم أخذ الربح يزداد شيئا فشيئا والعجوز لم تأت فأخذ ينتظرها عاما بعد عام ولكنها لم تأت أيضا عندئذ فكر في الذهاب الى ذلك الصاحب يستطلع امره فارتدى احسن ثيابه فقابلته الخدم هذه المرة مقابلة الكرام بل وهش له الرجل وبش .

فقال الفتى مغضبا<sup>٥٧</sup> :

« اني ما جئت لسلام ولا كلام ولا قصدتك الان لرغبة في مرام ولكن لاذكرك بسوء صنعك معي حين خاب فيك رجائي ومطمعي » .

فرد عليه الرجل قائلا<sup>٥٨</sup> :

« مهلا يا بني مهلا واهلا بعنايك وسهلا

لعل عتبك محمود عواقبه فرعما صحت الاجسام بالعلل »

فاخبره الفتى بالا يعتبر عتابه عتاب محبة بل هو عتاب اللوم الذي ليس بعده اجتماع

وفي ثورة الغضب اخبره صاحب بأن عنده خبيثة لا بد من ان يوضحها له قبل فراقه فأخذته الى احدى الغرف فاذا بامرأة عجوز استدلت من صوتها على أنها هي المرأة التي أودعت عنده حليها . فكانت دهشة الفتى عجيبة حين رد عليه صاحب الوثيقة التي كتبها للعجوز ساعة تسلمه الحلي وحين أخبره أن العجوز هي زوجته .

لقد اكب الفتى على يد الرجل يقبلها وعلى العجوز يدعو لها ويعظمها وفي آخر الأمر أخبر صاحب بأن ثمن الحلي محفوظ وأنه على استعداد لارجاعه ولكن صاحب لم يكن يريد ثمن الحلي فقد كان صديقا حميما لوالده ليس كهؤلاء الأصدقاء الذين ضيعوا مال الفتى بل هو صديق بصون ولا بيدد لقد اخبر صاحب الفتى بأنه رفض مقابلته في أول الأمر لما رآه من تنكبه عن الطريق السوي واتباعه ومعاشرة أصدقاء السوء اما الان وقد اعاد سيرة أبيه فانه على استعداد للعمل معه ومشاركته في ماله لا سيما وان ليس له أبناء مثله .

هكذا يتضح من أحداث هذه المقامة اننا لا نقف بازاء مقامة من ذلك الطراز القديم فالمؤلف لا يريد أن يظهر مقدرة البطل البيانية ولا يريد أن يستعرض أساليب المكدين بل هو ينجح الى أسلوب القصة الحديثة التي تعتمد على عنصر الحكاية والتشويق . وكذلك فان الشخصيات لم تكن محددة بسلوك معين بل كانت تتصرف حسب متطلبات الموضوع ، كذلك فلم نر البطل يستأثر بأحداث المقامة كلها بل الشخصيات جميعها

٥٧ - المقامات الفكرية ص ٢٠٨

٥٨ - نفسه ص ٣١٩

تشارك في تكوين الاحداث . حقا نحن لا نشك في أن القصة القصيرة في الأدب العربي المعاصر قد تطورت تطورا كبيرا في أسلوب بنائها لا سيما في طريقة تطوير الحدث وعرضه ومع ذلك فكان لا بد لها من أن تنطلق من بدايات شبيهة بهذه المقامة حيث ما تزال تحتفظ ببعض العناصر السائدة في المقامة ، كوجود الراوي واستخدام الطريقة التقريرية في سرد الاحداث وتنميق الأسلوب بمسحة من الصنعة اللفظية .

### المقامة الثانية : مقامة العمال والبطال<sup>٥٩</sup>

المقامة الثانية التي حصل عليها نجل المؤلف فهي مسودة من مقامة بعنوان ( العمال والبطال ) لم يعثر عليها كاملة .

وأما الجزء الذي عثر عليه فيوضح أن موضوع المقامة يدور حول اثنين احدهما يدعى ( العمال ) والآخر ( البطل ) .

أما الأول فانه يجتهد في كسب قوته لا يمد يده سائلا ولا يجني جنيته أمام مخلوق فهو مجيد للألوان مختلفة من الصناعات والعلوم فاذا كسدت له صناعة جرب أخرى ومع ذلك فقد كان رزقه وسطا ولكنه كان راضيا به لا يحسد أحدا ، فقد كان يقسم الناس الى قسمين قسم أقل منه حالا وآخر أعلى منه حالا .

أما القسم الأول فكان ينظر اليه بعين الرأفة ويواسيه بما عنده . وأما القسم الثاني فيرى نفسه أحسن حالا منهم لانه ليس مشغولا بمشاغلهم فلا يتعب ذهنه في تصريف المال والحفاظ عليه .

ولئن تفوقت عليه هذه الفئة في نوعية الطعام والملبس والسكن فهو دائما يتذكر بأن هنالك خادما محروما يعد لهم الطعام وقد يدفعه حرمانه الى أن يهمل النظافة مما يجلب لهم السقام . أما زينة اللباس بالنسبة له فليست بشيء لان قيمة الانسان فيما يحسنه لا فيما يلبسه وغاية ما يلزم هي النظافة فان تم التزين بالثياب فخير وان لم يتم فلن يحدث ضرر .

ولا شك في نظره ان اتساع المنزل ووفرة الزوجات أكثر لذة ولكن ذلك يصحبه تنغيص للحياة لكثرة ما يحدث بين النساء من مشاحنات ومنافسات .

٥٩ - المقامات الفكرية ص ٣١١

ذلك هو القدر الذي وجدناه من هذه المقامة ونرجح أن الجزء الباقي ينضمن نظرة (البطل) إلى الحياة ثم مقارنة بين الحالين . والمقامة تشارك سابقتها في الخصائص الأسلوبية إذ أن الأسلوب القصصي يغلب عليها ومع ذلك فإن بناءها بذكرنا بأسلوب المناظرة والمقارنة الذي وجدناه عند بعض المقاميين السابقين كالشيرازي . . .

### المقامة الثالثة : المقامة الفكرية في المملكة الباطنية<sup>٦٠</sup> :

أما المقامة الفكرية في المملكة الباطنية فلا تنحج إلى ما جنحت إليه سابقتها فهي تشبه إلى حد كبير تلك السياحة الفلسفية التي قام بها إبراهيم شميل في مقامة الأوهام لاستكشاف المعرفة الحقيقية عن هذا العالم . كما أننا نجد فيها نفساً من مقامة طيف الخيال للشيرازي الأتمة الذكر .

ذكر الأستاذ عبد الله فكري في مقدمتها<sup>٦١</sup> أنه وقع له في بعض أسفاره إلى القسطنطينية أن وجد كتاباً لطيفاً باللغة التركية يعرف (بالمملكة الباطنية) وأصله من لسان أجنبي نقله إلى اللغة العربية في شكل هذه المقامة بعد أن أضاف إليه شيئاً من عنده لم يخرج به عن المطلوب .

وتبدأ المقامة كما يلي<sup>٦٢</sup> :

« حدثنا أبو المفال بن ذأكر عن الخيال قال فعدت أفكر في عجائب الزمان وغرائب عالم المكان وما في صنيع الرحمان من بديع الاحسان ثم ما للانسان مع فصاحة اللسان من المزايا الحسان ، وما منحه الله من تمييز وما اتاه سبحانه من عقل غزير وبصيرة تقوده إلى هداه ، وترده عن مهاوي هواء ثم اخذت أتأمل ما قيل في هذه البصيرة تأمل الناقد فذكرت ما قيل من انها في جميع أفراد العالم بقدر واحد وما قيل من انها تختلف في الانسان باختلاف الحال والشان والزمان والمكان ثم رجعت هذا القول على الأول » .

فهو مع افراره بالاختلاف البين بين الناس فإنه يرى أن كل انسان مزود بالبصيرة التي تحته على عمل الخير ونصعد به إلى مدارج الهدى ولكن يتوقف عملها حين تطغى عليها

٦٠ - المقامات الفكرية ص ٢٧٦ .

٦١ - نفسه ص ٢٧٦ .

٦٢ - المقامات الفكرية ص ٢٧٦ .

الشهوات والأغراض بل أن الانسان قد يسير في طريق معاكسة إذا ما تغلبت شهواته على بصيرته ومع ذلك فإن البصيرة لا تألوا جهداً في تصحيح العقل وكفه عن السلوك في مدارج الجهل أو الغواية فالعقل في المملكة الانسانية كالملك الكبير والبصيرة له بمثابة الوزير الناصح .

ولئن لم يصرح فكري بالكتاب الذي نقل منه فأننا نجد هذا الوصف متشابهاً مع رحلة الشيرازي في مملكة العقل مما يدعونا إلى الاعتقاد بأنه هو أو كاتب المقامة قد نظر إليها - فالسعيد في نظره هو الذي لا يغرق في الشهوات ولا يميل بالعقل بل يقصد به حد الاعتدال .

هكذا فقد شغله امر الانسان . . كيف يترك ما ينفع ويسلك طريق الضرر ؟

عند هذا السؤال يتجلى له شخص نوراني لا يشك في أنه ملك رباني يقول له : هون عليك فلا سبيل إلى حل هذا الاشكال الابسيحية في مملكة الباطن أو رحلة في النفس البشرية لاستجلائها .

وفي مملكة الباطن يرى الناظر عجباً لما فيها من تنازع الأهواء والغايات . هنا يتبدى للراوي ملك يدعى ( الفراسة ) يعرض معونته فيطلب منه الراوي أن يخبره عن هذه السلطنة فيقول<sup>٦٣</sup> :

« ليست كما تظن جمهورية وإنما هي سلطنة تحكم بالاستقلال والقائم فيها ملك روحاني يرسل إليها من لدن مالك الملك ذي الجلال .

والمقصود بهذه السلطنة الدنيا . أما الذي يحكمها فهو العقل .

ومن دستور هذه الدنيا ألا يحتجب الملك عن رعيته .

فطلب منه الراوي أن يقوده إلى هذا الملك بنفسه . . .

فسار في الطريق . . . والسير هنا رمز لطريق العلم . . .

حقاً لقد وجد كثيراً من العوائق امامه بنها الجهال في طريقه ليضللوه عن المكان الحقيقي للحاكم أو العقل .

٦٣ - المقامات الفكرية ص ٢٨١ .

ولكنه يصل في النهاية اليه فيرى عنده امرأتين تفيضان حسنا وجمالا والى جانبها جارية .  
فلما سأل عن خبرهن أخبر أن الأولى تسمى الاستقامة والثانية تسمى العفة والثالثة  
تسمى السلامة ، وأما في الجانب الآخر فتقف أخرى تسمى الشهوة الحيوانية فاستعاذ بالله  
من شرها .

وقد رأى في جانب آخر رجلا أهوج عرفته الفراسة ( بالغضب ) ثم الى جانبه الحسد  
فحب الجاه فالشع .

هكذا رأى الصفات كلها متمثلة في حضرة هذا الملك ، وهذه الصفات هي في واقع  
أمرها صورة للنفس الانسانية التي شبهها وكأنها مملكة عظيمة تتجاذبها نوازع الخير والشر  
أما المتحكم في كل ذلك فهو العقل المشدود الى البصيرة المتبذلة . . . فهو الذي يقرر  
للانسان طريق سيره اما في الحق واما في الضلال .

وكما نرى فان المقامة رحلة خيالية لا نشك في انها تأثرت الى حد كبير بأسلوب رسالة  
الغفران ورسالة التوابع والزوابع والكوميديا الالهية الى جانب مقامة طيف الخيال  
للشيرازي ، ولعل الرمز قد تحكم في أسلوبها تحكما كاملا وبذلك اختلفت عن مقامات  
فكري المؤلفة .

### ٣ - مقامات الأوهام في الآمال والاحكام

لأمين ابراهيم شميل<sup>٦٤</sup>

١٨٢٨ م - ١٨٩٧ م

معروضة لاعتاب معالي محمد صادق باشا مدير توتس المفخم

لم يكتب امين ابراهيم شميل هذه المقامات شغلا للخاطر ، أو تحديا للقرينة كما فعل  
كثير من المقامين قبله يقول<sup>٦٥</sup> :

« هذا الكتاب الفته جعلت موضوعي فيه الانسان وضمته خمس مقامات نشرها يشرح  
آماله وأحكامها من حيث خلقه البديع ففرضت ان الازلية هي ام الجميع وبالجماد العقل  
والجهل معها على نوع مجازي تولدت عن ذلك الصفات الممدوحة والمذمومة مشخصا كل  
هذا تشخيصا مجازيا بقصد بيان قباحة ما كان قبيحا وحسن ما كان حسنا على نوع أدبي  
وأجبت على اكثر ما يطرا على الانسان من الشكوك التي تعزى للجهل بما القصد منه ازالة  
ذلك باجوبة عقلية » .

فمن هذا القول تبدو الغاية الرئيسية لهذه المقامات وهي التشخيص الفلسفي للبحاسن  
والمساويء في حياة الانسان ، وقد مزجها المؤلف بست وعشرين قصيدة تتضمن ما يقوله  
بور العقل الشخص في وعظ الانسان في كل مرحلة من مراحل حياته السبع وما يكون عليه  
الانسان بحسب طبعه وميله من البلاء والزهاء والدماء والرشاقة والذكاء وقد ضمن ذلك  
كله حكما وأدبا وافادات دينية وملكية ولم يكن موقفه في التشخيص محايدا بل كان في  
الواقع منحازا لكل القيم العليا التي تقوم على الحق والعدل والفضل فهو يرى في هذه القيم  
الوسيلة الوحيدة لتقوية الضعف في الطبيعة البشرية .

#### المقامات :

تسمى المقامة الأولى ( المقامة العلوية ) نسب روايتها الى الهادي عن أبيه العقل وتبتدىء  
بالاغتراب ولكن الاغتراب في هذه المقامة ليس اغترابا حقيقيا بل هو سياحة في أرجاء

٦٤ - انظر المبكر دار الكتب رقم ١٦٨٠ خصوصي .

٦٥ - نفسه ص ٢ .

المعرفة<sup>٦٦</sup> يقول :

« روى الهادي في ما ثبت النقل عن أبيه العقل قال حملني حب الغرائب والاخبار على تعاطي الأسفار فشددت رحل الامل وامتطيت جناح العجل فانحذت أقطع مسافات الافاق واقلب طرفي في عجائب الخلاق ، فكنت كلما قطعت من مسافة جزئية تنكشف امامي أعمال كلية فخرقت بجواري خلاء الحجاب الدوار ودخلت الى فلك العوالم والأنوار فمررت بطريقي على عالم القمر ، وهناك ارحت قليلا مطايا السفر » .

انها اذا رحلة العقل في هذا العالم العجيب . . رحلة يريد أن يستكشف من ورائها كنه المعرفة الحقيقية بالطباع . . ولكن من يذله على الحقيقة ؟ !

لقد من بمنخلوق سعيد فاخبره بأنه رقيب على هذا العالم الأمين بأمر الله غير انه لا يعرف من سره شيئا لانه يستمد نوره من عالم أكبر ليضيء به عوالم اخر . هنا تبدو الدهشة في عيني الهادي الذي ظن في أول امره انه قد أمسك بالخيط الذي سيوصله الى كنه الحقيقة ولكن هيهات . .

ان هذا المخلوق لا يعرف عن عدد العوالم الاخر شيئا ، وكل ما يستطيع أن يذله عليه هو التوجه الى عالم أكبر من عالم القمر هو عالم الشمس .

عندئذ يخوض الهادي تجربة قاسية بين الشهب ليصل الى عالم الشمس<sup>٦٧</sup> ويقول في ذلك :

« واذا يكائن جليل وقف أمامي وسألني عن مرامي وهيامي فقلت اني حاضر من بلاد بعيدة بقصد الخبرة والخبر وقد أوصلتني دواعي القدر الى حيث تراني أجهل مقامي ومكاني فقال باسمي ثم صاح عالما فانك لست أول من بحث ولم يعلم واقتحم الأخطار ولم يسأم فيها هو لعمرى غرضك من هذه المخاطرة وهذا الاصرار والمكابرة » .

وتنكشف الحقيقة عن عجز عالم الشمس عن ادراك كنه الحقيقة فيذله على عوالم أخرى كزحل والمريخ والمشتري . ونرى عند المؤلف استطرادا في الحديث عن الناحية الفلكية ولكن ذلك لم يخرج من الفكرة الاساسية وهي البحث عن الحقيقة .

٦٦ - انظر المبتكر دار الكتب ص ٣٩ ( رقم ١٦٨٠ حصوي ) .

٦٧ - انظر المبتكر دار الكتب رقم ١٦٨٠ حصوي ص ٤٢ .

هكذا تتوالى الرحلة من سماء الى سماء ومن عالم الى عالم فيجد فيها تسلسلا غريبا في المعرفة ليس ثمة عالم يملك الحقيقة كلها بل لا بد له أن يستمد معرفته من عالم آخر وهنا وقف الهادي حائرا لينشد<sup>٦٨</sup> :

رب اني اتيت اطلب علما من غنى فضلك العميم وحلما  
لا تذرني أعود اجهل بما جئت لما تركت دارا واما

فاقتبلني علوت قدرا وحكما

فيجيبه صوت خفي<sup>٦٩</sup> :

« طب نفسا أيها الجهول فاني ساجعلك مديرا لعالم أوجدته جديدا وفيه جعلت خلقا عديدا واني ساجعل ابليس والمادة عدوين لك ليظهر صدقك وفضل مسعاك  
ثم الى الجنة بنفس ابليس فاستسلم لنوم عميق من أثر الخبطة وحين استيقظ وجد ابليس قد اغرى ادم بالاكل من الشجرة المحرمة » .

وهكذا يعود البطل من رحلة العقل بلا شيء ليصبح في النهاية موطئا للصراع بين قوى الشر والخير بعد أن ارتد من عالم الأفلاك اللامتناهي الى عالم المحسوسات المجردة .

٢ ( وهذا الصراع هو موضوع المقامة الثانية ( الآدمية ) فقد روى فيها الهادي بن عقل انه بينما كان سائرا في مدينة الأزال قاصدا بلد الآمال يتردد في أذنيه ما وقع بين آدم وابليس في الجنان الأرضية ، وما اصاب الأول من شر الثاني فاذا به يرى شيئا سادرا في غيه فيسأله عن أمره فيقول<sup>٧٠</sup> الشيخ :

« يا صاح اعلم وفقت اني ضلال المشهور زرت الجنة لاضل ادم بالغرور وقد اكملت ذلك فاخرج منها الى الأرض والآن عدت انتظله فيها طولا بعرض لعلي اعوله بضلاي وانحفه بأمالي وأفعالي » .

حينئذ يكشف العقل عن هويته فيقول :

٦٨ - نفسه ص ٤٩ .

٦٩ - نفسه ص ٥٠ .

٧٠ - نفسه ص ٦٨ .

« وقد سمعت انك أضللت ادم فاخرج من النعيم بشرك فعدت اطلب الأرض لعل  
اصح شقاء غدرك »

فيرد الشيخ ضاحكا :

« اني والله وقعت على رقيق في مشقات هذه الطريق من لا يخشى ضرره ولا تهمني  
فكره » .

فتتم بينهما المرافقة في البحث عن آدم وفي خلال ذلك يكشف العقل عما في اخوته الفخر  
والمجد والصدق والاخاء من سعادة فيرد الضلال<sup>٧١</sup> :

انا الضلال وأبسى الجهل قديمة امي وخالي الشكل  
واخوتي ياس وكفر وأذى والكنذب والعجب كذاك المختل  
والشكر والوسواس والحر كله حزن وظلم وكذاك النفل  
والغمز والفسد كذاك حسد والعزل والحق ومنهم بخل

وحين يلتقيان بحفيد ادم يخبرهما بأن آدم قد مات وقد عفا الله عنه ثم يقول عن نفسه :  
« ولكني انا اكراه الضلال محلا فيه ذكر واني استعين برب آدم على كل ذي ضرر ومكر  
فليس لدى الشيخ المنتسب عندي خربة وانت يا هادي فكُن لي عليه رقيق عصره » .

وقد أثار هذا القول حفيظة الضلال فاستشاط غضبا وتوعد الانسان بالويل والنبور  
فتدخل الهادي ليوفق بينهما فيمال اليه الانسان يخبره أنه لا يخاف من مثل هذا الكاذب ،  
عندئذ يطلب الهادي من الضلال ان يرحل فيرحل ثم يشرع على الفور في تهدئة غيظ  
الانسان مدخلا فيه الأمل بضرورة عودة آدم مرة أخرى الى مقام الشرف والفضل فيشكره  
الانسان وهو ما يزال منفصلا بغيظه ينتظر لحظة الانتقام :

### ٣ - المقامة الضلالية :

ويتصل موضوع المقامة الثالثة الضلالية بموضوع المقامة السابقة فنرى الهادي يبدأ الرواية  
من لحظة انصراف الضلال ، وكانت الحكاية قد بلغت اخوان العقل وهم الذكاء والصدق  
والرشد والحق واليقين ، وبلغت في نفس الوقت اخوان الضلال وهم الشك والكفر

٧١ - انظر المبكر دار الكتب رقم ١٦٨٠ خصوصي ص ٧١ .

والكذب والرياء والسحر . فانطلقت جحافل الضلال واخوته الى بني الانسان فأحسن  
الناس اكرامهم ، ولكن سرعان ما جاء الهادي واخوته وكشفوا عن زيفهم فلم يستسلموا  
بل طالبوا بالمناظرة بين الجمعين وقبل الهادي وجماعته هذه المناظرة الجريئة .  
ولكن المناظرة ارجئت حتى المقامة الرابعة الشكوكية .

### ٤ - المقامة الشكوكية<sup>٧٢</sup> :

يبدأ الشك في هذه المقامة بتوجيه خطابه الى الذكاء قائلا : « ما قولك في الوجود هل هو  
ازلي أم محدث موجود ؟ »  
فيقول الذكاء :

« الوجود نوعان : ازلي ومحدث مع الزمان فالازلي مطلق ولا يوصف بالقدم والثاني فعله  
وضده العدم » .

وهكذا تتراوح الاسئلة عن المادة ثم المراد بواجب الوجود حكما والحياة وأقسامها المبتغاة  
وأشكال المخلوقات الحية والمعروف من هذه الجنسية .

وعلى الرغم من أن الاسئلة كلها كانت ذات طبيعية شكوكية فإن الذكاء قد تصدى لها  
وأجاب عليها اجابات مقنعة فاضطر الضلال وجماعته الى اخلاء المكان ، ولكن سرعان ما  
تكشف للهادي وجماعته أنه على الرغم من مبارحة جحافل الضلال بجسومهم فإن سحائب  
الشك التي اطلقوها قد أخذت تحوم فوق الرؤ ومن

لقد وضع المؤلف في هذه المقامة ثلاثة وثلاثين سؤالا شكوكيا كلها مما يمكن أن يقع في  
عقل الانسان حتى وكأنه أراد أن يقول بهذا وما نفع أن يكون الحلال بين والحرام بين اذا  
كان بإمكان الشك ان يدخل الى عقل الانسان في كل لحظة ليفسد الحقيقة .

### ٥ - المقامة الطفلية<sup>٧٣</sup> :

اما في المقامة الطفلية فانه ينتقد ظاهرة الاعتناء بالذكر في بلاد المشرق مع اهمال الاناث  
وقد تضمنت محاولة طريفة بين الضلال الذي يربي ابنته ليجعل منها فتنة وبين الهدي الذي  
يربي يتيما ليجعل منه رشيدا عاقلا .

٧٢ - انظر المبكر دار الكتب رقم ١٦٨٠ خصوصي ص ١٣٢ .

٧٣ - انظر المبكر دار الكتب رقم ١٦٨٠ خصوصي ص ١٤٠ .

## خاتمة وتعليق :

وكما نرى فإن هذه المقامات على اختلاف وقائعها فانها متصلة أشد الاتصال ببعضها بعضا . فقد جعل المؤلف من الانسان الموطن الذي تتنافس فيه قوى الشر والخير ، وقد رمز الى الأولى بالضلال ، ورمز الى الثانية للعقل .

ومؤدى فلسفته ان في الحياة أشياء لا يستطيع الانسان ان يصل الى كنهها الا بالذكاء وهو وحده القادر على التمييز بين الخير والضلال ولكن الذكاء لن يفيد كثيرا اذا لم يعمق بالايان . ذلك أن الشك وهو اعدى اعداء الانسان مشغول بتزييف الحقائق الماثلة امامه .

وهكذا أراد المؤلف أن يعبر عن فكرة فلسفية ، في أسلوب مقامي جعل فيه الراوية رمزا للعقل والخير ثم جعل من الشخصية الشبيهة بشخصية البطل في المقامات الهمدانية رمزا للضلال . ولعله قد وجد في البناء القصصي مساعدة كبيرة في تطويع ما كان سيعترضه من جفاف التقرير لو انه عالج الموضوع معالجة مقالية .

لقد خللت هذه المقامات من أساليب الصنعة البيانية المعقدة وذلك بسبب استغراق الكاتب في توضيح افكاره الفلسفية والتركيز عليها . وقد وجد في الحوار مجالا اخر لاشاعة الحركة وتهيئة الجو الدرامي . وعلى الرغم من ان البناء القصصي لم يتبلور على نفس المستوى الذي رأيناه من قبل عند المولحي ، فان الترابط المحكم بين المقامات بأسرها من أجل بلورة الفكرة الاساسية يشبه الى حد كبير ذلك الترابط المحكم الذي يوجده القاص بغرض بلورة الحبكة التي تقوم عليها قصته .

## ثالثا : المقامات ذات النزعة المقالية

١ - مقامة الاديب الرئيس الشيخ حسن العطار في الفرنسيين<sup>٧٤</sup>  
تلك مقامة ألفها الشيخ حسن العطار استاذ رفاة رافع الطهطاوي المتوفى سنة ١٨٣٤م . واهمية المقامة لا ترجع الى كونها قصة مقامية ذات مضمون بل لانها تعكس ايضاً صورة للعقل العربي في لحظة من لحظات الضعف الكبرى . تلك اللحظة التي بدأ يستشعر فيها روح هذا العصر وثقافته فاذا به يقف مذهولا امام مظاهر عادية وجد عليها الانسان الأوربي .

يقول : انه لما ازعج الفرنسيون الناس في يوم الثلاثاء فزعوا الى الشوارع ففرع معهم لا يدري اين يكون قراره ولكن القدر المحتوم ساقه الى سور الازبكية فوجد نفسه وجها لوجه أمام ما كان يحشاه غير ان الروع لما يجالجه لان أهل هذه المنطقة كانوا مسلمين ولم يتعرضوا للفرنسيين ، وقد كان يسمع من أهل العرفان ان الفرنسيين لا يشددون الوطأة الا على من يجارهم . ذلك انهم على حد قوله<sup>٧٥</sup> :

« قد شربوا حب العلوم والفلسفة وحرصوا على اقتناء كتبها وإعمال الفكر فيها . . . يبحثون عن له بها المام ويتجادون معه بأطراف الكلام » .

وقد رأى منهم فتية : « برزن كالشموس وهن يتأيلن تمايل العروس بوجوه سدل الحسن عليها جلبابه وقد صير رماح القدود اعلاما حين أرخى عليها ذؤابه فهي راية تتبعها من العشاق أجناد وتميل معها حيث مالت مع الهوى في كل دار فتطلعت اليهن تطلع الهائم الى الورود ووقفت انظر الى حسن تشنى تلك القدود ففطن مني مارمته وعرفن المعنى الذي قصدته فمال الى الجميع وابتدأن بالتحية علي واراني فتى منهم كتابا وجدد معي كلاما وخطابا فاذا عربيته خالصة من اللكنة والفاظه معراة عن وصمة الهجنة » .

هكذا . . . لم ير الراوي في هؤلاء الفرنسيين جنودا يذنبون أرضه بل رأى فيهم جمالا ورواء ورسل علم أتوا يحملون له الخير وحين يخبر أحدهم انه جار بهم ألم ينشده الفرنسي على الفور أمن تذكر جيران بذي سلم وكان قد نقلها الى لغته الفرنسية . انه في بلده ويعتبر نفسه جارا للفرنسيين واخيراً يسفر اللقاء بينه وبين الفرنسي عن دعوة توجه اليه ليحضر الى بيت الفرنسي كي يرى ما اشتملت عليه مكتبته من الكتب :

٧٤ - ضمن مجموعة المقامات البهية السبوتية وما الحظ بها من النوادر الادبية صححها السيد صالح الباي في شهر ذي القعدة سنة ١٣٧٥ .

٧٥ - نفسه ص ٩٢ .

« فذهبت الى المكان الذي اعدته للمبيت وعلمت اني بحسنه ذهبت فتجركت مني صبرة تقادم عهدها ، وتقوت عندي نشوة أدب كان قد ضعف اودها وطفقت طول ليلي سهران وأنا لرؤية الصباح كالولهان وحملي عدم النوم والثبات أن أنظم فيه أبيات فقلت :  
من الفرنسيين ظني سحضر مقلته عند المحب له في القلب تأسيس  
وفي اليوم التالي يلتقي الراوي بصحبه الفرنسيين يتجادب معهم أطراف الحديث عن الأدب واللغة فأروه كتباً في العلوم الرياضية والهندسية والفلكية والأدبية مما أثار إعجابه وقد دهش حين رآهم يهيمون باللغة العربية وعلومها وأدائها على نحو لم يكن يتصوره فنشأت بينه وبينهم صداقة علم ومعرفة تقبلها بالمديح والثناء . وكانوا هم في ذات الوقت يطربون لأشعاره ويهيلون عليه المدح والثناء بل ويطلبون منه ملازمتهم ولكنه يتذرع<sup>٧٧</sup> بالاعتذار خوفاً من القيل والقال . يقول :

« فسوفت في الاجابة واضمرت على عدم الانابة علماً بأن هذا امر تفوق على منه سهام الملام وترمقني بالعداوة والاحتقار لاجله كافة الأنام فرجعت لرشدي اقتفيه واستغفر الله مما كنت فيه » .

إذاً لقد عاد البطل الى رشده مرة أخرى ورأى الحقيقة ناصعة امام غيبه . ولعله بهذه العودة قد هدف الى اظهار الغرض الأساسي الذي رمى اليه الشيخ حسن العطار من تصوير الواقع العربي في لحظة من لحظات الضعف الفكري .

والمقامة كما نرى أشبه باللمحة العابرة التي تقدم لنا صورة من صور المجتمع . فهي تقف في مركز وسط بين المقامة الكلاسيكية وبين فن القصة المعاصر . ذلك أن أطراف الصورة لم تتجمع وتشابك بحيث تخلق حبكة فنية متكاملة كذلك فإن الكاتب لم يتقيد فيها بعناصر المقامة التقليدية تقيداً كاملاً . فهي مقامة لأن الراوي يحكي فيها لقطة من واقع مجتمعه يستخدم فيها الصنعة اللفظية ، وهي تتحرر من فن المقامة لأنها لا تنجح الى تصوير غط سلوكي من خلال شخصية لها مقومات شبيهة بمقومات أبي الفتح الاسكندري ، بل تنجح الى تصوير ظاهرة اجتماعية كاملة من خلال سلوك عدد من الشخصيات ولذلك فإننا نميل الى اعتبار هذا اللون من المقامات صوراً قلمية أو مقالات قصصية .

٧٦ - نفسه ص ٩٤ .

٧٧ - نفسه ص ٩٦ .

## لابراهيم المويلحي

نشر هذا الحديث في حلقات ثلاث في جريدة مصباح الشرق تحت عنوان مرآة العالم وقد كان بمثابة الافتتاحية لهذه الجريدة الاسبوعية ومكانه نفس الموضع الذي نشرت فيه أحاديث عيسى بن هشام التي توقفت خلال نشر هذا الحديث . ولم يذكر المؤلف انه أراد أن يؤلف بهذا الحديث مقامة ، على الرغم من انه انتهج اسلوباً شبيهاً بأسلوب المقامة علم غرار احاديث ابنه المنشورة بعنوان حديث عيسى بن هشام . والواضح أن المويلحي اراد أن يستخدم الشكل المقامي كافتتاحية ينقد من خلالها الواقع الاجتماعي والسياسي في أسلوب صحفي . ويأتي نشر هذا الحديث في الوقت الذي بدأت تتفكك فيه الخصائص المجتمعة في المقامة ليستقل كل منها بنوع خاص من أنواع الأدب - كفن القصة والمقالة - فلم يعد الاديب بعد مرحلة هذه الأحاديث بحاجة للتقيد بالديباجة المقامية كي يعبر عن نفسه تعبيراً أدبياً ، اذ أصبح بإمكانه أن ينقد الواقع الاجتماعي والسياسي نقداً مباشراً عن طريق كتابة المقالة كما أصبح باستطاعته أن يصور نفس الواقع تصويراً فنياً عن طريق القصة ذات الاصول الحديثة .

## حديث موسى بن عصام .

يبدأ المويلحي حديثه بالارتحال . يقول :

« حدث موسى بن عصام قال نشأت وما انحنت مني الاضلاع على آخر من حب الاطلاع فكنت استقطر الاخبار من أفواه الناس واستقري الآثار من كل الاجناس واستطلع الأنباء واستقصي الأشياء واستبطن الأحوال واستظهر ضمائر الرجال فما تركت من أترابي ولا غادرت من أصحابي من تخطئني سيرته أو تخفي على سريره وما سمعت بشيء الا علمته ولا عثرت على أثر الا ترسمته » .

وعلمت حتى ما اسائل واحداً عن علم واحد لكبي ازادها  
وما زاد في شغفي وضاعف من متايعة الارتحال ومزاولة الانتقال حبا في الاختلاط قوله تعالى ( قل سيروا في الأرض ) .

٧٨ - اعداد جريدة مصباح الشرق رقم ٦١ / ٦٢ / ٦٣ عام ١٨٩٩ - دار الكتب .



ونراه بعد ذلك يتبع هذه المقدمة بحديث عن فائدة الاسفار وما تجلبه لصاحبها من النفع بزيادة حصيلته ومعرفته لقد ذهب الراوي الى السوق فاشترى دابة قطع بها القفر بعد القفر والبحر بعد البحر .

يقول :

« وبينما نسير في عرض اليم ونخوض عباب ذلك الخضم اذا بالاعاصير قد هبت من رقادها وصيرت الامواج من أجنادها فحمي بينها وبين السفينة وطيس الهيجاء ولم ينفع اشتئنا بالراية البيضاء »

انها نقله مفاجئة اخلت ببناء المقامة ولا ريب .

اذ كيف انتقل من الدابة الى السفينة بهذه السرعة دون أن يلمح الى ذلك .

المهم فقد غرقت السفينة وألقى به اليم الى جزيرة خالية مثنى في أرجائها لا يدري الى اين يتجه . وفي آخر أمره يلمح شيخا قد انحنى ظهره وبدأت آثار التقوى على جبهته .

فخاطبه الرجل : ما خطبك يا ابن عصام بعد أن كتبت لك السلامة ونجالك الله من الغرق . فعجب ابن عصام كيف ناداه باسمه وانس فيه الولاية . فسأله ابن عصام ان يخرج به من هذا الكوكب ويأخذه الى السماء حتى يرى هذا العالم على حقيقته من البعد كي يقول للمسيء مسيئا وللمحسن محسنا . فيخبره الشيخ بصعوبة مطلبه ، ولكنه يوافقه على ان يأخذه الى مكان أقرب فيذهب معه ابن عصام الى مكان مرتفع حيث يسأله الشيخ عما يراه ؟

فيجيب ابن عصام بأنه لا يرى شيئا .

عندئذ مسح على عينيه فيصبح قادرا على رؤية قوم حافين يسترون بشوب كطيف الشمس ويقبض كل منهم على هذا الطيف فيسأل البطل الشيخ عنه فيقول : انه الأمل .

ثم يقع نظره بعد ذلك على شخص عظيم تتكاثر الناس عليه فيخبره الشيخ انه الباطل . والى جانبه شخص نحيل يجبره انه الحق .

ولقد وقع ناظراه على رجلين آخرين يعذبان الناس جميعا أغنياءهم وفقراءهم فيخبره الشيخ انهما الألم والسأم .

عند هذه النقطة يختم المولى يحيى حديثه الاول .

وأما في حديثه الثاني فيرى الراوي بعض الناس يدقون الباب على أحد الأغنياء وهو لا يفتحه خوفا ان يكونوا من الفقراء ، فلما ألحوا عليه فتحه فوجدهم جماعة من سراة القوم . فظهر بشاشة بلقائهم ففاجأوه بانهم يكتبون لاعانة الجيش فيعتذر بأنه لا يريد أن يكتب اسمه بالجرائد فيظن ذلك من كرمه وتواضعه ولكنه يفاجئهم بأنه لا يعرف مصير هذه الاموال التي تجمع الى أين تذهب .

فيخرجون منه بخفي حين فيقول أحدهم في لهجة فكهة :

« تالله لو كانت الوقعة وقعة بدر وجاء العشرة الكرام البررة يستميحون بره ويستجدون خيره في ثمن قوس أو رمح لما فازوا منه بأكثر مما فازنا ولا عادوا الا بالحية كما عدنا » .

عندئذ يقود الشيخ موسى بن عصام الى موقف يتناظر فيه الحكيم مع الغني يقول فيه الحكيم ان الغني غني الارادة فيستنكر الغني ذلك ويقول ان هذا القول غلة يتعلل بها الفقراء ولكن هل تنفع في قضاء الحوائج .

ويكون هذا الموقف نهاية للحديث الثاني .

وأما في الحديث الثالث فيخبر ابن عصام انه رأى رايتين تخفقان على اطلال أم درمان . فقال للشيخ : اتشرك يا مولاي دولتان في الحكم على بلد واحد وهل يجمع في غمد سيفان ويطلع في أفق قمران .

فيخبره الشيخ ان الحكومتين اشتركتا في الحرب على السودان وحق لهما الاشتراك في الحكم . فيسأله ابن عصام عن جيشهما المحارب فيشير الى بعض الجموع فيرى ابن عصام قوما من السمر يعملون في الأرض وآخرين في الجسور وغيرهم في قطع الصخور وسواهم في بناء القصور ومنهم الحاملون لقضبان الحديد أو الغواصون لبناء القناطر والناقلون لمحمول السفن والغارسون للشجار في الحدائق والساحبون للسفن في الشلالات ويرى الى جانبهم قوما من البيض يتفياون الظلال ويأتيهم رزقهم رغدا من كل مكان وآخرين من السود معهم على طرف من هذا النعيم ولذة العيش الرحيم فالابيض كالأبيض في غمده والاسود كالاسود في وكرة والعامل هو الأسمر .

فيسأل ابن هشام الشيخ عن هذه القسمة والتفرقة .

لماذا انفرد السمر بالكد والشقاء وامتاز غيرهم بالرخاء : انه سؤال يستنكر فيه الوضع الذي رأى فيه المصريين بالسودان .

لقد صور الموبلحي في هذا المشهد موقع العمل في بناية سراي الحاكم العام بالسودان وهو مشهد أراد به النقد السياسي اذ كيف يجوز أن ينفرد المصريون بالكد والعمل ويتميز الانجليز بالرخاء والراحة مع أن القومين شركاء في حكم السودان .

لقد رأى الموبلحي ان المصريين بنوا بهذا الصرح شواهد سخرتهم بأيديهم ، ولو علموا ذلك لهدموا هذه الشواهد .

### خاتمة :

لا ريب ان هذا لون جديد من الادب المقامي في عصر ظهرت فيه المقالة النقدية . فقد استخدم المؤلف المقامة استخداما مباشرا لتعني عن الحديث الصحفي بهدف النقد وتوعية المجتمع .

ونلاحظ أن الكاتب لم يركز على الصنعة اللفظية بل استخدم أسلوبا سهلا يناسب انسياها .

وكما قلنا أول الأمر فان هذا اللون من الأدب المقامي كان يشكل نقطة البداية في تخصص أدب المقالة والقصة . وعليه فيمكننا تسمية هذا اللون بالمقالة القصصية لأن العنصر السائد فيها هو عنصر الفكرة وما السرد القصصي الا وسيلة لبلورة الفكرة وشد الأذهان . وهذا المنحى عكس المنحى القصصي الذي يغلب فيه البناء الدرامي القصصي ويسود على سائر العناصر الأخرى .

### ٣ - المقامة الشريفة في مزايا اللغة العربية

لمحمد أقندي شريف<sup>٧٩</sup>

أراد المؤلف بكتابة هذه المقامة أن يذكر مزايا اللغة العربية وبعض ما وعاه من دروسها عند استاذة حضرة حفني ناصف أملا في تقديمها هدية الى ناظر المعارف صاحب الغنوة علي باشا مبارك .

ونرى المؤلف في بدايتها بعد أن يخلص من زيارة بعض الاخوان تتوق نفسه الى المجلس الذي يتجادب فيه الناس أذيان المذاكرة فيتناولون كل علم بطرف . وهناك يسوقه الحديث عن اللغة العربية للكلام في مسألة الارتباط المتين بين اللغة العربية والكتابات المبين . وهي مسألة كثرت جولاتها في صدره . وقد انقسم المجلس فيها الى قسمين قسم يؤكد وجود الرابطة بين اللغة والقرآن وقسم ينفيها .

عندئذ ينبري لهم مشفقا من جهلهم فيخبرهم ما كان من تفرق القبائل العربية في الجاهلية وما كانوا عليه من اختلاف اللسان ، ثم كيف نزل القرآن ليوحد بين الألسن على لغة قریش فزال اللبس وتوحدت وسيلة التخاطب . ثم ما كان بعد ذلك من تعقيد اللغة بعد أن اختلط العرب بالعجم وذلك على طريق القرآن .

وقد أفاد القرآن العرب في خطبهم وفي صلواتهم وفي سلوكهم فحفظوه لتلك الاسباب وبذلك تعلموا نطق الجمل الصحيحة والكلمات الفصيحة .

وفي آخر أمره يخلص ليقول<sup>٨٠</sup> :

« فلا عجب اذا رأينا اهل البلاد المصرية مستغنيين عن تعلم كثير من القواعد الصرفية اذ لكل بلد ضرورات مخصوصة وعادات في التعلم منصوبة فمهما بذل أهل البلاد الأخرى جهدهم في احكام النطق بالمفردات واتقان اللهجة وتحسين اللفظ بالعبارات لم يبلغوا درجة في تعديل اللسان تعادل درجة المصري الذي يقرأ القرآن ولو كان ممن لا يفقه له معنى ولا يقيم لقواعد العربية وزنا بل قد يشمل ذلك بعض العوام الذين هم عن الفصاحة مبعدون

٧٩ - طبعت بالمطبعة الاميرية بجمالية مصر ١٣١٦ هـ .

٨٠ - المقامة الشريفة في مزايا اللغة العربية ص ٧ .

والحق على الدوام متبعون فلا شبهة بعدما ذكرته في أن القرآن أفاد اللغة العربية فائدة عظيمة .

فاذا خُص من هذه القضية ذكر المزايا التي تنفرد بها اللغة العربية واللغة في رأيه رابطة لشعوب مختلفة من الخلائق في المشرق والمغرب مختلفة في لسانها الدارج وانها وسيلتهم الى العلوم والتأليف .

ومن مزايا هذه اللغة في نظره استنباط تاريخ الاسلام وهي أوسع من غيرها من اللغات بل وافصحها مقالا وأرحبها مجالا في النظم والنثر يمكن أن يؤتى فيها بدرجات من الاسهاب والاطناب .

ومن مميزاتها الكبرى في نظره انها غير قابلة للانعدام كغيرها من اللغات ذلك انها لغة القرآن فمن أراد حفظ دينه فلا بد له من أن يبقى على لغة الكتاب الذي تقوم عليه أصول دينه .

يقول<sup>٨١</sup> :

« فلما أذعن الجماعة لنبلالة هذه اللغة وجلالة أمرها وابتغوا بارتفاع شأنها وعظم قدرها . . . قالوا ما بالها محقورة الذمام مهجورة الاحترام بين الذمام . . . فهل يرجى أن يرجع لها شأنها ويقوى بعد هذا الضعف سلطانها فقلت نعم ذلك قريب الحصول بل لا بد أن يتحقق المأمول » .

وسينم ذلك بكل تأكيد من وجهة نظره في عهد تآطر المعارف المذكور سابقا فقد كتبت المقامة ليخلص مؤلفها في آخرها الى مدحه .

وكما نرى فان هذه المقامة تشبه الى حد كبير المقالة الأدبية .

٨١ - نفسه ص ١٢ .

#### ٤ - سنوح الأفكار لعلي مبارك<sup>٨٢</sup> :

مؤلف هذه المقامات هو العلامة الوزير علي باشا مبارك بن سليمان بن ابراهيم الرومي ولد باقليم الدقهلية عام ١٢٣٩ هـ وتوفي بالقاهرة سنة ١٣١١ هـ .

تبدأ المقامة الأولى بمقدمة يخاطب فيها المؤلف نفسه ويطلب من خاطره أن يتخير له من خزائن الادخار احسن ما في الاخبار فيواتيه الخاطر بكل ما وعاه من الشباب الى الشيب فلا يجد في الأحوال مزية تليق بالأغراض الوقتية فيناجيه سمير الكمال ان من<sup>٨٣</sup> « شأن هذه الدار ان لا تثبت على قرار بل هي ظل زائل وخيال حائل تفر وتكر . . لا تفي بما تعد ولا تبقي على احد متلونة تلون الحرباء راكبة في الغي جواد الصهباء دار اصار واخطار ومحل دمار » .

وعلى هذا النحو تسير المقدمة في ذم الدنيا ، عندئذ تفيء النفس الى رشدتها فتطلب من سمير الكمال أن يزودها بمزيد من العظة . فيقول<sup>٨٤</sup> :

« يا نفس اعلمي وتأدبي وتعلمي وصف المكارم والكمال كي تكتسي حلال الجلال فلقد خلقت لتعبدى مولاك علك تهتدي فكل فعل أو فعال فيه وصول واتصال فاسمي اليه وحصيله ابدا وجدي السير فيه ثم اعلمي علم اليقين ان الخلائق اجمعين حال التحرك والسكون لم تخل من سر مصون فتبقي تدرى الخفي من سر ذي اللطف الخفي بالقرب منه لا يكون كما يقول العارفون الا بقدر المعرفة فانها تعم الصفة ولئن تعودت الوقوف عند الظواهر والحروف لا تكمل بها تعدي عن العلو وترتدي ثوب العناء والهوان » .

وفحوى هذه المقدمة دعوة صريحة الى الانصراف عن الدنيا وطلب الكمال عن طريق المعرفة والعلم . ومنها يعرج على مقامته الأولى وموضوعها الجهل والعلم .

#### المقامة الأولى :

إنها تحكى قصة حلم ، فبعد أن زهد الراوي في هذا العالم وترك كل شيء فيه طرق عليه منامه طارق أخذه الى مكان مرتفع تمكن أن يرى الناس منه عراة كأنهم وحوش تسكن

٨٢ - دار الكتب المصرية رقم ٤٢٦ إياظة ٧٠٢٢ .

٨٣ - نفسه ص ١ .

٨٤ - نفسه ص ٤ .

الغابات يتواردون موارد المنافسة والهلاك وكأنه أراد بهذه الصورة الرمزية أن يجسم واقع المجتمع الذي يعيش فيه حيث يتزاحم الناس في الصغائر وينصرفون عن عمل الخير لأنفسهم ولغيرهم فكان لا بد له وهو يرى هذه الرؤيا من أن يتساءل عن سر هذا الانصراف العجيب فينرد في مسمعه صوت يقول<sup>٨٥</sup> :

« اني مالك لنواصبيهم وساكن في صياصبيهم وأنا خيرهم ومديرهم ومشيرهم وأميرهم ألهمهم ما يقولون وأمرهم بما يفعلون قيدتهم بقيودي وقهرتهم بجنودي فلا يخالفون أمري ولا يخرجون عن أسري أدس فيهم أوهامي وابث فيهم أحلامي فما كسبوه مني وما جنوه عني فهم لي عبيد بلا مال أسوقهم الى ما اشاء من الأعمال » .

فينكشف هذا الصوت عن الشيطان .

ولكن الشيطان مع جبروته يعترف بأنه يقف عاجزا أمام من يعابده انه يجهد لمواساته وملاطفته خوفا منه .

فاذا سأله الراوي عن سر الاختلاف في هذا العالم قال ان ذاك بسبب القرين فان له أخا يسير على غير نهجه ومن تبعه ارتقى في مسالك الهداية والنجاح .

فسأله الراوي فلماذا لا يكون كأخيه فيقول ان الأمر ليس بيده ومع ذلك فان له وظيفة هامة يؤديها فلولا ما يرى الناس من شروره ما تحفروا لعمل الخير واتباع أخيه .

وفي لحظة عابرة تتغير صورة الشيطان أمام الراوي ليظهر أخوه الذي حدث عن اتباعه فاذا<sup>٨٦</sup> « هم أهل العرفان والتقوى والايان عرفوا الله وعبدوه وشهدوه ما جمحدوه وهم عبيد وملوك كان لهم الوصول والسلوك . . . الالتحاق بهم قريب وبعيد بحسب توفيق المبدئ والمعيد فادراكهم سهل ممتنع وطريقهم مفترق ومجتمع » .

فاذا أتم وصفهم سأله الراوي أن يلحقه بأهل هذه الفئة وفي حركة درامية سريعة يرى الفضاء وكأنه ارتج ومناد يدعو بالفرج فينقش الظلام وتتسع طرق الفهم فيجد نفسه بين أناس طباعهم سليمة وأخلاقهم مستقيمة يعملون لما بعد الممات تحت شعار التسييح والتهليل فيمسه نور منهم فيتصور أنه دخل في زميرتهم ولكنه سرعان ما يرتد الى عالم

٨٥ - نفسه ص ٥ .

٨٦ - نفسه ص ٩ .

الحقيقة فتنهمر عبراته وتغلبه زفرائه من فراق هؤلاء الأحياب فيلحقه ما يلحقه من الذبول والضرر فيلاحظ الناس ما به من غم فيتعجبون له حتى يكشفهم بحقيقة خلعه .

وكما نرى فان المقامة تعبر عن تجربة صوفية يخرج بها المؤلف عن عالم المحسوسات الزائل المليء بالفوضى والاضطراب الى عالم الروح الثر والتجربة تشبه الى حد كبير تلك التجربة التي رواها الامام الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال حيث جاهد نفسه بالتقلب في مسالك هذا العالم واتجاهاته الى أن هداه عقله الى طريق التصوف الذي انفتحت له فيه نافذة النبوة كما يقول .

### المقامة الثانية :

اما المقامة الثانية فعنوانها ( الشيء من معدنه<sup>٨٧</sup> ) وهي لا تختلف في مضمونها العام عن المقامة الأولى وتستطيع أن تلخص فحواها في هذه العبارة التسي وردت على لسان الراوي<sup>٨٨</sup> .

« فمن مال الى الهوى ففي دركات البهمة هوى ومن رفع نفسه عن الغرض الأدنى فقد ارتفع الى المقام الأسنى ومن حاز الكمال فاز بجنان النعيم وذلك هو الفوز العظيم فلا يكون الفوز الا ببلوغ الكمال ولا يكون الكمال الا بمعرفة ذي الجلال ومعرفة ليست الا بمعرفة مظاهره وفهم أسرار باطن الكون وظاهره » .

وتكتمل التجربة الصوفية عنده في قوله :

« فاذا وصل الى مقام الشهود لم ير الا وحدة الوجود » .

### المقامة الثالثة :

كذلك فان المقامة الثالثة تخدم نفس الغرض وعنوانها ( غلبة العلم على الجهل<sup>٨٩</sup> ) ويروي فيها الراوي كيف حدث الانقلاب في نفسه ثم كيف زال ما بنفسه من السقام حين تم الامتزاج المطلوب .

٨٧ - نفسه ص ١٥ .

٨٨ - نفسه ص ١٦ .

٨٩ - نفسه ص ٢٠ .

يقول : « وبعد أن كنا في حالة انت وانا امتزجا فلم يبق الا أنا »

ويرى فيها أن الطريق الوحيد لمعرفة الله معرفة صافية لا تتم الا بالتجرد والعزلة ونقاء الباطن ثم الاستعانة بالعلم .

### المقامة الرابعة :

اما المقامة الرابعة عنده<sup>٩٠</sup> فمجمّلها وصف للأفلاك وأعمال الشمس وتقلب أحوال الهيئة .

### خاتمة وتعليق :

وكما نرى فإن هذه المقامة لا تسير على تصق المقامات الهمدانية بل تأتلف في سبط المقامات الصنوفية لأنها تعبر عن مواقف تجل وتدبر فحواءها أعراض عن العالم وشهواته وجهله ثم دعوة الى النظر في ملكوت الله وما تنطوي عليه الأفلاك والأجرام الطبيعية من أسرار ، فبمثل هذا النظر تتم المعرفة ويكمل العلم اليقيني وبذلك تتم وحدة الوجود في نفس الانسان فلا يرى هذا العالم مجزأ بل يراه متكاملًا مترابطًا .

وتتطلق فلسفة المؤلف من أن الناس لا يرون هذا الواقع الذي بينه لانهم مشغولون بمطامعهم الشخصية صارفون النظر عن العلم اليقيني ولو سلكوا سبيله لوضحت لهم الحقيقة ولانتقلوا من حالة الضجر والسأم الى حالة الصفاء والرؤية التي يغم بها السرور والانشرح .

### تعليق على هذا الباب :

لا يزال عدد كبير من الدارسين يواصل البحث من النقطة التي توقفت عندها . فيبحث عن أثر المقامة في القصة القصيرة . أو يبحث عن أثر فن المقامة في المقالة الأدبية . ولا شك ان الدراسة لو تحققت وفق هذا المنهج تكون قد رسمت صورة طريفة لتغلغل الفن المقامي في الفنون المعاصرة ، غير أن تحقيق هذا المنهج أمر عسير جدا مما يدعو الى التساؤل :

هل المقامة ذات طبيعة ايجابية قادرة على التأثير في غيرها من الفنون ؟ أم هي ذات طبيعة سلبية تقودها الى التفكك بمجرد أن تتبلور الأشكال الأدبية المشتملة فيها ؟

أو بوسعنا أن نضع السؤال بصورة أخرى :

هل هذه الأشكال المتطورة التي وجدناها في بعض الأحيان لهذا الفن في الأدب العربي الحديث<sup>٩١</sup> دليل على تطور حقيقي حدث في هذا الفن أم أن هذا التطور ما هو الا ضرب من التفكك حدث في بنية هذا الفن سيؤدي حتما الى تلاشيّه لتظهر الفنون الأساسية التي يشتمل عليها ؟ للإجابة على هذا السؤال :

أعود مرة أخرى فأذكر بقولي السابق . . ان المقامة ظهرت في وقت لم تتبلور فيه الاشكال الأدبية في الأدب العربي ولذلك فقد كانت تقوم بدور الفن القصصي والمقال في آن معا .

ولئن ظهرت الأشكال المقامية المتطورة بمظهر المؤثر في فنون القصة والمقالة المعاصرة فإنها هي في الواقع التي تأثرت بفنون القصة والمقالة الحديثة الوافدة من أوروبا وبذلك أخذت تفك عنها تلك القيود التي طالما التزمت بها لتذوب الى حد ما في هذه الفنون .

اما استمرار هذا الفن على نحو أو آخر عند بعض الكتاب المعاصرين كعباس الأسواني<sup>٩٢</sup> وغيره فليس دليلا على حيائه من جديد ذلك أن هذه المحاولات لا تعدو أن تكون مجرد شحذ للقرينة أو مداعبة للخاطر ولكنها لن تأخذ مكانها بصورة جدية في عصر المقالة والقصة القصيرة ناهيك ( بالكاريكاتور ) المصور الذي أقفل الطريق أمام فن المقامة .

٩١ - حديث عيسى بن هشام .

٩٢ - راجع مقامات الأسواني لمؤلفها عباس الأسواني .

خاتمة

## خاتمة

أما وقد فرغنا من كتابة الأبواب التي حددناها في منهج هذا الكتاب نعود لجمع المسالك المتشعبة التي سار عليها املا في وضع تصور شامل وأخير لما حققته هذه الدراسة ونوثر ما حققناه فيما يلي :

أولا :

كان طبيعيا أن تكون بدايتنا بتمهيد نحاول فيه وضع تعريف شامل للظاهرة موضوع بحثنا وهي ظاهرة المقامة .

ولم يكن مثل هذا التعريف بالأمر اليسير . ذلك أن الفن المقامي لم يتشكل كله في صورة واحدة بحيث يمكن اطلاق تعريف شامل عليه يحدد معاله .

فقد رأينا « الاصطلاح » ينطلق من أفق لغوي بمدلول محدد هو : « لغة المجلس » أو الحديث الذي يدور بين الجماعة أو مكان الحديث ذاته ثم رأيناه يطلق بعد ذلك على ألوان من القصص والمواظف نلقى على جماعة من الناس أو في حضرة ملك من الملوك يقوم بها أشخاص تخصصوا في هذه المهمة . واستمر الأمر على هذا النحو حتى جاء بدفع الزمان ومنح الاصطلاح مدلوله الفني فجعل المقامة نحا من القصة القصيرة ذات ديباجة متماسكة لها بطل وراو تدور وقائعها في اطار من التماسك الدرامي والصنعة اللفظية . وعلى الرغم من أن الصياغة البديعية قد اثرت في معظم المقاميين الذين أتوا من بعده فقد رأينا تصرفا واضحا في شكل ومضمون المقامة عند الكتاب المتأخرين مما يؤكد أن المقامة جاءت لتسد الفراغ الذي ظل سائدا في الأدب العربي القديم يخلو ذلك الأدب من فن القصة والمقالة بشكليهما الصريحين فقد ظل الكتاب المتأخرون يتصرفون في ديباجة المقامة حتى طرعوها للتعبير عن نزعاتهم في كتابة القصة والمقالة والمناظرة .

لأجل ذلك لم نشأ أن نكتفي بتعريف شامل للفن المقامي بل أثرنا أن نتبع الخط التطوري الذي سار فيه الاصطلاح ولكننا مع ذلك لم نترك الأمر دون تحديد بل أكدنا أن المقامة وإن اختلفت صورها فقد جمعت في داخلها عناصر كثيرة من فن القصة والمقالة والمناظرة وقد كان التفاوت بين هذه العناصر يختلف من كاتب لآخر .

٥٢  
دراسة نقدية  
سنة ١٩٩٢

ثانيا :

لقد ركزنا بحثنا في الباب الأول على دراسة أعلى وأقدم النماذج المقامية التي وصلت اليها وهي مقامات بديع الزمان الهمداني فظهر لنا ان الصياغة الفنية التي توصل اليها بديع الزمان في مقاماته لم تكن مجرد تقليد ساذج لاحاديث ابن دريد كما زعم بذلك الحصري بل كانت معاناة حقيقية لتجربة فنان عبقرى عانى من اضطهاد عنصري فلم يستطع أن يحقق مطامحه بسبب ذلك وبسبب ضعف حيلته فانتقم لاختفائه بصياغة هذا النموذج الفني الذي عرّى به واقع المجتمع العباسي وكشف عن مواطن الضعف فيه .

ولقد كان هذا الباب مناسبة ندرس فيها الكيفية التي تفاعل بها عقل الفنان مع بيئته من جهة ومع النماذج الانسانية والأدبية التي أثرت لديه من جهة أخرى ليصوغ لنا من كل ذلك أنموذج مقامته الفنية .

كذلك درسنا في هذا الباب التفاعل الحي بين بيئة الفنان وظروفه الخاصة ثم درسنا معاناته في صوغ نموذجيه بإضافة بعض النماذج الحية في واقع مجتمعه ، كشخصية المكدي أو الساساني المشرد ثم النماذج الخيالية في حكاية أبي القاسم البغدادي وفي مقامات الزهاد لينخرج في النهاية بنموذج المقامة الفنية التي تأثر فيها أيضا بأسلوب التعبير عند ابن دريد وابن فارس والجاحظ . ومن خلال ذلك كله رأينا كيف أقام الهمداني التوازن الكامل بين الشكل والمضمون في الصياغة الدرامية مستخدما أحدث ما وصلت اليه بلاغة عصره .

وتبين لنا من خلال هذا الباب أن المقامة لم تكن مجرد مقاييسات لفظية - كما هو شائع - بل هي في واقعها الحقيقي صياغة فنية درامية جديدة بأن تأخذ مكانها في أدب التراث لما تحفل به من ثورة في الشكل والمضمون في آن معا .

ثالثا :

بالرغم من أن المقامات الهمدانية كانت المرتكز الذي انطلقت منه المقامة الفنية فقد جاء الحريري في القرن الخامس ليطور الصياغة المقامية وذلك من حيث التأسك الدرامي والبناء اللغوي فاحتلت بذلك مقاماته - على نحو ما - مقامات الهمداني ثم أخذت تنتشر كالسيل العرم في بلاد المشرق والمغرب فكثرت شراحيها ودارسوها ومقلدوها .

وانطلاقا من هذا الواقع فقد جعلنا دراستنا في الباب الثاني تتركز في تتبع أهم الآثار المقامية التي ظهرت بعد بديع الزمان في المشرق والمغرب ومقارنتها بالنموذج الأصلي الذي

انطلق منه بديع الزمان أو الذي طوره الحريري ولقد تجمعت لدينا من هذه الدراسة حصيلة طيبة من المعلومات أكدت أن هذا الفن جاء بالفعل ليغطي الفراغ الناجم عن عدم تبلور فن القصة والمقالة في الأدب العربي القديم على نحو واضح . فقد رأينا بعض المقامين وإن احتفظوا بالعناصر الرئيسة في المقامة وهي الراوي والبطل والحدث والصتعة اللفظية فانهم قد تصرفوا في البناء فجعل بعضهم البطل متعددا وجعل بعضهم الراوي متعددا وجعل آخرون الحدث سلسلة من المواقف ، وهلم جرا .

وبصفة عامة فقد التقى جميع المقامين في التعبير عن ظاهرتين أساسيتين هما :

١ - الثورة الاجتماعية .

٢ - الصراع بين الخير والشر .

أما الثورة الاجتماعية فتركز في كشف العيوب الاجتماعية وتعريضها على نحو فاضح .

وأما الصراع بين الخير والشر فيتجلى فيما رآه بعض المقامين من أن بطل المقامة إنما يمثل صورة لمجتمع متلون فاسد ولذلك فقد أوجبهما التوبة على بطلهم في آخر المقامات كما فعل الحريري ، وقد رأينا الخلفي كذلك يكتب مقامات مناقضة لمقامات بطله يقوم ببطولتها الراوي الذي يظهر في مواقف خيرة تعكس مواقف البطل .

وبما أن المقامة جاءت لتسد الفراغ الناجم عن عدم وجود فن القصة والمقالة في الأدب العربي القديم فقد كان من الطبيعي أن نجد بعض المقامات لا تنقيد بالمدلول اللغوي القديم . وقد ظهر هذا الاتجاه بصورة واضحة عند الكتاب المغاربة الذين كانت مقاماتهم مجرد وصف للمشاهد أو الرحلة .

رابعا :

حاولنا في بابنا الثالث أن ندرس أثر المقامة في الآداب الاجنبية ولقد وجدنا علاقة مباشرة بين المقامات العربية والمقامات الفارسية المعروفة باسم ( مقامات حميدي ) فقد اعترف القاضي حميد الدين البلخي في مقدمة مقاماته بأنه اقتفى آثار الحريري وبديع الزمان . وعلى الرغم من أنه لا توجد مقامات أخرى مأثورة في الأدب الفارسي سوى مقامات حميدي كتبت تحت عنوان مقامة فلا يزال الأدباء الإيرانيون يرون آثار القاضي حميد الدين فيمن أتى بعده من الكتاب واضحة حتى انهم اعتبروا كثيرا من الأعمال الأدبية الهامة التي أتت بعده أعمالا مقامية وقد تطرقنا لها في موضعها من البحث .



## ملحق معجم لبعض المفردات الواردة في النصوص

(أ)	الابش أفت	الجامع ضعفت
(ب)	برد العجوز البحر بواسقها	برد يشتد في آخر الربيع من ضعف بصره أعاليها
(ث)	الشج المشج	الفصاحة الخطيب المفوه
(ج)	اجتبت الجديد جذع جرثومة جردقا جزاعا جعجعا انجعاف جلاجل	قطعت الأرض الصغير من البهائم أصل رغيفا أشد الحياة مرارة لا يطمئن من قعد عليه انصرع أجراس صغيرة

أما بالنسبة لأثر المقامة في الأدب الأوربي فلم نجد علاقة مباشرة تؤكد أن هذا الفن قد أثر في ( أدب الشطار الأسباني ) أو في غيره .

وهذا القول لا ينفي وجود علاقة ما في المضمون بين المقامات العربية وقصص الشطار ، فقد جاء كلاهما ثورة على الطبقة ( البورجوازية ) ، ولكن العلاقة في المضمون لا تقف دليلا قاطعا على نزعة التقليد والمحاكاة ، لأن المضمون قد يكون ذا طبيعة إنسانية يظهر في أي أدب من الآداب بصورة تلقائية . والمهم هو أن تكون الصياغة المقامية من حيث البناء الدرامي قد أثرت في أدب الشطار وذلك أمر وجدناه بعيد الاحتمال لأن المقامات العربية اعتمدت في بعض عناصرها على البلاغة العربية وهي تختلف اختلافا كبيرا عن البلاغة في كثير من اللغات الأوربية .

خامسا :

أما في العصر الحديث فلم تعد للمقامة فعاليتها القديمة فقد آل أمرها إلى التفتك والتحلل إلى عناصرها المختلفة التي ظلت تتكون منها وهي القصة والمقالة . فهذا العصر هو عصر ( التخصص ) في الأنواع ولم يكن من الممكن أن يقبل الذوق المعاصر فنا كفن المقامة يشتمل على عدة فنون في داخله ، فقد رأينا الفن المقامي في العصر الحديث يتفرع في مسالك عدة بعضه يمنح نحو أدب القصة وبعضه يمنح نحو أدب المقامة ، وبالطبع فقد ظل البعض يكتبون على النسق الكلاسيكي ولكنهم ما عادوا يصيرون خطأ من النجاح لأن هذا العصر هو عصر القصة والمقالة و( الكاريكاتور ) وهذه جميعها فنون تغني عن فن المقامة .

كلمة ختام :

وبعد فإذا كان لنا كلمة في ختام هذه الدراسة فعلينا أن نؤكد أن هدف البحث لم يقتصر على دراسة مسألة الشكل والمضمون في أدبنا المقامي فحسب بل إن الكشف عن هذا التراث المغمو كان في حد ذاته هدفا شريفا . ولعل بهذا العمل المتواضع قد كشفت النقاب عن جزء عزيز من تراثنا القومي لنبدا بعد ذلك أقلام المحققين في العمل فيه ونشره حتى يشبوا لأعداء الثقافة العربية الإسلامية أن العقل السامي لم يكن في يوم من الأيام دون العقل الأري في إبداع الألوان القصصية ذات المضامين الإنسانية العالية .

(ح)

تشا طكم  
عوجته  
العظيم البطن  
أمشي في الغليظ من الأرض  
شوك  
اليابس من التمر  
قضى  
أغضب أذاب

حنكم  
أحجنت العظم  
الحزقة  
أحزن  
حسك السعدان  
الحشف  
حم  
حش

(خ)

مرق  
أصحاب الحنكة والخبرة في  
الحرب  
حرية أو سلاح  
ضعيفا  
ثوب أسود مزق

خرديق  
المخاريق

المخرقة  
خفيا  
الخميسة

(د)

الليالي المظلمة  
المطاعن  
مساكن الرهبان الأولياء  
ضعيف  
المخادعة  
كنه  
حلي من فضة

الدألا  
الداعس  
الديورة  
مدرهم  
التدليس  
ديماسه  
دملج

(ذ)

متشقة  
حاد

ذله  
ذلن

(ر)

منازل موقوفة للفقراء  
والتصوفة  
الفار  
معظمها  
ثوب  
يجفف دمه  
كأيا على وجهه  
التكدير  
المكان يلاذ به

الرباط  
اليربوع  
رحاها  
زذن  
يرقا دمه  
راكعا  
الترنيق  
الريظ

(ز)

صيده

رزقه

(س)

السبلة ما على الشارب من  
الشعر  
الشديد  
اتخذ جارية  
الرجل خفيف الروح  
الغائط  
مدبر  
الناقة طويلة القوائم مسندة  
السنام  
جريش الشعر والقمح

السبل  
النساج  
تسرى  
السكوب  
السلاح  
مسلمهم  
السناد  
سويق

( ش )

المشبوب  
الشنخوب  
التشريق

الشقر  
الشمرتلي  
استشن الأديم  
المشاهد  
شوي  
شيصة

( ص )

صرورة  
صمى

( ض )

الضهل

( ط )

المطارف  
الطليح  
الطوف

( ظ )

الطائي

الشهم الذكي

الرأس

أيام التشريق ثلاثة أيام بمد

عيد الاضحى لأن اللحوم تشرق  
فيها

الأمر المتصل بالقلب المهم له

المجد السخي

يس

محاضر الناس

ما كان غير مفتل من الأعضاء

سمكة

عدم الزواج

شرب

قليل الماء

أردية من خز

التعب

العس

الاحق

اليحسوب

اعتمت

أعجت

العرجون

أعشو

أغطش

علفت

العلوق

الفرس الساج

فروز

تفساً

الفاغية

الفواقر

فل

فيح

الفياض

( ع )

النهر الشديد الجري صفة  
للكرم

اعتم قرى الضيف أبطاً به

فاعتم القرى أي تأخر

العجي الغذاء السيء

أصل الغدق الذي يعرج

ويبقى على

النخل يابساً بعد أن تقطع

عنه الشماريح .

أنظر

أصبح ضعيف البصر

أقامت

يعلق بالانسان من الدواهي .

( ف )

الذي يعدو عدواً شديداً

مت

تشقق

نور الحناء

الدواهي الشديدة فكأنها

تكسر فقر الظهر

منهزم

واسعة

الأمكنة الكثيرة الماء .

( ق )

الجلد  
الناقة التي استبان حملها  
دوية تشبه الخنزساء  
مكان القرطق  
متباعدة ما بين الساقين  
مالحا  
أسافلها  
يابسة  
النقرة في رأس الورك  
بها خرق مستدير  
نجم قيل وهو الرجل صاحب  
الدوحة

القد  
القارح  
القرني  
المقرطق  
قعواء  
قعاعاً  
قواعدها  
قفعة  
الفلت  
قوراء  
أقيال

( ك )

أشم  
الضعيفة الساقين  
نوع من كلاب الصيد من  
أحسنها وأخفها  
الستائر  
الذي يعمل في المرحاض  
تصنيف والصحيح الكريمة

أكرف  
كرواء  
كلاب سلوقية

الكلل  
كنافا  
الكهيمه

( ل )

أقام  
الفراد من الوساخة  
قشرته عن العظم

لب  
اللبود  
التحبت اللحم

المطاط

الالفاج  
أتلغ  
الموم  
لكاكا

ماش  
مالطوني  
المتر  
مخس  
مرس  
مومنا  
الميل

النباث  
النبط  
النجاد  
النخضات  
تشبا

النضج

نضاض

المنطق

تنقار الدرهم

نوء

( م )

أشد انخفاصاً من الغائط  
وأوسع  
الأفلاس  
اشتمل  
العذل  
زحاما

حب كرية الرائحة  
جادلوني  
النكاح  
محركة  
بكر  
أصابنا الموم وهو الجديري  
الابرة

( ن )

الأسرار  
الماء  
حمائل السيف  
لحم باطن القدم  
النشب العقار . المال الأصيل  
من الناطق والصامت .  
الأثر من الطيب يبقى في  
الثوب وغيره  
متحرك  
مكان النطاق  
ضربه  
عطاء

صفحة	الموضوع	الفهرس
٥	التعريف بفن المقامة	
١١	نشأة المقامة الفنية عند بديع الزمان	
١٣	البيئة العباسية وأثرها في فن بديع الزمان	
٣٣	شخصية بديع الزمان ودورها في الفن المقامي	
٤٩	المؤثرات الانسانية والفنية في صياغة المقامة البديعية	
٨٧	مقامات الهمداني	
١٢١	المقامة البديعية ومنزلتها في الاساليب النثرية	
١٣٥	ادب المقامة بين المشرق والمغرب بعد بديع الزمان	
١٣٩	مقامات المشاركة	

السحر

(٥)

حب الخنظل  
الأوائل  
الصعب

(١)

المواصل  
الستر  
الروضة الخضراء  
الثوب

النيرنج

هيده  
الهوادي  
الهضل

المواصي  
الوجاح  
الوديعة  
وصيدة

## الفصل الثاني

٢٦٧ ..... مقامات الاندلسيين والمغاربة

## الباب الثالث

٣١٣ ..... اثر المقامات في الاداب الاجنبية

## الفصل الأول

٣١٥ ..... اثر الفن المقامي في الادب الفارسي

## الفصل الثاني

٣٢٧ ..... اثر الفن المقامي في الادب الاوروبي

## الباب الرابع

٣٣٣ ..... فن المقامة في العصر الحديث

٣٨٧ ..... خاتمة

٣٩٥ ..... ملحق معجم لبعض المفردات الواردة في النصوص

٢٤٩٤٢٤